

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة أبي بكر بلقايد

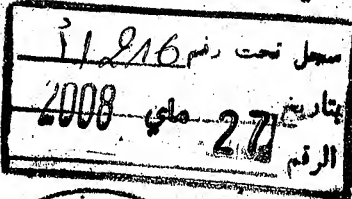
- تلمسان -

وزارة التعليم العالي

و البحث العلمي

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية

قسم اللغة و الأدب العربي



الموضوع

أسلوب التكرار في القصة القرآنية
قصة موسى - عليه السلام - نموذجاً

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير
في الأدب

إشراف أ. الدكتور:

- محمد عباس -

إعداد الطالبة:

- حفيظة عبد اوي -

السنة الجامعية:

1421هـ - 1422هـ

2000م - 2001م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَآلِقُ مَا
فِي يَمِينِكَ تَلْفَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ

صدق الله العظيم

سورة طه الآيتان: 68، 69

الإهداء

☞ إلى الذي أطبق جفنيه راحلاً، و همست في أذنه باكية فتذكّر الوعد و فتحهما من جديد.

☞ إلى صاحب العباءة البيضاء، والذي العزيز.

☞ إلى التي لم تحن ظهرها السنون، و لا هي غيّرت لون وجنتيها و قد أشرفت على السبعين، والدتي الغالية.

☞ إلى كلّ إخواني و أخواتي، خاصّة عزيزتي مريم التي عانت الكثير من أجلي، و رافقتني في مشواري الطويل مضحية بالغالي و النفيس.

☞ إلى الذي احتضرت كلماته، و اختزن دموعه في أعماقه إثر رحيل، والديه، فكتب الله لي لقاءه على أمر قد قدر.

☞ إلى التي لو سمعت قلبي يسمعها، و لو غابت عيناها تراها، الغالية "نسيمة دحاوي".

☞ إلى كل من أحبّ و أحترم.

☞ ثمّ إلى كلّ من يجد لذة حين يقرأ القرآن أو يستمع إليه .

أهدي هذا العمل المتواضع.

حفيظة . ع

شكر و تقدير

تحية إجلال و عرفان و تقدير للأستاذ الدكتور "محمد عباس"، الذي أتقدم إليه بالشكر الجزيل، و أعبر له عن كامل إمتناني على تعبهِ المضني، و على إسدائه النصيح، و حرصه على إعداد هذا البحث متابعة و توجيهها خالصين، فجزاه الله عني خير الجزاء.

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ صدق الله العظيم والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، سيدنا محمد بن عبد الله قدوة الأولين والآخرين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين.

أما بعد :

فالقرآن الكريم كتاب الله المعجز قام عليه كيان الأمة الإسلامية في مختلف الشؤون العامة والخاصة، وما انبثق عنه من علوم ومعارف، فإنه ما شغل كتاب مثله حيزا واسعا من إهتمامات الدارسين والباحثين والمؤرخين، وذلك لأكثر من سبب وداع وضرورة.

و لم تتوقف هذه البحوث والدراسات عند حدود المضامين والترجمة، بل تعدت ذلك، فكان القرآن الكريم فتحا هاما في ميدان اللغة، فلقد انكب فريق ضخم من علماء الأمة، على مدار التاريخ، قديما وحديثا، في جهد لا يعرف الكلل وتضحية جديرة بالإعجاب، على الإهتمام البالغ بفصاحته وبلاغته، فقدّموا دراسات وافية بأساليب ومناهج مختلفة، مكنت من معرفة وجه الإعجاز فيه، وإدراك ما فيه من خصائص البيان، ورغم براعة أسلوبه، وإنسجام تأليفه، وسهولة نظمه وسلامته، وعذوبته وجزالته، إلى أمثال تلك المحاسن التي أسالت على العرب الوادي عمرا، حتى حارت عقولهم، وقصرت عن بلوغ شأوه جهابذتهم وفحولهم، فاعترف له الأعداء بسحر بيانه، وقال فيه ذلك المتكبر الجاحد "الوليد بن المغيرة": "والله إنّ لكلامه لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمورق وإنّ يعلو ولا يعلو عليه، وما هو بقول البشر".

ولقد دعاني شعوري القوي إلى دراسة القرآن الكريم منذ صليتي الأولى بالجامعة في معهد اللغة العربية وآدابها، وظلّت أمنيّي أن أستكمل هذه الرغبة في نفسي وأنا أقرب من كتاب الله

بخشوع دائم، و روحانيّة غريبة تجذبانني إلى بلاغته و سحر بيانه، و حدث عندي تلاق بين ما كنت أتابعه من دراسة لنظم القرآن الكريم و بين ما كنت أسمعه من تلاوته في بيتنا على لسان والدي الذي كرّمه الله بحفظه و حمله عن ظهر قلب، فارتبط في وجداني القصص القرآني في مشاهد قدسيّة تعرض سير الأنبياء و الرّسل عليهم سلام الله، و تكرّرت أسماؤهم في العديد من الآيات و السّور، مع حقيقة الإيمان، و صدق الخبر و بلاغة البيان، و كان الإيقاع الأسلوبّي في سرد القصّة يتنوّع مع تنوّع الأحداث و القصّة واحدة، و هي تتماوج وسط بحر الإيجاز أحيانا و الإطناب أحيانا أخرى، و كان ذكر موسى - عليه السلام - يتكرّر في مقامات واسعة في القرآن الكريم إلى حدّ مائة و ستّة و ثلاثين مرّة في حركيّة عجيبة من النّسج القرآنيّ لقصّته مع قومه، أو في ذكره مع زمرة من الأنبياء و الرّسل عليهم السّلام جميعا.

و قد رأيت أن أدلي دلوي بين الدّلاء، و أضرب بسهم في هذا الميدان، و ذلك بتقديم دراسة في أسلوب التّكرار في القصّة القرآنيّة قصّة سيدنا موسى - عليه السّلام - نموذجا. و قد اقتضت طبيعة الموضوع أن أوزّعه على المحتويات التي تضمّنت أربعة فصول، تسبقها مقدّمة و تنتهيها خاتمة مع قائمة للمصادر و المراجع التي رصدت بها بحثي على قدر ما مسّه من مرجعيّة خاصّة و أخرى عامّة.

عاجلت في الفصل الأوّل قضيّة التّكرار في الدّرس اللّغوي، قاربت فيه موازنة علميّة لقضيّة التّكرار بين الجانب اللّغوي و النّحوي، ثمّ انتقلت إلى الحديث عن التّوكيد عند النّحاة فوجدته نوعين لفظي و معنوي.

بدأت باللفظي و عرضت لبعض ما ذكر عنه من مفاهيم، و أنّه يصلح في الحروف و الأفعال و الجمل في كلّ كلام تريد تأكيده، و مثلت لذلك بما ورد في الذّكر الحكيم و الحديث النبوي الشّريف من توكيدات، و ما جاء على لسان بعض الشّعراء من كلام مؤكّد، و ألفيت الضّمائر المتّصلة و المنفصلة، هي الأخرى، خاضعة للتّوكيد اللفظي جارية مجراه و إنتهيت إلى ذكر فوائد التّوكيد اللفظي و أنّ توكيد الشّيء غاية الكبري الإيضاح و البيان، ثمّ انتقلت إلى التّوكيد المعنويّ فعرضت لخلاصة ما دار حوله من مفاهيم و أنّه يجيء على وجهين أحدهما إثبات الحقيقة و رفع الجحاز و ثانيهما غايته الإحاطة و العموم.

أمّا ما يأتي منه لإثبات الحقيقة فهو ما تستعمل فيه لفظي النّفس و العين حين التّوكيد، و أمّا الذي يأتي للإحاطة و العموم فتستخدم فيه كلّ و أجمع و توابعها التي هي أكنع و أبصع و أبتع و قد

ذكرت من الأمثلة عن تأكيد المذكر و المؤنث، و المثني و الجمع ما يكفي لبيان ذلك كله، وأشرت بعد ذلك إلى الخلاف بين الكوفيّين و البصريّين حول تأكيد النكرة المحدودة و غير المحدودة مع التّمثيل الشعريّ.

و عاجلت في الفصل الثّاني قضية التّكرار بين بلاغة العرب و الأسلوب القرآنيّ، مشيرة إلى دلالة التّكرار عند البلاغيّين، و أنّ الكلام البشريّ يقتضي التّرديد لأنّ المستمع في غالب الأحيان موزّع بين الإستماع إلى ما يوجّه إليه من خطاب و بين مشاغله الدّاخلية، و هكذا فالتّكرار له أهمّيّته في عمليّة الاتّصال، و قد جعل بعض البلاغيّين التّكرار قسمين في اللفظ و المعنى معاً، و في المعنى دون اللفظ كإين الأثير، و جعله بعضهم الآخر ثلاثة أقسام : ما يتكرّر لفظه و معناه متّحد، ما يتكرّر لفظه و معناه مختلف، و ما يتكرّر معنى لا لفظاً كإين القيم الجوزيّة، و إستنطقت القرآن الكريم كونه خير دليل، كما عدت إلى ما جاء على لسان بعض الشعراء من توكيدات في بيان هاته الأقسام، و ما يندرج تحتها من أنواع أخرى. و إنتهيت من هذا الفصل إلى بيان الصّلة الوثيقة الّتي تجمع علم النّحو بعلم المعنى.

أمّا الفصل الثّالث فعرضت فيه لشموليّة التّكرار في القرآن الكريم، تحدّثت فيه عن التّكرار في القرآن الكريم، ثمّ عرضت لبلاغته و ما ذكره بعض العلماء و المفسّرين في هذا المجال كالإمام الفخر الرّازي (ت : 606 هـ) صاحب التّفسير الكبير، و الإمام الزّركشي صاحب البرهان في علوم القرآن ، و مثّلت لتلك البلاغة و الفصاحة ببعض ما ورد في آيه من السّور المتعدّدة، ثمّ حاولت أن أبين بعض أغراض التّكرار في القرآن الكريم كالتّأكيد، و التّعظيم و التّهويل، و التّنبية و غيرها ممّا لا يمكن حصره، و لا يسعنا المقام ههنا لبسطه.

ثمّ تحدّثت عن تكرار لفظة نفس و دلالاتها المختلفة في القرآن الكريم، و أنّ ورودها بتلك الكثافة يكمن في توظيفها في المعاني المختلفة و الدّلالات المتباينة. و إلى جانب لفظة "نفس"، إرتأيت اختيار لفظ العدد سبعة لكون الأسلوب القرآنيّ أثار ذكره في مقامات متعدّدة تماشياً مع استعمال العرب له منذ أمد بعيد للدّلالة على الكثرة، و أشرت إلى أنّ علماء النّفس المعاصرين قد فطنوا إلى أهميّة التّكرار في تثبيت المعاني حيث اعتمده أصحاب الدّعاية و الإعلام في بناء نظريّاتهم، و أشرت إلى بعض الألفاظ الّتي كثر ورودها في القرآن الكريم للتّعبير عن الحياة الاجتماعيّة كلفظي القرية و القرى، و المدينة و المدائن و لفظي أمة و أمم.

ثم انتقلت إلى معالجة التكرار في القصة القرآنية ذاكرة مفهوم لفظ قصة اللغوي و الإصطلاحي، حسب وروده في المعاجم العربية، و ما ذكره بعض المؤلفين عن القصة الفنية كخالد أحمد أبو الجندي صاحب "الجانب الفني في القصة القرآنية"، و الدكتور محمود البستاني صاحب "دراسات فنية في قصص القرآن" مع ذكر شواهد شعرية لتأكيد كل كلام يذكر عن القصة الفنية في الأدب العربي القديم.

ثم رحت أحاول تسليط الضوء على القصة القرآنية مشيرة إلى أنّ أحداثها لا يمكن أن يرتاب فيها مراتب، فهي كلّها صدق و واقعية، و أوردت بعض ما ذكر حول القصة القرآنية من مفاهيم، و أنّها أولاً و قبل كلّ شيء وسيلة من وسائل الدعوة.

بدأت بقصة آدم - عليه السلام - باعتباره أبو البشر جميعهم و ذكرت السور التي وردت فيها قصته مع حصر الآيات التي تضمنت الحديث عنه، ثم ذكرت المعاني المشتركة في جميع السور، و ذكرت بعد ذلك المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى، ثم عرضت لقصة سيدنا نوح - عليه السلام - و كيف أنّها وردت في القرآن الكريم موجزة أحياناً و مفصلة أحياناً أخرى، و فعلت الشيء ذاته مع كلّ من قصة سيدنا هود، و سيدنا صالح، و سيدنا إبراهيم - عليهم الصلاة و السلام - مع أقوامهم و كلّ ما ورد من تكرار في ذلك القصص كان بألفاظ فصيحة جزلة و عذبة.

و توقفت بعد هذا العرض عند بعض الأسرار الجليّة لأسلوب التكرار في القصص القرآني، كإثبات الوحي، و التأثير النفسي، و تثبيت السنن في القلب لأجل تقوية العقيدة، و إنذار المشركين و تخويفهم مما قد يلحقهم من عذاب جرّاء تكذيبهم، و غيرها من الأسرار التي يطول بنا المقام لو رمنا بسطها، و الذي يجدر بنا تأكيده. أنّ القصص القرآني و إن تكرر فلا ملل منه و لا اضطراب فيه، على غرار القصص البشري فإنّه في الغالب الأعم مضطرب التأليف، ممّل إذا ردد.

و أمّا الفصل الرابع و هو بيت القصيد في هذا البحث فقد افتتحته بذكر ملخص للقصة المراد دراسة التكرار فيها و هي قصة سيدنا موسى - عليه السلام - مدعّمة هذا الملخص بشواهد قرآنية من السور المختلفة التي وردت فيها القصة مفصلة متبّعة حياته منذ أن استقبلته الحياة إلى أن بلغ أشده و استوى.

ثم رحت أحصر السور التي إكتفت بالإشارة إلى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - بدء بسورة المزمل باعتبارها السورة الثالثة في ترتيب النزول، وإنهاء بسورة الصف باعتبارها السورة السابعة و المائة في ترتيب النزول، وانتقلت بعد ذلك لذكر السور التي تحدثت بإسهاب عن قصة سيدنا موسى - عليه السلام - مع محاولة حصر الآيات التي وردت فيها قصته - عليه السلام - حيث نجد على رأسها سورة الأعراف و هي أول سورة فصلت الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - و ينتهي حديثنا عن السور المفصلة للقصة بسورة المائدة، و هي آخر سورة في ترتيب النزول، و قد حاولت شرح و تحليل كل ما ورد في تلك السور متخذة من تفسيري الزمخشري و ابن كثير قبلة لي و منهاجا، و توصلت بعد كل ذلك إلى أنّ قصة الكليم موسى - عليه السلام - من أكثر قصص المرسلين ورودا في القرآن الكريم، و قد عمدنا إلى الترتيب النزولي في دراستنا التكرار لهذه القصة حيث يمكننا تبين مواطن الزيادة و النقصان، و نحن ما قصدنا التحلي عن الترتيب النزولي قبلا حين تحدثنا عن السور التي أوجزت الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - و إنما كان ميّغانا فصل الموجز منها عن المطنب.

و قد استشهد سيد قطب في تصويره ببعض السور جامعا بين ما أجمل الحديث عن قصة سيدنا موسى - عليه السلام - و ما فصله مراعيّا الترتيب النزولي، محاولا ذكر التفاصيل الواردة في بعضها و خلّو بعضها الآخر منها، و الإشارات التي وردت في بعض منها دون بعضها الآخر، و تبعه في ذلك محمود السيد حسن في رسالة الموسومة بـ : "روائع الإعجاز في القصص القرآني".

و بعد هذه الجولة مع قصة موسى في السور المتعددة الموجزة و المفصلة للحديث عنها أتينا إلى دراسة بعض التكرار في قصة موسى - عليه السلام - بنوع من الدقة في اختيار الآيات التي تكررت في غير ما موضع و الدالة على معنى واحد، و هذا ممّا لا يقدر عليه بشر مهما جال في علوم البلاغة و البيان و صال، و قد وجدنا القرآن الكريم يعرض في كلّ مرّة للصعاب التي واجهها سيدنا موسى - عليه السلام - و هو يحاول هداية قومه إلى ما فيه خيرهم و فلاحهم و نحن إزاءه مندهشون من البراعة، مذهولون من البيان، و كيف لا نتنابنا الدهشة، و كيف لا يأخذنا الدهول أمام هاته القصة التي نسجها من لا حدود لخياله.

و قد اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي في الفصول الثلاثة الأولى، و ملت عنه إلى المنهج التاريخي في الفصل الرابع حين تعاملت مع قصة سيدنا موسى - عليه السلام - محلّ الدراسة .

و قد أردت بهذه الدراسة تبين المهارة الأدبية العظيمة في أسلوب التكرار في القصّة
القرآنيّة، و أنّه أسلوب له لزوم أرفع من الإتهام و الملام، مرغوب فيه في اللّغة العربيّة و معروف
فيها منذ عهودها الأولى، و القرآن الكريم مثلها الأعلى و حجّتها البالغة، إنّما جاء في الذروة من
أساليبها بلاغة و إعجازا و سحرا.

و حسبي أن أذكر في هذا المقام أنّ قلّة المراجع المتعلّقة بهذا الموضوع، محلّ الدراسة،
و تشابهها هي من أهمّ العقبات الّتي اعترضت عملي، فكان الذهاب و الإياب بين مدينتي
"تلمسان" و "وهران" و الإتّصال ببعض الأساتذة الكرام السّبيل إلى الحصول عليها.

و لكن كنت أشعر بالتّقصير عن الإمام بدقائق هذا البحث، فقد زاد عجزني عن أساليب
التّعبير و أنا أتصل في كلّ لحظة بأستاذي المشرف "الدّكتور محمد عباس" صاحب الرّأي السّديد
و الفهم الثّاقب، الّذي كشف لي اللّثام عن كثير من الأمور العسيرة الّتي ما كنت لأفقهها لولا
توجيهاته، و الّذي ناصفني متاعب هذا البحث و لحظاته الكئيبة و تحمّل معي أعباءه، و لا يزال
يرعاه حتى خرج إلى الوجود؛ فلا يسعني و أنا أحتلي بنفسي في هاته اللّحظات الثّمينة إلّا أن أعلن
إكباري و امتناني و إحترامي له و جزاه الله عني كلّ الجزاء.

و إنّني لأرجو أن أكون بما بذلت من جهد، قد بلغت ما أردت حين نصّبت نفسي لهذا
العمل، حرصا على إبلاغ النّفع، و اعترافا بما تدين العربيّة كلّها للقرآن العظيم من حفظ و سموّ.
و الله الكريم، أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، خدمة للغة القرآن الكريم و الله
وحده الموفّق إلى الصّراط المستقيم.

الفصل الأول

التكرار في الدرس اللغوي

لقد أجمع معظم الدارسين على بيان الصلة الوثيقة التي تربط بين علمي النحو و المعاني، من حيث إشراكهما في موضوع الدرس و هو الجملة " فموضوع الدرس النحوي هو الكلمة مؤلفة مع غيرها، أو هو الجملة وتدرس الجملة فيه من حيث نوعها، و من حيث ما يطرأ لأركانها من تقديم و تأخير، أو ذكر و حذف، أو إضمار أو إظهار، و من حيث ما يطرأ عليها من إستفهام أو نفي أو توكيد"¹

أما علم المعاني، فقد عرفه السكاكي (626 هـ) في مؤلفه " مفتاح العلوم " حيث قال: " اعلم أنّ علم المعاني هو تتبّع خواصّ التركيب في الإفادة و ما يتّصل بها من الإستحسان و غيره، ليحتزّز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضيه الحال ذكره"² و نحن إذا أمعنا النظر في هذين التعريفين و قرأناهما قراءة ثانية، وجدناهما يبيّنان العلاقة القويّة التي تجمع العلمين، علم النحو و علم المعاني، فكلاهما يخدم المعنى و يؤدّيه، على أنّ هذه العلاقة " لا تتعدّى إلى الزّعم بأنّهما علم واحد"³؛ و إنّما هي علاقة تكاملية، أي أنّهما علمان متكاملان، و بإعتبار علم النحو أسبق إلى الوجود من علم المعاني فإنّ البلاغيّ يحتاج دوماً إلى الفهم النحوي ليصل إلى تخريج محكم للمعاني البلاغية المتعدّدة.

و إذا كان النحو صناعة علميّة بوساطتها تعرف أحوال كلام العرب، من جهة ما يصحّ و يفسد في التّأليف ليعرف صحيحها من فاسدها، فإنّ البلاغة أيضاً قد تكون صناعة في بعض أبوابها، كصناعة النحو تماماً. و خاصّة منها بلاغة أبي يعقوب السكاكي (626 هـ)، و الذين جاءوا بعده، بخلاف بلاغة الجاحظ (255 هـ)، و الإمام عبد القاهر الجرجاني (471 هـ) و غيرهما ممّن سبق السكاكي . و ذلك كما يبدو في قول أحد الدارسين : " إنّ تحليل الجرجاني لأمثلة القرآن الكريم و الشّعْر تحليلاً يجتمع فيه العقل و الذّوق ، و يستعين فيه بالحسّ و العلم، بل إنّ الجرجاني يرى أنّ الذّوق شرط لإدراك ما يريد من جوانب البلاغة، و من لم يؤت الذّوق، فلن يكشف عن بصره حجاب التفاضل بين جيّد الكلام و رديئه، و لن يدرك أسرار الجمال في نظم

¹ مهدي المخرومي " في النحو العربي نقد و توجيه"، المكتبة العربية، بيروت، ط: 1، 1964 م، ص: 28

² محمد بن علي السكاكي " مفتاح العلوم"، تحقيق: د. أحمد مطلوب، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، د. ط، د. ت، ص: 70

³ الطاهر قطبي " الإستفهام بين النحو و البلاغة"، جامعة حلب، رسالة ماجستير مخطوط من قسم اللغة العربيّة، كليّة الآداب، 1987م، ص: 03

الكلام"⁴، و مع ذلك فإنّ علم النّحو ظلّ مرافقا للبلاغة في مرحلة الذّوق هذه فعبد القاهر يصرّح بهذه العلاقة بين هذين العلمين و يعتبر " أنّ صلب البلاغة هو النّحو ، و تفرض النظرة المنطقيّة سلطانها كذلك على منهج البلاغة، ما دام النّظام اللّغوي نحواً ، و مدار هذه اللغة قائم على النّظم و على الفروق الّتي من شأنها أن تكون فيه، و المزيّة دائماً ترجع إلى النّظم، و توحي معاني النّحو فيه، لأنّ النّظم مراعاة ما يقتضيه النّحو"⁵.

و لعلّ أهمّ ما يتداخل فيه العلمان هو موضوع الأساليب، و منه أسلوب التّكرار، و هو محلّ الدّراسة و الّذي يمثّل جانباً كبيراً من هذا التّداخل، فهو شركة بين العلمين في دراسات النّحويّين و أهل المعاني، فهو عند النّحاة -يعرف بالتّوكيد- " ظاهرة لغويّة يتبيّنون فيها أثر العوامل، بينما يرمي البلاغيّون مقام الخطاب أو نفسيّة السّامع شكّاً و إنكاراً أو تكذيباً"⁶.

هذا من حيث الجانب الإصطلاحي أمّا ما ورد عن التّوكيد لغة فقد ذكر ابن فارس في معجمه : " أكّد : الهمزة و الكاف و الدّال ليست أصلاً لأنّ الهمزة مبدلة من واو، يقال وكّدت العقد، و وكّد كلمة تدلّ على شدّ و إحكام، و أوكد عقدك أي شدّه، و الوكاد جبل تشدّ به البقرة عند الحلب، و يقولون وكّد وكده إذا أمّه و عني به"⁷.

وجاء في لسان العرب لابن منظور في مادّة "و ك د" : " وكّد العقد و العهد: أوثقه، و الهمز فيه لغة. يقال : أوكدته و أكّدته و أكّدته إيكادا ، و بالواو أفصح، أي سدّدته، و يقال : وكّدت اليمين و الهمز في العقد أجود ، و تقول : إذا عقدت فأكّد، وإذا حلفت فوكّد و قال أبو العباس: التّوكيد دخل في الكلام لإخراج الشكّ و في الإعداد لإحاطة الأجزاء ، و من ذلك تقول : كلّمني أخوك فيجوز أن يكون كلّمك هو أو أمر غلامه بأن يكلمك ، فإذا قلت كلّمني أخوك تكليما لم يجز أن يكون المكلّم لك إلّا هو"⁸ و في كلّ هذه المعاني دلالة على التّأكيد .

⁴ مازن المبارك " الموحز في تاريخ البلاغة "، دار الفكر، دمشق، ط: 2، 1400 هـ - 1979 م، ص : 95

⁵ صالح بلعيد " التراكيب النّحويّة و سياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني " ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر، 1994 م، ص : 43

⁶ الجويني مصطفى الصّاوي " البلاغة العربيّة تأصيل و تجديد "، منشأة المعارف ، الإسكندريّة، د.ط، 1985 م، ص: 69

⁷ ابن فارس " معجم مقاييس اللّغة " مادّة (أكّد ، وكّد)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979 م، ص : 72

⁸ ابن منظور " لسان العرب "، دار صادر، بيروت، ط : 3، 1414 هـ - 1994 م، المجلد الثالث ، ص : 466

وجاء في كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : "وكّد وكّدت القول والفعل و أكّدتّه : أحكمته. و السّير الذي يشدّبه القرموس يسمّى التّأكيد، و يقال توكيد و الوكاد: حبل يشدّ به البقر عند الحلب، قال الخليل: أكّدت في عقد الإيمان أجود و وكّدت في القول أجود، تقول إذا عقدت أكّدت و إذا حلفت وكّدت . و وكّد وكّده إذا قصد قصده، و تخلق بخلقّه"⁹

و الملاحظ من خلال استعراضنا للمادّة التعريفية "لأكّد"، أنّها و وكّد بمعنى واحد، وإنّما كان القصد من وراء استعمال أسلوب التّوكيد هو تأكيد المؤكّد و إبعاد السّهو و النسيان. و لعلّ خير من عرف التّأكيد أو التّوكيد صاحب الطّراز حيث يقول: " و اعلم أنّ التّأكيد تمكين الشيء من النفس و تقويّة أمره، و فائدته إزالة الشّكوك و إمطة الشّبهات عمّا أنت بضدّه، و هو دقيق المآخذ كثير الفوائد."¹⁰

و تختلف درجة القوّة و الضّعف في أساليب التّوكيد، و هذا بحسب أحوال المخاطب، و مدى استعداده لتقبّل الحديث و استساغته و لذلك : " ينبغي أن يقتصر من التّركيب على قدر الحاجة، فإن كان خالي الذّهن من الحكم و التّرّدّد فيه استغنى عن مؤكّدات الحكم ، و إن كان متردّدا فيه طالبا له حسن تقويته بمؤكّد، و إن كان منكرا و جب توكيده بحسب الإنكار"¹¹ و التّوكيد يثبت الشّيء في النفس و يقوي أمره ليزيل من نفس المخاطب ما يخالجهما من شكوك و شبهات.

و يرى الرّمحشيري (ت : 538 هـ) أنّ " جدوى التّأكيد أنّك إذا كرّرت فقد قرّرت المؤكّد ما علق في نفس السّامع و مكّنته في قلبه و أمطت شبهة بما خالجه أو توهمّت غفلة عمّا أنت بضدّه فأزلته"¹² و تبعه في هذا الرّأي ابن بعيش (ت: 643 هـ) و أقرّ أنّ جدوى التّوكيد هو تمكين المعنى في نفس المخاطب وإزالة المخاطب و إزالة الغلط في التّأويل¹³

⁹ الراغب الأصفهاني "المفردات في غريب القرآن"، تحقيق : محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، د.ت، ص : 834

¹⁰ يحيى بن حمزة العلوي "الطّراز"، مطبعة المقتطف بالقاهرة، 1322 هـ - 1914 م، الجزء الثاني، ص : 176

¹¹ الخطيب القزويني "التلخيص في علوم البلاغة"، ضبطه و شرحه الأستاذ : عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ص: 41

¹² الرّمحشيري "المفصل في علم العربية"، دار الجيل، بيروت. لبنان، ط : 2، د.ت، ص: 111، 112

¹³ ابن يعيش "شرح المفصل"، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ط، د.ت، ج : 2، ص: 39

و نحن إنّما إقتصرنا على هذا الضرب دون "التوكيد بالأداة" لأنّه أقرب إلى ما نحن بصدده
دراسته ، فضلا عن أنّنا لا نودّ ههنا تفصيل القول في الأدوات التي يوكّد بها؛ و هي ليست من
مطالب بحثنا.

و جدير بنا أن نلتفت إلى بعض ما قيل في مفهوم التوكيد بغير الأداة ، فقد ذكر بعضهم
أنّ:

" التوكيد؛ أو التأكيد : تكرير يراد به تثبيت أمر المكرّر في نفس السّامع نحو: جاء عليّ نفسه،
و جاء عليّ عليّ "17 فكأنّ السّامع يكون لديه ريب فيأتي التوكيد ليزيل عنه هذا الشكّ ، و هذا
ما يوكّده ابن أبي الربيع(ت: 688 هـ) بقوله " التوكيد : تمكين المعنى في نفس السّامع و إثبات
الحقيقة، و رفع المجاز "18 ، و بذكر التأكيد ترفع كلّ تأويل أو احتمال.

و ذكر آخر أنّ التوكيد : " تابع يقصد به كون المتبوع على ظاهره دون تجوّز أو حذف
مثل : نجح الطّلاب كلّهم و رأت الأمير نفسه "19 وفيه تأكيد عن عدم تجاوز معنى التّابع.
و نحن نرى أنّ هاتيه المفاهيم وإن اختلفت في طريقة التعبير، فإنّها تصبّ في قالب واحد،
و تدلّ على معنى ثابت معبر عنه بألفاظ مختلفة، و التوكيد نوعان : توكيد لفظي و آخر معنوي.

أ- التوكيد اللفظي:

ذكر سبويه أنّ اللفظ إذا كرّر كان توكيدا²⁰ ، وقد استحسن هذا التكرار في موضع،
و استقبّحه في آخر، فإذا ورد الإسم المكرّر في جملة واحدة فهو مستقبّح، أمّا إذا جاء في جملة غير
الأولى فقد استحسنه، و مدار الحسن و القبح عنده الحاجة و عدمها إلى التكرار؛ فإذا قلنا: زيد
عاتبته لا يلتبس الضمير بغير زيد، بخلاف ما إذا كان الإسم في جملة أخرى، فلو ذكر الضمير بدلا
منه لأدّى إلى اللبس بشخص آخر، فتكرير الإسم ههنا حسن لأنّه قصد به التوكيد و التّقرير²¹.

¹⁷ محمد محمد حسن شرّاب "معجم الشّوارد النّحويّة و الفوائد اللّغويّة"، دار المأمون للتراث، ط: 1، 1411 هـ - 1990 م، ص: 221

¹⁸ ابن أبي الربيع عبيد الله القرشي الشّيبلي السّبّتي "البسيط في شرح جمل الزّجاجي"، تحقيق و دراسة : د. عبّاد بن عبده الشّيبّتي، الشّعر الأوّل،
دار الغرب الإسلامي ، بيروت. لبنان، ط: 1، 1407 هـ - 1986 م، ص: 361

¹⁹ محمد فهم أبو عبيد "قطوف من النّحو" د.د، بيروت، د.ط، 1979 م، ص: 31

²⁰ ينظر: سبويه "الكتاب"، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل، بيروت، ط: 1، 1411 هـ - 1991 م، ج: 1، ص: 227

²¹ ينظر: حسن عبد القادر "أثر النّجاة في البحث البلاغي"، دار نهضة مصر للطّبع و النشر، القاهرة، الفجالة، د.ط، 1970 ،

و يعرف ابن مالك التوكيد اللفظي بأنه : " إعادة اللفظ أو تقويته بموافقة معنى " ²².

أمّا عبده الرَّاجحي فيذكر أنّ التوكيد اللفظي : " هو تكرار المؤكّد بلفظه، أو بما في معناه، و يعرب في كلّ حالاته توكيدا لفظيا تابعا للمؤكّد في الإعراب دون أن يكون له تأثير في شيء بعده فتقول: الإجتهاؤ الإجتهاؤ طريق النجاح " ²³.

و في هذا دلالة على معنى واحد، و هو كون التوكيد تابع ليؤكّد متبوعه من دون زيادة أو نقصان، و من دون تأويل أو احتمال.

و هذا النوع من التوكيد يصلح في الحروف، و الأفعال، و الأسماء و الجمل و في كلّ كلام تريد تأكيده.

أمّا التوكيد بالحرف فمنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِئْسَ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ²⁴، ففي هاته الآية توكيد لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ الْجَنَّةُ﴾، لأنّ الحرف لا يمكننا تأكيده من غير إعادة ما دخل عليه إلّا ضرورة ²⁵، و في تكرار " في " تأكيد لما ذكر قبلا و هو قوله تعالى في " الجنة ".

و التوكيد بالحرف إمّا أن يكون بذكر مرادفه كقول الشاعر :

و قلن على الفردوس أوّل مشرب .: أجل جبر كانت أبيحت دعائره ²⁶

حيث أكّد الشاعر " أجل " بمرادفها " جبر "، يقول ابن النّاطم في هذا المضمّنار: " و أمّا الحرف غير الجوابي فلكونه كالجاء من مصحوبه لا يجوز في الغالب أن يؤكّد إلّا و مع المؤكّد مثل الذي مع المؤكّد أو مرادفه، كقولك: إنّ زيدا إنّ زيدا فاضل، و في الدّار في الدّار زيد. فإن شئت

²² ابن مالك "تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد"، حققه و قدّم له: محمّد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، د.ط.

1388هـ - 1868 م، ص: 166

²³ عبده الرَّاجحي "التّطبيق النّحوي"، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، د.ط، 1979 م، ص: 389

²⁴ سورة هود، الآية: 108

²⁵ ينظر: ابن عصفور الإشبيلي "شرح جمل الرَّاجحي"، الشّرح الكبير، تحقيق: د. صاحب أبو جناح، د.ط، د.ت، ج: 1، ص: 262

²⁶ أبو النّاطم أبو عبد الله بدر الدّين محمد بن الإمام العلامة جمال الدّين محمد بن مالك صاحب الألفية "شرح ألفية ابن مالك"، منشورات ناصر خسرو، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت، ص: 511 و الشّاهد فيه قوله: "أجل جبر" لأنّ كليهما بمعنى الإيجاب. ذكرها معا للتأكيد، كأنّه قال: أجل أجل أو جبر جبر.

قلت: إنّ زيدا إنّهُ فاضل، و في الدّار فيها زيد، و يتّصل الحرف المؤكّد بضمير ما اتّصل بالمؤكّد ،
 لأنّه بمعناه²⁷ كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْخِيزَانِ شَقَمَا فَفِي الدَّارِ لَهُمَا زَيْدٌ وَشَيْقٌ﴾²⁸
 و إمّا بتكراره نحو قول جميل العذري:

لا، لا أبوح بحبّ بثنة إنّها :. أخذت عليّ موثقاً و عهداً²⁹

بتكرار لا في أوّل البيت، و نحن لن نمرّ على هذا البيت دون وقفه، و إنّما نحاول أن نذكر
 بعض ما قيل حوله. فقد ذهب النّحاة إلى القول بأنّ الحرف (لا) أكّد بتكراره ، و لا نحسب أنّ
 (لا) الأولى مرادفة للثانية من حيث الوظيفة، فالأولى حرف جواب، أمّا الثانية فهي أداة نفي .
 و لو كانت الثانية جوابيّة لما استقام معنى البيت الشعري، و لكان المعنى المستنبط مخالفاً لما أراده
 الشّاعر.

و لعلّ ما نفهمه إذا ما حاولنا أن نقرأ البيت قراءة أخرى ، أو بالأحرى أن نحول الشّطر
 الأوّل منه إلى سؤال و جواب فنسأله نحن: هل تبوح بحبّ بثنة (بثينة)؟ ؛ و يجيب هو : "لا" ثمّ
 يصمت قليلاً، و يستأنف جوابه قائلاً: لا أبوح بحبّ بثنة إنّها أخذت عليّ موثقاً و عهداً.
 فلو اصطنع النّحاة لأنفسهم علامات للتّصيص، لوجد القارئ نقطة للوقف بعد (لا)
 الأولى ، و لأدركوا أنّ (لا) هذه بنفسها تكون جملة مفيدة يستحسن في تنعيمها أن نقف عليها
 لتمام الفائدة " و لما تورّطوا في اعتبارها حرف نفي مؤكّداً توكيداً لفظياً بحرف على مثل
 صورته³⁰

و ممّا يلاحظ أنّ الاختلاف بين أن تكون (لا) حرف نفي مؤكّداً ؛ أو جملة كاملة الإفادة
 يحسن السّكوت عليها واضح لا غبار عليه.

الظاهر أنّنا قد أفضنا الحديث حول هذا البيت على غرار غيره من الأبيات السابقة، ذلك
 أنّه نال حظاً وفيراً عند معظم النّحاة القدامى و المحدثين، و لعلّ حظّه قد اكتمل معنا، و الشّيء

²⁷ أبو النّازم "شرح ألفيّة ابن مالك"، ص : 511

²⁸ سورة هود، الآية : 106

²⁹ د: عبد الهادي الفضلي "مختصر النّحو"، دار الشّروق للنّشر و التّوزيع الطّباعة، جدّة، ط : 13، 1408 هـ. 1988م ص : 178

³⁰ تمام حسن "اللغة العربية معناها و مبناها"، دار اتّفاة ، الدّار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت، ص : 228

الذي نودّ أن نشير إليه أنّ الدكتور تّمام حسان قد اعترف بخطأ النّحاة القدامى في فهمهم لبعض القضايا اللغوية و هو موقف غاب عن كثير من اللغويين المحدثين.

و من التّوكيد بالفعل قوله تبارك و تعالى : ﴿فَمَهَّلَ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويِدًا﴾³¹ حيث ذكر عزّ وجلّ الفعل " مهّل " مرّتين حين خاطب الرّسول صلّى الله عليه و سلّم بأن يمهّل الكافرين ، و في تكرار هذا الأمر توكيد للرّسول صلّى الله عليه و سلّم بامهال الكافرين عسى أن يتوبوا إلى الله و يكفّوا عن طغيانهم و كفرهم.

يرى الكرمانى أنّ في هاته الآية تكريرات عدّة حيث يقول : " هذا تكرار و تقديره : مهّل مهّل مهّل، لكنّه عدل في الثّاني إلى (أَمَهُلْ) لأنّه من أصله و بمعناه كراهة التّكرار، وعدل في الثّالث إلى قوله : (رُويِدًا) لأنّه بمعناه . أي إروادا ثمّ إروادا. ثمّ صغّر إروادا تصغير التّرخيم فصار رويدا³² و يذكر الزّمخشري في تفسيره لهاته الآية : " (فَمَهَّلَ الْكَافِرِينَ) يعني لا تدع بهلاكهم و لا تستعجل به (أَمَهُلُهُمْ رُويِدًا) أي إمهالا يسيرا و كرّر و خالف بين اللفظين لزيادة التّسكين منه و التّصيير³³

و ذهب بعضهم إلى أنّ رويدا صفة مصدر محذوف، أي إمهالا رويدا فيكون التّكرار مرّتين، و هذا من عجائب و أسرار الأسلوب القرآني حيث يصلح موجزا كان أم مسهبا. أو كقولك مثلا : اجلس اجلس، أو كقول الشّاعر:

ألا فاسلمي ثمّ اسلمي ثمّ اسلمي .: ثلاث تحيّات و إن لم تكلمي³⁴

و الغرض من هذا المبالغة في الدّعاء لها بالسّلامة.

و أمّا توكيد الإسم فمثاله ما ورد في الحديث عن عائشة - رضي الله عنها- أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قال : " أيّما امرأة لم ينكحها الولي، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل،

³¹ سورة الطارق، الآية : 17

³² محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى " البرهان في مثشابه القرآن "، قدّم له و راجعه على أصوله و قوّم نصوصه و بيّنه و عقّب عليه و وضع لها دراسة: أحمد عزّ الدين عبد الله حلف الله ، دار الوفاء للطباعة و النّشر و التّوزيع ، النّصيرة، ط: 1 ، 1411هـ، 1991م، ص: 359، 360

³³ الزّمخشري " الكشاف "، تحقيق و تعليق: محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط: 2، 1397هـ، 1977م، ج: 6، ص: 225

³⁴ ابن السّراج البغدادي "الأصول في النّحو"، تحقيق د: عبد الحسين الفتلي، ط: 1، 1405هـ، 1985م، ج: 3، ص: 19

أبو تمام " ديوان الحماسة "، شرح العلامة التّبريزي، مكتبة النّوري، دمشق، د.ط، د.ت، ج: 2، ص: 144

فنكاحها باطل، فإن أصابها فلها مهرها بما أصاب منها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له³⁵.

و قد كان بالإمكان الإقتصار على ذكر باطل مرتين، ليفهم السامع أنّ الزواج من هاته المرأة غير مباح بل قل حرام، إلا أنّ ذكره لكلمة باطل ثلاث مرّات لم يأت هكذا، وإنّما الحاجة يقتضيها الإسلام، ولعلّه من باب الإجتهد في التأويل أن نقول: ربّما كانت الحكمة من تعداد الكلمة في ثلاثتها "باطل باطل باطل" كون العدد ثلاثة مقدّس و معظّم في الإسلام، و إلاّ فلماذا كان من فرائض الوضوء مثلاً : غسل الوجه ثلاثاً، و غسل اليدين ثلاث مرّات إلى غيرها من فرائض الوضوء.

و من التوكيد بالإسم قول الشاعر في باب التحذير:³⁶
فَيَاكَ يَاكَ المراء فإنه: إلى الشرّ دعاء و للشرّ جالب
حيث كرّر الشاعر يأك مرتين، ليؤكد للمتلقّي أنّ المراء إنّما يؤدّي إلى الشرّ، و يجلبه.
و أمّا توكيد الجملة فكقول الرّاجز:³⁷

أيا من لست أقلاه : و لا في البعد أنساه

لك الله على ذاك : لك الله لك الله

فهو لا يكره هذا الشخص الذي رحل عنه، و لا يستطيع أن ينساه، وإنّما يتعذّب بحبه، و يتعذّب ببعده معاً، فيوكل أمره لله، وعلى الرّغم من كلّ معاناته فلا تظنّ أنّ الحبّ يدعو لمحجوبه بالسوء مهما وصل به الشّوق، و إنّما يحاول دائماً أن يلتمس له أعذاراً، وما سمعنا بمحبّ مخلص إلاّ و اختيار الموت فداء لمن أحبه على أن يمسه بأذى كقول ليلى العامريّة³⁸

توعّدني قومي بقتلي و قتله : فقلت اقتلونني و دعوه من الغدر

³⁵ عبد العظيم بن بدوي "الوجيز في فقه السنّة و الكتاب العزيز"، قدّم له الشّيخ محمّد صفوت نور الدين، و الشّيخ محمد صفوت السّوداني، نشر دار الإمام مالك، الجزائر، طبع بالإتفاق مع دار ابن رجب بمصر، ط: 2، 1417هـ، 1996م، ص: 274.

³⁶ عبد القادر بن عمر البغدادي "خزانة الأدب و لبّ كتاب لسان العرب"، تحقيق و شرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي للطباعة و النّشر، القاهرة، 1388هـ، 1968م، ج: 3، ص: 63.

³⁷ د. إميل بديع يعقوب "المعجم المفصّل في شواهد النّحو الشّعريّة"، دار الكتب العالميّة، بيروت، لبنان، ط: 1، 1413 هـ، 1992م، ج: 2، ص: 1058.

ص: 1058، أبو الفضل جلال الدّين السيوطي "جمع الهوامع"، ج: 2، ص: 125.

³⁸ لم أعر عليه في المصادر الأدبية و هو من مخزوتي الدّهني.

و الشاهد في قول الرّاجز : التأكيد بالجملة لقوله: " لك الله لك الله"، حيث أكدت الجملة الإسمية بإعادة لفظها .

و من تأكيد الجملة قولك : " الله أكبر الله أكبر"، غير أنّ بعض النحويين لم يعدّوا قول المؤذن : "الله أكبر الله أكبر" من تأكيد الجملة كابن هشام الأنصاري³⁹ و حجّته في ذلك أنّ "الله أكبر" الثانية لم يؤت بها لتأكيد الأولى، و إنّما جيء بها لإنشاء تكبير ثان، و هو بخلاف قول المؤذن :

" قد قامت الصّلاة، قد قامت الصّلاة"، فالجملة الثانية ههنا خبر ثان مؤكّد للخبر الأوّل، و هذا غير الذي أورده ابن جنيّ في خصائصه⁴⁰، حين تحدّث عن تأكيد الجملة.

و مثال ما هو من الجمل أيضا قوله تعالى: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁴¹ فقوله عزّ و جلّ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تأكيد و بيان لقوله تعالى: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ و مثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁴² فقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، و قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ﴾ تأكيد ثان أبلغ من الأوّل، لأنّ الجاهل إنذاره كعدمه، و من ختم الله على قلبه و على بصره فلا يؤمن إلّا قليلا⁴³

فأمّا التوكيد في شبه الجملة فنحو قول الشاعر⁴⁴:

فتلك ولّة السّوء قد طال مكثهم .: فحتّام حتّام العناء المطوّل

³⁹ ينظر: ابن هشام الأنصاري "شرح قطر الندى و بلّ الصّدى"، سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر الندى تأليف: محمد عبي الدّين عبد الحميد، دار رحاب للطباعة و النّشر، د.ط، د.ت، ص: 318

⁴⁰ أبو الفتح عثمان بن جنيّ "الخصائص" حقّقه: محمد علي النّجّار، دار الهدى للطباعة و النّشر، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت، ج: 3، ص: 106، 107، 108

⁴¹ سورة البقرة، الآية: 01، 02

⁴² السّورة نفسها، الآيتان: 6، 7

⁴³ ينظر: عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" قرأه و علّق عليه: أبو فهر محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بمجدة، مكتبة الخانجي

للطباعة و النّشر و التّوزيع، القاهرة، ط: 3، 1413هـ. 1992م، ص: 227، 228

⁴⁴ د: إميل بديع يعقوب "المعجم المفصّل في شواهد النّحو الشعريّة"، ج: 2، ص: 720

الشاعر مستاء من الحكام، لذلك نجده يأمل أن يعتزلوا السلطة لينتهي عناؤه و عناء قومه،
و في البيت شاهدان؛ الأول قوله: " فحتم " حيث استدلل البصريون بهذا القول للدلالة على أن
"حتى" جارة دائما، و النصب بعدها عندهم بأن مضمرة، بدليل حذف ألف "ما" الإستفهامية
بعدها، و ثانيهما قوله: " فحتم حتم " حيث كرر "حتى" و "ما" للتأكيد اللفظي⁴⁵ و للتعبير عن
معاناته و استيائه من معاملة قومه القاسية .

و لقد اتضح لنا من خلال الدراسة أن التوكيد اللفظي نوعين: أحدهما : يكون بتكرار
اللفظ ذاته كقوله تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا دُخِّنَتْ الْأَرْضُ دَخَانًا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا
صَفًّا﴾⁴⁶، إن هاتين الآيتين قد استشهد بهما النحاة حين الحديث عن التوكيد اللفظي في قوله
تعالى : ﴿دَخَانًا دَخَانًا﴾ و ﴿صَفًّا صَفًّا﴾، إلا أن مفسري القرآن الكريم لم يذكروا أثناء تفسيرهم
لهاتين الآيتين أن فيهما توكيدا، وإنما يرون أن ﴿دَخَانًا دَخَانًا﴾ وصف للأرض إذا ما زلزلت
و أخرجت أبقاها، وأن قوله تعالى: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ فيه دلالة على أن الملائكة كانت ذات صفوف
عديدة.

فالزخشرى مثلا نجده يقول في تفسيره لهاتين الآيتين: " (دَكَا دَكَا) دَكَا بعد دك كقوله :
حسبته بابا بابا، أي كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا، (صفا صفا) ينزل ملائكة كل سماء
فيصطفون صفا بعد صف محققين بالجن و الإنس"⁴⁷ و كقول الشاعر:⁴⁸

فأين إلى أين النجاء يغلتي :. أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس

أراد إلى أين تذهب إلى أين، أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس، والثلاثة من توكيد
المفردات؛ أمّا الأول فأين مجروره بإلى المحذوفة، وهو خير مقدّم و إلى أين توكيده، أتاك الثانية

⁴⁵ المصدر نفسه ، ج: 21، ص: 720

⁴⁶ سورة الفجر، الآيتين: 21، 22

⁴⁷ الزخشرى "الكشاف"، تحقيق و تعليق : محمد مرسي عامر، دار المصحف، د.ط، د.ت، ج : 6، ص : 232

⁴⁸ بهاء الدين عبد الله بن عقيل "شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك"، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة و النشر، د.ط،

1394هـ. 1974م، مج : 2، ج : 3، ص : 214

توكيد و اتصل به ضمير المفعول ليوافق الأول (احبس احبس) الأمر الثاني توكيد للأمر الأول و يجوز اعتباره من توكيد الجمل⁴⁹.

و الشاهد في هذا البيت على التوكيد اللفظي بتكرار "أتاك و احبس"، و بما أن التكرار أو بالأحرى التوكيد اللفظي وجد في الشطر الثاني من البيت، فإن معظم النحويين قد استشهدوا بهذا الأخير دون الشطر الأول؛ كجمال الدين الفاكهي في "شرح الحدود النحوية" و محمد محي الدين عبد الحميد في "شرح بن عقيل"، و لم ينسب لقائل معين بل نجدهم يقولون قبل الاستشهاد به قال الشاعر أو قوله أما ابن حني فقال قبل ذكر البيت: "هذا رجل يدعو لابنه و هو صغيرو قال" ⁵⁰ ثم يورد البيت.

و منه كذلك قول الشاعر: ⁵¹

بئس مقام الشيخ أمرس أمرس: إمّا على قعوا مّا أقعنسس

و الشاهد في البيت قول الشاعر أمرس أمرس.

و الثاني باللجوء إلى ظاهرة الترادف كقولنا: "أنت بالخير حقيق قمن" و لولا ذكرنا قمن الذي هو مرادف حقيق لقلنا: "أنت بالخير حقيق حقيق"، أو قلنا: "أنت بالخير قمن قمن" فقمن تأكيد لحقيق لأنه بمعناه، فقمن بمعنى حقيق، و يجوز في ميمه الكسر و الفتح⁵².

فالتوكيد اللفظي إذن هو تكرار اللفظ ذاته سواء كان حرفاً، أم فعلاً، أم اسماً، أم جملة، أم شبه جملة؛ و لقد مثلنا لكل ذلك فيما سبق، و تخضع الضمائر المتصلة هي الأخرى للتوكيد اللفظي قال ابن مالك: ⁵³

⁴⁹ ينظر أبو الفضل جلال الدين السيوطي "معجم المصنفين" عني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة للطبع و النشر، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ج: 2، ص: 11

⁵⁰ أبو الفتح عثمان بن حني "الخصائص"، ج: 3، ص: 103

⁵¹ الشيخ الإمام أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعيد الأنباري "الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيّين"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط: 4، 1380 هـ. 1961 م، ص: 70

تقول: مرس الحبل إذا نشب في البكرة عند الاستقاء، و الإمراس إخراجها إذا نسب و إعادته إلى مجراه فيها، القعو: البكرة، أقعنسس و هو دخول العنق الصدر يريد بئس حال الشيخ الذي لا يوقر.

⁵² ينظر: أبو الفضل جلال الدين السيوطي "معجم المصنفين"، ج: 2، ص: 125

⁵³ محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي "الفيّة ابن مالك في النحو و الصرف مع إعراب مفرداتها"، إعداد و إخراج: دار ابن خزيمة للنشر و التوزيع، الرياض، ط: 1، 1414 هـ، ص: 75

ولاتعد لفظ ضمير متصل .: إلامع اللفظ الذي به وصل

يجري التوكيد بالضمير المتصل توكيدا لفظيا ، و يجب علينا أن نعيد مع الضمير المؤكد اللفظ المتصل بالضمير المؤكد، فلو أننا حاولنا تأكيد الضمير المتصل وحده دونما اتصال بالمؤكد، فهذا يعني فصله و هو أمر غير جائز⁵⁴ و على هذا إذا ما أردت أن تؤكد التاء مثلا في :
نحنتُ و نحنتَ و نحنت توكيدا لفظيا و جب عليك أن تقول : نحنتُ نحنتَ .

و إذا أردت أن تؤكد كاف الخطاب في قولك :

سامحتك توكيدا لفظيا و جب أن تقول :

سامحتك سامحتك.

و إذا أردت أن تؤكد هاء الغائب في قولك:

ذهبت به توكيدا لفظيا و جب أن تقول:

ذهبت به به.

و تجدر بنا الإشارة أيضا إلى أنه يجوز توكيد ضمير الرفع المتصل ، سواء كان مرفوعا

أو منصوبا أو مجرورا ضمير الرفع المنفصل كقولك مثلا :

خرجت أنا ، و خرجوا هم، و خرجنا نحن،

و كقولك:

حدثتك أنت ، وحدثتها هي، و حدثتهم هم، و حدثتهما هما.

و كقولك:

نظرت إليه هو، هاتفتها هي، ودعتهن هن.

فأنت تلاحظ انطلاقا من هاته الأمثلة، ضمير الرفع المتصل مرفوع و منصوب و مجرور أكد بضمير الرفع المنفصل، و قد ورد هذا النوع من التوكيد اللفظي كثيرا في اللغة العربية، و إن كان يخالف قانون التبعية الذي ينص على وجوب موافقه المؤكد لمؤكده في الإعراب، و ذلك إن كان المؤكد ضمير نصب، أو ضمير جرّ، و لا يحدث هذا إلا تجاوزا.

⁵⁴ محمد فهميم أبو عبيه " قطوف من النحو " ، ص: 54

و إذا أُتبع الضمير المنصوب المتصل بضمير منصوب منفصل مثل: صارحتك إياك فإنَّ الضمير المنفصل يعرب توكيدا للمتصل. " على رأي البصريين، أمّا الكوفيون فإنهم يرونه بدلا والصحيح رأي البصريين ⁵⁵

الضمير المنفصل يعرب توكيدا للمتصل؛ كما ذهب إلى ذلك البصريون، أمّا أهل الكوفة فإنهم يرونه بدلا، و الأفصح و الأرجح رأي البصريين و هو ما أكدّه المحدثون ⁵⁶ ومن النحويين ⁵⁷ من أنكروا جواز التوكيد اللفظي في مثل قولهم: " احذر الأسد " حيث يرى أنه لا يجوز في هذا الأخير أن تكرر الاسم المحذر منه، حتى لا يجتمع لديك البدل و المبدل منه لأنهم جعلوا التكرار نائبا من الفعل.

و قد كانت فوائد التوكيد اللفظي كما يراها الفاكهي حيث يقول: " و أمّا التوكيد اللفظي ففائدته التقوية و كذا رفع توهم النسيان أو الغلط - على ما قيل - و ذلك أن المتكلم قد يظنّ بالسامع غفلة، أو يظنّ به أنه ظنّ بالمتكلم غلطا، فإذا قصد المتكلم أحد هذين الأمرين كرّر اللفظ الذي ظنّ غفلة السامع عنه، أو ظنّ به الغلط فيه تكريرالفظيّا كقام زيد ⁵⁸ فحوى هذا القول أن التوكيد اللفظي يقوّي العلاقة بين المتكلم و المستمع حين يعيد عليه ما قاله، لأنّ المستقبل قد يسمع خطأ في - المرّة الأولى - ما قيل له، ربّما لضجّة حدثت فجأة، أو لموقف مفاجئ جلب انتباهه فألهاه عن أن يصغي لمحدثه حتى ينهي كلامه، ممّا يوجب على المتكلم إعادة تبليغ الرّسالة ذاتها من جديد "تكرار ما قد قيل توا يجعل كلا من المتكلم و السامع على الخط نفسه بشكل مؤكّد"

⁵⁵ محمد فهم أبو عبيه "قطوف من النحو"، ص: 58، 59

⁵⁶ المصدر نفسه، ص: 58

⁵⁷ ينظر: جلال الدّين السيوطي "الأشباه و النظائر في النحو"، دار الكتب العلميّة، المجلد الأوّل، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص: 122

⁵⁸ جمال الدّين عبد الله بن أحمد بن علي بن محمد الفاكهي "شرح الحدود النحويّة"، تحقيق: محمد الطيّب ابراهيم، دار النّفائس، بيروت. لبنان،

ط: 1، 1417 هـ. 1996 م، ص: 181

و الترج أونج "الشفاهية و الكتابية" ترجمة حسن البنّا عز الدين، مراجعة: الدكتور محمد عصفور، عالم المعرفة، العدد: 182، الكويت، د. ط،

فبراير 1994 م، ص: 101

و نحن إنما عرضنا صور التوكيد في النحو العربي، كي نبين أن كل أجزاء التركيب الكلامي بما فيه الجملة ككل قابلة للتأكيد، كما يتبين لنا أننا لا نؤكد الشيء إذا أردنا إبرازه و بيانه.

ب- التوكيد المعنوي:

تعددت المفاهيم حول هذا النوع من التوكيد، و رغم اختلافها إلا أن النحاة بينوا أنه: "يكون على وجهين أحدهما يأتي لإثبات الحقيقة ورفع المجاز، و ثانيهما يجيء للإحاطة و العموم"⁵⁹

أما الأول فيكون بألفاظ معلومة و هي النفس و العين، فأنت حينما تقول: "قام زيد" احتمل أن تكون نسبة القيام إلى زيد حقيقية أو أن تكون مجازاً، فقد يكون زيد لم يقم، و إنما قام من هو من نسبته و جهته فإذا قلت: "قام زيد نفسه" دفعت ذلك التوهم و الشك فكأنك قلت: "قام زيد لا أشك"، أما الثاني فيكون بكل و أجمع و توابعها التي هي أكتع و أبصع و أبتع. فإذا قلت: "جاء الجيش" فإن من السامعين من يفهم أن بعض الجيش قد جاء، و منهم من يفهم أن كل الجيش قد جاء، فإذا أنت قلت: "جاء الجيش كله" فإنك تكون قد أحطت و شملت الجيش كله في المجيء⁶⁰.

كان ما آنف ذكره تصوّراً مختصراً عن نوعي التوكيد المعنوي، و سنحاول الآن الدخول في بعض التفاصيل المتعلقة بهذا الأخير.

إن توكيد الواحد المذكّر يكون بالنفس و العين تقول مثلاً:

"مررت بزيد نفسه"، "رأيت زيدا عينه".

و لفظ توكيد النفس و العين في توكيد المؤنث مثله مثل توكيد المذكّر نحو قولك:

"رأيت هنداً نفسها"، و "جاءت هند عينها".

⁵⁹ القرشي الإشيلي "البيسط في شرح جمل الزجاجي"، السفر الأول، ص: 363

⁶⁰ ينظر: الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح الماكودي "على متن الأجرومية"، مطبعة المعاهد بحوار قسم الجمالية، القاهرة، د.ط.

د.ت، ص: 19

و يرى الزّحاجي⁶¹ أنّه يجوز تأكيد الواحد المذكّر بكلّ و أجمع - توابع أجمع و هي : (أكتع، أبضع، أبتع) - و ما هو في معنى كلّ نحو قولك:
رأيت القوم خمستهم، و أربعتهم.

و من ذلك قولهم: ضُربَ زيد البطن و الظّهر إذا أردت معنى كلّه.
أمّا تأكيد المثنّى فيكون بالفاظ ثلاثة هي النفس و العين و كلا، فنقول مثلاً:
رأيت الولدين أنفسهما.

رأيت الولدين أعينهما.

رأيت الولدين كليهما.

بالنسبة للمثنّى المذكّر؛ و نقول:

مررت بالبتين أنفسهما.

مررت بالبتين أعينهما.

مررت بالبتين كليهما.

إذا ما نحن أكّدنا المثنّى المؤنث، و على هذا فإنّ تأكيد المثنّى المذكّر، و تأكيد المثنّى المؤنث
سيان⁶²

وليس في إمكاننا تأكيد المثنّى بأجمعان و لا بأكتعان، لأنّ العرب قد استبدلتهما، و استغنت عنهما
بـ " كليهما " فإن احتججت لذلك بالقياس على أجمعين، كون أجمع قد جمع و ما يجمع تصحّ
تشنيته، فإنّ من له باع واسع في النّحو يقول لك : (أجمع) معرفة لا ينكر أبداً، فلا تصحّ تشنيتهما
ولا جمعها، و أجمعون كان على طريقة الجمع و لكنّه ليس كذلك حيث أتى على غير قياس،
و ما يجيء على غير قياس، و يجيء شاذّاً لا يقاس عليه يقول القرشيّ : " فالعرب إذا استغنوا عن
شيء بغيره، فلا سبيل لك و إن كان القياس يقتضيه."⁶³

⁶¹ القرشيّ الإشبيليّ السّبيّ " البسيط في شرح جمل الزّحاجي "، السّفر الأوّل، ص : 364

⁶² فيما يخصّ " كلا " في المثنّى المذكّر نقول : كلاهما، و في المثنّى المؤنث نقول كلتاهما.

⁶³ القرشيّ الإشبيليّ السّبيّ " البسيط في شرح جمل الزّحاجي "، السّفر الأوّل، ص : 364

رأينا أنّ المثنى يؤكّد بكليهما أو أنفسهما و أعينهما ، في التذكير و التأنيث على السواء
أما (كلا) فإنّها لا تستعمل إلاّ مضافة للظاهر و المضمّر، " فإذا أضيفت إلى الظاهر فلا تنقلب
الألف، و إذا أضيفت إلى المضمّر ففصحاء العرب يقبلون الألف في النصب تشبيها بـلدى، و في
الخفض تشبيها بعلى".⁶⁴

مثال ذلك قولك:

مررت بكلا الرّجلين.

مررت بكليهما.

و أمّا أنفسهما فجاء لجمع في موضع التثنية، فقد ورد في الآية الكر يمة قوله جلّ شأنه :
﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾⁶⁵، ذكر الرّخشي حين تفسيره لهاته الآية : " (إِنْ
تُتُوبَا) خطاب لحفصة و عائشة على طريقة الإلشقات ليكون أبلغ في معاتبتهما، و عن ابن عباس : لم
أزل حريصا على أن أسأل عمر عنهما حتّى حجّ، و حججت معه فلمّا كان ببعض الطّريق عدل
و عدلت معه بالإداوة فسكبت الماء على يده، فتوضّأ فقلت : من هما ؟ فقال: عجا ابن عباس،
كأنّه كره ما سأله عنه ثمّ قال : هما حفصة و عائشة (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)، فقد وجد منكما ما
يوجب التّوبة و هو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله صلّى الله عليه و سلّم من
حبّ ما يحبّه و كراهة ما يكرهه".⁶⁶

و قد أطلق الله عزّ و جلّ قلوب على قلبين، و من العرب من يقول (قلباكما) بدلا من
(قلوبكما)، و ذلك داخل في اختلاف القراءات.

إنّ الجمع أيضا يؤكّد بكلّهم و أنفسهم و أعينهم مثال ذلك أن نقول:

جاء الزّيدون أنفسهم.

كلّمت الهندات أعينهنّ.

مررت بالزّيدون كلّهم.

⁶⁴ المصدر نفسه، السّفر الأوّل، ص : 364

⁶⁵ سورة التّحرّيم، الآية : 4

⁶⁶ الرّخشي "الكشاف"، ج : 6، ص: 169

فالملاحظ أنّ للتوكيد وظيفة هامّة في دفع الشكّ عن السّامع، و جعل الحقيقة بارزة أمام عينيه.
و إذا كان الضّرب الأوّل من التّوكيد المعنويّ يتمّ باستعمال النّفس و العين، فإنّ الضّرب
الثّاني منه هو ذاك الذي تستعمل فيه الألفاظ الآتي ذكرها و هي: "كلّ" و "كلا" و "كلتا"،
و جميع

و عامّة و ذلك يتلخّص في قول ابن مالك: ⁶⁷

و كلاً اذكر في الشّمول و كلا: كلتا-جميعا-بالضمير موصلا

و استعملوا- أيضا- ككلّ فاعله: من عمّ في التّوكيد مثل النّافله

"يعني أنّ الذي يذكر في التّوكيد المقصود به التّنصيب على الشّمول، و رفع احتمال أن يرد
باللفظ العامّ الخصوص هو الألفاظ المذكورة، مضافة إلى ضمير المؤكّد مطابقا له"⁶⁸
فأمّا "كلّ" فيؤكّد بها ما كان ذا أحزاء يصحّ وقوع بعضها موقعه نحو قولك:

جاء الرّكب كلّّه

جاءت القبيلة كلّها

جاء الطّلاب كلّهم

جاءت العوامل كلّهنّ

فإن أنت اقتصرت في هاته الأمثلة على الإخبار بالجمعيّ دون توكيده بـ: "كلّ" لاختلّفت فهوم
السّامعين؛ بحيث يعتقد بعضهم أنّ "بعض الرّكب جاء"، في حين يظنّ بعضهم الآخر أنّ كلّ
الرّكب جاء، فلمّا استعملت "كلّ" فإنّك قد أحظت الرّكب و شملته كلّ في الجمعيّ، و الأمر نفسه
ينسحب على بقيّة الأمثلة.

و أمّا "كلا" و "كلتا" فيؤكّدان المشئى المذكّر و المشئى المؤنّث على التّوالي تقول مثلا:

سافر الزّيدان كلاهما - مررت بالرجلين كليهما.

سافرت الهندان كلتاهما - مررت بالمرأتين كلتيهما.

⁶⁷ محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي "ألفية ابن مالك في النّحو و الصّرف"، ص: 74

⁶⁸ ابن النّاطم "شرح ألفية ابن مالك"، تحقيق و ضبط و شرح د: عبد الحميد السيّد محمد عبد الحميد، دار الجبل، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت.

و لا بدّ من إضافتها كلّها إلى ضمير يطابق المؤكّد كما مثل⁶⁹

و أمّا "جميع" و "عامة" فإنّهما بمنزلة "كلّ" من حيث المعنى و الإستعمال مثال ذلك أن تقول :
جاء الجيش جميعه، أو عامته، و القبيلة جميعها، أو عامتها ، و القوم جميعهم، أو عامتهم، و النساء
جميعهنّ، أو عامتهنّ .

و من شواهد التّوكيد "بجميع" قول امرأة من العرب ترقص ابنها:⁷⁰

فذاك حيّ خولان جميعهم - و همدان

و كلّ آل قحطان و الأكرمون عدنان

مثل النّافله

و الشّاهد فيه التّأكيد بـ : "جميع" - على مذهب سبويه - حيث أنّها بمنزلة "كلّ" في المعنى
و الإستعمال، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

و بعد أن نبّه ابن مالك على أنّ عامّة من ألفاظ التّوكيد قال:⁷¹

و استعملوا -أيضاً- كلّ فاعله .: من عمّ في التّوكيد مثل النّافله

فهو يهدف من وراء كلامه هذا، إلى أنّ اعتبار عامّة من ألفاظ التّوكيد مثل النّافله و هو
الزّائد ، غير أنّ سبويه لم يعدّه زائداً ، بدليل أنّه إذا نحن مثّلنا لذلك بقولنا : خرج الطّلاب
كلّهم، و خرج الطّلاب جميعهم، و خدناه مصيباً في ذلك.

ففي كلا المثالين تشمل الطّلبة في خروجهم ، و تجدر الإشارة إلى أنّ الإسم " كلّ " متعلّق
على الدّوام بأحد الضّمائر المتّصلة مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁷² ،
و قوله عزّ و جلّ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾⁷³

⁶⁹ ينظر: ابن النّاظم "شرح ألفية ابن مالك"، ص: 503

⁷⁰ المصدر نفسه، ص: 504

⁷¹ محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي "ألفية ابن مالك في النّحو والصّرف"، ص: 74

⁷² سورة البقرة، الآية: 31

⁷³ سورة القمر، الآية: 42

دائماً في تأكيد الجمع يذكر ابن مالك في ألفيته :⁷⁴

وبعد كلّ أكّدوا بأجمعاً : جمعاء، أجمعين، ثمّ جمعا

و دون كلّ قد يجيء : أجمع : جمعاء، أجمعون، ثمّ جمع

و المراد بذلك أنّ العرب قد أجازوا اتباع كلّه بأجمع في المفرد المذكّر، و كلّها جمعاء في المفرد المؤنّث، و كلّهم أجمعون في الجمع المذكّر، و كلّهنّ جمع في الجمع المؤنّث، و أمثلة ذلك على التّوالي :

جاء الجيش كلّه أجمع

جاءت القرية كلّها جمعاء

جاء الطّلاب كلّهم أجمعون

جاءت الطّالبات كلّهنّ جمع

و ورد في القرآن الكريم قوله عزّ و جلّ : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾⁷⁵ ،

و الآية ذاتها وردت في سورة (ص) فلمّا بالغ في السّورتين في الأمر بالسّجود و هو قوله :

﴿ فَتَعَبُّوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ بالغ في الإمتثال فيهما بقوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

حيث أكّد سجود الملائكة بتوكيدين دلّ الأوّل منهما - وهو "كلّهم" - على دفع توهم عدم

التّشّمول، و دلّ ثانيهما - وهو أجمعون - على اجتماعهم على السّجود و أنّهم لم يسجدوا

متفرّقين، بل سجدوا دفعة واحدة.

فلو أنّه قال : " فسجد الملائكة " لاحتمل أن يكون سجد بعضهم ، فلمّا قال : " كلّهم "

زال الإحتمال، و ظهر أنّهم بأ سرهم سجدوا، و بقي احتمال ثان هو هل أنّهم سجدوا دفعة

واحدة، أم سجدوا متفرّقين ، فلمّا قال " أجمعون " ظهر أنّهم سجدوا دفعة واحدة، و بهذين

التّوكيدين ازداد تقرير المعنى في الذّهن، و تمكّن في النّفس خير تمكّن .

⁷⁴ محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي "ألفيّة ابن مالك في النّحو والصّرف"، ص : 74

⁷⁵ سورة الحجر، الآية : 30

و قليلا ما يستغن عن كله و كلها و كلهم و كلهن، بأجمع و جمعاء و أجمعون و جمع
 مثلما ورد في قوله تعالى : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾⁷⁶
 و للزخشي تعليق ظريف حول هاته الآية حيث يقول : " (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ) أي الآلهة (وَالْغَاوُونَ)
 و عبدتهم الذين برزت لهم الجحيم و الكبكية تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلا على
 التكرير في المعنى كأنه إذا ألقى في جهنم بنكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها."⁷⁷

و من التوكيد بأجمعين قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ﴾⁷⁸

فالشاهد في هاتين الآيتين قوله تعالى ﴿أَجْمَعِينَ﴾، حيث وقع توكيدا بدون (كل)، و قد
 تتبع "كلا" "جميع" توكيدا على مذهب الزخشي و الفراء مثل ما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ
 الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾⁷⁹، و كذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ
 كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾⁸⁰.

فـ (كل) أفادت الإحاطة و الشمول ، و (جميع) توكيد قطع عن الإضافة لفظا،
 و التقدير "جميعهم"، و تعرب حالا أيضا.
 فالتوكيد يفيد أن الإيمان تناولهم جميعا، لا يقيد كونهم مجتمعين، و الحال يفيد أن الإيمان
 تناولهم في حالة اجتماعهم.

"وقد يتبع أجمع و أخواته بأكتع، و كتعاء، و أكتعين و كتع، و قد يتبع أكتع و أخواته
 بأبصع،

و بصعاء، و أبصعين و بصع"⁸¹ فتقول مثلا :

جاء الجيش كله أجمع أكتع أبصع

جاءت القرية كلها جمعاء كتعاء بصعاء

⁷⁶ سورة الشعراء، الآيات : 94، 95

⁷⁷ الزخشي "الكشاف"، ج : 4، ص : 172، 173

⁷⁸ سورة البقرة، الآية : 161

⁷⁹ سورة الحجر، الآية : 30 و سورة (ص)، الآية : 73

⁸⁰ سورة يونس، الآية : 99

⁸¹ ابن الناطم "شرح ألفية ابن مالك"، ص : 505

جاء الطلاب كلّهم أجمعون أكتعون أبصعون

جاءت الطالبات كلّهنّ جمع كتع بصع

و زاد الكوفيّون بعد "أبصع" و أخواته أبتع، و بتعاء، و أبتعين، و بتع؛ و قد شدّ قول بعضهم : "أجمع أبصع" و أشدّ منه قول الآخر "جُمع بُع" و ربما استعمل بعضهم أكتع و أكتعين في التّوكيد دون أن تكون تابعة لأجمع و أجمعين⁸²، مثال ذلك قول الرّاجز:⁸³

يا ليتني كنت صبيّاً مرضعاً: . تحملي الذّلفاء حولا أكتعا

إذا بكيت قبلتني أربعا: . إذا ظللت الدّهر أبكي أجمعا

في هذين البيتين شواهد يستدلّ بها النّحاة على مسائل من التّوكيد، أمّا الأوّل و هو المقصود ههنا قوله : "الدّهر أجمعا" حيث أكّد الدّهر "بأجمع" دون أن يسبقه "بكلّ"، و أمّا الثّاني فهو في قوله: "حولا أكتعا"، و هو توكيد النّكرة المحدودة على مذهب الكوفيّين، و أمّا الثّالث ففي قوله: "الدّهر أبكى أجمعا" حيث يبيّن أنّه يمكننا أن نفصل بين المؤكّد و المؤكّد بلفظ أجنيّ .

و مثله في القرآن الكريم قوله عزّ و جلّ: ﴿وَلَا يَمُزِّنْ وَيَرْضُونَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾⁸⁴، فكلّمة (كلّ) مرفوعة لأنّ توكيد لنون النّسوة (الفاعل)، و ليست توكيدا للضمير المنصوب المتّصل بالفعل: "آتيت".

و نسجّل بالملاحظة، أنّ هناك خلافا بين مذهب الكوفيّين، و مذهب البصريّين، حول توكيد النّكرة المحدودة، و غير المحدودة قال ابن مالك:⁸⁵

و إن يفد توكيد منكور قبل: . و عن نحاة البصرة المنع شمل

⁸² ابن النّاذم "شرح ألفيّة ابن مالك"، ص: 505

⁸³ ابن عبد ربّه الأندلسي "العقد الفريد"، شرحه و ضبطه و صحّحه: أحمد أمين، أحمد الزّين، ابراهيم الأبياري، ج: 3، القاهرة، ط: 2،

1372 هـ- 1952 م، ص: 460

⁸⁴ سورة الأحزاب، الآية: 51

⁸⁵ محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي "ألفيّة ابن مالك في النّحو و الصّرف"، ص: 74

فالكوفيون يُجيزون "توكيد النكرة المحدودة مثل يوم، و ليلة، و شهر، و حول، مما يدلّ على مدّة معلومة المقدار، و لا يجيزون توكيد النكرة غير المحدودة، كحين، و وقت، و زمان، ممّا يصلح للقليل و الكثير، لأنّه لا فائدة في توكيدها".⁸⁶

أمّا البصريّون فلا يؤكّدون النكرة مطلقا سواء كانت محدودة أم غير محدودة و هو معنى قوله:
"و عن نحاة البصرة المنع شمل"

و الظاهر أنّ قول الكوفيّين أقرب للصواب، لصحّة السّماع بذلك، ولأنّ في توكيد النكرة المحدودة فائدة هي ذاتها التي تكون في توكيد المعرفة.

فإن أنت قلت: صمت شهرا، قد يفهم السّامع أنّك تقصد صيام الشّهر كلّ، كما قد يفهم أنّك تقصد بعضا من هذا الشّهر.

و إن أنت قلت: صمت شهرا كلّ رفعت توهم السّامع و أصبح كلامك بيّنا لا غبار عليه، و قديما قالت العرب:⁸⁷

تحملني الذّلفاء حولا أكتعا

و لو كان من عند غير العرب لاعتبرناه قياسا.

و من أمثلة توكيد النكرة المحدودة قول الشّاعر:⁸⁸

إنّا إذا خطّافنا تقعقعا: قد صرّت البكرة يوما أجمعا

الشّاهد في هذا البيت قوله "يوما أجمعا" حيث أكّد النكرة المحدودة "يوما" بقوله: "أجمعا" على مذهب الكوفيّين، و من ذلك أيضا قول الآخر:⁸⁹

لكنّه شاقه أن قيل ذا رجب: يا ليت عدّة حول كلّ رجب

⁸⁶ ابن النّافثم "شرح ألفية ابن مالك"، ص: 506

⁸⁷ نظر أعرابي إلى امرأة حسناء، حمياء تسمّى ذلفاء، و معها صبي يبكي، و كلّما بكى قبلته، فأنشد البيتين متمنيا لو أنّه كان في مكان الصّبي ليحضى بقلبه.

⁸⁸ ابن النّافثم "شرح ألفية ابن مالك"، ص: 506

⁸⁹ هذا البيت من كلام عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي حيث أكّد "حول" و هو نكرة بقوله: كلّ فدلّ على جوازه.

الإمام كمال الدّين أبي البركات عبد الرّحمان بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النّحوي "الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين و الكوفيّين، المكتبة العصريّة للطباعة و النشر و التّوزيع، صيدا، بيروت، 1407 هـ. 1987 م، ج: 2، ص: 451

و الشاهد فيه قوله : " حول كلّ " حيث أكدّ "حول" بلفظ "كلّ" و هو نكرة، فهو إذن قد جرى على مذهب الكوفيّين لأنّ البصريّين لا يميزون توكيد النكرة محدودة كانت أم غير محدودة، و لعلّ ذلك عائد إلى ما سبقت الإشارة إليه .

و قال الآخر: ⁹⁰

إذا القعود كزّ فيها حفدا .: يوما جديدا كلّ مطّردا

حيث أكدّ يوما و هو نكرة بقوله : " كلّ " وهذا ما يدلّ على أنّ العرب تميز تأكيد النكرة المحدودة بألفاظ التوكيد المعارف.

⁹⁰ المصدر نفسه، ج: 2، ص: 452.

الفصل الثاني

التكرار بين بلاغة العرب
والأسلوب القرآني

إنّ الدّراسات البلاغية بوجه عامّ، وجدت متأخرة عن الدّراسات النّحويّة، لأجل ذلك
آثرنا أن نتحدّث أوّلاً عن التّكرار عند النّحويّين و كيف عاملوه، لننتقل بعد ذلك إلى صنيع
البلاغيّين في هذا المجال.

لقد اهتمّ البلاغيّون ببعض العناصر الإيقاعيّة، كالتغيّر و التّساوي و التّوازي و التّكرار،
و بذلوا جهداً كبيراً في اكتشاف قوانينها، و الحقّ أنّهم بذلوا جهداً مضاعفاً في مجال التّكرار،
لاكتشاف جوانبه في اللفظة الواحدة، و كذا جوانبه في التّركيب.¹

يعرّفه الزمخشري بقوله : "كررت عليه الحديث كرّاً ، و كررت عليه تكراراً و كررت على
سمعه كذا ، و تكررت عليه و ناقة مكرّة : تحلب في اليوم مرّتين. قال الأعشى :

نفسى فداؤك يوم النّزال : إذا كان دعوى الرّجال الكريرا

و هو صوت في الصّدر كالخشرة"²

و يذكر الشّيخ أحمد رضا أنّ التّكرار إعادة الشيء مرّة بعد أخرى و ترديده³

فالتّكرار فنّ من الفنون البلاغية، الّتي ازدهرت دراستها في ظلّ الدّراسة القرآنيّة، و قد
ذكره الطّاعنون في كتاب الله؛ فكان لزاماً على من تصدّى للرّدّ عليهم أن يدرس هذا الأسلوب،
و أن يبيّن أسرارها، و أن يشير إلى نظيره في كلام العرب.

"و التّكرار عند البلاغيّين هو عبارة عن تواتر في بداية الأبيات أو الجمل و يسوغه التّوكيد بجميع
أشكاله"⁴

كما أنّه يأخذ نمطاً تكراريّاً، و هو عندهم -عند البلاغيّين- ظاهرة طبيعيّة في كلّ لغة، فقد
يلاحظ في مستوى الحروف، كما يلاحظ في مستوى الكلمات. و يذكر الجاحظ أنّه ما سمع بأحد
من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ، و تردّد بعض المعاني عيّا⁵

¹ ينظر: محمّد عبد المطلب "أدبيات البلاغة و الأسلوبية"، الشركة المصريّة العالميّة للنّشر لونغمان، القاهرة، ط: 1، 1994م، ص: 291.

² جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري "أساس البلاغة"، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، د.ط، 1385 هـ - 1965 م،
ص: 539-540

³ ينظر العلامة اللّغوي الشّيخ أحمد رضا "معجم متن اللّغة" موسوعة لغويّة حديثة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، السنة 1960،
المجلد الخامس، ص: 46.

⁴ مجموعة من الكتاب "مدخل إلى مناهج النّقد الأدبي"، إشراف أحمد مشاري العدواني د.ط، 1923 هـ. 1990م، ص: 247.

⁵ أبو عثمان بن بحر الجاحظ "البيان و التّبيين"، تحقيق و شرح: عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ج: 1، ص: 105

فالكلام الإنساني قد يحوي فائضا يمكن الإستغناء عنه، دون أن يخلّ ذلك بالرسالة التي يبلغها المرسل إلى المرسل إليه، وهو ما عرف عند البلاغيين بالإيجاز من غير عجز⁶، كما أنّ المتلقي قد تعيقه أحيانا بعض الظروف الخارجة عن نطاق إرادته عن قدرته على التلقّي و الفهم، فيضطرب المتكلّم إذ ذاك إلى إعادة ما قاله للمستمع⁷ وهو ما عرف بالإطناب من غير خطئ⁸.

و لعلّ أندره مارتييني (André Martinet) يوضح ذلك جيّدا بطريقة حديثة حين يقول :
" إنّ قولنا أنّ اللغة لا يظلّ فيها حيّا من الكلمات إلّا ما يؤدّي وظيفة تبليغيّة، و أنّ كلّ عنصر في الجملة يستدعي جهدا لفظيا موازيا تماما للوظيفة التي يقوم بها ذلك اللفظ رأي لا يستقيم إلّا صوريّا و تجريدا، أمّا في الواقع فإنّه لا يتأتّى و الظروف التي يجري فيها التّوصيل لأنّ التّبادل اللّساني، لا يكاد يتمّ إلّا في ظروف بعيدة كلّ البعد عمّا نطمح إليه. فمن النّادر جدّا أن يجري الكلام في جوّ من الصّمت التّام، و الحديث بين النّاس يتمّ عادة وسط معمعة من الأصوات المختلفة، و من الصّخب و الضّجيج، ثمّ أنّ بال المستمع قد يكون مقسّما بين الإستماع إلى الخطاب الموجه إليه و بين مشاغله الدّاخلية و لذلك فإنّ المتطلّبات الواقعيّة لكلّ أداء لساني تقتضي أن يكون شكله دائما و في جميع المستويات مرّدا"⁹

و قوله هذا يعني أنّ التّكرار أو التّرديد كما ينعتّه بعضهم، يوجد على جميع المستويات الصّوتيّة، و الدّلاليّة و التّركيبية، و هو ضروريّ جدّا في عمليّة الاتّصال ، لإسباب أهمّها أنّ الضّجيج يمكن أن يضايق المتلقّي عن سماع الخطاب جيّدا ، و قد يكون المرسل إليه مصابا بعاهة بيولوجيّة، كالأصمّ مثلا، ممّا يعيقه عن سماع الخطاب الموجه إليه جيّدا ، فمن النّادر جدّا أن يتجاوب المتلقّي كليّة مع المتكلّم، و أن يفهم من الوهلة الأولى مراده، و على هذا فالإطناب مطلوب بالحاح- كما يرى البلاغيّون- و نحن بإزاء جمهرة من النّاس، نظرا للصّخب الذي يرافق التّجمهر على جاري العادة.

⁶ د: محمد علي زكي صباغ " البلاغة الشّعريّة في كتاب البيان و التبيين للجاحظ "، إشراف و مراجعة د: ياسين الأيوبي، المكتبة العصريّة ، صيدا ، بيروت، د.ط، د.ت، ص : 221

⁷ محمد الصّغير بنّاني " النظريات اللسانية و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظمن خلال البيان و التبيين، الجزائر، د.ط، 1983م، ص : 260
" أبو الهلال العسكري "الصّناعيّين" الكتابة و الشعر، تحقيق : علي محمد الجاوي. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط : 2، د.ت، ص : 199

⁹ A. Martinet. « Element de linguistique générale. Ed.A.colin,1970, (El 1980) Paris, 221p:la redondance,

فنحن في كثير من الأحيان مضطرون "إلى تكرار الألفاظ و الجمل و العبارات عندما نريد أن نقنع مخاطبا ما بمضمون ما، و بخاصة إذا كان المخاطب الذي نتوجه إليه على قدر من التردد و الشك"¹⁰

و إذا عدنا إلى القرآن الكريم لنمثل لذلك وقعنا على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾¹¹، و تقديره عند الزحشري أن العسر مردوف بيسر لا محالة أولا، و عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر ثانيا، فالعسر إذن واحد، واليسر اثنان على تقدير الإستئناف، و عن ابن عباس و ابن مسعود- رضي الله عنهما - " لن يغلب عسر يسرين"¹²

من هذا المنطلق فإننا نجد من البلاغيين من جعل التكرار قسمين: في اللفظ و المعنى معا، و في المعنى دون اللفظ كابن الأثير؛ و منهم من جعله ثلاثة أقسام: ما يتكرر لفظه و معناه متحد، ما يتكرر لفظه و معناه مختلف، و ما يتكرر معنى لا لفظا كابن القيم الجوزية.

و سنحاول أن نوضح ذلك كله فيما يأتي:

I- ما يتكرر لفظه و معناه و هو قسمان :

كقولك لمن تستقبله أهلا أهلا، أو مرحبا مرحبا و مثاله من الشعر قول أبي الطيب المتنبي:¹³

و لم أر مثل حيراني و مثلي .: لمثلي عند مثلهم مقام

ومرادَه أن يقول : لم أر مثل حيراني في سوء الجوار، و قلة المراعاة، و لا مثلي في مصابرتهم و مقامي عندهم، حيث ردّد هذا المعنى في البيت مرتين.
و كقول الآخر :¹⁴

كم نعمة كانت لكم .: كم كم و كم كانت وكم

¹⁰ سمير أبو حمدان "الإبلاغية في البلاغة العربية"، منشورات عويدات الدولية، بيروت. لبنان، ط : 1، 1991 م، ص : 133.134

¹¹ سورة الشرح، الآيتان : 5، 6

¹² ينظر: الزحشري "الكشاف"، ج : 6، ص : 239، 240

¹³ المتنبي "الديوان"، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت، ص : 102 سليمان العيسى "موجز ديوان المتنبي"، شرح البازجي، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، د.ط، د.ت، ص : 108

¹⁴ أبو الهلال العسكري "الصناعتين"، ط : 2، ص : 199

الإمام أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي "الصاحي في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب في كلامها"، حققه و ضبط

نصوصه و قدّم له د : عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط : 1، 1414 هـ. 1993 م، ص : 213، 214

حيث كرّر الشاعر " كم " أربع مرّات، و هذا تأكيد للمعنى الذي كرّر به اللفظ، و إنّما كرّره
للعناية بتكثير العدد.
أو كقول آخر:¹⁵

نec الغراب بين لبني غدوة: كم كم كم بفراق لبني ينec
و مثل ذلك أيضا قول الخنساء: ¹⁶

و إنّ صخرًا لوالينا وسيدنا: و إنّ صخرًا إذا نشتو لنحار
و إنّ صخرًا لمقدام إذا ركبوا: و إنّ صخرًا إذا جاعوا لعقار
و إنّ صخرًا لتأتم الهداة به: كأنّه علم في رأسه نار
فتكرار اسم صخر ثلاث مرّات، مقرونا في كلّ مرّة بأوصاف مغايرة يؤكّد لنا أنّ هذه الصّفات في
كلّ بيت من الأبيات الشعريّة، إنّما هي لصخر نفسه دون غيره، وأنّه مائل في الذّهن، ملتصق به،
حشية أن يجري الظّنّ إلى شخص آخر دونه، و في وضع الإسم الظّاهر موضع الضّمير في قوله:
"و إنّ صخرًا لمقدام"، "و إنّ صخرًا لتأتم الهداة به" ما يؤكّد حضور صخر في ذهن الخنساء في
كلّ لحظة من لحظات عمرها.
و مثله قول الحلبيّ: ¹⁷

الطّاهر الشّيم ابن الطّاهر الشّيم اب: من الطّاهر الشّيم ابن الطّاهر الشّيم
حيث كرّر الشاعر كلمتي (الطّاهر و الشّيم) بلفظهما و معناهما تأكيدًا للمدح.
و هذا النوع من التّكرار ينقسم إلى قسمين: مفيد و غير مفيد.

¹⁵ الشّريف المرتضى " عن أمالي المرتضى غرر الفوائد و درر القلائد "، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ط: 2،

1387 هـ. 1967 م، ج: 1، ص: 121

¹⁶ الخنساء " الديوان "، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت، ص: 48، 49

¹⁷ صفّي الدّين الحلبيّ " الديوان "، تحقيق د: نسيب نشاوي. ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، د. ط، 1989 م، ص: 691

الخطيب التّبريزي "تهذيب إصلاح المنطق"

صفّي الدّين الحلبيّ "شرح الكافية" البديعيّة في علوم البلاغة و محاسن"، تحقيق د: نسيب نشاوي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الرّائر، د. ط، 1989

م، ص: 134

أ- النوع الأول :

إذا كان التكرار في اللفظ و المعنى يدلّ على معنى واحد، و المقصود به غرضان مختلفان
كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ
الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾¹⁸

فقد كرّر اللفظ و المعنى معا في قوله : ﴿يُحِقُّ الْحَقَّ﴾ و ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ لاختلاف في المراد
لأنّ المقصود بقوله : ﴿يُحِقُّ الْحَقَّ﴾ بيان إرادته فهو إنّما يقول للشّيء كن فيكون، و قوله :
﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ الثانية ليقطع دابر الكافرين و يخذلهم، و ينصر المؤمنين عليهم.

و كما يعدّ من هذا الباب قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ
وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ حَصْنَتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾¹⁹

نجد أنّ قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ و قوله : ﴿قُلْ اللَّهُ
أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ قد تكرّر في غرضين مختلفين، الأوّل أنّه مأمور بعبادة الله و الإخلاص
له في دينه، و الثاني أنّه مخلص في عبادته لله وحده، دون أيّ شريك آخر له في العبادة، و للدلالة
على ذلك قدّم المعبود في الأوّل على فعل العبادة في الثاني ، في حين أنّه أخره في الأوّل لأنّ الكلام
في هذا الأخير واقع في الفعل عينه، أمّا في الآخر فالكلام فيمن يقام الفعل من أجله²⁰، و لذلك أتبع
قوله بقوله : ﴿فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾.

و عليه ورد قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ
عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾²¹

¹⁸ سورة الأنفال، الآيتان : 7، 8

¹⁹ سورة الزمر، من الآية : 11 إلى الآية 15

²⁰ ينظر: ضياء الدين بن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب والشعر"، تحقيق د: أحمد الرقي، ود : باوي طبانة، دار الرفاعي للنشر
و الطباعة و التوزيع، ط : 2، 1984 م، ج : 3، ص : 10

²¹ سورة النور، الآية : 62

قد يلاحظ المتلقي كالسّامع أو القارئ للوهلة الأولى ، أنّ الأسلوبين الأوّل والثاني سواء في المعنى ، إلا أنّ الأمر ليس كذلك؛ لأنّ الثاني فيه تخصيص و هذا التّخصيص لا يوجد في القول الأوّل.

قال تعالى في الوصف الأوّل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ﴿ لَهُمْ يَكْتُمُونَ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ ، ثم قال في الوصف الثاني : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يجوز في القول الأوّل أن تبدل صفة الإمتناع عن الذهاب بغيرها أو بضدها، أمّا في القول الثاني فقد اختصّ أو بالأحرى خصّ المستأذنين بالإيمان دون غيرهم.

و في هاتاه الإعادة مع تغيير الأسلوب، تأكيد و تشديد على صحّة الإيمان بالله و رسوله .
و من هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا تَعْبُدُ مَا تَعْبُدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِينٌ ﴾²²

يقول الكرمانى معلقاً على هاتاه السّورة : " قوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ في تكراره أقوال جمّة و معان كثيرة، هذا التّكرار اختصار و هو إعجاز لأنّ الله نفى عن نبيّه عبادة الأصنام في الماضي، و الحال، و الإستقبال، و نفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضاً ، فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ستّ مرّات، فذكر لفظ الحال لأنّ الحال هو الزّمان الموجود، و اسم الفاعل واقع موقع الحال، وهو صالح للأزمنة الثلاثة، و اقتصر من الماضي على المسند إليهم فقال: ﴿ وَلَا أَنَا تَعْبُدُ مَا تَعْبُدْتُمْ ﴾ ، و لأنّ اسم الفاعل بمعنى الماضي فعمل على مذهب الكوفيّين، و اقتصر من المستقبل على (لفظ) المسند إليه فقال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ، و كان أسماء الفاعلين بمعنى المستقبل²³

و في هذا التّكرار ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، معنى زائدا لأنّه يفيد الإخبار عن الغيب²⁴

²² سورت الكافرون ، الآيات من 1 إلى 6

²³ الكرمانى "أسرار التّكرار في القرآن"، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الإعتصام، ط: 1، 1394 هـ، 1974 م، ص: 213، 214

²⁴ ينظر: محمد محمد أبو موسى " البلاغة القرآنيّة في تفسير الزّخشي و أثرها في الدّراسات البلاغيّة "، دار النّضامن، ط: 2، 1408 هـ، 1988 م،

و قد شاع أنّ في هذه السّورة تكريرا لا فائدة فيه، و ليس الأمر كذلك، فإنّ قوله: ﴿لَا أُعْبِدُ﴾،
معناه لا أعبد في المستقبل ما تعبدونه أنتم الآن، و لا أنتم تعبدون في المستقبل ما أنا عابد له، و لا
أعبد قطّ آلهتكم، حتّى أكون الآن عابدا لما تعبدون، و لا أنتم عبدتم قطّ إلهي حتّى تكونوا له
الآن عابدين. و ممّا يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
لْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾²⁵، حيث كرّر "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" مرتّين،
و الغرض من وراء ذلك الأوّل يتعلّق بأمر الدّنيا، و الثّاني بأمر الآخرة.

أمّا فيما يتعلّق بأمر الدّنيا يرجع إلى خلق العالمين، في كونه خلق كلّ منهم على أكمل
صفة، و أعطاه جميع ما يحتاج إليه، حتّى البعوضة و الذّباب، و قد يرجع إلى غير الخلق، كإدراج
الأرزاق و غيرها. و أمّا ما يتعلّق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرّحمة الثّانية في يوم القيامة الذي هو
يوم الدّين²⁶

و ممّا ورد في القرآن الكريم مكرّرا قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَنَحَادُ
وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُنْ
إِلَّا كَذَّابِ الرُّسُلِ فَهَقَّ عِقَابُهُ﴾²⁷

و إنّما كرّر تكذيبهم ههنا لأنّه أتى على أساليب مختلفة، فكلّ من هؤلاء الأقوام كذبوا الرّسول
المبعوث إليهم، و كلّ منهم كان له عقاب خاصّ به جزاء هذا التّكذيب للمرسلين.
و في تكريره التّكذيب و التّنويع فيه باستعمال الجملة الخبريّة، ثمّ الإستثنائيّة و ما في هاتيه
الأخيرة من الوضع على وجه التّوكيد و التّخصيص من ضروب المبالغة باستحقاقهم العذاب
الشّديد، عقابا لهم بما كانوا يكفرون²⁸

كلّ ما ذكرناه من شواهد تمثّل جانبا من تكرير اللفظ و المعنى، و غيرها في القرآن الكريم
كثير، لا يتّسع المقام لبسطها جميعا ههنا.

²⁵ سورة الفاتحة، الآيات : 1، 2، 3، 4

²⁶ ينظر: ضياء الدّين بن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشّاعر"، ج: 3، ص: 11

²⁷ سورة ص، الآيات : 12، 13، 14

²⁸ ينظر: الزمخشري "الكشاف"، ج: 5، ص: 135

ب-النوع الثاني:

إذا كان التكرار في اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحد، والمراد به غرض واحد كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ﴾²⁹

"والتكرير دلالة التعجب من تقديره، وإصابته الغرض، وهذا كما يقال: قتله الله ما أشجعه! أو ما أشعره!"³⁰

و الإشعار أنّه قد بلغ مبلغا هو جدير أن يحسد و يدعو عليه حاسده بذلك. و عليه ورد الحديث النبوي: "إنّ بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب، فلا آذن، ثمّ لا آذن، ثمّ لا آذن، إلّا أن يريد بن أبي طالب أن يطلق ابنتي و ينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني يرييني ما أرابها، و يؤذييني ما آذاها"³¹، فقد كرّر الرسول صلى الله عليه و سلّم قوله:

"لا آذن" ثلاث مرّات - مثلما رأينا حين عرضنا للتوكيد اللفظي عند النخويين - ليؤكد منعه عليّا - رضي الله عنه - من الزواج بابنة أبي جهل بن هشام طالما لم يطلق ابنته بعد، فإذا طلق ابنته آذن له إذ ذاك أن ينكح ابنة أبا جهل بن هشام، و كأنّ في قوله تعالى لا آذن ثلاث مرّات قياسا على الطلاق بالثلاث و هذا مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾³² و قوله تعالى: ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾³³، و قوله تبارك و تعالى أيضا: ﴿وَمَا أَحْزَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَحْزَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾³⁴ و كلّها تأكيدات للمعنى الذي كرّر به اللفظ.

و من أجل ذلك نقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، فإذا نحن قسمنا قولنا هذا قسمين وجدنا أنّ الجملتين مترادفتان، و هما على التوالي قولنا: "لا إله إلا الله وحده"، و قولنا لا

²⁹ سورة المدثر، الآيتان: 19، 20

³⁰ الزمخشري "الكشاف"، ج: 6، ص: 178

³¹ صحيح البخاري ضبطه و رقمه و ذكر تكرار مواضعه و شرح ألفاظه و جملة و خرّج أحاديثه في صحيح مسلم، و وضع فهارسه د: مصطفى

ديب البغا، ج: 5، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 1992 م، ص: 2004، باب ذبّ (دفاع) الرّجل عن ابنته في

الغيرة و الإنصاف، رقم الحديث: 4932

³² سورة النّحر، الآيتان: 5، 6

³³ سورة القيامة، الآيتان: 34، 35

³⁴ سورة الإنفطار، الآيتان: 17، 18

شريك له"، فعلى الرغم من أنّ معناها واحد إلا أننا كرّرنا القول لتقرير المعنى في النفس وإثباته حتى لا يرتد السامع، و يقلّ شكّ غير المؤمنين في كون شريك لله، و حاشى أن يكون لله شريك في الملك مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾³⁵

و التقدير لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا.

و إذا نحن حاولنا أن نبين الحكمة من وراء تكرير "لا إله إلا الله"، وجدنا أنّ المقصود من هذا التكرار، التنبيه على أنّ الإنسان يجب أن يكون مواضبا على ذكر هذه الكلمة في أكثر أوقات عمره لأنها تنفعه في دنياه و أخره على السواء.³⁶

و قد اتفق النحويون على أنّ محلّ "إلا" في قولنا: "لا إله إلا الله"، محلّ "غير"، و التقدير: "لا إله غير الله" و هو كقول الشاعر:³⁷

و كلّ أخ مفارقة أخوه .: لعمر أهلك إلا الفرقدان

و المعنى أنّ كلّ أخ غير الفرقدان يفارقه أخوه.

و ممّا جاء في مثل هذا أيضا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا مِّمَّنْ يَنْبَسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ سَحَابًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْطِلِينَ﴾³⁸

فقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ بعد قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من باب التكرير و التوكيد، و في هذا التوكيد دلالة على أنهم انتظروا الغيث طويلا حتى يفسوا من الإنتظار، و نفذ صبرهم،

³⁵ سورة الأنبياء، الآية: 22

³⁶ الإمام فخر الدّين محمد بن عمر بن الحسين الرّازي "من أسرار التّنزيل"، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الناشر، دار المسلم، د.ط، د.ت،

ص: 129

³⁷ الشّريف المرتضي علي بن الحسين الموسوي العلوي "أمالى المرتضي"، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ط: 2، 1387 هـ. 1967 م،

ج: 3، ص: 88

الشيخ الإمام: كمال الدّين أبي البركات عبد الرّحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري "الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين، البصريين و الكوفيّين و معه كتاب: الإنتصاف من الإنصاف، تأليف: محمد محمد الدّين عبد الحميد، ج: 1 المكتبة العصرية، صيدا. بيروت، 1407 هـ.

1987 م، ص: 268

³⁸ سورة الرّوم، الآيتان: 48، 49

فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ الْغَتَمَ غَبْطَةً بِأَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَقَى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيهِمْ بِالْغَيْثِ أَفَلَا يَذْكُرُونَ!³⁹

و على ذلك ورد قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾⁴⁰ فقوله عز وجل: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هو معنى قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، لأن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يدين دين الحق.

"و إنما كررها هنا للغضب على المأمور بقتالهم، والتسجيل عليهم بالذم، و رجمهم بالعظائم، ليكون ذلك أدعى لوجوب قتالهم و حربهم."⁴¹

و التكرار إنما يأتي في الغالب لتثبيت الشيء و تقريره. وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾⁴² فتكرار لفظة "هم" إيذان بتحقيق الخسارة.⁴³

و الأصل فيها أن يستغني عن "هم" الثانية فتكون العبارة هكذا: "و هم في الآخرة الأخسرون"، ولكنه لما أراد سبحانه و تعالى تأكيد ذلك جاء بلفظة "هم" قبل ذكر كلمة "الأخسرون"، و في ذلك بلاغة عظيمة.

و على هذا ورد قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾⁴⁴ و في تكرار حرف الجرّ "في" مرتين تأكيد للجزاء الذي يلحق أيّ كافر، و هو جهنم و بئس المصير.

و من هذا النوع قسم، يكون المعنى فيه مضافا إلى نفسه مع اختلاف اللفظ⁴⁵، و ذلك ما يكون في المترادفات من الألفاظ، حيث ورد في القرآن الكريم، و استعمل في كثير من الأشعار.

³⁹ ينظر: الرغشري "الكشاف"، ج: 5، ص: 13

⁴⁰ سورة التوبة، الآية: 29

⁴¹ ضياء الدين بن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 15

⁴² سورة النمل، الآية: 5

⁴³ ابن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 15

⁴⁴ سورة الحشر، الآية: 17

⁴⁵ ابن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 19

فمما ورد في القرآن الكريم، الذي يعدّ معلمة كبرى لفصاحة و البلاغة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾⁴⁶

فمعنى الرّجز مرادف لمعنى العذاب، و المراد بقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾ أي عذاب مضاعف، سيّء و أليم.

و ممّا ورد في ديوان العرب قول أبي تمام :⁴⁷

نهوض بثقل العبء مضطلع به. : و إن عظمت فيه الخطوب و جلّت
فالثقل هو العبء، و العبء هو الثقل و في هذا البيت مبالغة في وصف الممدوح إذ أنّه رغم كلّ
الخطوب ، إلّا أنّه يتحمّل المشقّة و ذلك لحمل الأثقال.
و عليه ورد قول البحري يمدح الفتح بن خاقان :⁴⁸

و يوم تثنت للوداع و سلّمت. : بعينين موصولا بلحظهما السّحر
توهّمتما ألوى بأجفانها الكرى. : كرى النّوم أو مالت بأعطافها الخمر
فالمعروف أنّ الكرى هو النّوم، و قد شبه الشاعر طرف ممدوحه لفتوره بالنّائم فكرّر المعنى
تأكيدا في التشبيه، و زيادة في بيانه.

و ربّما عدّ بعضهم مثل هذا النوع تكريرا، و هو غير ذلك مثاله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁴⁹

فالله سبحانه و تعالى إنّما كرّر : " إِنَّ رَبَّكَ " مرتين ليؤكد أنّ الله غفور رحيم، و أنّه عزّ
وجلّ لا يواخذ من أخطأ أو نسي، و أنّه تعالى رؤوف بالعباد، يرى الكرمانى أنّ الكلام لما طال
أعاد الله تعالى "إِنَّ" و اسمها و ثمّ، و ذكر الخبر، و مثله قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿أَيَعِدْكُمْ
أَنَّكُمْ إِذَا خِئْتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَمِعْظَمًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾⁵⁰

⁴⁶ سورة سبأ، الآية : 5

⁴⁷ أبو تمام " الدّيون"، شرح الخطيب التّبريزي، تحقيق محمد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط: 5، د.ت، مج: 1، ص: 306

إيليا الحاروي "شرح ديوان أبي تمام"، دار الكتاب اللبناني. بيروت، ط: 1، 1981 م، ص: 127

⁴⁸ البحري "الدّيون"، عني بتحقيقه و شرحه و التعليق عليه : حسن كامل الصّيرفي، دار المعارف، مصر، 1963 م، المجلد الثّاني، ص: 844

⁴⁹ سورة النحل، الآية : 110

⁵⁰ سورة المؤمنون، الآية : 35

لما طال الكلام كررت أنّ و اسمها ليناسب ذلك الإطناب⁵¹

و مثل هذا في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُثْمَدُوا بِمَا لَمْ يَمْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾⁵² يعني لا تحسبنّ الذين يفرحون أنفسهم فائزين، و قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ تأكيد بأنهم غير ناجين من العذاب بأيّ حال من الأحوال. يذكر الزمخشري أنّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ تأكيد تقريره: لا تحسبنّهم فلا تحسبنّهم ينحون من العذاب في الآخرة بل إنّ العذاب لا بدّ لهم منه.⁵³

قد يظنّ القارئ أنّ هذه الأبيات هي ممّا يدخل ضمن التكرار، و لكنها ليست كذلك. يقول ابن الأثير معلقاً على ذلك: "قد أمنت نظري فيها فرأيتها خارجة عن حكم التكرير، و ذلك أنّه لما أطلّ الفصل من الكلام، و كان أوّله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلّا به، فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأوّل مرّة ثانية، ليكون مقارناً لتمام الفصل، كي لا يجيئ الكلام منثوراً لا سيّما في "إنّ" وأخواتها" فإذا وردت "إنّ" و كان بين اسمها و خبرها فسخة طويلة من الكلام فإعادة إنّ أحسن في حكم البلاغة و الفصاحة"⁵⁴

فابن الأثير يرى أنّ تلك الآيات لم تكرر هكذا، و إنّما لأجل الفصل الذي كان يقع بين أجزائها، كانت تكرر بعض عباراتها حتّى لا يصير كلام الله و كأنّه نشر عادي، و حتّى يكون التوكيد نافياً لأيّ لبس يمكن أن يواجهه القراء.

و عليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة:⁵⁵

أ سحنا و قيدا و اشتياقا و غربة .. و نأي حبيب إنّ ذا لعظيم
و إنّ امرأ دامت موثيق عهده .. على مثل هذا إنّّه لكريم

⁵¹ ينظر: الكرمانى "أسرار التنزيل في القرآن"، ص: 115

⁵² سورة آل عمران، الآية: 188

⁵³ ينظر: الزمخشري "الكشاف"، ج: 1، ص: 219

⁵⁴ ابن الأثير "الملل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 21

⁵⁵ أبو تمام "ديوان الحماسة"، شرح العلامة التبريزي، ج: 2، دمشق، ص: 111

فقد أعيدت "إِنَّ" مرتين، لما طال الكلام بين اسمها و خبرها فلو لم يعد الشاعر ذكر "إِنَّ" لجاء الكلام بلا رونق، و لجاءت العبارة على هذا الشكل : و إِنَّ امرأ دامت موثيق عهده على مثل هذا لكریم"

و على هذا جاء قوله تعالى في سورة يوسف -عليه السلام-: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾⁵⁶، رأى سيدنا يوسف في منامه أحد عشر كوكبا، و الشمس و القمر له ساجدين ، فأخبر أباه يعقوب بذلك، فقد ورد لفظ الرؤية مرتين: الأولى حين قال: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ و الثانية حين قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، و هو إنما كرّر الرؤية تأكيداً لمنامه، و لعظمة رؤياه، و ورد في تفسير الكشاف أنّ هذا ليس تكراراً، إنّما هو مستأنف، فكأنّ يعقوب - عليه السلام - سأل عن حال الكواكب التي رآها يوسف، فأجابه بقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

و نجد في هذا المضمّن أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَأْتِيهِمْ أَتَّبِعُونِي أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَأْتِيهِمْ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾⁵⁷، وهي من باب تكرار اللفظ و المعنى للدلالة على معنى واحد، فهو إنّما كرّر النداء مخاطباً قومه منبهاً إيّاهم على أن يستيقظوا من غفلتهم و سباتهم، و يعلموا أنّ الله حقّ، و أنّ محمدا عبده و رسوله حقّ، و أنّ سيدنا موسى -عليه السلام- نبيّ الله إلى بني إسرائيل لأنهم زهدوا في الدنيا ، و آثروها على الآخرة، فصدّتهم عن سبيل الله ، و من ثمّ كذبوا موسى -عليه السلام- و أنّ الساعة لا ريب فيها ، فعليهم إذن أن يعملوا لدنياهم كأنّهم سيعيشون أبداً لأنها متاع الغرور، و أن يعملوا لآخرتهم كأنّهم سيّعيشون يوماً أو بعض يوم، و هي إحدى النصائح التي طلّبت منهاج المصلحين، و التي طالما التمسنا معانيها ممّا نزل من القرآن الكريم على ألسنة الرّسل.

⁵⁶ سورة يوسف، الآية : 4

⁵⁷ سورة غافر ، الآيةان : 38 و 39

و على نحو من هذا جاء قوله تعالى في سورة القمر: ﴿فَذُوقُوا مَذَابِي وَنُذِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾⁵⁸، فقد تكررت هذه العبارة الأخيرة كثيرا في هذه السورة، و ذلك لتنبيه الغافلين، و إيقاظهم من سهوهم و غفلتهم، و جعلهم معتبرين و متعظين، فلقد كرر تبارك و تعالى قوله: ﴿فَذُوقُوا مَذَابِي وَ نَذِرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

يقول الزمخشري معلقا على هذا التكرير، "فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبي من أنبياء الأولين أذكارا و اتعاطا، و أن يستأنفوا تنبها و استيقاظا، إذا سمعوا الحث على ذلك، و البعث عليه، و أن يقرع لهم العصا مرّات، و يقعق لهم الشنّ تارات لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة"⁵⁹.

و مثل هذا التكرار و ما ورد في قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾⁶⁰، حيث عدّد سبحانه و تعالى في هذه السورة نعماءه، و ذكر عباده بالآئه، و نبههم على قدرته، و لطفه بخلقه، ثم اتّبع ذك كلّ خلّة وصفها بهذه الآية، و جعلها فاصلة بين كلّ نعمتين، ليفهمهم النعم و يقرّره بها⁶¹.

و قد ورد مثل هذا عند أهل الجاهليّة، قال مهلهل يرثي أخاه كليباً:⁶²

على أن ليس عدلا من كليب : إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلا من كليب : إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلا من كليب : إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب : إذا خيف المخوف من الثغور

⁵⁸ سورة القمر، الآيات : 39 و 40

⁵⁹ ينظر الزمخشري "الكشاف"، ج : 6، ص : 59

⁶⁰ سورة الرحمن

⁶¹ ينظر أبو هلال العسكري "الصناعات"، ص : 200

⁶² محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البحايوي، محمد أبو الفضل إبراهيم "آيام العرب في الجاهليّة"، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا بيروت،

د. ط، 1942 م، ص : 157، 158

نزوى NIZWA مجلة فصلية ثقافية، رئيس مجلس الإدارة: سلطان بن حمد بن سعيد، البوسعيد، رئيس التحرير: سيف الرّجّي، منسق التحرير؛ طالب المعمرى، تصدر عن مؤسسة عمان للصحافة و الأنباء، و النشر و الإعلان، العدد الثاني و العشرون - أبريل - 1421 هـ. 2000 م، ص : 228

على أن ليس عدلا من كليب :. غداة بلابل الأمر الكبير
على أن ليس عدلا من كليب :. إذا وهبت رياح الزمهرير
على أن ليس عدلا من كليب :. إذا وثب المثار على المثير
على أن ليس عدلا من كليب :. إذا برزت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلا من كليب :. إذا علنت نجيات الأمور

لما قتل كليب، انتقم أخوه المهلهل بقتل بحير، فأرسل إليه الحارث: "إن كنت قتلت بحيرا
بكليب، و انقطعت الحرب بينكم و بين إخوانكم، فقد طابت نفسي بذلك". فأرسل إليه مهلهل:
إنما قتلته بشسع فعل كليب ! فغضب الحارث، و دعا بفرسه-و كانت تسمى النعامه، فجرّ
ناصيتها

و هلبّ ذنبها ثم قال: ⁶³

قربا مربط النعامه مني :. لقحت حرب وائل عن حيال
قربا مربط النعامه مني :. ليس قولي يراد لكن فعالي
قربا مربط النعامه مني :. جدّ نوح النساء بالأعوال
قربا مربط النعامه مني :. شاب رأسي و أنكرتني العوالي
قربا مربط النعامه مني :. للسرى والغدو و الآصال
قربا مربط النعامه مني :. طال ليلي على الليالي الطوال
قربا مربط النعامه مني :. لاعتناق الأبطال بالأبطال
قربا مربط النعامه مني :. و اعدلا عن مقام الجهال
قربا مربط النعامه مني :. ليس قلبي عن القتال بسال
قربا مربط النعامه مني :. كلما هبّ الريح ذيل الشمال
قربا مربط النعامه مني :. لبحير مفكك الأغلال
قربا مربط النعامه مني :. لكريم متوج بالجمال

⁶³ محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البحاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم "آيام العرب في الجاهلية"، ص : 157، 158

قرباً مربوط النعماء مني .: لا نبيع الرجال ببيع النعال
قرباً مربوط النعماء مني .: لبحير فداه عمي و خالي
مطلعها:

كل شيء مصيره للزوال .: غير ربي و صالح الأعمال

و قالت ابنة عم للنعمان بن بشير ترثي زوجها مكررة الشطر الأول خمس مرات: ⁶⁴
و حدثني أصحابه أن مالكا .: أقام و نادى صاحبه برحيل
و حدثني أصحابه أن مالكا .: ضروب بنصل السيف غير نكول
و حدثني أصحابه أن مالكا .: جواد بما في الرجل غير بخيل
و حدثني أصحابه أن مالكا .: خفيف على الحداث غير ثقيل
و حدثني أصحابه أن مالكا .: صروم كماضي الشفرتين صقيل
و نلتقي بليلي الأخيلى في رثائها لتوبة بن الحمير تقول: ⁶⁵

و لنعم الفتى يا توب كنت إذا التقت .: صدور الأعالي و استئصال الأسافل
و نعم الفتى يا توب كنت و لم تكن .: لتسبق يوما فيه تحاول
و نعم الفتى يا توب كنت لخائف .: أذاك لكي يحمي و نعم المجامل
و نعم الفتى يا توب جارا و صاحبا .: و نعم الفتى ياتوب حين تفاضل
لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده .: بحدو لولا لامت عليه العواذل
لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده .: و يكثر تسهيدي له لا أوائل
لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده .: و لو لام فيه ناقص الرأي جاهل
لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده .: إذا كثرت بالملحمين الثلاثل
أبى لك ذم الناس يا توب كلم .: ذكرت أمور محكمات كوامل
أبى لك ذم الناس يا توب كلما .: ذكرت سماح حين تأوى الأرامل
فلا يبعدنك الله يا توب إنما .: لقيت حمام الموت و الموت عاجل

⁶⁴ الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي "أملاني المرتضى"، ج : 1، ص : 126

⁶⁵ المصدر نفسه، ص : 124، 125

و لا يبعدنك الله يا توب إنَّها .: كذاك المنايا عاجلات و آجل
ولا يبعدنك الله يا توب و التقت .: عليك الغواصي المدجنات الهواطل

حيث خرجت النّاطمة (الرّائية) في هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار لاختلاف المعاني الّتي عدّناها، و إنّما حسن التّكرار ههنا لأنّ تحت كلّ لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى. بمعنى إنّما يحسن التّكرار لاختلاف ما يقرّره المرء فيه، و هذا كثير في كلام العرب.

"و إذا عدنا إلى أبيات المهلهل يمكن أن نلاحظ ما لاحظته بطرس البستاني، إذ قال : إنّ ميزة المهلهل الشعريّة هي في رثائه و تفجّعه على أخيه، في رقة عاطفته الّتي أكسبت شعره سهولة و ليّنا، ممّا جعل للمهلهل، أسلوبه الخاصّ في رثائه، تظهر فيه تعابيره الشّخصيّة، ثمّ التّكرار و الغلو. فهو شاعر العاطفة في رثائه و تفجّعاته المتصاعدة المتكرّرة⁶⁶
و كقول امرئ القيس:⁶⁷

ديار لسلمي عافيات بذني نّخال .: ألحّ عليها كلّ أسحم هطّال
و تحسب سلمى لا تزال ترى طلاً .: من الوحش أو بيضا بميثاء محلال
و تحسب سلمى لا تزال كعهدها .: بوادي الخزامى أو على رسّ أو عال
ليالي سلمى إذ تريك منصّبا .: وجيدا كجيد الرّيم، ليس بمعطال

ومثل هذا التّكرار مستحبّ من الشّاعر إذا كان في تغزّل أو نسيب، فهو مشتاق لا يجد عزاء لشوقه و عذابه، غير تردّاد اسم معشوقته، مثلما أورد امرؤ القيس في محبوبته سلمى و يقرّر بعضهم أنّه: " لا يجوز للشّاعر أن يكرّر اسما إلّا على جهة التّشوّق و الإستعذاب، إذا كان في تغزّل أو نسيب ، أو على سبيل التّنويه به إن كان في مدح، كما يفعل الشعراء المتغزّلون و المتكسّبون⁶⁸"

⁶⁶ مجلّة فصلية ثقافية "نزوى"، العدد : 22، 1421 هـ. 2000 م، ص : 229

⁶⁷ امرؤ القيس بن حجر الكندي "الديوان"، لأبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشّتمري، الشّركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع، الجزائر، د. ط، 1394 هـ. 1974 م، ص : 99، 100، 101

⁶⁸ د: محمد التّونجي "المعجم المفصّل في الأدب"، دار الكتب العلميّة، لبنان. بيروت، ط : 1، 1413 هـ، 1993 م، ج : 1، ص : 277

و قول قيس بن ذريح أيضا: ⁶⁸

ألا ليت لبني لم تكن لي خلة .: و لم تلقني لبني و لم أدر ما هيا

و قد تضمّن الشعر العربيّ هذا النوع كقول بعض شعراء ** الحماسة: ⁶⁹

إلى معدن العزّ المؤثّل و الندى .: هناك هناك الفضل و الخلق الجزل

فالملاحظ أنّ الشاعر قد كرّر اسم الإشارة "هناك" مرتّين و هو إطناب أبلغ من الإيجاز في

هذا الموضع لأنّ الشاعر في معرض مدح ⁷⁰، فهو يقرّر في نفس السّامع ما يتمتّع به ممدوحه من

خصال حميدة، و يؤكّد ذلك بتكراره الإشارة للمدوح.

و كذلك ورد قول المساور بن هند: ⁷¹

جزى الله خيرا غالبا من عشيرة .: إذا حدثان الدهر نابت نوائبه

فكم دفعوا من كربة قد تلاحمت .: عليّ و موج قد علتني غواربه

الشاعر هنا في مقام مدح واصفا جود هؤلاء القوم و كرمهم، حيث كانوا يقفون إلى جانبه كلّما

اسودّت الدنيا في وجهه، و تلاحمت الكرب عليه لذلك كرّر المعنى الموجود في الشطر الأوّل من

البيت الثّاني، في الشطر الثّاني من البيت نفسه للتعبير عن مراده.

نعرض الآن بيتا لأبي الطيّب المتنبيّ و هو قوله: ⁷²

العارض الهتن بن العارض الهتن اب .: من العارض الهتن ابن العارض الهتن

فقد زعم قوم أنّ في البيت تكرارا لا صالح له به، و يرى ابن الأثير ⁷³ أنّ ليس في البيت

الآنف الذّكر تكرار، لأنّ الشاعر إنّما كان يصف شخصا معيّنا بأنّه ذو نسب عريق، ذلك أنّ

كلمة "ابن" تستعمل عادة في النسبة، و بتعبير أدقّ حين ذكر النسب.

⁶⁸ أبو الفرج الأصبهاني "الأغاني"، تحقيق و إشراف: لجنة من الأدباء، دار الثقافة بيروت. لبنان، ط: 6، 1404 هـ . 1983 م، ج: 9، ص: 200

ابن رشيق القيرواني "العمدة في محاسن الشعر و آدابه"، تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت. لبنان، ج: 2، ص: 683

** و هو خلف بن خليفة زموزل قيس بن ثعلبة (شاعر إسلامي مجيد، محسن مقلّ، كان في زما جرير و الفرزدق)

⁶⁹ أبو تمام "ديوان الحماسة"، ج: 2، ص: 361

⁷⁰ ينظر: ضياء الدين بن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 24

⁷¹ أبو تمام حبيب بن أوس الطائي "ديوان الحماسة"، شرح العلامة التبريزي، مكتبة النوري، دمشق، د.ط، د.ت، ج: 2، ص: 308

⁷² المتنبي "الديوان"، ص: 172

⁷³ ينظر: ضياء الدين بن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 26

و نظير بيت المتنبي ما ورد في الحديث النبوي الشريف في وصف يوسف الصديق-عليه السلام- في قوله صلى الله عليه و سلم: "الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام"⁷⁴، و في هذا التكرار دلالة كبرى على عظمة سيدنا يوسف - عليه السلام-

2- القسم الثاني : غير المفيد، و نمثل له بقول مروان الأصغر:⁷⁵

سقى الله نجدا و السلام على نجد.: و يا حبذا نجد على النأي و البعد
نظرت إلى نجد و بغداد دونها.: لعلّي أرى نجدا و هيهات من نجد

و هذا ضعف من الشاعر في التأليف، حيث كرّر ذكر "نجد" ثلاث مرّات في البيت الأوّل، و ثلاثة أخرى في البيت الثاني، غرضه في الأوّل الثناء على نجد و مراده في الثاني أن تلفّت إليها ناظرا من بغداد، لكن أين هو من نجد.

إذ كان بإمكانه أن يبيّن فكرته بأسلوب آخر، دون اللجوء إلى كلّ هذا التكرار، ليفهم القارئ مقصوده دون أن يضايقه هذا التّرديد المملّ، وعلى الرّغم من ذلك فإنّا تغفّر للشاعر ما ورد من تكرار لكلمة نجد في البيت الأوّل كون الشّوق قد غطّى منطقة الإبداع لديه، أمّا و قد التفت إلى نجد و هي بعيدة عنه كلّ هذا البعد، و أخذ في ترديدها ثانيا و ثالثا، فذلك ممّا جعل الكثيرين من أرباب البيان يتفقون على قبّحه.

و نمثل هذا القبح قول أبي نوّاس:⁷⁶

أقمنا بها يوما ويوما و ثالثا.: و يوما له يوم التّرحّل خامس

⁷⁴ صحيح البخاري، ضبطه و رقمه و ذكر تكرار مواضعه و شرح ألفاظه و حمله، و خرّج أحاديثه في صحيح مسلم، و وضع فهرسه الدكتور :

مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة و النّشر و التّوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1992 م، ج : 3، ص : 1237

⁷⁵ أبو الفرج الأصبهاني "الأغاني"، مؤسسة عزّ الدين للطباعة و النّشر، المجلّد الرابع، ج: 11، ص: 3

⁷⁶ أبو نوّاس "الديوان"، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت، ص: 361

الإمام أبو القاسم عبد الرّحمن بن القاسم الرّجّاج "الأمالي في المشكلات القرآنيّة و الحكم و الأحاديث النبويّة"، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان،

د. ط، د. ت، ص : 93

فواعجابه ! كيف يأتي بهذا البيت القبيح، ليعبر عن أنه أقام في هذا المكان أربعة أيام
و يدخله ضمن تلك الأبيات الرائعة التي يقول في مطلعها:⁷⁷

و دار ندامي عطّلوها و أدلجوا .: بها أثر منهم جديد و دارس
و من هذا الباب أيضا ما عرضنا له عند الحديث عن تكرار اللفظ و المعنى معا، و هو قول
أبي الطيّب المتنبي:⁷⁸

و لم أر مثل جيرانني و مثلي .: لمثلي عند مثلهم مقام
فهذا تكرار فاحش يؤثّر في الكلام، و فيه نقص بائن من جانب الفصاحة، و البلاغة معا.⁷⁹
و من ذلك أيضا تكرار بعض الحروف التي تكسب الكلام ثقلا و تبعده عن رونقه كقول
الشاعر:⁸⁰

و قبر حرب .: يمكن قفر .: و ليس قرب قبر حرب قبر
فتكرار القافات و الرّاءات بهذا الشكل أكسب الكلام ثقلا، و جعل كلامه ركيكا، لا
يستصاغ؛ و الأمر مشهور في الموروث العربي حول هذا البيت.
و أقبح من ذلك قول المتنبي أيضا:⁸¹

و قلقلت بالهمّ الذي قلقل الحشا .: قلقل عيس كلّهنّ قلقل
فالقلائل ههنا تدلّ على معنى واحد، و على الرّغم من ذلك كرّرها في كلا الشّطرين، ممّا
أضفى على بيته قبحا غير مرغوب فيه.

II- ما يتكرّر معناه دون لفظه و هو قسمان :

هذا هو القسم الثّاني من أقسام التّكرار، و هو الآخر ينقسم إلى قسمين : مفيد و غير
مفيد.

⁷⁷ أبو نؤاس "الدّيان"، ص: 361

⁷⁸ المتنبي "الدّيان"، ص: 102

⁷⁹ ينظر: ابن القيم الجوزيّة "الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن و علم البيان"، دار الكتب العلميّة، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت، ص: 116

⁸⁰ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ "الدّيان و التّبيين"، تحقيق و شرح: محمّد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 3،

1388هـ. 1968م، ج: 1، ص: 65

الحافظ بن كثير "البداية و النّهاية"، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، د.ط، 1410هـ. 1990م، ج: 2، ص: 227

⁸¹ المتنبي "الدّيان"، ص: 34

القسم الأول : المفيد و هو نوعان.

١- النوع الأول : إذا كان التكرير في المعنى يدلّ على معنيين مختلفين.

و هذا النوع من التكرار قد يوهم سامعه أنّه يدلّ على معنى واحد، على حين أنّه يدلّ على معنيين مختلفين.

و ممّا ورد في هذا المجال حديث قتبية بن سعيد قال: "حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار قال: أخبرني الحسن بن محمد: أنّه سمع عبيد الله بن أبي رافع يقول: سمعت عليّاً -رضي الله عنه- يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلّم أنا و الزبير و المقداد، فقال: "انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ⁸²، فإنّ طعينة معها كتاب فخذوه منها". قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتّى أتينا الروضة، فإذا نحن بالطعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجنّ الكتاب، و لنلقينّ الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها⁸³، فأتانا به رسول الله صلى الله عليه و سلّم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة⁸⁴ إلى ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه و سلّم فقال رسول الله (ص): "يا حاطب، ما هذا". قال يا رسول الله، لا تعجل عليّ إنّني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً، و لم أكن من أنفسهما، و كان من معك من المهاجرين، من لهم قرابات يحمون أهلهم و أموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن آخذ عندهم يدا يحمون قرايتي، و لم أفعله ارتداداً عن ديني، و لا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلّم: "أما إنّّه قد صدقكم⁸⁵"

فقوله: "ما فعلت ذلك كفراً و لا ارتداداً عن ديني، و لا رضا بالكفر بعد الإسلام" من التكرار الممدوح في نظر ابن الأثير، و رأينا من رأيه، و ممّن يدعون البيان و هم لا يعرفون له طريقاً، من يظنّ أنّ هذا القول لا فائدة في تكراره، و يردّون ذلك إلى كون الكفر بالدين أو الإرتداد عنه

⁸² خاخ: موضع بين مكة و المدينة، به روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة، قال الأخص:

ليت لياليك من خاخ بعائدة: كما عهدت و لا أيام بذي سلم.

⁸³ العقبضة الصغيرة، و عقص الشعر ضفره على الرأس

⁸⁴ هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، حليف قريش، و يقال إنّّه من مذحج، و قيل هو حليف الزبير بن العوام، شهد بدر و الحديبية، و مات

سنة ثلاثين بالمدينة و هو ابن خمس و ستين سنة.

(80، 81، 82) عن ابن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 29، 30

⁸⁵ صحيح البخاري، ج: 4، باب غزوة الفتح، ص: 1557

سواء، و كذلك الكفر بعد الإيمان، و لكن الأمر غير ذلك، و كما يقول ابن الأثير أن: "الذي يدلّ عليه اللفظ هو أنّي لم أفعل ذلك و أنا كافر، أي باق على الكفر و لا مرتدّا، أي أنّي كفرت بعد إسلامي، و لا رضا بالكفر بعد الإسلام، أي و لا إشارا لجانب الكفار على جانب المسلمين، و هذا حسن في مكانه، واقع في موقعه"⁸⁶

و قد يرد من هذا التكرير ما يدلّ على معنى واحد، و قد استحسن التكرار في هذا المقام للدلالة على معنيين مختلفين، كونه قد اتهم بالكفر و الإرتداد ممّا اضطرّه لتكرير المعنى علّه يؤكّد إيمانه، و يدفع عنه ما رمي به من النفاق و عدم الإيمان.

و ممّا يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁸⁷، فالآية هاته تدلّ على معنيين أحدهما خاصّ و الآخر عامّ، حيث بإمكاننا اعتبار كلّ أمر بالمعروف خيرا، و لكننا لا نستطيع أن نعتبر أنّ كلّ خير هو أمر بالمعروف ذلك أنّ للخير مجالات واسعة من بينها الأمر بالمعروف، و الله سبحانه و تعالى إنّما ذكر الخاصّ بعد العامّ للتأكيد على فضل الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر و قد ذكر الزمخشري أنّ: "من" للتبيين بمعنى و كونوا أمة تأمرون"، و مثله قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾⁸⁸

و عن النبيّ صلى الله عليه و سلّم أنّه سئل و هو على المنبر: "من خير الناس؟ قال أمرهم بالمعروف و أنهاهم عن المنكر و اتقاهم لله و أوصلهم"

و عنه صلى الله عليه و سلّم: من أمر بالمعروف و نهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه و خليفة رسوله و خليفة كتابه"⁸⁹

و مثال ذلك أيضا، قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾⁹⁰

⁸⁶ ينظر: ضياء الدين بن الأثير "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"، ج: 3، ص: 31

⁸⁷ سورة آل عمران، الآية: 104

⁸⁸ السورة نفسها، الآية: 110

⁸⁹ الزمخشري "الكشاف"، ج: 1، ص: 191

⁹⁰ سورة البقرة، الآية: 238

و على الرغم من أنَّ الصَّلَاة الوسطى جزء من الصَّلَاة فإنه أفردتها بالذكر " ترغيبا فيها و تشديدا لأمرها"⁹¹، كما تقول :كَلَّمَنِي بِالْهَاتِفِ مَسَاءَ كُلِّ يَوْمٍ، وَ خَاصَّةً فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ*

و لقد خصَّ تعالى بمزيد من التأكيد (الصَّلَاة الوسطى)، و قد اختلف فيها أيَّ صلاة هي ؟ عن علي رضي الله عنه قال :قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يوم الأحزاب : " شغلونا عن الصَّلَاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا "⁹²، و هناك من قال أنها صلاة الظهر لأنها في وسط النهار، و من قائل أنها صلاة العصر لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم، و منهم من قال أنها صلاة المغرب كونها وتر النهار، و مهما يكن من أمر فإنَّ الصَّلَاة جملة تنهى عن الفحشاء و المنكر و البغي⁹³.

و قوله تعالى :﴿إِنَّا مَرْضَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾⁹⁴، فالجبال من جملة الموجودات الكائنة على وجه الأرض، و لكنَّه تعالى ذكر لفظ الأرض باعتباره عامًّا، و لفظ الجبال باعتباره خاصًّا، و الغرض من وراء ذلك التعبير عن عظم الأمانة المعروضة و هولها حتّى أنَّ السَّمَاوَاتِ و الأرض رفضن حملها. و قد مثل الرَّخْشَرِي لذلك بقول الشّاعر :

أخوك الذي لا تملك الحسَّ نفسه :. و ترفض عند المحافظات الكتائف

فهو يذل كلَّ ما لديه من رقة و عطف، و لا يمسكها إمساك الضَّئِين (البخيل) و يقال : "إنَّما بضنَّ بالضَّئِين" و هو مثل معناه أنّه يجب التمسُّك بإخاء من يتمسُّك بإخائك⁹⁵. و كقوله تعالى أيضا :﴿فِيهِمَا فَالْكِهْ وَنُحْلٌ وَرَمَانٌ﴾⁹⁶، فالبشر جميعهم يدخلون النُّحْل و الرَّمَان تحت اسم الفاكهة، و لكنَّه سبحانه و تعالى أفردهما مثلما أفرد الفاكهة التي هي

⁹¹ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري "تأويل مشكل القرآن"، شرحه و نشره السيّد : أحمد صقر، المكتبة العلميّة، د. ط، د. ت،

ص : 240

و في تخصيص الصَّلَاة الوسطى بالمحافظة تنبيه على فضلها ، و التّنبويه بشأنها الخاصّ.

ينظر: د. عبد العزيز عتيق " في البلاغة العربيّة " علم المعاني - البيان - البديع، دار النهضة العربيّة للطباعة و النّشر ، بيروت، د. ت، ص : 183

⁹² عبد العظيم بن بدوي " الوجيز في فقه السنة و الكتاب العزيز "، ص : 61 .

⁹³ الرَّخْشَرِي " الكشّاف"، ج: 1، ص : 139

⁹⁴ سورة الأحزاب ، الآية : 72

⁹⁵ ينظر: الرَّخْشَرِي "الكشّاف"، ج: 5، ص : 57

⁹⁶ سورة الرّحمن، الآية : 68

لفظ عام "الفضلهما و حسن موقعهما"⁹⁷، و هنا تظهر بلاغة اللغة العربيّة التي تلجأ للتكرار قصد بيان مزية معيّنة.

و مثاله في الشّعْر كثير منه قول المقنّع الكندي من أبيات الحماسة :⁹⁸
و إنّ الذي بيّني و بين بني أبي .: و بين بني عمّي لمختلف جدّا
إذا أكلوا لحمي وقرت لحومهم .: و إن هدموا محدي بنيت لهم مجدّا
و إن ضيّعوا غيبي حفظت غيوبهم .: و إن هم هووا غيبي هويت لهم رشدّا
و الغرض من وراء هاته الأبيات زيادة تأكيد الخاصّ، فالشاعر عازم على أنّ لا يردّ السوء بالسوء، و ربّما كان من جملة الذين يعتبرون الإنتقام أوّل مظاهر الضّعف ، و أنّ التسامح هو أكبر مراتب القوّة و هم قلة في وقتنا هذا .

و من أمثلة ذكر الخاصّ بعد العامّ قول حسّان بن ثابت:⁹⁹

إنّ شرخ الشّبّاب و الشّعْر الأسود .: سود ما لم يعاص كان جنوبا

فالشّعْر الأسود من علامات الشّبّاب، و على الرّغم من ذلك ذكره الشاعر لغرض التّوكيد، و حسن كلامه لأنّ المعنى داخل في صنوه، و الألفاظ مختارة.
ب-النوع الثاني :

إذا كان التّكرير في المعنى يدلّ على معنى واحد لا غير كقولك : "أطعني و لا تعصني"، فإذا ما نهينا عن العصيان فنحن إنّما نؤمر بالطّاعة، فأنت تلاحظ أنّ التّكرار الذي حدث في المعنى يدلّ على معنى واحد، و الغرض من وراء ذلك تأكيد الطّاعة و تثبيتها في نفوس السّامعين.

و الحديث عن تكرار المعنى للدّلالة على معنى واحد، كالحديث عن تكرار اللفظ و المعنى للدّلالة على غرض واحد ألا و هو التّأكيد مثال ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ

مِنَ آيَاتِكُمْ وَأَوَّلَآئِكُمْ مَخْدُوءًا لَّكُمْ فَاخْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّوْا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ

اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾¹⁰⁰

⁹⁷ ابن قتية "تاويل مشكل القرآن"، ص : 240

⁹⁸ أبو تمام "ديوان الحماسة"، ج: 2، ص : 38

⁹⁹ حسّان بن ثابت "الديوان"، مطبعة السّعادة، القاهرة، 1331 هـ، ص: 414

¹⁰⁰ سورة التّغابن، الآية : 14

فالمعروف أنَّ العفو و الصَّفح و المغفرة بمعنى واحد، و لكنَّه سبحانه و تعالى كرَّر المعنى نفسه ثلاث مرَّات لزيادة تثبيت العفو في قلب الوالد على ولده، الزَّوج عن زوجته.

ورد في تفسير الزَّخْشَرِي، وفي تفسير القرآن العظيم، لابن كثير أنَّ من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهنَّ و يخاصمنهم و يجلبن عليهم ، و يلهونهم عن العمل الصَّالح، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾¹⁰¹

و من الأولاد أولادا يعادون آباءهم و يعصون أمرهم، و يجرَّعونهم الغصص¹⁰² و مثل هذا في القرآن كثير كقوله سبحانه و تعالى في سورة يوسف - عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾¹⁰³

فالبثَّ و الحزن بمعنى واحد، و إنَّما كرَّره ههنا لأنَّه حزن عظيم لا يصبر عليه حتَّى يبتَّ إلى النَّاس¹⁰⁴، فهو يشكو خزنه إلى الله ، فإلى غيره لا تنفع الشَّكوى و يحضرنا هنا قول الشَّاعر:

لا تشك للنَّاس جرحاً أنت صاحبه : لا يؤلم الجرح إلا من به ألم

و هكذا فالشَّكوى لغير الله لا تجدي نفعاً.

يذكر الزَّخْشَرِي في تفسيره أنَّ البثَّ - من أصعب الهموم التي يتلى بها الإنسان - فلا يصبر عليه

و يشكوه لغيره، و لما تكاثرت الهموم على سيِّدنا يوسف و هو يؤدِّي رسالته، سأل ربَّه و شكى أمره، لأنَّه يعلم أنَّ الشَّكوى لغير الله مذلَّة، و أنَّ المشركين لن يتراجعوا عن شركهم مهما أظهر لهم هذا الدِّين¹⁰⁵

و كذلك قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِيهَا الْحَجُّ وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكُمْ﴾¹⁰⁶

¹⁰¹ سورة المنافقون، الآية : 9

¹⁰² ينظر: الزَّخْشَرِي "الكشاف"، ج: 6، ص: 121

¹⁰³ سورة يوسف، الآية : 86

¹⁰⁴ ينظر: تفسير الإمامين الجليلين : جلال الدِّين السيوطي، و جلال الدِّين المحلي، حققه و نسَّقه : الشيخ " محمد الصَّادق القمعاوي"، مكتبة

رحاب، نهج روسيني ساحه نور سعيد، الجزائر، د.ط، د.ت، ص : 202

¹⁰⁵ ينظر: الزَّخْشَرِي "الكشاف"، ج: 3، ص: 91

أراد عزّ وجلّ توكيد ما أوجبه على الحاجّ من الصّيام بجمع العدد ثلاثة و سبعة، وذكرهما بمجملين حيث أكدهما بقوله: ﴿تِلْكَ مَشْرَقَةُ كَاهِلَةٍ﴾، و نجد أنّ هناك توكيدين في هاتيه الآية الكريمة، أولاها قوله تعالى: ﴿مَشْرَقَةُ﴾ و ثانيهما قوله: ﴿كَاهِلَةٍ﴾، وقوله عزّ وجلّ أيضا:

﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾¹⁰⁷، كما تقول العرب: رأيت بعيني، و سمعت بأذني، و كتبت بيدي.

و في قوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ زيادة في التّعميم و الإحاطة، كأنّه قيل: فما من دابة في الأرض و لا طائر قطّ في السّماء إلّا أمم أمثالكم، كلّ ما يفعلونه يعلمه الله، و الغرض من وراء ذكر ذلك كلّ الدّلالة على عظمة الله و قدرته التي لا تضاهيها أيّة قدرة لا في السّماوات و لا في الأرض.

و كذلك ورد قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾¹⁰⁸

فالعداوة و البغضاء بمعنى واحد، و إنّما وردتا في معرض واحد لتؤكد أنّ إبراهيم - عليه السلام - و الذين آمنوا به قد تبرّأوا من الذين كفروا من قومهم و اتّخذوا مع الله إله آخر، قل الأمر كلّّه لله و ما تعبدون من دونه، إلّا كلّ كفّار أثيم ما له من نفع و لا ضرر.

و مثله قوله عزّ وجلّ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقَمُ مِنْ قَوْمِهِمْ﴾¹⁰⁹، فقوله: ﴿مِنْ قَوْمِهِمْ﴾ تأكيد للكلام، و زيادة في البيان، و كما قال تعالى أيضا: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾¹¹⁰،

و القلب لا يكون إلّا في الصّدر و نظائر ذلك في القرآن و كلام العرب كثيرة.

¹⁰⁶ سورة البقرة، الآية: 196

¹⁰⁷ سورة الأنعام، الآية: 38

¹⁰⁸ سورة الممتحنة، الآية: 4

¹⁰⁹ سورة النحل، الآية: 26

¹¹⁰ سورة الحج، الآية: 46

و كلّ ما ورد في القرآن الكريم، إنّما هو لحكمة يريدّها الله، و مهما يحاول المفسّرون سبر أغوار ينبوع المعارف هذا، فإنّهم لن يصلوا إلى ما أَراده من عزف بإبداع هذه المعزوفة الكونيّة الرائعة،

و إن كشفوا بعض معاني كلامه فإنّ الكثير منه يبقى خافيا عليهم، و لن يصلوا إلى فكّ رموز هاته المعزوفة ؛ و كيف السبيل إليها، و يده فوق أيدينا جميعا، و علمه فاق المطلق.

ومّا ورد في هذا المجال شعرا قول الشاعر:¹¹¹

نزلت على آل المهلب شاتيا .: بعيدا عن الأوطان في زمن المحل
فما زال بي إكرامهم و افتقادهم .: و إحسانهم حتّى حسبتهم أهلي
فالإكرام داخل تحت الإحسان، و إنّما كرّر ذلك للتّنويع بكرم آل المهلب، فقد أحسنوا إليه،
و كأنّهم أهله و ليسوا غرباء عنه، و هي شيمة-الكرم- يتّصف بها معظم أهل البوادي إن لم أقلّ كلّهم.

و منه أيضا قول الأعشى في قصيدة له يمدح بها النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم قال:¹¹²

فأليت لا أرثي لها من كلاله .: و لا من حفي حتّى تزور محمّدا
فإنّ الوجى و الكلاله معناهما واحد، و الشاعر إنّما كرّر المعنى ذاته ههنا، ليعبّر عن بعد المسافة، و التّكرار هنا مستحسن لأنّه لجأ إليه ضرورة.

¹¹¹ أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التّبريزي "شرح ديوان الحماسة"، تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، مطبعة مجازي، القاهرة، د.ط، د.ت،

ج:1، ص: 291

¹¹² الأعشى "الديوان"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 46

القسم الثاني : غير المفيد من التكرار و منه قول أبي تمام :¹¹³

قسم الزّمان ربوعها بين الصّبا .: و قبولها و دبورها أثلاثا

فقد اتفق أنّ معنى الصّبا و القبول واحد، فمنهم من أجاز هذا التكرار، و منهم من اعتبره قبحا في الكلام.

و قريب من هذا البيت ورد قول ابن هانئ الأندلسي المغربي :¹¹⁴

سارت به شيع القصائد شرّدا .: فكأنما كانت صبا وقبولا

فالصّبي هي القبول - كما ذكرنا-، و كأنّ الشاعر قد قال: "فكأنما كانت صبا صبا"، أو قال : فكأنما كانت "قبولا قبولا".

و ليس ذلك مثل التّكرير في قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾¹¹⁵ ، و الذي كرّر فيه اللفظ و المعنى ، و لا مثل التّكرير في قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وكلّ آية تشتمل على معنيين ، أحدهما خاص و الآخر عام كما ذكرنا آنفا.

أمّا ما جاء في قولي أبي تمام و ابن هانئ فيشتملان على معنى واحد لا غير.

و قد تعددت وجهات نظر أرباب البيان حول هذا النوع من التكرار ، و معظمهم أجازاه حيث يرون أنّه إذا كانت الألفاظ مختلفة، و المعنى المعبر عنه واحدا ، فالتكرار إذ ذاك ليس عيبا¹¹⁶.

و يرى ابن الأثير أنّ : "النّاثر يعاب على استعماله مطلقا إذا أتى لغير فائدة، أمّا الناظم فإنّه يعاب عليه في موضع دون موضع، أمّا الموضع الذي يعاب استعماله فيه فهو صدور الأبيات الشعريّة و ما والاها، و أمّا الموضع الذي لا يعاب فيه فهو الأعجاز من الأبيات ، لمكان القافية ،

¹¹³ أبوتمام "الديوان" شرح الخطيب التبريزي، تحقيق : محمّد عبده عزّام، دار المعارف ، د.ط، 1964م، مج : 1، ص: 312، و البيت من قصيدة

مدح بها مالك بن طوق و مطلعها : ص: 311

قف بالطلول الدّارسات علانا .: أمست جبال قطيّنهنّ رثانا

¹¹⁴ ابن هانئ "الديوان"، دار صادر ، بيروت ، 1362هـ - 1972م ، ص: 271

¹¹⁵ سورة البقرة، الآية : 238، ينظر ابن القيم الجوزية "الفوائد المشوّق" ، ص: 114 ، و ابن الأثير "المثل السائر"، ج: 3، ص: 40

¹¹⁶ ابن الأثير "المثل السائر" ، ج: 3، ص: 40

و إنما جاز ذلك و إن لم يكن عيباً، لأنّه قافية، و الشاعر مضطرّ إليها، و المضطرّ يحلّ ما حرم عليه¹¹⁷.

فأنت حين تقول : وصلتني رسالتك بعد تأخير و إبطاء و طول انتظار¹¹⁸، فهاته الألفاظ ذات معنى واحد، و مع ذلك يميزون ذكرها على هذا النحو، لأنّ المخاطب يريد أن يقرر في نفس المخاطب طول مدّة انقطاع رسائله عنه .

و مثل قولك: هذا قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي مطلعها:¹¹⁹

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي .: و هل يعمن من كان في العصر الخالي

حين قال :¹²⁰

و هل يعمن إلّا سعيد مخلّد .: قليل الهموم ما يبيت بأوجال

بعد أن حيّا الشاعر الطلل و هم أهله، و دعي لهم بالنعيم راح يخبرنا عن أنّه لو لم يتفرّق شمل أهله عنه ما عانى كلّ هذا الفزع و الخوف، و لذلك لما كرر المعنى هاهنا لم يعتبره أهل البيان ضعفاً، و لكنهم قالوا بأنّ الموقف يتطلّب ذلك.

و عليه ورد قول الخطيئة :¹²¹

قالت أمانة لا تجزع فقلت لها .: إنّ العزاء و إنّ الصبر قد غلبا

هلاً التمسّت لنا إن كنت صادقة .: مالا فيسكننا بالخرج أو نشبا

فقد عاب البلاغيون على الشاعر تكراره العزاء و الصبر في البيت الأوّل لأنّ معناهما واحد، و لم يردا قافية مثلما الشأن في بيت امرئ القيس ، أمّا البيت الثاني فلم يعب لأنّ التكرار ورد في النشب و هو قافية .

و مثل ذلك أيضاً قول المنخل اليشكري :¹²²

¹¹⁷ المصدر نفسه ، ج : 3 ، ص : 40

¹¹⁸ ينظر: ابن القيم الجوزية "الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن" ، ص : 114

¹¹⁹ امرؤ القيس "الدّيان" ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، د.ط، 1392هـ. 1972م، ص : 139

¹²⁰ المصدر نفسه، ص : 139

¹²¹ الخطيئة "الدّيان" ، رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي و أبي عمرو الشيباني ، شرح أبي سعيد الشكري ، دار صادر ، بيروت ، د.ط،

1387هـ. 1967م ، ص : 17

و لقد دخلت على الفتاة :. الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء تر :. فل في الدّمقس و في الحرير

و على الرّغم من أنّ الشاعر استعمل كلمتين ذات معنى واحد، و في شطر واحد فإن أهل
البيان قد جوّزوا له ذلك لأنّه ورد قافية ، و المنخل إنّما أراد أثوابا من الإبريسم ، و لم يرد خيوط
من الإبريسم ، و لو أراد هذه الأخيرة لفسد المعنى لأنّ المرأة إنّما ترفل في أثواب من الإبريسم
و ليس في خيوط منه¹²³.

و على نحو منه قول الآخر من شعراء الحماسة ، و هو الهديل بن مشجعة البولاني¹²⁴

إنّي و إن كان ابن عمّي غائبا :. لمقاذف من خلفه و ورائه

فخلف و وراء بمعنى واحد، و لكن أجيز له تكرارهما لأنّهما قافية.

و ممّا يجري على هذا المنحى قول أبي تمام :¹²⁵

دمن كأّنّ البين أصبح طالبا :. دمننا لدى آثارنا و حقوقنا

فالدّمنة و الحقد معناهما واحد ، و لم يكسبا المعنى رداءة مع ذلك .

و من ذلك أيضا قول أبي الطيّب المتنبي :¹²⁶

بحر تعود أن يذمّ لأهله :. من دهره و طوارق الحدثان

فتركته و إذا أدم من الورى :. راعاك و استثنى بني حمدان

فالدّهر و طوارق الحدثان سواء، و إنّما جاز استعمال ذلك لأنّه قافية¹²⁷.

و أورد عنزة بيتا في ثنايا معلقته التي مطلعها :¹²⁸

هل غادر الشعراء من مزلّم :. أم هل عرفت الدار بعد توهم

¹²² أبو تمام "ديوان الحماسة" ، ج: 1 ، ص: 204 ، معنى البيت : دخلت على الفتاة الجامعة للمحاسن و هي تختال في لباس الحرير الأبيض

و غير الأبيض

¹²³ ينظر: ابن الأثير "المثل السائر" ، ج: 3 ، ص: 42

¹²⁴ أبو تمام "ديوان الحماسة" ، ج: 2 ، ص: 249

¹²⁵ شرح ديوان أبي تمام ضبط معانيه و شروحه و أكملها إيليا الحاروي، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط: 1 ، 1981م ، ص: 175

¹²⁶ المتنبي "الديوان" ، ص: 416

¹²⁷ ينظر: ابن الأثير "المثل السائر" ، ج: 3 ، ص: 43

¹²⁸ عنزة "الديوان" ، قام بتحقيقه شرحا و تقييما و تحديدا ، الأستاذ : خليل شرف الدين ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط: 1 ، 1988م ،

ص: 52، 53

حييت من طلل تقادم عهده .: أقوى و أقفر بعد أمّ الهيثم

فقد عيب على عنزة قوله : "أقوى و أقفر" "لأنّهما وردتا بمعن واحد لغير ضرورة ، إذ الضرورة لا تكون إلّا في القافية"¹³⁰ .

و ممّا ورد في صدور الأبيات قول البحري مادحا :¹³¹

ألّمت و هل إمامها لك نافع .: و زارت خيالا و العيون هواجع

فقوله : "ألّمت" في الشطر الأوّل هو ذات قوله : "زارت خيالا" في الشطر الثاني من البيت نفسه ، فطيف المحبوبة قد زاره في المنام لا في اليقظة ، لأنّه لو زاره في يقظته لما قال متسائلا : "ألّمت و هل إمامها لك نافع ؟".

و بناء على ما سبق ذكره يمكننا القول أنّ لغة العرب تعرف التكرار في المواطن المهمّة ، الّتي تحتاج إلى تأكيد أو تقرير ، فقد قيل : " من أدام قرع الباب و لج " ، و على هذا فالتكرار "لا يجب أن يقع في المعني إلّا بمراعاة اختلاف ما في الحيزين اللّذين وقع فيهما التكرار من الكلام"¹³² .

و يبيّن الجاحظ أهمية التكرار ، و دوره في الحياة اليومية للأفراد و الجماعات ، حيث يقول : " و لو أنّ أقبح الناس وجهها و أنتنهم ريحا ، و أظهرهم فقرا ، و أسقطهم نفسا ، و أوضعهم حسبا ، قال لامرأة قد تمكّن من كلامها و مكنته من سمعها : و الله يا مولاتي و سيّدتي ، لقد أسهرت ليلي ، و أرقّت عيني ، و شغلّتي عن مهمّ أمري ، فما أعقل أهلا ، و لا مالا ، و لا ولدا ، لنقض طباعها و لفسخ عقدها ، و لو كانت أبرع الخلق جمالا ، و أكملهم كمالا ، و أملحهم ملحا " و انطلاقا من النص ، نجد أنّ التكرار عند الجاحظ قد يغير ما جبلت عليه

¹²⁹ المصدر نفسه ، ص : 53 ، أبو زيد محمّد بن أبي الخطاب القرشي "جمهرة أشعار العرب" ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، 1400هـ .

1980م ، ص : 161

¹³⁰ ابن الأثير "المثل السائر" ، ج : 3 ، ص : 43

¹³¹ البحري "الديوان" ، دار صادر ، بيروت ، د.ط. د.ت. ، مج : 1 ، ص : 84

¹³² أبو الحسن حازم القرطاجي "منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تقديم و تحقيق محمّد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط : 2 ،

1981م ، ص : 36

* أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ "الحيوان" ، ج : 1 ، تحقيق و شرح : عبد السلام محمّد هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت . لبنان ، ط : 3 ،

1388هـ . 1969م ، ص : 169 ، 170

النفوس، و ما انعقدت عليه الطباع من الإنجذاب نحو كلّ جميل و الابتعاد عن كلّ قبيح؛ و هكذا
فالتكرار عنده ينال حتى من النفوس المنيعّة.

بعد أن تحدّثنا عن التكرار عند النحويين، و عرضنا له بين بلاغة العرب و الأسلوب
القرآني، و جب علينا ان نعرض الآن لأوجه التأثير و التأثير بينهما.

و محاولة التماس أوجه التقارب بين الدراسة النحوية و الدراسة البلاغية، هي في حدّ ذاتها
موازنة بن علم النحو و علم المعاني، لأنّهما - كما أشرنا سابقا - يشتركان في موضوع الدّرس
و هو الجملة.

و قبل أن نخوض في معالجة جوانب التأثير و التأثير، نلفت الإنتباه إلى أنّ من البلاغيين من
هو نحوي في أصله كالإمام عبد القاهر الجرجاني، فهو يجمع في تصانيفه بين النحو و البلاغة،
و كذلك الزمخشري الذي يملك باعا و اسعا في مجال النحو، و لعلّ ذلك الذي مكنه من سير أغوار
الفنون البلاغية في تفسيره للقرآن الكريم.

مما لا يتناقش فيه إثبات أنّ اللاحق دائما يتخذ من السابق قدوة له في أي مجال كان، و لما
كانت الدراسات البلاغية متأخرة من حيث الوجود عن الدراسات النحوية - كما أسلفنا الذكر -
كان من المنطقي أن يتأثر البلاغيون بالنحاة معالجتهم لموضوع دراستنا الذي هو التكرار كما
عرف عند البلاغيين، و التوكيد كما نعتة النحاة.

فالبلاغة تركز على جانب المعنى، و هذا الأخير لا يقوم إلّا في ضوء الدراسة النحوية التي
تعتمد على الجانب التنظيمي للكلام فالنحو (صرف و إعراب) ينطلقان في تحديد الكلام الذي -
حتما- ينجر عنه معنى. و موقع البلاغة بالنسبة لهذه التنظيمية هو الكاشف لمعاني هذا التنظيم،
و لا أعتقد أنّ هناك اختلاف بين العلمين بقدر ما هي عملية تكاملية بينهما؛ بمعنى أنّ النحو
روحه البلاغة، و البلاغة قوامها النحو، لهذا نجد التداخل بينهما في الدراسات القديمة، و الدراسات
الحديثة على السواء.

و هكذا يمكننا القول أنّ النحو هيكل أساسي كونه يتعلق بالأبنية التركيبية المؤلفة من
مجموع أبنية إفرادية، أمّا البلاغة فلا تكون إلّا ضمن تركيب خاص، يعني أنّ بلاغة و فصاحة
المفردات لا يمكن أن تحقق خارج التركيب بأيّ حال من الأحوال.

و على هذا فالعلاقة بين النحو و المعنى لا جدال فيها ، فالنحو مجاله علاقة المفردات بعضها ببعض في الجمل المختلفة، أمّا البلاغة فهي امتداد للنحو، لأنها تتناول القواعد عند استعمالها بالفعل أفرادا و تركيبا، فتبحث في العلاقة بين الألفاظ من جهة ، و المقصود من استعمالها من جهة ثانية، و إذا جاز الفصل بين النحو و البلاغة ، فإنّما هو فصل مؤقت تفرضه ضرورة البحث أو مناهج التعليم لا غير.¹³³

¹³³ ينظر: صالح بلعيد " التراكيب النحوية و سياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني "، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ،

الفصل الثالث

شمولية التكرار في القرآن الكريم

I - التكرار في القرآن الكريم :

لقد كان القرآن الكريم و لايزال معجزة بيانية لكلّ الناس، حيث أثار منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية واسعة؛ مما دعا العرب إلى الالتفات إليه، لما جاء به من جديد في أساليبه، فانشدّت أسماع العرب و أفئدتهم بجماله البياني و دقته العلمية، و من ثمة علا على سائر أضرب الكلام، فهو لم يشذ مرة واحدة عن مراعاة أدقّ الكيفيات و الإعتبارات في البلاغ و البيان.

فقد روي عن أبي عبيدة أنّ أعرابيا سمع رجلا يقرأ هذه الآية الكريمة : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾¹، فسجد و قال : سجدت لفصاحته و سمع آخر يقرأ قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾²، فقال : " أشهد أنّ مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام "3.

و في رواية أخرى أنّ أدبيا بدويا هوى إلى السجود إذ سمع آية : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ و هي تتلى فقالوا له: هل أسلمت ؟ قال : لا، و لكن سجدت لبلاغة هذه الآية⁴ و قوله هذا ينمّ عن ذوق رفيع.

1- صفات التوكيد :

لا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوبه الخاصّ به، ذلك أنّ الكلام الإلهي يباين الكلام البشري و يبعد عنه إلى ما لا نهاية، و مع أنّ القرآن الكريم لم يخرج عن مألوف العرب في لغتهم، فمفرداته مفرداتهم، و جملة جملهم، و قواعد صوغه قواعدهم. من حروف العرب تألّفت كلماته و من كلماتهم تألّفت تراكيبه، و على قواعدهم جاء تأليفه، و مع هذا فقد أعجزهم، بأسلوبه الفذّ، و مذهبه الكلامي المعجز، و تعبيره الرّاقّي، و لو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يلتمس لهم عذر، و أن يسلم لهم طعن، أو شبه طعن؛ قال تعالى :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾⁵.

¹ سورة الحجر، الآية : 94

² سورة يوسف، الآية : 80

³ محمد السيد شيعون " الإعجاز في نظم القرآن "، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط : 1، 1398 هـ. 1978 م، ص : 10

⁴ بدیع الزّمان سعید النورسي " مجموعة عصا موسى "، دار ابن زيدون، بيروت، ط : 1، 1407 هـ. 1987 م، ص : 265

⁵ سورة يوسف، الآية : 2

أما وقد جاء بلغتهم فعجزوا عن أن ينشئوا آية واحدة من إبداعهم يشبه أسلوبها أسلوبه
و تتحدّى بيانه، فلا عذر يقبل منهم، فالله الذي انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق، هو
وحده القادر على تضمين كلامه كلّ المناسبات التي اقتضتها الأحوال الكثيرة التي لم ولن يحيط
بها سواه.

إنّ محاولة استجلاء مظاهر الإعجاز في آيات القرآن الكريم يحتاج إلى تأمل العقل الثابت،
و صفاء الشعور المؤمن⁶.

و إذا كان القرآن قد أذهل العرب و خرّ لهم بلغائهم وجّها لهم ساجدين، فإنّ هناك معنى
دقيقا في التحدّي ما نظنّهم إلّا و قد بلغوا منه عجبا؛ و هو التكرار الذي نجده في معظم آياته
بعبارات مختلفة و لكنّ أصل المعنى واحد، كالذي نجده في بعض قصصه لتوكيد الزجر و الوعيد،
وبسط الموعظة، و تثبيت الحجّة و نحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة، و تريد المنّة،
و التذكير بالنعم، و اقتضاء شكره.

فترديد الكلام حول معنى واحد في آيات مختلفة تتشابه لفظا و معنى، فصاحة و بلاغة، سرّ
من أسرار القرآن، و ضرب من ضروب القدرة الكلاميّة اختصّ بها القرآن حيث تنبل الأغراض،
و تبلغ المقاصد التي سيق لها الكلام قمم الرّفعة و السّموّ؛ الأمر الذي لمثله يستطاب التكرار،
و سجّل بفضله على العرب عجزهم بالفطرة عن معارضته "لقوّة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلّا
توهّما، و لضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلّا بهذه القوّة، لأنّ المعنى الواحد يتزّدّد في أسلوبه
بصورتين أو صور كلّ منهما غير الأخرى وجّها أو عبارة و هم على ذلك عاجزون عن الصّورة
الواحدة، و مستمرّون على العجز لا يطيقون و لا ينطقون، فهذا لعمر ك أبلغ في الإعجاز؛ و أشدّ
عليهم في التحدّي، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسي الذي قد تمكّن معه الإستطاعة
أو تنهيا المعارض حيناً بعد حين، إلى العجز الفطري الذي لا يتأوّل فيه المتأوّل و لا يعتذر منه
المعتذرون، و لا يجري الأمر فيه على المسامحة"⁷.

⁶ ينظر: سالم الفاندي "من مظاهر الإعجاز القرآني" - عزيان - الجماهيرية العظمى، العدد التاسع، 1992م، ص: 170 (مجلة كلىة الدعوة الإسلامية).

⁷ مصطفى صادق الرافعي "إعجاز القرآن و البلاغة النبويّة"، دار الكتاب العربي . لبنان . بيروت، د. د. ط، د. د. ص: 194.

و كيف لا يقفون أمامه عاجزين و هو منبع الطّاقة، و منبع التّلقّي الصّافي الذي سارت
أمتنا على هديه و لا زالت تحتّمى بظّله، فالقرآن الكريم معجز في بناءه التّعبيري، و تنسيقه الفنّي،
فتعبيره يستقيم على خصائص واحدة في مستوى واحد؛ لا يختلف و لا يتفاوت، و لا تختلف
خصائصه كما هو الحال في أعمال البشر، ففي كلام البشر تبدو القمم و السّفوح، التّوفيق
و التّعثر، القوّة و الضّعف، التّحليق و الهبوط، الإشراق و الإنطفاء إلى غير هاته الظّواهر التي تبرز
النّقص البشري أيّما بروز، و لعلّ أخصّها " التّغيير و الاختلاف " الدّائم من حال إلى حال و هذا
عكس الظّاهرة الملحوظة في كتاب الله جلّ شأنه⁸.

و مع كلّ ما جاء به القرآن و ما حواه من عجيب لفظ و دقيق معنى، إلّا أنّ بعض
الملاحدة و أشباههم من الذين لا يعرفون للعلم طريقا حاولوا معارضته فلمّا فشلوا في ذلك رأوا أنّ
أحسن طريقة للخلاص من تأثيره هو صرف النّاس عن سماعه، و هم يقفون موقف المعاند ممّن
يقول للشّيء كن فيكون، و قد نعتوا تصريف القول في القرآن بأنّه كلام مكرّر لا يفيد آية غاية،
و لا يصل إلى آية نتيجة؛ ذلك أنّهم متأخّروا المعرفة، بليدو الأذهان، و ما نظنّ أنّ أحدهم يمكن أن
يبلغ صفة هذا الوجه المعجز، أو يهتدي إليه إلّا أن يكون وحيّا يوحى إليه.

إنّ الشّيء إذا عرف دفعة واحدة، و لم تتقدّم لذة معرفته ألم، لم يكن تأثيره كبيرا في
النّفس؛ ذلك أنّ هاته الأخيرة قد جبلت على أنّ اللذة التي تعقب الألم أقوى بكثير من اللذة التي لم
يتقدّمها ألم⁹.

و التّكرار في القرآن قد أثار صفة التّصريف في القول كما تشير الآية إلى ذلك : ﴿وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾¹⁰،
و قوله تبارك و تعالى في آية أخرى : ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ

⁸ ينظر: السيّد قطب " في ظلال القرآن"، دار الشّروق، ط : 10، 1402 هـ. 1982 م، ص : 721. 722.

⁹ ينظر: الخطيب القزويني " الإيضاح في علوم البلاغة"، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ط، د. ت، ص : 196

¹⁰ سورة الكهف، الآية : 54

لَهُمْ حِجْرًا»¹¹، "و حقيقته عند المفسرين إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به، و للتذكير و الموعظة بما يكون باعثا للمتلقى على التأثر و الاستجابة"¹².

و قد اعتبر التكرار من أفضل سبل الإقناع ، و أقوى الوسائل لتركيز الرأي و العقيدة في النفس البشرية، و لهذا نرى في عصرنا الحاضر أصحاب الدعايات يعمدون إلى التكرار في دعاياتهم، من أجل الوصول إلى هدفهم المبتغى، و يمكننا عدّة من عيوب الأسلوب إذا لم يأت بفائدة تذكر، أمّا إذا أفاد معنى جديدا فيعتبر من مظاهر الفصاحة و البلاغة، وقد ورد في القرآن منه الكثير؛ حتّى أنّ بعضهم قد أفرد له مؤلفا خاصا مثلما فعل تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى في كتابه الموسوم بـ " أسرار التكرار في القرآن"، و قد ذكر في مقدّمته ما يهدف إليه :

" هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكرّرت في القرآن و ألفاظها متّفقة، لكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك ممّا يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكرّرت من غير زيادة و لا نقصان، وأبين ما السبب في تكرارها، و الفائدة في إعادتها، و ما الموجب للزيادة والنقصان ، و التقديم و التأخير و الإبدال، و ما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الأخرى، و هل كان يصلح ما في السّورة التي تشاكلها أم لا ؟ ليحري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها و تمتاز بها عن أشكالها"¹³.

و النصّ كما نرى لا يحتاج إلى شرح أو تعليق، لأنّ الكرمانى يذكر بوضوح ما سيتحدّث عنه.

2- بلاغة التكرار في القرآن الكريم :

يذكر معظم العلماء و المفسرين أنّ ما ورد في القرآن من تكرار، إنّما هو من وجوه الإعجاز البلاغي فيه منهم الإمام الفخر الرازي (606 هـ) حيث قال : " اعلم أنّه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته، و مع ذلك فإنّه من الفصاحة بلغ النّهاية التي لا غاية له وراءها فدلّ ذلك على كونه معجزا. منها أنّ كلّ من قال شعرا فصيحاً في وصف شيء فإنّه إذا

¹¹ سورة طه، الآية: 113

¹² أمير عبد العزيز "دراسات في علوم القرآن"، دار الشهاب للطباعة و النشر، ط: 2، 1408 هـ. 1988 م، ص: 83

¹³ محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى "أمّوار التكرار في القرآن"، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الإعتصام، ط: 1، 1394 هـ. 1974 م،

كرّره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأوّل و في القرآن التّكرار الكثير، و مع ذلك كلّ واحد منها في نهاية الفصاحة، و لم يظهر التّفاوت أصلاً¹⁴.
فالرّازي ههنا يشير إلى إعجاز القرآن، فعلى الرّغم ممّا ورد فيه من تكرار إلّا أنّ ذلك لم يزدّه إلّا إثباتاً لفصاحته و بلاغته اللّامتناهيّتان، و أنّ البشر إذا كرّروا كلامهم ليصفوا شيئاً من الأشياء، ظهر في كلامهم المكرّر النّقص و أحسّ القارئ بالملل من جرّاء ذلك التّكرار، على حين أنّ القرآن الكريم مهما كرّر من الحوادث إلّا أنّنا نقرأها و كأنّها تعرض لأوّل مرّة، و شتان بين ما ينسجه الله و ما ينسجه البشر.

و منهم الإمام الزّركشي قال : " و قد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظناً أنّه لا فائدة فيه، و ليس كذلك بل هو من محاسنها، لا سيّما إذا تعلّق بعضه ببعض، و ذلك أنّ عادة العرب في خطاباتهما إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه و قرب و قوعه، أو قصدت الدّعاء عليه كرّرتّه توكيداً، و كأنّها تقيم تكراره مقام المقسمّ عليه، أو الإجتهد في الدّعاء عليه، حيث تقصد الدّعاء، و إنّما نزل القرآن بلسانهم، و كانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم و بعض، و بهذا المسلك تستحكم الحجّة عليهم في عجزهم عن المعارضة، و على ذلك تحتل ما ورد من تكرار المواعظ و الوعد و الوعيد لأنّ الإنسان مجبول من الطّبائع المختلفة، و كلّها داعية إلى الشّهوات، و لا يقمع ذلك إلّا تكرار المواعظ و القوارع"¹⁵.

فهو يقرّر أنّ من أخرج التّكرار من باب الفصاحة بحجّة أنّه لا فائدة يؤدّيها، و لا دور يلعبه، مخطئ أيّما خطأ، ذلك أنّ التّكرار من محاسن الفصاحة إذا أحسن إيراده، و من عادة العرب تكرار الشيء المبهم إذا أرادت تحقيقه، و القرآن إنّما كرّر المواعظ و الإنذارات لأنّ الله يعلم طبائع عباده اللّاهفة وراء الشّهوات، و لا يقمع ذلك غير ترداد المواعظ و تكرارها.

¹⁴ الرّازي فخر الدّين " التفسير الكبير " (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط : 3، دت، ج : 2، ص : 115.

¹⁵ الزّركشي " البرهان في علوم القرآن"، دار الكتب العلميّة، لبنان . بيروت ط : 1، 1408 هـ. 1988 م، ج : 3، ص : 12.

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾¹⁶ أي : " سهّلناه للحفظ و هيّأناه للتذكير " ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ " أي فهل من متعظ به و حافظ له و الاستفهام بمعنى الأمر أي اجفّظوه و اتّعظوا به و ليس يحفظ من كتب الله عن ظهر قلب غيره "17.

يقول الزمخشري في كشّافه: فإذا قلت ما فائدة التكرار هنا؟ قلت: " فائدته أن يجددوا عند استماع كلّ نبي من أنباء الأولين أذكارا و اتعاطا، و أن يستأنفوا تنبّها و استيقاضا إذا سمعوا الحثّ على ذلك و البعث عليه، و أن يقرع لهم العصا مرّات، و يقعقع لهم الشنّ تارات لئلا يغلبهم السّهو، و لا تستولي عليهم الغفلة "18

و يشير العلوي إلى أنّ الطّاعين في بلاغة القرآن قد ذكروا التّكرير مطعنا من مطاعنهم، و زعموا أنّ هذا غير قانون البلاغة، و أشار العلوي إلى أنّ هذا الفهم لا يكون إلّا ممّن ضاقت حوصلته، و أنّ التّكرير في كتاب الله لا يكون إلّا لفائدة، ثمّ يشير -العلوي- إلى هذه الفائدة فيقول: "و نحن الآن نعلو ذروة لا ينال حضيضها في بيان معاني الألفاظ المكرّرة في لفظها و معناها، في كتاب الله تعالى، و تظهر أنّها مع التّكرير و أنّ تكريرها إنّما كان لمعان جزلة، و مقاصد سنّية بمعونة الله تعالى، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الرّحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾¹⁹ فهذا تكرير من جهة اللفظ و المعنى و وجه ذلك أنّ الله تعالى إنّما أوردها في خطاب الثّقيلين : الجنّ و الإنس، فكلّ نعمة يذكرها، أو ما يؤول إلى النّعمة فإنّه يردفها بقوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقريرا للآلاء، و إعظاما لها فقد تكرّرت هذه الآية الكريمة إحدى و ثلاثين مرّة؛ و لذلك قال بعض الأئمّة : " التكرار في سورة الرّحمن إنّما وبّخ على

¹⁶ سورة القمر، الآية : 17

¹⁷ تفسير الإمامين الجلالين " جلال الدين السيوطي و جلال الدين الخليّ"، حقّقه و نسّقه : الشيخ محمد الصادق القمحاوي، مكتبة رحاب،

الجزائر، د. ط. 1963 م، ص : 448

لمن أراد التوسّع أكثر في معرفة ما قبل هاته الآية عليه العودة إلى : الرّازي فخر الدّين " التفسير الكبير"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط : 3،

د. ت. ج : 29، ص : 42، 43

¹⁸ أحمد جمال العمري " المباحث البلاغيّة في ضوء الإعجاز القرآني نشأتها و تطوّرها حتّى القرن السابع الهجري"، مكتبة الخانجي للطباعة و النّشر

والتوزيع، القاهرة، د. ط، 1410 هـ. 1990 م، ص : 184، نقلا عن الزمخشري " الكشّاف"، ج : 6، ص : 59

¹⁹ سورة الرّحمن، الآية 13 و ما بعدها.

التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأنّ حولتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا، فيحسن فيه التكرير لاجتلاف ما يقرّر به²⁰.

و إنّما كرّر القول ههنا للتذكير بما جاء به لغيره، و لإظهار ما خلفه نسيان الآلاء التي أسداها من تأثير في نفسه، فراح يكرّر مذكّرا غيره بما كان منه لأنّ الشّيء إذا أردنا تقريره وجب علينا تكريره.

و من ذلك ما ورد في سورة القمر في قوله تبارك و تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، ﴿فَكَيْفَ كَانَ مَحْذَرِي وَنُذْرِي﴾²¹.
فقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ مَحْذَرِي وَنُذْرِي وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾²².

فقد ختم الله تبارك و تعالى بهاتين الآيتين قصّة قوم نوح و عاد و ثمود و لوط - عليهم السلام -، لما في قصّة كلّ واحد منهم من التّخويف و التّحذير، و ما لحق أقوامهم من عذاب جرّاء تكذيبهم لرسولهم، و ما جاؤوهم به من الحقّ.

و إنّما أعاد في قصّة عاد قوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ مَحْذَرِي وَنُذْرِي﴾ مرّتين لأنّ الأوّل أراد به عذاب الدّنيا، و الثّاني أراد به عذاب الآخرة؛ كما ورد في القصّة ذاتها قوله عزّ و جلّ: ﴿لِنُذِقَهُمْ مَحْذَبِ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾²³، و قد قيل في قوله تعالى هذا أنّ الأوّل كان لتحذيرهم قبل إهلاكهم، أمّا الثّاني فلتحذير غيرهم بعد هلاكهم²⁴.

و نحن رغم هذا التكرار الذي نلاحظه لا نجد إلّا عذوبة و متعة، كلّما رمنا القراءة على حين لو كان الأمر متعلّقا بنصّ أدبيّ وضعيّ، لأحسنا بالرتابة لأنّ: "العقل لا يمكن أن يتقبّل أصواتا متتابعة بانتظام دون أن يضيف عليها نوعا من التّجمّع في وحدات، إذا لم تكن الأصوات

²⁰ د: أحمد الشرباطي "يسألوك في الدين و الحياه"، دار الجيل، بيروت، ط: 4، 1980 م، ج: 1، ص: 338

و من أدب المؤمن عند قراءة هذه الآية أن يقول: "لا بشيء من نعمك ربّنا تكذب فلك الحمد"، المصدر نفسه، ص: 337.

²¹ سورة القمر، الآيتان: 17، 21

²² سورة القمر، الآيتان: 16، 17

²³ سورة فصلت، الآية: 15

²⁴ ينظر: محمود بن حمزة الكرماني "البرهان في متشابه القرآن"، ص: 339

تنظم في مجموعات واضحة تلقائياً منذ البدء²⁵، وهذا الإنتظام حواه النصّ القرآني بأكمله، على حين أنه غاب في كثير من النصوص البشريّة.

إذا عدنا إلى سورة المرسلات وجدنا فيها الأسلوب القرآني يكرّر قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾²⁶ عشر مرّات و ذلك ليذكّر من عميت قلوبهم علّ الذّكرى تنفعهم، لأنّ تأكيد الإنذار بالتّكرار أبلغ تأثيراً وأشدّ تخويفاً، وهذا ليس تكراراً مستهجناً لأنّ كلّ واحدة من قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ذكرت عقب آية غير الآية التي تسبقها، و في هذا التّكرار ما يوحي بالرّهبة، و يملأ القلب رعباً من التّكذيب بهذا اليوم، و يحتمل أنّه لما كان جزاء الحسنه بعشر أمثالها، جعل للكفار في مقابلة كلّ مثل الثواب ويل.

إنّ قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ مكرّر في السّورة عشر مرّات²⁷ و قد استحسن التّكرار ههنا لأنّه في مقام التّريغيب و التّرهيب، و ممّا زاد في حسنه، كون كلّ آية من تلك الآيات العشر ذكرت عقب آية غير الأخرى، و على هذا لم يكن تكرارها مستهجناً بفضل هذا التنويع في الآيات التي أعقبتها.²⁸

ثمّ أنبأ إذا قرأنا الآيات التّالية :

قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾²⁹.

و قوله : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾³⁰.

و كذا قوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ مَحْذَابِي وَنُذْرٍ﴾³¹

نجد أنّ الآية الأولى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قد تكرّرت إحدى و ثلاثين مرّة، و أنت تقرؤها تجد نفسك في نشوة نغم سماويّ، لم يسبق لأذنك أن تمتعت بمثله، و إذا لم تكن من أهل

²⁵ د : كمال أبو ديب " في البنية الإيقاعيّة للشعر العربي "، دار العلم للملايين، بيروت، ط : 2، 1981 م، ص : 231

²⁶ سورة المرسلات، الآية : 15 و ما بعدها.

²⁷ الآيات : 15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49 من سورة المرسلات.

²⁸ ينظر : أبو يحيى زكريا الأنصاري "فتح الرحمن بكشف ما بلّثس في القرآن"، حقّقه و علّق عليه الشّيخ محمد علي الصّابوني، د.د، الجزائر،

ط : 2، 1408 هـ. 1988 م، ص : 593.

²⁹ سورة الرحمن.

³⁰ سورة المرسلات.

³¹ سورة القمر.

الموسيقى، فيكفيك أن ترتلها مرة بعد مرة، و أن تملأ فمك بكلماتها، و تفتح أذنك لرنينها لترى أنك تردّد لحنا موسيقياً يفيض رحمة، و ينبض جلالاً، هاتفا بالنفوس الشاردة أن ترجع إلى ربّها، و بالقلوب الضالّة أن تفرّ إلى بارئها، و إلّا فإنّ لها جهنّم لا تموت فيها و لا تحيى.

و نجد في الآية الثانية و هي قوله : ﴿وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تساق في النغم و تجاوب بين الكلمات، و تجاذب بين الحروف دون لين، و لا نبرة حنان و كأنّها قذيفة أو شهاب تقع على كلّ من كذب و تولّى.

و أمّا الآية الثالثة ﴿فَكَيْفَ كَانَ مَحَاضِي وَنُذِرٌ﴾ فإنّها هي الأخرى من نفس معدن الآيتين الأولى و الثانية، حيث لا اضطراب فيها و لا خلخلة، ثمّ أنّها كيان واحد، فيه هدير الرّعد، و دمدمة الصّواعق فسكون كالسّمون الذي يحيم على القبور.³²

و من جميل التّكرار في القرآن قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِمَدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِنُزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾³³

"إنّ التّكرار في هذه الآية جميل، لأنّ التّكرار له دلالات فنيّة و نفسيّة، يدلّ على الإهتمام بموضوع ما، يشغل البال سلبيّ كان أم إيجاباً، خيراً أم شراً، جميلاً أم قبيحاً، و يستحوذ هذا الإهتمام على حواسّ الإنسان و ملكاته. و التّكرار يصبّر مدى هيمنة المكرّر و قيمته و قدرته. و إنّ كلّ عبارة فيها لفظ مكرّر - ضمن مقطع كتابي أو في آية قرآنيّة - يكون حدّاً فاصلاً لموقف نفسيّ معيّن، و تحمل - أي هذه العبارة - دفعة شعوريّة معيّنة، متناغمة في وقع موسيقيّ مقسّم و متساو مع لاحقتها و سابقتها"³⁴

و بالنظر إلى هاته الآية الكريمة نجد أنّ التّركيز فيها كان على اللفظ "مكرهم"، فعلى الرّغم من تكراره ثلاث مرّات في الآية ذاتها، إلّا أنّنا لانحسّ معه بملل و إنّما الذي نحسّه هو جمال ناجم عن التّلاؤم الطّبيعي بين أجزاء الآية.³⁵

³² ينظر: عبد الكريم الخطيب "إعجاز القرآن". الإعجاز في دراست السّابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربيّة و معاييرها، ملتزم الطّبع و النّشر، دار الفكر العربي، ط : 1، 1974 م، ص : 295 . 296 . 297

³³ سورة ابراهيم، الآية : 46

³⁴ د : عبد الحميد جوده "الاتّجاهات الجديدة في الشّع العربي المعاصر"، مؤسّسة نوفل، بيروت، ط : 1، 1980م، ص : 67 . 68.

³⁵ المرجع نفسه، ص : 67 . 68

و التكرار له فوائده لأنّه من العوامل التي تساعد على الإقناع، و لكن إعادة ذكر الشّيء نفسه دون تنويع قد يضايق السّامع أو المتلقّي، و لذلك فإنّ التّكرار مع التّنويع، أي تكرار المعنى نفسه بعبارات مختلفة، و بصيغ شتّى و سياقات متنوّعة، يكون أكثر فعاليّة في الإيحاء المستمرّ، لأنّه يجنب السّامع أو القارئ الملل و السّأم، و يذكرّه باستمرار الهدف، و يعمّق النّوعيّة بالمعنى المقصود منه.³⁶

و يلاحظ ما يعمد إليه أصحاب المصانع و المؤسسات التجاريّة من استخدام الوسائل المختلفة للدّعاية لمصنوعاتهم و منتجاتهم على أوسع نطاق عن طريق تكرار الدّعاية لها في صور متنوّعة، و في مناسبات مختلفة بقصد إحداث التأثير المطلوب، و ذلك تطبيقاً لما يقوله علماء النّفس من أنّه متى كثر تكرار أمر تولّد تيّار فكريّ و عاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد و الجماعات و هو العدوى . إذ لا يكفي لتحوّل الإنفعال إلى عاطفة أن يحدث مرّة واحدة، و لكن لا بدّ للحصول ذلك أن يتكرّر حدوثه.

فالتكرار هو السّبيل لربط الإنفعال به، و تركّزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى، تدخل في تركيب العاطفة، و أنّ عاطفة قويّة لكافية لتحديد نشاط الفرد و اتّجاهه في الحياة.

"و لا شكّ أنّ تكرار القول لا يقلّ تأثيراً في إثارة الإنفعال و تكوين العواطف من تكرار الفعل، بل إنّ التّكرار في القول ممّا يدفع إلى الفعل."³⁷

و إذا نظرنا في كتاب الله، نستمدّ منه القول الفصل في هذا الشّأن، نجد أنّ التكرار في القرآن الكريم، لم يقصد به الإعجاز البياني فحسب، بل يقصد به أيضاً التأثير النّفسي، "لما يعلم الله تعالى من تفاوت في مدارك البشر و أمزجتهم؛ إذ منها ما ينفذ إلى الحقيقة، و منها ما يسيطر عليه الوهم تحت سلطان الأفكار الموروثة، و منها ما يصل به برود العاطفة إلى جمودها رغم المثيرات العاصفة."³⁸

³⁶ ينظر د : جيهان أحمد رشدي " الأسس العلميّة لنظريّات الإعلام "، د. د، القاهرة، د. ط، 1975 م، ص : 448

³⁷ د : التّهامي نقرة " سيكولوجيّة القصّة في القرآن "، د. د، الجزائر، د. ط، 1971 م، الحلقة الثّالثة، ص : 116

³⁸ المصدر نفسه، ص : 128

3- أغراض التكرار في القرآن الكريم :

إنّ التكرار القرآني يخدم غرضين في آن واحد، غرضا فنياً يتمثل في تحدّد الأسلوب إيراداً وتصويراً، و التّفنّن في العرض إيجازاً وإطناباً، و التّنوّع في الأداء لفظاً ومعنى، و غرضاً نفسياً بما له من تأثير في النفوس لأنّ المكرّر ينطبع في تحاويف الملكات اللاشعوريّة، التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان و دوافعها، كما هو مقررّ في علم النفس³⁹.

و القرآن الكريم كتاب الله إلى الناس جميعاً، جاء لينقذ البشريّة من وهدة الضلال، و يخرجها من الظلمات إلى النور، و يهدي من يشاء بإذن الله إلى صراط مستقيم، و هو حجة الله على خلقه، و آيته الناطقة على قدرته و علمه، و هو المعجزة الباهرة على صدق رسوله محمّد صلى الله عليه و سلّم، و قد سمع كلّ ما مضى، و حكم في كلّ ما وقع و ما سيقع، و رسم الخطة المثلى للغيب المحجوب في ضمير الزّمن.

و هو كتاب الوجود الأبديّ، فيه دواء لكلّ داء، و علاج لكلّ مرض، و شفاء لما في الصدور. و النّاس مختلفون متباينون فمنهم الشّقيّ، و منهم السّعيد، و منهم السّهل، و منهم الصّعب، و منهم من شرح الله صدره فهو على نور من ربّه، و منهم من ختم الله على قلبه و على بصره، و القرآن الكريم - كما نعلم - هو كتاب الوجود من عند ربّ الوجود، إذ له أغراض و أهداف لتحقيقها و الوصول إليها لا بدّ أن يطرق الموضوع الواحد عدّة مرّات، مرّة بالشّدّة، و مرّة باللّين، و تارة بالتّصريح و أخرى بالتّلميح، و مرّة بضرب الأمثال، و أخرى بتأييد المقال. و كان لا بدّ في علاجه للأمراض المستوطنة من أن يسلك طرقاً متعدّدة، و أساليب متباينة، تبعاً لتباين النّاس في استعدادهم، و أن تمرّ بمراحل، و يتطوّر في علاجه تبعاً لعمق الدّاء، و استفحال المرض، حتّى يصل إلى العلاج النّاجع و الدّواء الشّافي⁴⁰.

من أجل ذلك كلّه وجدنا القرآن الكريم يكرّر الحديث عن الشّيء الواحد في شتّى أغراضه، و في مختلف هداياته، و لكنّ الحديث يختلف من مقام لآخر، فقد يأتي للتأكيد مثل قوله

³⁹ د : التّهامي نقرة " سيكولوجيّة القصّة في القرآن "، ص : 115 . 116

⁴⁰ ينظر: محمد محمود مجازي " الوحدة الموضوعيّة في القرآن الكريم "، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط : 3، د. ت، ص : 36 . 39

تعالى : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾⁴¹ نجد فيه تكراراً حيث أعيدت جملة (كَلَّا سوف تعلمون) لتأكيد الإنذار والتحذير، كما يدلّ الحرف (ثم) على المبالغة في الردع والتدرّج و الإرتقاء في الإنذار والتحذير، أنّ الإنذار الثاني أبلغ من الأوّل⁴².
و في ذكر قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مرتين تأكيد ذو وجهين : إمّا أنّ الأوّل للقبر و الثاني للقيامة، و إمّا أنّ الأوّل للكفار و الثاني للمؤمنين، و نجد أنّ العرب كذلك تكرّر الكلمة أو العبارة على سبيل التّغليظ و التّخويف.⁴³

و يذكر الكرمانى أنّ : " قوله تعالى ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة فيه قولان: (أحدهما) : أنّ معناه الردع و الزّجر عن التّكاثر، فيحسن الوقف عليه و [الإبتداء] بما بعده، (الثاني) : أنّه يجري مجرى القسم و معناه: حقاً.

قوله تعالى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ و بعده ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرار للتأكيد عند بعضهم و عند بعضهم هما في وقتين [في] القبر و القيامة فلا يكون تكراراً⁴⁴.

و يذكر الرّازي في بيان ما قيل من فوائد التّكرار في هذه الآية : " و ذكروا في التّكرير وجوهاً، أحدها أنّه للتأكيد، و أنّه وعيد بعد وعيد كما تقول للمنصوح : أقول لك ثمّ أقول لك لا تفعل"⁴⁵.

فالردع متوجّه على التّكاثر في الدّنيا بالمال والجاه، ثمّ التّكاثر في المقابر و الفخر بها، فكانت "كَلَّا" الأوّل ردعاً في الدّنيا بما ينال المتفاحرين من عقوبات سجّلها القرآن و الثانية في الآخرة، و لذلك اقترنت بحرف التّراخي "ثمّ" حيث لا ينفع مال و لا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم، و عمل نافع.

و في مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا أَحْذَرَانَهُ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَحْذَرَانَهُ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾⁴⁶ فهذا التّكرار فيه تعظيم لشأن هذا اليوم الموعود، و هو يوم القيامة.

⁴¹ سورة التّكاثر، الآيات : 3، 4، 5.

⁴² ينظر د : بسيوني عبد الفتاح فيود " من بلاغة النّظم القرآني"، د. د، ط : 1، 1413 هـ. 1192 م، ص : 284.

⁴³ ينظر الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري " فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن"، ص : 625، و أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء " معاني

الفراء"، عالم الكتب، بيروت، ط : 2، 1980 م، ج : 3، ص : 287.

⁴⁴ ينظر : محمود بن حمزة الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 367.

⁴⁵ الرّازي فخر الدّين " التّفسير الكبير"، ج : 32، ص : 78.

و قيل أنّ جملة (ما أدراك ما يوم الدين) الأولى موجهة للمؤمنين، و جملة (ما أدراك ما يوم الدين) الثانية موجهة للكفار⁴⁷.

و في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾⁴⁸ حيث أعيدت عبارة (كيف قدر) مرتين، و أعيدت كلمة (قدر) ثلاث مرّات، و التقدير أنّ في الآية أنّه (أي الوليد)⁴⁹، فكّر فيما أتى به محمد صلى الله عليه و سلم و ماذا يمكنه أن يقول فيهما، فقال الله سبحانه: ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي القول في محمد: ﴿ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ يدلّ على القول في القرآن الكريم⁵⁰.

و ذكر الفخر الرازي قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، و رأى أنّ: " هذا إنّما يذمر عند التعجب و الاستعظام، و مثله قولهم قتله الله، و خزاه الله ما أشعره، و معناه أنّه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد و يدعو عليه حاسده بذلك، و إذا عرفت ذلك، فنقول إنّ احتمل ههنا وجهين أحدهما أنّه تعجب من قوّة خاطره، يعني أنّه لا يمكن القدح في أمر محمد صلى الله عليه و سلم بشبهة أعظم و لا أقوى ممّا ذكره هذا القائل، و الثاني الشّاء عليه على طريقة الإستهزاء يعني أنّ هذا الذي ذكره في غاية الرّكاكة و السّقوط، ثمّ قال ﴿ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ و المقصود من كلمة "ثم" ههنا الدّلالة على أنّ الدّعاء عليه في الكرّة الثانية أبلغ من الأولى⁵¹.

و نجد الله تبارك و تعالى يكرّر الأمر بالتّقوى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾⁵² فالغد يوم القيامة سمّاه باليوم الذي يلي

⁴⁶ سورة الإنفطار، الآيتان: 17، 18.

⁴⁷ ينظر: محمود بن حمزة الكرماني "البرهان في متشابه القرآن"، ص: 358.

ينظر: الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري "فتح الرحمن بكشف ما دلت عليه في القرآن"، ص: 625.

⁴⁸ سورة المدثر، الآيات: 18، 19، 20.

⁴⁹ يعني الوليد بن المغيرة المخزومي، و قد طلب من زعماء قريش أن يجتمعوا على رأي واحد في رسول الله صلى الله عليه و سلم، و طلب منهم لأن لا يختلفوا فيكذب بعضهم بعضا. فأخذوا يعرضون عليه القول و هو يفنّده. حتّى قالوا له: ماذا تقول يا أبا عبد شمس؟ فقال [و الله إنّ لقوله حلاوه، و إنّ أصله لمغدق، و إنّ فرعه لجناة. و ما أنتم يقائلين من هذا شيئا إلّا عرف أنّه باطل. و إنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء و أبيه، و بين المرء و أخيه و عشيرته] هامش "البرهان في متشابه القرآن"، ص: 352.

⁵⁰ ينظر الكرماني "البرهان في متشابه القرآن"، ص: 352.

⁵¹ الرازي فخر الدين "التفسير الكبير"، ج: 30، ص: 20.

⁵² سورة الحشر، الآية: 18.

يومك تقريبا له، ثم ذكر النفس و الغد على سبيل التذكير، أما الفائدة في تكرير الأنفس فاستقلال الأنفس التي تنظر فيما قدمت للأخرة كأنه قال : فلنتنظر نفس واحدة في ذلك و أما تنكير الغد فلتعظيمه و إبهام أمره، كأنه قيل لغد لا يعرف كنهه لعظمه⁵³.

ثم قال : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾⁵⁴ فقد كرر الأمر بالتقوى تأكيداً، و يحمل الأول على أداء الواجبات، و الثاني على ترك المعاصي⁵⁵. " و قولهم : إنه تأكيد فمرادهم تأكيد المأمور به بتكرير الإنشاء، لا لأنه تأكيد لفظي، و لو كان تأكيداً لفظياً لما فصل بالعطف، و لما فصل بينه و بين غيره ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ﴾، فإن قلت (اتقوا) الثانية معطوفة على (و لتنظر)، أجب بأنهم قد اتفقوا على أن : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾⁵⁶ معطوف على ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾⁵⁷، لا على قوله : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾⁵⁸ 59

و مما ورد مكرراً كلمة الإصطفاء قوله تعالى : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾⁶⁰ حين خاطبت الملائكة مريم ابنة عمران، و قد فسّر الزمخشري ذلك بقوله : " اصطفاك أولاً حين تقبلتك من أمك و ربك و اختصك بالكرامة السنية، و طهرتك مما يستقذر من الأفعال، و مما قرفك به اليهود، و اصطفاك آخرها على نساء العالمين بأن وهب لك عيسى من غير أب، و لم يكن ذلك لأحد من النساء"⁶¹، فتكرار الإصطفاء لمريم ههنا تأكيد على أن الله اختصها بما لم يختص به غيرها من نساء العالمين، فنحن ما سمعنا قبل و لا بعد بحبي سيدنا عيسى - عليه السلام - أن أنثى حملت دون أن يمسسها بشر، و مما تقشعر له الأبدان، و تذهل أمامه العقول أن الرضيع يكلم الناس و مما ورد مكرراً " أولئك " في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْمَآخِذُ فِي أَعْيُنِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

⁵³ ينظر: الزمخشري "الكشاف"، ج : 6، ص : 100

⁵⁴ سورة الحشر، الآية : 18

⁵⁵ الرازي فخر الدين "التفسير الكبير"، ج : 29، ص : 291

⁵⁶ سورة البقرة، الآية : 83

⁵⁷ السورة نفسها، الآية : 83

⁵⁸ السورة نفسها، الآية : 83

⁵⁹ الزركشي "البرهان في علوم القرآن"، ج : 3، ص : 16

⁶⁰ سورة آل عمران، الآية : 42

⁶¹ ينظر الزمخشري "الكشاف"، ج : 1، ص : 174

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ⁶² في إعادة " أولئك " ثلاث مرّات تأكيد على أنّ الذين كفروا ما كانوا في جهنّم، كلّما نضجت جلودهم بدلّهم الله جلودا غيرها ليدوقوا العذاب بما كانوا يكفرون، و في تكرار كلمة " أولئك " مع ما جاورها لا نجد إلاّ حسنا و روعة، فالأولى و الثانية ما هم فيه منكروا البعث من كفر، و ما في أعناقهم من أغلال، و الثالثة تؤكد خلودهم في النار.⁶³

و منه قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁶⁴ و في تكرير " أولئك " تنبيه على أنّهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح فجعلت كلّ واحدة من الأثرتين في تمييزهم بها عن غيرهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميّزة على حيالها⁶⁵.

فهم إنّما أفلحوا لأنّهم آمنوا بالغيب، و أقاموا الصّلاة، و أتوا الزّكاة، و آمنوا بما أنزل على الرّسول، و أيقنوا بالآخرة.

و كذا قوله : ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْبِطَ بِالَّذِي هُوَ مُحَدِّثُ لَهُمَا قَالَا يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَمُوتُنِي حَمًا قَتَلْتَنِي نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾⁶⁶.

و الملاحظ أنّ " أن " كرّرت في خمس مواضع لغرض التأكيد فحسب، و قد يأتي التكرار لزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة، و تقرير الحقيقة و بيانها لقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ الْعَاثُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ خَيْرُ الْآخِرَةِ﴾⁶⁷

ففي تكرار هذا النداء زيادة تنبيه لقومه، و إيقاظهم عن سنة الغفلة فهم قومه و عشيرته، و هم متمردون طاعون، قد آثروا الحياة الدّنيا و هو يرى أنّ عليه نصّحهم ففرّحهم فرحه،

⁶² سورة الرّعد، الآية : 5

⁶³ ينظر: عبد العظيم إبراهيم عمّد المطعني " خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغيّة"، الناشر : مكتبة الوهبة، ط : 1، 1413 هـ. 1992م،

ج : 1، ص : 324

⁶⁴ سورة البقرة، الآية : 5

⁶⁵ ينظر: الرّغشري "الكشاف"، ج : 1، ص : 28

⁶⁶ سورة القصص، الآية : 19

⁶⁷ سورة غافر، الآيتان : 38 . 39

و قرّحهم قرّحه، و تكراره للنصيحة ههنا كالترّكّار الذي ورد في نصيحة إبراهيم - عليه السّلام - لأبيه (آزر) : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ حَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾⁶⁸، بدأ سيّدنا ابراهيم حديثه بالنداء متسائلا عن سبب عبادة والده ما لا ينفع و لا يضرّ، ثمّ قال له : إن كنت تراني أصغر منك، و أنا ابنك فاعلم أنّه قد أتاني من العلم ما لم ياتك، فاتّبعني أهدك طريقا مستقيما⁶⁹.

يا أبت لا تطع الشّيطان - و تعبد الأصنام-، فإنّه سيترأّمك يوم لا ينفع مال و لا بنون، يوم يفرّ المرء من أبيه و صاحبه و بنيه، يومئذ لا ينفع المرء إلّا ما تزوّد به من عمل صالح. ولقد صدر كلّ نصيحة من النّصائح الأربع بقوله (يا أبت) توسّلا إليه، و استعطافا له لعلّه يعود إلى رشده، فيقلع عمّا هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تنفعه و لا تضرّه شيئا، و أن يوليّ وجهه شطر القبلة التي يرضاها تبارك و تعالى.

و قد يأتي التّكرار إذ طال الكلام، و خشي تناسي الأوّل، و هذا ثابت في كلام البشر بالنّسبة للمتكلّم أو الكاتب؛ أمّا بالنّسبة لكلام الله فإنّ خشية التّناسي مقصودة في السّامع أو القارئ، و نزّه الله عن ذلك و هو القائل : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوهَا ثَمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾⁷⁰، و القائل أيضا : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾⁷¹.

إنّ هؤلاء القوم كانوا مستضعفين بمكّة، مهانين في قومهم فهاجروا ليتخلّصوا من الفتنة مخلفين أموالهم و أهلهم طمعا في رضی الله، فلقد جاهدوا في صفوف المؤمنين و كلّهم صبر

⁶⁸ سورة مريم، الآيات : 42، 43، 44، 45

⁶⁹ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، ص : 22

⁷⁰ سورة النحل، الآية : 110

⁷¹ السّورة نفسها، الآية : 119

و بحث عن الغفران، فمن عمل السوء و هو جاهل لا إثم عليه، لأن الله تبارك و تعالى لا يغفر أن
بشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

و في هاتين الآيتين ورد تكرار " إن "، و كان بالإمكان الإكتفاء بواحدة، و لكنها أعيدت
ثانية، و سبب هاته الإعادة هو طول الفصل بين إن الأولى و خبرها، و هذا أمر يتنافى مع ما
سيقت إن لأجله و هو غرض التوكيد، و مراعاة للبلاغة أعيدت "إن" لتظهر نسبة التوكيد بين
الركنين الأول و الثاني. و لو حاول قارئ تلاوة هاتين الآيتين بتجريدتهما من إن الثانية، ثم تلاهما
بإثباتها للاحظ الفرق بين الحالتين الأولى و الثانية، و لوجد قلبا و ضعفا في الأولى، و قوة و تناسقا
و حسنا في الثانية⁷² و القوة و التناسق تظهران دوما في كلام الله تبارك و تعالى، و بالمقابل قليلا
ما تبرزان في كلام عباده و هذا أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، و لا يروم برهنة.

و للكرماني تعليق ظريف حول هاتين الآيتين حين قال: " كرّر إن و كذلك في الآية
الأخرى ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ لأنّ الكلام لما طال جدّا أعاد (إنّ) و اسم (إنّ) ثم ذكر الخبر. و مثله
﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا و عِطَافًا أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ﴾⁷³ فأعاد (أنّ) و اسم
(أنّ) لما طال الكلام⁷⁴ و هاته الإعادة الناتجة عن طول الفصل، كثيرا ما ترد في القرآن الكريم، لما
يعلم الله من تباين في مدارك البشر، فالتناسي مقصود فيهم.

و ممّا وجد مكرّرا (لما جاءهم) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا
كَفَرُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾⁷⁵.

فقد كان اليهود يستنصرون على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، و لما أنزل الله
تعالى القرآن على محمد صلى الله عليه و سلّم و أيده بالوحي إذا هم يكفرون بما جاءهم به من

⁷² ينظر عبد المطلب ابراهيم محمد المظني " سمات النص القرآني و سماته اللغوية " ج 1 ص 323

⁷³ سورة المؤمنون، الآية : 35

⁷⁴ محمود بن حمزة بن نصر الكرماني " البرهان في متشابه القرآن "، ص : 248

⁷⁵ سورة البقرة، الآية : 89

الحق حسدا و خوفا على الرئاسة، و في تكرار جواب لما الثانية دلالة على جواب لما الأولى، لأن الكلام بينهما طال مما أوجب هذا الترداد⁷⁶.

و مثله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾⁷⁷ فالإقتتال أو الهدنة إنما يكونان بقضاء من الله و قدر منه، و في تكرار (و لو شاء الله) تأكيد على أن مشيئة الله فوق مدارك البشر جميعا.

و يرى بعضهم أنه لما قال تباك و تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ ثم قال : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا﴾ كرر تأكيدا، و قيل أنه لا تكرار في هاتيه الآية؛ لأن أولها حديث عن الجماعة، و ثانيها اختص بالمؤمنين؛ و قيل كذلك أن ورود التكرار ههنا غرضه تكذيب من قالوا أن ذلك لا يد للقدرة الإلهية فيه.⁷⁸

و من ذلك قوله تعالى : ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَمِطَاطًا أَنْكُمْ مَحْجُورُونَ﴾⁷⁹ حيث أعيدت أن و اسمها لما طال الكلام، و خشى تناسي الأول عند المتلقي، و أنكم الثانية تأكيد لأنكم الأولى لما طال الفصل بينهما، تحنبا للنسيان.

و قوله أيضا : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَخْشَوْنَ الْآخِرَةَ هُمْ خَافِلُونَ﴾⁸⁰ معناه أن أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا و بأمورها الزائلة، و وجوه مكاسبها، و هم بالمقابل غافلون عن أمور الدين و ما ينفعهم من الأعمال الصالحة يوم القيامة⁸¹. و في تكرار الضمير المنفصل "هم" مرتين تأكيد على أنهم أولى بالخسران من غيرهم.

⁷⁶ ينظر: الرَّحْمَشَرِي "الكشاف"، ج : 1، ص : 80

و تفسير الإمامين الجلالين (جلال الدين السيوطي و جلال الدين الخلي)، ص : 13

⁷⁷ سورة البقرة، الآية : 253

⁷⁸ ينظر: محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 141

و أبو يحيى زكريا الأنصارى "فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 63

⁷⁹ سورة المؤمنون، الآية : 35

⁸⁰ سورة الرّوم، الآية : 7

⁸¹ ينظر: ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد الرابع، ص : 448

و كذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ 82 ، حيث أعيدت جملة (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) دون إنا، لأنه ذكر قبلاً (إنا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)، فاكتمى بما ذكره أولاً عن قصة الخليل إبراهيم - عليه السلام - . عما ذكره ثانياً، و يعلّق الزركشي على التوكيد في هاته الآيات بقوله : " يحتمل أن يكون من باب الإكتفاء، و هذا أسلوب غريب قلّ في القرآن وجوده، و أكثر ما يكون عند تقدّم مقتضيات الألفاظ، كالمبتدأ و جروف الشرطين الواقعين في الماضي و المضارع، و يستغني عنه عند أمر محذور التناسي " 83 .

و هناك أمور كثيرة تقتضيها الفصاحة و البلاغة، وجدناها منتشرة في ثنايا الكتاب الحكيم، كأن يحمل الله تبارك و تعالى القول بعد تفصيله و ذكر جزئياته في مثل قوله : ﴿ فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قَتَلُونَا عَلَىٰ بَلِّ طَبَعِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَذَلْنَاهُمْ حَرَمًا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ 84 .

فقوله : (فبظلم) بعد ذكره نكث العهود، و الشرك بالله، و قتل الأنبياء، و مخالفتهم في دعواتهم إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ بيان لذكر الجمل من القول بعد المفصل منه، ذلك أن الظلم يحوي كل التفاصيل التي سبق ذكرها.

⁸² سورة الصافات، الآيات من 105 إلى 110

⁸³ الزركشي " البرهان في علوم القرآن"، ج : 3، ص : 18

⁸⁴ سورة النساء، الآيات من 155 إلى 161

و قد تخلل هاته الآيات أسلوب الإعتراض في موضعين و هما قوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِكُفْرِهِمَا فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، و قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾⁸⁵ فلمّا ذكر تبارك و تعالى البناء العام الذي هو الظلم في قوله : ﴿ هَٰذَا ظَلَمٌ ﴾، ذكر حينئذ ما يتعلّق بهذا الظلم من نكث العهود.

فقد عمّ الظلم كلّ ما تقدّم، و اشتمل أيضا على كلّ ما تأخّر من المحرّمات، حيث ذكرت الجزئيات، ثمّ ذكرت الكليات، و هذا تعميم بعد تخصيص، ثمّ ورد التخصيص بعد التعميم، فالبناء بعد الإعتراض.⁸⁶

و منه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَغْرَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾⁸⁷

فقوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعلّق عليه الزركشي كالاتي : "هو المقتضي الأوّل المتقدّم"، و قوله : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ هو المقتضي الثاني و هو البناء، لأنّه المذكّر بالمقتضي الأوّل الذي هو "لولا" خشية تناسيه، فهو مبنيّ على الأوّل، ثمّ أورد مقتضاها من الجواب بقوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ ورودا واحدا من حيث أخذها معا كأنهما مقتضي منفرد، من حيث هما واحد بالنوع، و هو الشرط الماضي، فقوله : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ بناء على قوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ ﴾⁸⁸

و مثل هاته الآيات قوله تبارك و تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا ﴾⁸⁹، فبعد ذكر الملائكة خصّ جبريل بالذكر مع أنّه داخل في عموم الملائكة، فلقد أجمع المفسّرون أنّ الرّوح في

⁸⁵ سورة النّساء، من الآية : 157 إلى الآية : 159

⁸⁶ ينظر : الزركشي " البرهان في علوم القرآن"، ج : 3، ص : 18 . 19

⁸⁷ سورة الفتح، الآية : 25

⁸⁸ ينظر : الزركشي " البرهان في علوم القرآن"، ج : 3، ص : 19

⁸⁹ سورة القدر، الآية : 4

هذه السّورة هو جبريل - عليه السّلام-، و في ذكره مرّتين، إحداهما منفردا، و أخرى مندرجا تحت العامّ تكرّما له، و تعظيما لشأنه، لأنّه نزل في ليلة هي خير من ألف شهر كما عبّر النّصّ القرآني .

و قوله تعالى : ﴿رَبِّهِ الْخَفِزَ لِي وَلَوْ أَلَدَيَّْ وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾⁹⁰، فما ذكر من قبل كالوالدين يدخل تحت نطاق المؤمنين و المؤمنات، و قد ذكر مرّة وحده و أخرى مندرجا تحت العامّ.⁹¹

و من التّكرار ما يرد للتّعظيم و التّهويل مثل قوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَ مَا أَحْذَرَكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾⁹²، فالحاقة ساعة آتية لا ريب فيها يجازى كلّ امرئ بما عمل من خير أو شرّ، الحاقة مبتدأ و خبرها (ما الحاقة)؛ يذكر الرّبخشري (538 هـ) و الرّازي (606 هـ) أنّ : "الأصل الحاقة ما هي ؟ أي أيّ شيء هي ؟ تفخيما لشأنها و تعظيما لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لأنّه أهول لها"⁹³

و مثله قوله تعالى : ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾⁹⁴، و القارعة هي القيامة التي تفرّع القلوب بأهوالها، و في تكراره لكلمة (القارعة) و هو متسائل تهويل لها و تخويف منها. و قوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَ مَا أَحْذَرَكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾⁹⁵ فليلة القدر ليلة مباركة، و قد زانها نزول القرآن و عظم منزلتها بين ليالي الزّمان.

و قوله تعالى في الآية الأولى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ﴾، و في الآية الثانية : ﴿وَ مَا أَحْذَرَكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، و في الثالثة : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ حيث صرّح بها و كان بالإمكان الإشارة إليها

⁹⁰ سورة نوح، الآية : 28

⁹¹ ينظر د: عبد الفتاح لاشين " في ضوء أساليب القرآن"، دار المعارف، مصر، ط : 1، 1976 م، ص : 331

⁹² سورة الحاقة، الآيتان : 1، 2، 3.

⁹³ الرّازي فخر الدين " التّفير الكبير"، ج : 30، ص : 102

⁹⁴ سورة القارعة، الآيتان : 1، 2.

⁹⁵ سورة القدر، الآيتان : 1، 2

بالضمير، و إنما صرّح بها رفعا لمنزلتها، لأنّ الاسم قد يذكر صراحة، في موضع كان أولى أن
يكنّى عنه؛ و ما ذلك إلا لإظهار العظمة و التخويف في الغالب الأعمّ كقول الشاعر:⁹⁶

لا أرى الموت يسبق الموت شيء حتى :. نغص الموت ذا الغنى و الفقير

حيث صرّح الشاعر باسم الموت ثلاث مرّات تخويفا منها⁹⁷، ذلك أنّها تأتي بغتة، فلا
يعرف أجله الغنيّ و لا الفقير، و لا الصّغير و لا الكبير. و ممّا كرّر للتّعظيم قوله عزّ و جلّ :
﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾⁹⁸،

و قوله في السّورة ذاتها : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾⁹⁹

في تكرار قوله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ تعظيم لشأنهم بدخولهم الجنّة لتلقّيهم كتبهم
بيمينهم، و في تكرار ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ تحقير لشأنهم، وإخبار عن هول جهنّم، و ما
سيلقونه فيها من عذاب أليم.

و من التّكرار للتّعظيم قوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ
عَظِيمٌ﴾¹⁰⁰، ففي قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراض الأول : ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ
عَظِيمٌ﴾، و الثاني ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ و قد أريد بها تعظيم القسم و تعظيم المقسم عليه و هو القرآن
الكريم¹⁰¹، كلام الله المنزّه عن كلّ غلط أو سهو أو نسيان.

و قد يأتي التّكرار ليفيد الإضراب، و يكون في كلام الخلق لإبطال غلط وقع فيه المتكلّم،
كما يرد في كلام الله عزّ و جلّ و الإضراب يقع مطلقا إذا ذكرت بل بعد كلام موجب و قد
جعله العلماء في القرآن نوعين :

⁹⁶ لقد نغص الموت حياة الأغنياء و الفقراء على السّواء، أمّا الأغنياء فينغص عليهم الموت سرورهم الدائم بغناهم، و أمّا الفقراء فينغص عليهم

الموت سعيهم لطلب الغنى كونهم يجهلون أجلهم، فكيف يتمتّعون بالثراء الذي ربّما لا يصلون إليه، و ربّما يصلون إليه فيتمتّعون به قليلا، و ربّما
يصلون إليه أيضا فيخطفهم الموت و لا ينعمون بما كدّوا في الحصول عليه و جمعه ينظر هامش " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 365

⁹⁷ ينظر: محمود بن حمزة بن نصر الكرماني " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 365

⁹⁸ سورة الواقعة، الآيتان : 8 . 9

⁹⁹ السّورة نفسها، الآية : 27

¹⁰⁰ سورة الواقعة، الآيتان : 75، 76

¹⁰¹ ينظر الرّخشري " الكشاف"، ج : 6، ص : 79

و أبو الفتح عثمان بن جني " الخصائص"، تحقيق : محمّد علي النّجّار، دار الهدى للطباعة و النّشر، بيروت، ط : 2، د.ت، ج : 1، ص : 335

أحدهما أن يكون ما فيها من الردّ راجعا إلى العباد، كقوله تعالى : ﴿قَالُوا أَضَلُّوا أَسْغَاثُ أَخْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾¹⁰².

ثانيهما أن الذي يأتي بعد انقضاء وقت الأول أولى بالذكر، كقوله تعالى : ﴿بَلْ إِدَارَكَ بِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾¹⁰³ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِي﴾¹⁰⁴.

و يرى ابن مالك في " شرح الكافية " أن بل أينما وقعت في القرآن فإن غرضها الإستئناف، لا إبطال الأول؛ تأمل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ مَحْبَذٌ مَقْرُونٌ﴾¹⁰⁵، حيث أضرب بها سبحانه وتعالى قولهم: (اتخذ الله ولدا) و أنكر كذبهم وقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُخَذَّوْنَ﴾¹⁰⁶ فلقد تجاوز قوم لوط الحلال إلى الحرام، و ورود "بل" هنا للإضراب عن حقيقة إتيانهم الذكور و ترك الأزواج.¹⁰⁷

و منه قوله تعالى : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾¹⁰⁸ فقوله : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ للمطلقين، و قوله : ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ للشهود.

و نحو ذلك قوله تعالى أيضا : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾¹⁰⁹، فبداية الخطاب للأزواج و نهايته للأولياء.

و نجد في القرآن تكرار الأمثال كقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظَّلُّ وَلَا النُّورُ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾¹¹⁰. فالأعمى و البصير مثل الكافر و المؤمن، أو للصنم و الله عز و جل، و الظلمات و النور، و الظلّ و الحرور مثلان للحقّ و الباطل، و ثواب من سلك طريق الحقّ و عقاب من سلك طريق الباطل،

¹⁰² سورة الأنبياء، الآية : 5

¹⁰³ سورة النمل، الآية : 66

¹⁰⁴ سورة ض، الآية : 8

¹⁰⁵ سورة الأنبياء، الآية : 26

¹⁰⁶ سورة الشعراء، الآية : 166

¹⁰⁷ ينظر: الزركشي "البرهان في علوم القرآن"، ج : 3، ص : 28

¹⁰⁸ سورة الطلاق، الآية : 2

¹⁰⁹ سورة البقرة، الآية : 232

¹¹⁰ سورة فاطر، من الآية : 19 إلى الآية : 22

و الأحياء و الأموات مثل الذين اقتنعوا بما جاء به القرآن و أيقنوا أنّ ما يدعون من دونه لا ينفعهم و لا يضرهم شيئا فاعتنقوا الإسلام دينا ، و الذين زين لهم الشيطان أعمالهم و ألهمهم عن ذكر الله ، و في تكرار " لا " بين هاته المتناقضات زيادة تأكيد على ما أراد تبليغه¹¹¹ .

و كذلك ضرب لنا الله مثل المنافقين لما قال : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْهُ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾¹¹² ، و يعلق الرّمخشري على هاته الآية بقوله : " لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف و تميما للبيان و لضرب العرب الأمثال، و استحضار العلماء المثل و النظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، و رفع الستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق، و المتوهم في معرض المتيقن و الغائب كأنه مشاهد، و لأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، و في سائر كتبه أمثاله و فشت في كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم و كلام الأنبياء و الحكماء¹¹³ .

و يقول تعالى أيضا : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾¹¹⁴ ، و معنى الآية أنّ بعض السفهاء من قريش كانوا يقولون أنّ الله يضرب المثل بالذباب و العنكبوت، و يسخرون من ذلك فهم غافلون عن فهمها لأنهم جهلة لا يفقهون معانيها، و لا يعقلون صحتها و فائدتها¹¹⁵ .

و من وظائف التكرار كذلك تقرير المعاني في نفس السامع و تثبيتها في الصدر مثل قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾¹¹⁶ ، فالجملة (لقد علمتم) معترضة بين القسم و الجواب، لتقرير علمهم بالبراءة من الفساد، و البعد عن تهمة السرقة التي ألصقت بهم.

¹¹¹ ينظر: الرّمخشري "الكشاف"، ج : 5، ص : 82.

¹¹² سورة البقرة، الآية : 17

¹¹³ ينظر: الرّمخشري "الكشاف"، ج : 1، ص : 39.

¹¹⁴ سورة العنكبوت، الآية : 43

¹¹⁵ ينظر: الرّمخشري "الكشاف"، ج : 1، ص : 39.

¹¹⁶ سورة يوسف، الآية : 73

4- تكرار لفظة نفس و دلالتها في القرآن الكريم :

وردت لفظة نفس في القرآن الكريم كثيرا، مما جعلها تلفت الإنتباه، و لعل أهميتها تظهر في ملامسة النفس البشرية في سرد القصص حول خلق آدم- عليه السلام - و غيره من الأنبياء، و أن الإنسان هو المقصود في القرآن بالدرجة الأولى.

و قد قيل أن لفظة " نفس " وردت في أكثر من ثلاثمائة و خمس مرات، و في أكثر من أربعين سورة بصيغة المفرد و الجمع بصورتين : نفوس و أنفس، كما وردت مضافة لضمير المتكلم و المخاطب و الغائب المذكر و المؤنث، مفردة أحيانا و مجموعة أحيانا أخرى معرفة بـ "ال" و نكرة.

و في محاولة للبحث عن مدلولات كلمة "نفس" في القرآن نجد أنها متعددة ، و لعل أهمها إثنتا عشر مدلولاً هي على التوالي:

1- النفس بمعنى الذات الإلهية المقدسة كما في قوله تعالى : ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹¹⁷ و قوله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾¹¹⁸

2- النفس بمعنى الذات الإنسانية باعتبارها وحدة متكاملة مثل قوله تعالى : ﴿لَا يُلَاقِيهِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعًا لَهَا مَا حَسِبَتْ وَهِيَ كَالْحَسْبَةِ﴾¹¹⁹ و قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾¹²⁰.

حيث وردت كلمة نفس في آية واحدة مرتين؛ " الأولى للدلالة على الذات الإلهية و الثانية للدلالة على الذات الإنسانية".¹²¹

¹¹⁷ سورة الأنعام، الآية : 54

¹¹⁸ سورة آل عمران ، الآية : 30

¹¹⁹ سورة البقرة، الآية : 286

¹²⁰ السورة نفسها، الآية : 44

¹²¹ د : عبد الحميد محمد الهاشمي " لمحات نفسية في القرآن الكريم"، نشر و توزيع مكتبة رحاب، الجزائر ، د. ت، ص : 151

و في قصة عيسى - عليه السلام - : ﴿قَالَ سُبْحَانكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عََلَمُ الْغُيُوبِ﴾¹²².

3- النفس التي وردت و قصد القرآن من وراءها آدم - عليه السلام - كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾¹²³.

و قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾¹²⁴.
 4- النفس بمعنى ضمير الإنسان، و ما ينطوي عليه باطنه مثل قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُا يُخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾¹²⁵
 و قوله تعالى كذلك : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَّا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾¹²⁶.

5- النفس الأمارة بالسوء من شرّ و الخراف، و شحّ أو هوى¹²⁷، كما في قوله تعالى في قصة يوسف - عليه السلام - : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹²⁸.

و قوله تعالى : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى النَّفْسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾¹²⁹.

¹²² سورة المائدة، الآية : 116

¹²³ سورة النساء، الآية : 1

¹²⁴ سورة الأنعام، الآية ، 98

¹²⁵ سورة البقرة، الآية : 284

¹²⁶ سورة المجادلة، الآية : 8

¹²⁷ ينظر د : عبد الحميد محمد الهاشمي " لمحات نفسية في القرآن الكريم"، ص : 153

¹²⁸ سورة يوسف، الآيتان : 52، 53.

¹²⁹ سورة النجم، الآية : 23

6- النفس كعامل تغير للقيام بأمور منافية تماما للسلوك السوي؛ و حاولتها تزيين السلوك الخاطئ أو المنحرف كما في قوله تعالى في قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته كما سولت لهم أنفسهم إلقاء شقيقهم في الحب، و ما خدعتهم به من تبرير خدعتهم ببراهين كاذبة، و حجج واهية : ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾¹³⁰.

7- النفس اللوامة التي تحاسب صاحبها بتأنيبه على منكر وقع فيه، أو أمر بالمعروف حاد عنه؛ مثل قوله تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَبْجَعَ بِعَظَمَةِ بَلَى فَتَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾¹³¹.

8- النفس المطمئنة؛ و هي النفس التي تنال رضى الله و التي يقول فيها : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾¹³².

و لعل هذا التبادل في الرضى بين الخالق و المخلوق من أقصى درجات الإطمئنان النفسي و تبادل الصداقة في الحياة كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمْ جَزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾¹³³.

و في دار البقاء الأبدى كما في قوله تعالى عن المؤمنين الصادقين : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾¹³⁴.

9- النفس و هي أحيانا تدلّ على الجوانب المكتسبة من شخصية الإنسان في مظاهر سلوكه، و طريقة تفكيره؛ كما في قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ بَانَ اللَّهُ لَهُ يَكُنْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أُنْعِمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾¹³⁵.
و قوله أيضا : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾¹³⁶.

¹³⁰ سورة يوسف، الآية : 18

¹³¹ سورة القيامة، من الآية : 1 إلى الآية : 4

¹³² سورة الفجر، الآيتان : 27، 28

¹³³ سورة المائدة، الآية : 54

¹³⁴ السورة نفسها، الآية : 119

¹³⁵ سورة الأنفال، الآية : 53

10- النفس بكلّ ما تحمله من رغبات و دوافع و حاجات، سواء أكانت فطريّة وراثيّة تحتاج إلى صقل و تعديل، أم كانت مكتسبة تحتاج إلى توجيه مع بيان لمسؤوليّة الإنسان في ذلك كما في قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾¹³⁷.

و كذلك قوله : ﴿وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾¹³⁸.

11- النفس بمعنى الرّوح التي هي الأساس في الحياة العضويّة و الوظيفيّة و التي يفقدانها تفقد الحياة، كما في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى النَّفْسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾¹³⁹.

12- النفس الإنسانيّة في الإشارة إلى الفروق الجنسيّة بين الذّكر و الأنثى في الإنسان، و كذلك في عالم النبات : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾¹⁴⁰.

و خلاصة القول أنّ كلمة "نفس" في القرآن الكريم فيما عدا دلالتها على الذات الإلهيّة، فإنّها تدلّ على الإنسان ذلك المخلوق الضّعيف¹⁴¹ الذي إن هو حاد عن النهج السّليم استطاعت قوى الشرّ في الحياة أن تأخذه في تيّارها الهادر، و إن هو اتّبع الطّريق السّويّ استطاع أن يقهر تلك القوى، فينال رضى الله، و يفوز فوزا عظيما.

5- تكرار العدد سبعة في القرآن الكريم :

إلى جانب تكرار لفظة " النفس " يثير الأسلوب القرآني تكرار العدد سبعة في أكثر من مقام، تماشيا مع الأسلوب العربي في استعمالاتهم للعدد السّبعة منذ زمن بعيد للدلالة على الكثرة،

¹³⁶ سورة الرّعد، الآية : 11

¹³⁷ سورة الشمس، الآيات : 7 ، 10

¹³⁸ سورة النّازعات، الآيات : 40 ، 41

¹³⁹ سورة الزّمر، الآية : 42

¹⁴⁰ سورة يس، الآية : 36

¹⁴¹ ينظر د : عبد الحميد محمّد الهاشمي " لمحات نفسيّة في القرآن الكريم "، ص : 156

و للتعبير عن ظروف خاصة كانت تحدث في المجتمع آنذاك، و لما كان القرآن الكريم كتابا عربيا مينا، كان من الحكمة أن يجاريهم في أساليبهم، و من هذه المهارات أن القرآن الكريم راعي اصطلاحهم في استعمال رقم " سبعة " للدلالة على كثرة العدد مع الاختلاف في المواقف.

فقد ذكر لنا القرآن أن السموات سبع حين قال : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾¹⁴²، و طرائق معناها سموات و ذكر أن الأرض سبع أيضا فقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾¹⁴³ . و ذكر تعالى أن لهن سبع أبواب فقال : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمُ جُزْءٌ مَّقْشُورٌ﴾¹⁴⁴.

و لما كانت فاتحة الكتاب قليلة الآيات، كثيرة الدلالات جعلها سبع آيات فقال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾¹⁴⁵.

و تحدث القرآن عن النعم الإلهية، والآيات الربانية فضرب المثل في كثرة ذلك كله بالسبعة قال : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾¹⁴⁶.

و استعمل القرآن مضاعفات العدد سبعة، للتمثيل للنفقة و ما يتبعها من أجر عظيم فقال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾¹⁴⁷.

و من مضاعفات العدد "سبعة" استعمال القرآن لكلمة "سبعون" للتعبير عن العذاب الذي سيلقاه كل كافر أثيم فقال : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْجُوهَا سَبْعُونَ خِرَافًا فَاسْلُكُوهُ﴾¹⁴⁸.

¹⁴² سورة المؤمنون، الآية : 17

¹⁴³ سورة الطلاق، الآية : 12

¹⁴⁴ سورة الحجر، الآية : 44

¹⁴⁵ السورة نفسها، الآية : 87

¹⁴⁶ سورة لقمان، الآية : 27

¹⁴⁷ سورة البقرة، الآية : 261

¹⁴⁸ سورة الحاقة، الآيات : 30 . 31 . 32

و لا يفوتنا أن نذكر أن سيدنا موسى - عليه السلام - حينما اختار من يذهب معه من قومه لميقات ربه، اختار سبعين: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾¹⁴⁹.

و قد ذكر هذا السيد الحميري حين قال يرثي أخاه:¹⁵⁰

يا ابن أمي نفسي و مالي .: كنت ركني و مفزعي و جمالي
قد بعثتم من القبور فأبتم .: بعدما رمّت العظام البوالي
أو كسبعين وافدا مع موسى .: عاينوا هائلا من الأهوال
حين راموا من خبثهم رؤية .: الله و أنسى برؤية المتعالي
فرماهم بصعقة أحرقتهم .: ثم أحياهم شديد المحال

و وردت لفظة "سبعين" في القرآن أيضا للتعبير عن التناهي في الكثرة¹⁵¹ حيث يقول عز و جل مخاطبا رسوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾¹⁵².

و كذا نجد أن القرآن قد تحدّى العرب في كلّ ما جاءهم به، و خاصّة ما وجدناه فيه من تصريف القول، و لقد رأيت كيف أنّه يكرّر الحرف أو الكلمة أو الجملة في الآية الواحدة، و مع ذلك لا يزيدها هذا التكرار إلّا روعة و جلالا، و قد حاول أولئك الذين تمكّلهم الغرور و أصابتهم لوثة الإعجاب بالنفس التّطاول على أسلوب القرآن و أرادوا مجاراته فتحذّاهم بقوله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾¹⁵³.

و قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾¹⁵⁴، و كذلك قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾¹⁵⁵.

¹⁴⁹ سورة الأعراف، الآية : 155

¹⁵⁰ ابن عبد ربّه الأندلسي "العقد الفريد"، دار الكتاب العربي، بيروت، ط : 2، 1375 هـ. 1956 م، المجلد الثاني، ص : 407

¹⁵¹ ينظر د: أحمد الشرباطي "يسألونك في الدين و الحياة"، دار الجيل، بيروت، ط : 3، 1980 م، ج : 2، ص : 380

¹⁵² سورة التوبة، الآية : 80

¹⁵³ سورة الإسراء، الآية : 88

¹⁵⁴ سورة هود، الآية : 13

¹⁵⁵ سورة البقرة، الآية : 23

فأنت تلاحظ أنَّ التَّحدِّي وقع بالقرآن كلّهُ، ثمَّ بعشر سور مثله، ثمَّ بسورة منه¹⁵⁶.

ألست ترى أنَّ هاته الآية الأخيرة تعمّ كلَّ سورة في القرآن طويلة كانت أم قصيرة لأنَّها نكرة في سياق الشرط فتعمّ، والإعجاز يشمل السُّور الطُّوال و القصار معاً، فكلَّ سورة من القرآن معجزة، لا يستطيع أحد من البشر مهما كثر تبجّره في العلم أن يعارضها، بل إنَّ ما قصر من السُّور الطُّوال يقوم به الإعجاز، و تثبت به الحجّة.

و لقد تحدّى القرآن العرب - و التَّحدِّي للعرب تحدّ للناس جميعاً من باب أولى، لأنَّهم أفصح الأمم و القرآن بلغتهم فلقد تحدّاهم كثيراً من المرات أن يأتوا بعشر سور مثله، أو حتّى بسورة واحدة و لكنَّهم عجزوا عن ذلك مطلقاً حيث يقول جلّ شأنه: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾¹⁵⁷، و لن تفيد التأييد للنفي المطلق في المستقبل، أي و لن تفعلوا ذلك أبداً، و هذه معجزة من المعجزات التي لا يعلمها إلّا الله، و قد وقع هذا التَّحدِّي عبر القرون الشاهدة على ذلك بمفهوم التعجيز السرمدي، و القرآن كلام الله المعجز، فكيف يمكن لبشر لا يملك حولا و لا قوّة أن يجابه القرآن، و هو لم يخرج عن سنن العرب في كلامهم ألفاظاً و حروفاً، تركيباً و أسلوباً، و لكنّه في اتّساق حروفه، و طلاوة عبارته، و حلاوة أسلوبه، و جرس آياته بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللّغويّة لدى البشر.¹⁵⁸

و هكذا فالتكرار في القرآن الكريم مهمّ في العمليّة التربويّة، و ما من قضيّة كرّرت في القرآن إلّا و نجد سياقاً يقتضيها، إذ أنّ في تكرارها ضرورة للنفس البشريّة.

و لقد أدرك علماء النفس المعاصرون الأهميّة العظمى التي يؤدّيها التكرار في تثبيت المعاني، و اعتمد عليه أصحاب الدّعاية و الإعلام في بناء نظريّاتهم، حول غسيل الدّماغ حيث يجعل الإنسان في وضع غير طبيعي، ثمّ تعاد عليه بعض المعاني عشرات المرات حتّى تستقرّ عنده، و يزول ما عداها، و كلّ ذلك مرجعه ما عرف عن طبيعة النفس البشريّة، و لئن أدرك المخلوق

¹⁵⁶ ينظر د: محمّد بن لطفي الصّبّاغ "المحات في علوم القرآن"، المكتب الإسلامي، بيروت، ط : 2، 1986 م، ص : 264

¹⁵⁷ سورة البقرة، الآية : 24

¹⁵⁸ ينظر: سعيد حوى "الأساس في التفسير"، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع، ط : 4، 1414 هـ. 1993 م، المجلد الأوّل، ص: 104

الضعيف - الذي هو الإنسان - هذا فخالقنا سبحانه و تعالى أعلم به و أعلم بحاجته، و لذلك أنزل كتابه مذكراً للإنسان على حسب فطرته، و قدرته و ضروريات حياته.

و العودة إلى كتاب الله فيها تنبيه للنفس البشرية إذا غفلت، و تذكرة لها إن نسيت، و متنفس لها إن هي قنطت فهو يحث المسلم على التفكير في مخلوقات الله في السماء و الأرض حيث يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾¹⁵⁹.

و يحثه على التفكير في نفسه، و في الأرض التي يعمرها، و في الطبيعة التي تحيط به حيث يقول عزّ و جلّ في النفس : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾¹⁶⁰ و يقول في الأرض : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾¹⁶¹.

و يقول في الطبيعة : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾¹⁶².

و بناء على هذا فالحقائق القرآنية حقائق نهائية مطلقة، على غرار الحقائق التي يصل إليها البحث الأدبي فإنها لا نهائية، مقيدة بحدود تجاربه و ظروفها و أدواتها، و التكرار في القرآن بعد كلّ هذا من دلائل إعجازه، لأنّ تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة في مواضع مختلفة مع روعة الألفاظ و الحمل في كلّ موضع، كأن يكرّر المعنى الواحد في قصّة ما في سور مختلفة، و كلّ عبارة معجزة في ذاتها ممّا لم يستطع العرب أن يأتوا بمثله، فحقيق بنا أن نقول أنّ أيّ تكرار في اللفظ أو في المعنى إنّما كان لمناسبة جديدة و القرآن فوق كلّ هذا يمتاز بمقدرة فائقة خارقة؛ تنقطع في حليتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء و البلغاء.

¹⁵⁹ سورة آل عمران، الآيتان : 190، 191

¹⁶⁰ سورة الروم، الآية : 8

¹⁶¹ سورة الذّاريات، الآيتان : 20، 21

¹⁶² سورة الغاشية، من الآية : 17 إلى الآية : 20

و من الألفاظ التي كثر ورودها في القرآن الكريم باعتبارها أشدّ تعبيراً عن الحياة الاجتماعية حيث قرعت الأسماع في العهد المكي لفظتي القرية و القرى و المدينة و المدائن و لفظة أمة و أمم*

أما القرية و القرى بلفظهما و معنهما معا فقد ذكرتوا واحدا و خمسين مرّة في ست و عشرين سورة.

و أما المدينة و المدائن فقد ذكرتوا سبع عشرة مرّة في أحد عشر سورة، فأما أمة و أمم فذكرتا ستين مرّة في خمس و عشرين سورة.

و نحن إنّما سمحنا لأنفسنا بالإشارة إلى تكرار هذه الألفاظ ههنا لأنها تتناسق و موضوع بحثنا الذي هو التكرار، كما أننا وجدنا القرآن حينما يتحدّث عن أخبار الأمم السابقة غالبا ما يذكر هاته الألفاظ، علاوة على أنّ قصّة موسى - عليه السّلام - و التي هي بيت القصيد في بحثنا هذا قد ذكرت فيها هاته الألفاظ، و قد إقتصرونا على ذكر العدد الذي ذكرت فيه تلك الألفاظ و السّور التي حوتها، و لمن شاء قراءة هذه الألفاظ في آياتها نحيلة إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي وضعه محمّد فؤاد عبد الباقي، فإنّه واجد فيه ضالّته و مبتغاه، إذ أنّ مؤلّفه لم يترك فيه صغيرة و لا كبيرة إلّا و أحصاها و عدّها عدّا.

II- التكرار في القصة القرآنية :

1- تحديد المصطلح :

لا نعثر على مصطلح قصّة في القرآن بهذه الصّيغة بل يعبر عنه بفعله نقص أو تقصص أو قصّ في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾¹⁶³ ، أو تقصص في قوله : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾¹⁶⁴.

* ينظر: عماد التّومي " المجتمع الإنساني في القرآن الكريم"، الدّار التّونسيّة للنشر. تونس، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط : 2، 1990 م،

ص : 73

¹⁶³ سورة القصص ، الآية : 25

¹⁶⁴ سورة يوسف ، الآية : 5

« و القصة لغة هي الخبر و هو القصص ، و قصّ عليه خبره ، يقصّه قصّا و قصصا أورده ، و القصص الخبر المقصوص بالفتح ، و القصص بكسر الكاف جمع القصة التي تكتب. »¹⁶⁵

و القصّ تتبع الأثر أي وقت كان قال تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصًّا ﴾¹⁶⁶ أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر الذي يتبعانه، يقال قصصت الشيء إذا تتبعته أثره شيئا بعد شيء ، و منه قوله تعالى ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾¹⁶⁷ أي إتبعي أثره قال أمية بن أبي الصلت :¹⁶⁸

قالت لأخته قصّيه عن جنب .: و كيف تقفو بلا سهل ولا جدد

فتتبع الأثر يعود بنا إلى الوراء إذ ليس في القصص : « ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا مثل ذكر المسلمين مع عدوهم »¹⁶⁹

و جاء في تاج العروس : قوله تعالى : ﴿ نَعْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾¹⁷⁰ أي نبين لك أحسن البيان ، و قال بعضهم القصّ البيان ، و القصص الاسم «¹⁷¹ و جاء في أساس البلاغة للزمخشوي : " و قصصت أثره ، و قصصته اتبعته قصصا (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ) ، و اقتصصته ، و تقصّصته ، و خرجت في أثر فلان قصصا (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصًّا) قال هدية بن خشرم :

فقصوا عليه ذنبا و تجاوزوا .: ذنوبهم عند القصيصة و الأثر

¹⁶⁵ ابن منظور ، "لسان العرب". دار صادر . بيروت . ط: 03. 1414هـ - 1994 م ، المجلد السابع ، ص 74

¹⁶⁶ سورة الكهف، الآية: 64

¹⁶⁷ سورة القصص ، الآية: 11

¹⁶⁸ ابن منظور ، "لسان العرب". المجلد السابع ، ص 74-75

¹⁶⁹ الطاهر بن عاشور "تفسير التحرير والتنوير" المقدمة السابعة ، الدار التونسية للنشر ، د. ت ، ج 1 ، ص 64

¹⁷⁰ سورة يوسف ، الآية: 3.

¹⁷¹ الزبيدي محمد مرتضى " تاج العروس من جواهر القاموس "، دار مطبعة الحياة ، بيروت . لبنان، ج 4 ، ص 422.

أي عند القصة و الحكاية، و رفع قصته إلى السلطان ، و القصص يقصون على الناس ما يرقّ قلوبهم¹⁷².

و كثيرا ما يقتزن ذكر القصص في القرآن بالأنباء مثل قوله تبارك و تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾¹⁷³، و قوله ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾¹⁷⁴ و كقوله ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾¹⁷⁵، و قوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾¹⁷⁶

و في القرآن الكريم كثيرا ما ترد لفظة نبأ للتعبير عن القصة مثلما ورد في الآيات المذكورة أعلاه ، و إن كان النبأ أعم من القصة مع اختلاف دقيق في التصوير كقوله سبحانه و تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾¹⁷⁷.

واستعمال القرآن للفظتي « الخبر و النبأ » إنما كان حين الحديث عن الماضي مع التفرقة بينهما في الحال الذي استعملنا فيه ، تماشيا مع ما ورد عليه نظمه من دقة ، و روعة و إعجاز ، فقد استعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث التي تقادم العهد بها ، على حين أنه استعمل الخبر و الأخبار في سير أغوار الأحداث الي لا تزال مشاهدها ماثلة للعيان¹⁷⁸.

2- القصة الفنية :

و ربما كان من المناسب قبل أن نخوض في الحديث عن القصص القرآني أن نقف وقفة قصيرة مع القصة الفنية و هي كما عرّفها بعض المؤلفين : عرض لفكرة مزّت بخاطر الكاتب ،

¹⁷² أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، "أساس البلاغة" ، تحقيق الأستاذ : غيد الرحيم محمود ، عرف به : الأستاذ الكبير أمين الخولي -

دار الطباعة والنشر - بيروت . لبنان، ص 368

¹⁷³ سورة هود، الآية :120

¹⁷⁴ سورة القصص ، الآية 3

¹⁷⁵ سورة هود ، الآية :100

¹⁷⁶ سورة الكهف، الآية :13

¹⁷⁷ سورة هود، الآية :49

¹⁷⁸ ينظر: السيد عبد الحافظ عبد ربه "بحوث في قصص القرآن"، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ط:1 ، 1972، ص 45

أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره ، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ، ليصل بها إلى أذهان القراء ، محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه.

و يعرفها خالد أحمد أبو الجندي بأنها : "وسيلة من وسائل التعبير الفني ينشرها الكاتب فيبرز بها ما يشغل الناس من أمور الحياة و ما تتصف به نفوسهم من خلال و أخلاق، لينصح أو يرشد أو يعظ، أو ينقد أو يلاحظ، و هي لوحة فنية جميلة تمتد على صفحاتها ألوان حياة البشر، و أنماط سلوكهم ، و صور أفعالهم بكل أنواعها المتقاطعة و المتوازنة ، المتطابقة و المتضادة ، و مرآة صافية للحياة ، إذا أحسن نصبها أعطت أفضل المناهج لتقويم الحياة و تخلها من الشوائب" ¹⁷⁹.

و عليه فالقصة الفنية هي تعبير عن الحياة بتفصيلاتها و جزئياتها من الحوادث الخارجية ، و المشاعر الداخلية ، وفق حدود زمنية محددة ، تسير الغاية التي يحددها القصاص.

و يذكر صاحب كتاب دراسات فنية في قصص القرآن أن : "القصة في أوسع دلالاتها عمل فني قائم على بناء هندسي خاص ، يصطنع كاتبها واحداً أو جملة من الأحداث و المواقف و الأبطال و البيئات ، عبر لغة تعتمد (السرد) أو (الحوار) أو كليهما ، و تتضمن (هدفاً) فكرياً محدداً يخضع الكاتب عناصره إلى ما هو (ممكّن) أو (محمّل) من السلوك ، وذلك وفق عملية (إصطفاء) خاصة للعناصر المذكورة" ¹⁸⁰.

و قد ألمّ الكاتب من خلال هذا التعريف الذي أعطاه للقصة بجميع جوانبها من أحداث ، و سرد أو حوار و الهدف من وراء ذلك كله.

و الذي لا ريب فيه أن القصة منذ بدئها نشأت كنشاط إنساني يلبي حاجات نفسية و إجتماعية و دينية و أخلاقية و تعليمية، ثم جمالية و إقتصادية لدى المبدعين و المتلقين على السواء، فالقصة عند الطفل مثلاً هي وسيلة من وسائل اللهو و الترويح عن النفس ، و الهروب من الواقع

¹⁷⁹ خالد أحمد أبو الجندي "الجانب الفني في القصة القرآنية" منهجها و أسس بنائها، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة . الجزائر ، د.ط، د.ت.

¹⁸⁰ الدكتور محمود البستاني "دراسات فنية في قصص القرآن" ، دار البلاغة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت ، ط: 1، 1409 هـ. 1989 م، ص: 7.

أحيانا، فهو كما لا يمل من تكرار لعبة ما، لا يمل بحال من الأحوال من أن تعاد عليه قصة مرات و مرات فهي كثيرا ما تكون جسره إلى عالم اللهو، كما تقوم أحيانا كثيرة بالدور الذي تقوم به وسائل اللهو الأخرى، فقد تكون تدريبا لخياله ، كما يكون اللعب تدريبا لعضلاته.¹⁸¹

إلى جانب القصة المسموعة -لدى الأطفال - نجد القصة المقروءة التي تأخذنا إلى عالمها الخاص بأن تروي لنا عملية تغير ، و وضع الإنسان يتغير ، أو هو ذاته يتغير لأنها تحركه انفعاليا و تثيره فكريا¹⁸².

بما تصوره من أحداث و وقائع و شخصيات تشد الانتباه ، و تشوق المستمعين إلى تتبع أحداثها و وقائعها. بما تتضمنه من حكم و مواظ و عبر ، فلا يمكن أن نتصور أن تخلو حياة إنسان من قصة، أو مجموعة من القصص ، بل إن حياته سلسلة من القصص لما يتعرض له من مواقف حرجة تشكل منها صور مثيرة تروى و تحكى لأن الحياة لا تدع آدميا دون أن تأخذ من أعصابه و تتلاعب بها ، و إذا نحن نظرنا إلى الأمة العربية - من هذا الجانب - لوجدنا أن الكوارث و الفواجع و الأحداث المثيرة قد أخذت منها نصيبا موفورا، تكاد تنافس به أعظم الأمم كوارثا و نكبات ففي الحياة جذب و جوع، و حروب و غارات ، و عواصف و أعاصير تطلع على الناس، و تقع من كل حدب و صوب.

فالطبيعة في غضبها تجعل الإنسان و الحيوان بل و النبات يستعد كل يوم بل و كل لحظة لمواجهة امتحان قاس يهدد وجوده ، وينغص عليه حياته فما يصبوا الإنسان لإحرازه من خير ، و ما يبحث عنه من ماء ينبت الزروع فيجبي الضروع قليل بل ناذر جدا ، و في المقابل ما يتحایل الإنسان للهروب منه يجده بالمرصاد يترصده من ريح سموم، و حرور لافح ، ورمال ثائرة كل ذلك جعل الإنسان في معركة ملتهبة مع الطبيعة في سبيل البقاء .

¹⁸¹ ينظر: يوسف الشاروني "دراسات في القصة القصيرة"، د.د، ط: 1، 1989، م، ص 25.

¹⁸² ينظر: روبرت شولز مؤلف البيئية في الأدب "عناصر القصة"، ترجمة عن الإنجليزية: محمود منقذ الهاشمي، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، ط: 1، 1988، ص: 55.

و كان من شأن هذه الحياة القاسية أن جعلت الناس يغزون بعضهم بعضا ، فنهش بعضهم لحم بعض ، وولغ قويعهم دم الضعيف منهم ، فكان ما يقع في عالمهم كالذي يقع في عالم الحيوان من عدوان و افتراس فمن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب !¹⁸³

و حياة تلك صورها و هذه ألوانها لا بد أن تجعل الناس ينظرون إليها نظرة احتقار و ازدراء، فلقد قيد واقعها بأحداثه اللامتناهية خيال الناس و هدم آمالهم و قضى عليها، و لم تترك لهم الحياة أي متنفس يفرون من خلاله ليهيموا بخيالهم و يحققوا بعض آمالهم و لكن الواقع المطبق عليهم جعلهم يدورون داخل سجن رهيب ، يسبطر عليهم فراغ قاتل.

فخداع الطبيعة للناس ، أو خداع الناس لأنفسهم جعلهم يستسيغون هذه الحياة المريرة ، فلو قلنا إن حياة العرب في الجاهلية كانت قصة طويلة مثيرة فذلك ما يحدثنا به الواقع و صحف التاريخ.

و هكذا عاشت الحياة الصحراوية في ضمير العرب ، و هكذا دارت في كيانهم و تحركت في ذكرياتهم، فعبر عنها الشعراء بكلمات و صوروها في أبيات دون أن يخرجوا عن ذلك الواقع الذي يعيش فيه الناس جميعا.

لهذا كان الشعر العربي واقعيًا ، بعيدا عن الخيال ، مغرقا في الواقعية ، و قد كان يمكن للأحداث التي تسجل فيه أن تكون نقطة إنطلاق لمحنة، أو مأساة أو قصة قوامها الخيال ، كانت هذه الأحداث تظهر في نظم الشعراء و كأنها صورة مكررة للواقع الذي حدث، نقل وقائعها مشاهد أمين ، أو إلقتها مصوّر بارع لم تفته و لا جزئية من جزئياتها دون زيادة أو نقصان.

فعنزة بطل الحروب كما حدثنا التاريخ عنه ، لو عاش في الأمة اليونانية لكان أسطورة من أساطيرها، أو إله له مكانته مع الآلهة - لأن الخيال له دور مهم في عقل الأمة اليونانية - على أن عنزة لم يعدّ عند العرب إلا فارسا من فرسانها ، و بطلا من أبطالها ، قد يكون منتصرا، كما قد يكون منهزما، فمع كل ما يملك من قوة استطاعت الحياة أن تذيبه مرارة ما بعدها مرارة ، و لم

¹⁸³ ينظر: عبد الكريم الخطيب " القصص القرآني في منطق ومفهومه " مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم و يوسف ، دار الفكر العربي، مطبعة المدني،

القاهرة ، د.ت، ص: 14-15

و كان من شأن هذه الحياة القاسية أن جعلت الناس يغرون بعضهم بعضا ، فنهش بعضهم لحم بعض ، وولغ قوتهم دم الضعيف منهم ، فكان ما يقع في عالمهم كالذي يقع في عالم الحيوان من عدوان و افتراس فمن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب !¹⁸³

و حياة تلك صورها و هذه ألوانها لا بد أن تجعل الناس ينظرون إليها نظرة احتقار و ازدراء، فلقد قيد واقعها بأحداثه اللامتناهية خيال الناس و هدم آمالهم و قضى عليها، و لم تترك لهم الحياة أي متنفس يفرون من خلاله ليهيموا بخيالهم و يحققوا بعض آمالهم و لكن الواقع المطبق عليهم جعلهم يدورون داخل سجن رهيب ، يسبتر عليهم فراغ قاتل.

فخداع الطبيعة للناس ، أو خداع الناس لأنفسهم جعلهم يستسيغون هذه الحياة المريرة ، فلو قلنا إن حياة العرب في الجاهلية كانت قصة طويلة مثيرة فذلك ما يحدثنا به الواقع و صحف التاريخ.

و هكذا عاشت الحياة الصحراوية في ضمير العرب ، و هكذا دارت في كيانهم و تحركت في ذكرياتهم، فعبر عنها الشعراء بكلمات و صوروها في أبيات دون أن يخرجوا عن ذلك الواقع الذي يعيش فيه الناس جميعا.

لهذا كان الشعر العربي واقعيًا ، بعيدا عن الخيال ، مغرقا في الواقعية ، و قد كان يمكن للأحداث التي تسجل فيه أن تكون نقطة إنطلاق للحملة، أو مأساة أو قصة قوامها الخيال ، كانت هذه الأحداث تظهر في نظم الشعراء و كأنها صورة مكسرة للواقع الذي حدث، نقل وقائعها مشاهد أمين ، أو التقطها مصوّر بارع لم تفته و لا جزئية من جزئياتها دون زيادة أو نقصان.

فعنزة بطل الحروب كما حدثنا التاريخ عنه ، لو عاش في الأمة اليونانية لكان أسطورة من أساطيرها، أو إله له مكانته مع الآلهة - لأن الخيال له دور مهم في عقل الأمة اليونانية - على أن عنزة لم يعد عند العرب إلا فارسا من فرسانها ، و بطلا من أبطالها ، قد يكون منتصرا، كما قد يكون منهزما، فمع كل ما يملك من قوة استطاعت الحياة أن تذيبه مرارة ما بعدها مرارة ، و لم

¹⁸³ ينظر: عبد الكريم الخطيب " القصص القرآني في منطقته ومفهومه " مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم و يوسف ، دار الفكر العربي، مطبعة المدني،

القاهرة ، د.ت، ص: 14-15 .

يكن له حول و لا قوة لأن يدفع حرارة السموم ، ولا أن يقف في وجه الأعاصير ، أو يهدئ هذه الرمال الثائرة؟ فهو في هذا محكوم عليه - كأبي جبان أو شجاع- أن يرضى بهذه الحياة ، و يتلقى لطماتها في صمت و صبر إن أراد العيش¹⁸⁴ .

فها هو يفخر ببطولته، و مواقفه في الحرب حيث يقول :¹⁸⁵

و مدحج كره الكماة نزاله .: لا ممعن هربا و لا مستسلم
جادت له كفي بعاجل طعنة .: بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه .: ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشئه .: يقضمن حسن بناته و المعصم
و مشكّ سابعة هتكت فروجها .: بالسيف عن حامي الحقيقة معلم
ربذ يده بالقداح إذا شتا .: هتاك غابات التجار ملوّم
لما رأني قد نزلت أريده .: أبدى نواجذه لغير تبسم
فطعنته بالرمح ثم علوته .: بمهند صافي الحديد مخدم
بطل كأن ثيابه في سرحة .: يحذى نعال السبت ليس بتوأم

لقد كان عنزة أكبر من تلك الصورة التي رسمها لنفسه ، و هو إن كان أعظم وأقوى من أبطال قومه و فرسانهم فإنه لا حول له و لا قوة أمام غضب الطبيعة و متقلبات الحياة ، فهو مهما بلغ من القوة فلن يستطيع أن يقهر قوى الطبيعة لذلك نراه يضمّر غبطته بنفسه ، و يصغر من شأنها في ذاته.

و ها هو عنزة يلتقي ببطل من أبطال الحرب ، ممن يكره الأبطال لقاءهم، و يتقون مواجهتهم ، و قد تهيا بلباس الحرب و أسلحتها ، و هو يدرك الموقف و نسبة خطره فالمواجه ليس أي أحد و إنما هو بطل الأبطال، و قد جعله رعب المواجه يقدم أحيانا خشية أن يغير بالجن و هو البطل، و يحجم أحيانا أخرى لأنه يعلم علم اليقين أن لا حظّ له في مواجهة عنزة.

¹⁸⁴ ينظر: المرجع نفسه ص: 16 . 17 . 19 .

¹⁸⁵ الزوزني "شرح المعلقات السبع"، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان، د. ط. 1408 هـ. 1988 م، ص: 123 إلى 126

عنزة "الديوان"، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، د. ط. 1398 هـ. 1978 م، ص: 26.27

ثمّ ها هو ذا عنزة يطعن خصمه طعنة فيسقط صريعا، و يصبح طعاما للسباع والنسور،
لأنّ لا أحد يملك الجرأة ليواريه التراب.

و هكذا كان العرب واقعيّين فيما يقصون ، لا ينجحون بخيالهم بعيدا كأن يجعلوا لأنفسهم
آلهة تتحكم في مصائر الناس ، و لو فهم أولئك الذين يرمون القصص الأدبي بالجمود أنّ اعتزاز
العربي بذاته و حرصه على صحبتها كما هي لما تجرّأوا أن يرموا الأمة العربية بضعف الخيال حين
لا تجعل على مسرح حياتها آلهة تتحكم في سلوكها و تابع كلّ تحرّكاتهما ، فالعربيّ يتحدّى الواقع
دون أن يستعين عليه بأية قوّة خارج ذاته.

و نحن لو عدنا إلى الأدب اليوناني و ملاحمه التي تحكي عن الحروب الضاربة في أعماق
الوهم ، و في غيابات الخيال حيث ترفع الناس إلى سماوات الآلهة ، و تنزل بالآلهة إلى دنيا الناس،
فتخلط بينهم ، و تجمع بين السماء و الأرض و قبل العقل اليوناني هاته المشاهد كما هي عليه،
حتّى إذا صحى من غفوته و أحلامه نظر إليها معجبا بها ، مستلذا طعمها فهي أحلام،
أو أضغاث أحلام و ليس على الأحلام من حرج مهما حملت في طياتها من خرافات و أوهام.¹⁸⁶

و نلتقي بعمر بن كلثوم الثغلي الذي عدت معلقته - في الأدب العربي - أقرب شيء إلى
أدب الملاحم ، كون الظروف التي قيلت فيها ذات شبه كبير بالظروف النفسيّة التي كان يعيش
فيها أصحاب الملاحم و الأساطير و مع أنه - على حسب ما روى المؤرخون - كان أثناء نظم
معلقة تلك في حال من الإنفعال الذي يسيطر على تفكيره، ممّا يعيقه عن الوقوف عند معقول
أو الالتفات إلى واقع فإن معلقته جاءت واقعية ، لا تنح إلى خيال و لا تميل إلى أحلام . يقول
مخاطبا الملك عمرو بن هند :¹⁸⁷

أبا هند فلا تعجل علينا: و أنظرنا بخبرك اليقين
بأننا نورد الرايات بيضا : و نصدرهنّ حمرا قد روينا
ونحن إذا عماد الحيّ حرّت : عن الأخفاض نمنع من يلينا

¹⁸⁶ ينظر: عبد الكريم الخطيب " القصص القرآني في منظوقه و مفهومه ، ص 19، 20 ،

¹⁸⁷ الزوزني " شرح المعلقات السبع " ، ص: 170 174

بِحَذِّ رؤوسهم في غير برّ: فما يدرون ماذا يتّقون

كأن سيوفنا منّا ومنهم: مخاريق بأيدي لاعبين

كأنّ ثيابنا منّا ومنهم: خضبن بأرجوان أو طلينا

لقد استصغر هذا الملك شأن بني تغلب - وهم قوم الشّاعر - و رآهم قليلوا الحسب

و النّسب فراح الشّاعر يخاطبه مفاخرًا بقومه و ما لهم في الحرب من آثار حجبت عن الملك ،

و الأبيات كما ترى نقل للواقع، لا أثر للخيال فيها.

و هنا نتساءل : لماذا لم يهتم العرب بخيالهم فينسجوا ملاحم كالتّي نسجها اليونان ؟

و للإجابة عن هذا التساءل فرضان لا ثالث لهما :

أحدهما أن يكون الأدب العربي قد مرّ بشيء من هذا في فترة مبكرة من حياته ، كان الشاعر يهيم

بخياله فيصور ما كان يحدث من حروب آنذاك على الشّاكلة التي صوّر بها شعراء اليونان حروبهم،

و لكن هذا الشّعّر أخذ منه طول الأمد فأنساه من ذاكرة العربي كما يأخذ النسيان بنصيب وافر

من الأحلام ، أو أن العقل العربي قد مل منه حين صحا و أثر الزهد فيه شأنه في ذلك شأن كثير

من الشبان بينما يمر بعضهم بملاعب طفولتهم و يحقّرون من شأنها، يحرض البعض الآخر على

الإحتفاظ بما حدث له في طريق الذكريات و هذا الفرض لم يكن من شواهد التاريخ ، و ثانيهما

أن الطبيعة العربية ما كانت لتتقبل فكرة أحلام اليقظة هذه في طفولتها، لأنّها مذ وجدت تنسم

الهواء ، و تنسم الحياة بظروفها القاسية لم تكن لتدع أحدا يغفو أو ينام ، و هذا الفرض و هو

الذي نتكّي عليه حين نعلل خلوّ الأدب العربي من قصص الأساطير و شعر الملاحم.¹⁸⁸

و ممّا آنف ذكره نستطيع أن نقرر أنّ تقصير العرب في خلق مثل هذه الملاحم ، و تلك الأساطير لم

تكن لضعف في طبيعتهم ، أو ملكة الخيال عندهم كما يقول المستشرقون و المستغربون على

السواء و إنّما كان ذلك لإعتزاز العربي بشخصيته و احترامه لها ، و من غير المنطقي أن يحيد عربيٌّ

عن شخصيته مهما كان مزاجه.

¹⁸⁸ ينظر عبد الكريم الخطيب "القصص القرآني في منطوقه و مفهومه" ، ص: 22. 23.

لقد كان الشاعر الصَّعلوك «تأبط شراً» معروفا بشجاعته، و شدة عدوه، و كان الكثير من الناس يتمنون أن يكونوا في مستوى شجاعته، و أنى لهم ذلك ، و حتى و إن ظفروا بقليل يبقى ينقصهم الكثير ممَّا يتصف به "تأبط شراً" و تمر الأيام يدفع بعضها بعضاً حتى يأتي اليوم العجيب الذي يأتي فيه من يريد أن يتاجر باسم تأبط شراً لغرض إرهاب الناس و الحصول على حشيتهم و احترامهم معا ، و اتفق الرجلان و مضى يحمل أحدهما اسم الآخر يحمل الرجل اسم "تأبط شراً" و يحمل هذا الأخير اسم "أبا وهب" تعويضا له عما قدّم له .

و يأخذ هذا الموقف المثير من نفسية «تأبط شراً» فيجيش صدره، و يعبر لسانه :¹⁸⁹

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها: . تأبط شراً واكتنيت "أبا وهب"
فهبه تسمى اسمي و سميت باسمه: . فأين له صبري على معظم الخطب؟
وأين له بأس كبأسني و سورتي: . و أين له في كل فادحة قلبي؟

حادثة رهيبة فعلا ، شدّت إليها الكثيرين ، و جعلتهم يتناقلون الحديث عنها ولو كانت من عند غير العرب لأمكن أن تُولف فما أكثر ما أصبح الناس ينسلخون عن ذاتيتهم و ما أكثر ما تبدّل شخصياتهم، و كأنها أثواب يغيّرونها حسب الجو، فالإنسان بات يتلون كالهرباء و ما عهدنا ذلك في خلق العربي أبدا، إذ أنّ شخصيته واضحة جدّا، ثم إنّ الصفات التي يميّز بها لا يتحوّل عنها أبدا ، فهي ملتزمة له التزام لون بشرته لجلده ، من هنا كان من المستبعد أن ينسج العربي من خلاله قصصا أسطوريا كالذي كان ينسجه العقل اليوناني¹⁹⁰ فهو يحلو له دائما أن يواجه الحياة على طبيعتها و يتصفّحها في طبيعتها الأخيرة الصادقة وهو يرضى أن يكذب على نفسه و لا أن يكذب عليه غيره حتى في تصوّراته و اشتقاقاته .

لقد كان واقع العرب قاسيا لدرجة أنه قيّد أحلامهم و رؤاهم، حتى و إن سمحت لهم الحياة بحلم سعيد ، فإنّما تكيد لهم من خلا له كيدا و خداعا ، فتزيد بذلك من قسوتها و بلائها.

¹⁸⁹ أبو الفرج الأصبهاني "الأغاني" ، مؤسسة عزّ الدين للطباعة و النشر، بيروت ، لبنان ، د.ت ، المجلد السادس، ص: 211.

¹⁹⁰ ينظر: عبد الكريم الخطيب "القصص القرآني في منظوقه و مفهومه" ص: 24، 25.

و العيش في الصحراء هذا حاله ، لا مكان للخيال فيها ، إذ أنّ كلّ ما فيها حقائق واقعيّة ، فالخمر مثلاً هي عند الكثيرين فضاء واسع للهروب من الواقع المرير، و انطلاق في آفاق الأحلام و أضغاث الأحلام و لكنّه في فلات العرب يفقد هذه الخاصية ، إذ مهما احتسى من الخمر و نهل فإنّه لا يستطيع أن يحمل النّاس بخياله إلى أبعد من خيمته يقول المنخل اليشكري:¹⁹¹

ولقد شربت من المدا: مة بالكبير و بالصّغير

فإذا سكرت فإنّني: ربّ الخورنق و السّرير

و إذا صحوت فإنّني: ربّ الشّويهة و البعير

يا ربّ يوم للمنخل قد لها فيه قصير

و من النّاس من يزيد في هذه القصيدة:¹⁹²

و أحبّها و تحبّي: و يحبّ ناقتها بعيري

فالشّاعر في لحظة واحدة يسقط ، تتكسر عظامه أو يندقّ عنقه، و يصير ما انعقد بين عينيه من سحب تؤدّن بسقوط المطر أثر بعد عين فهذا نوع من أنواع الكيد ترميه به الحياة.

ذكرنا أنّ العربي يعتزّ بذاتيته ، و يحافظ على شخصيّته ، لذلك فهو حين يحلم في يقظته أو منامه، يرى ذلك خيانة لذاته، و هروبا من واقع كان لا بدّ له من مواجهته .

من خلال ما ذكرناه نستطيع أن نجعل من طبيعة العربي الضّاربة بجذورها في أعماقه، سبباً منطقياً لما يرمي به الأدب العربي من قصور في الأدب التمثيليّ ، و إلى نذرة مسارح التمثيل في الحياة العربية قبل أن يصلها ذلك من الأمم المهتمة بالتمثيل ، و ذلك احتفاظاً من العربي بشخصيّته و احترامه لها¹⁹³ .

هذا و إن كان الأدب العربي قد خلا من ألوان الخيال ، فإن ما جاء فيه من تصوير صادق للبيئة العربية آنذاك في كلّ أطوارها، و بكلّ تحرّكاتّها، يغنيه عن الخيال و أشواكه، و خاصّة إذا وجد هذا المصوّر اللّغة الرّاقية المناسبة لعرض صورته، مثلما رأينا مع عنزة و كيف أنّه في أبيات

¹⁹¹ أبو الفرج الأصبهاني " الأغاني " ، المجلد السّادس، ص: 154

¹⁹² الصدر نفسه ، ص : 156

¹⁹³ ينظر: عبد الكريم الخطيب " القصص القرآني في منظوفه و مفهومه " ، ص: 27

معدودة استطاع أن يصوّر جملة من المعارك التي خاضها في بسالة ظافرا الإنتصار، كذلك شأن عمرو بن كلثوم فيما أوردنا له من أبيات.

و لم يتوقّف الأمر في الاعتزاز بالشخصيّة عند الرّجل فحسب ، بل تجاوز ذلك إلى المرأة البدويّة ، فهي لم تكن تغير من جمالها المطبوع بالأصباغ و أدوات الجمال المصنوعة ، مثلما تفعل الحضريات من النساء و لعلّ المتنبّي قد عبّر عن ذلك بوضوح حين قال :¹⁹⁴

ما أوجه الحضرة المستحسنات به .: كأوجه البدويات الرّعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية .: و في البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة .: و غير ناظرة في الحسن و الطّيب
أفدي طباء فلات ماعرفنا بها .: مضغ الكلام و لا صبغ الحواجيب
و لا برزن من الحمام مائلة .: أوراكهّن صقيلات العراقيب
و من هوى كلّ من ليست مموّهة .: تركت لون مشيبي غير مخضوب

و نخلص من كلّ ما جئنا على ذكره إلى القول بأنّ قلّة القصّة في الأدب العربيّ لا تستلزم قلّة في قدرات الأُمّة العربيّة ، و لا قصورا في خيالها كما يقول بذلك الباحثون و الدّارسون للقصّة في الأدب العربيّ من غربيّين و عرب.

إنّ خلوّ الأدب العربيّ الجاهليّ من الملاحم و الأساطير راجع إلى أمرين :

أولهما : ما كان يتميّز به العربيّ من شجاعة خارقة استطاع بواسطتها أن يقف في وجه الحياة في أقسى ظروفها ، و في أحلك أطوارها دون أن يحجب واقعها بأحلام أو رؤى .

ثانيهما : اعتزاز العربيّ بشخصيّته و حرصه على المحافظة عليها ، و من ثمّ الحرص على موروثات الآباء و الأجداد و الإستمسك بها¹⁹⁵ و لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله تبارك و تعالى :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّعتَدُونَ ﴾¹⁹⁶

¹⁹⁴ المتنبّي "الذّيان" ، دار بيروت للطباعة و النّشر، بيروت، د.ط ، 1395 هـ . 1975م ، ص: 449

¹⁹⁵ ينظر عبد الكريم الخطيب " ينظر القصص القرآني في منطقته و مفهومه " ، ص : 29

¹⁹⁶ سورة الزخرف ، الآية : 22

من هنا كان أعظم عار يلحق بالعربيّ أن يخرج عن قبيلته و ينتمي لواحدة غيرها، و لقد كانت أقسى لكمة يوجّهها المرء إلى قبيلته أن يستأذنها ليتحوّل عنها إلى أخرى ، وهو إذ يفعل ذلك يدرك المستقبل المشؤوم الذي ينتظره و ذريّته بعده ¹⁹⁷ .

و يروي الأدب العربيّ حادثة شاعر رأى من قومه ما أزعجه فاعتاض لذلك ، و التهب صدره غضبا فقال يهجومهم: ¹⁹⁸

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي: . بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصريّ معشر خشن: . عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
لكنّ قومي و إن كانوا ذوي عدد: . ليسوا من الشرّ في شيء و إن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة: . و من إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا: . شدّوا الإغارة فرسانا و ركبانا
تلك أمنيات أرادها الشّاعر أن تتحقّق بعد أن ألهبت صدره فحاشت بها قريحته .

و نلتقي بالشّنفرى- الشّاعر الجاهليّ- حين أذن له قومه بالتحوّل عنهم إلى أقوام آخرين
حيث نجده يقول: ¹⁹⁹

أقيموا بني أمّتي صدور مطيّكم: . فإنّي إلى قوم سواكم لأميل
و لي دونكم أهلون : سيد عملّس: . و أرقط زهلول و عرفاء جيال
هم الرّهط لا مستودع السرّ ذائع: . لديهم و لا الجاني بما جرّ يخذل
فهو حتّى و إن ساءته من قومه أشياء فإنّ عيشته وسطهم أرحم بكثير من معاشرته
الوحوش، فهو يرى أنّ لا يحير في الناس مطلقا بعد أن افتقد الخير في قومه .

و خلاصة القول عن كلّ ما سبق ذكره ، أنّ الأدب العربيّ كان أدبا واقعيّا، و أنّ العربيّ لم يطلق العنان لخياله ، حيث كان ينظر لكلّ ما يحيط به من عوالم نظرة حذر مستعدّا دائما لمواجهةها لا يتوانى عن ذلك لا في صحوه، و لا في سكره، لا في يقظته و لا في نومه. حتّى في

¹⁹⁷ ينظر: عبد الكريم الخطيب " القصص القرآني في منطوقه و مفهومه " ، ص: 30

¹⁹⁸ أبو تمام حبيب بن أوس الطائي " ديوان الحماسة " ، شرح العلامة التّبريزي ، مكتبة النّوري، دمشق ، د. ط ، د. ت ، ج: 01، ص: 4 . 5.

¹⁹⁹ عبد الباقي حنفرى "لامية العرب" أو نشيد الصّحراء لشاعر الأزديّ الشّنفرى، دار النّحلة ، ط : 1، د. ت ، ص: 12، 14.

مقام الشعر الذي تلهب فيه المشاعر و يغطي دحانها المتصاعد مدركاته و تسوق إليه كثيرا من الرؤى و الخيالات .

لم يحظ الشعر بنصيب وافر من الخيال ، هذا الأخير الذي يعدّ ركيزة أساسية لقيامه ، و نوع من الإسمت لا تستغني عنه الأمم الأخرى في بناء أشعارها .
إنّ الشعر العربيّ كما رأينا في الأمثلة الآتفة الذكر كان يرفل في أثواب الحقيقة دون أن يستعمل أيّ قلادة من القلادات الموجودة في درج خيالها ، و نودّ أن نذكر هنا أنّ الادب العربيّ ، و خاصّة الشعر قد اعتمد اعتمادا قويّا على الصّور البيانيّة ، و خاصّة مرايا التشبيه باعتبارها تعكس الحقيقة ،

فيتخيّلها الرائي وجوها و هي في الواقع وجها واحدا ، و يراها أشياء و هي شيء واحد ، و قد قامت صور التشبيه هاته مقام الخيال .

فالمعلّقات و هي الصّورة المكتملة للشعر الجاهليّ لا يكاد يخلو بيت من أبياتها من صورة تشبيهية أو أكثر ، ولا يسعنا المقام هنا لإستعراض المعلّقات و إقامة الشواهد من كلّ واحدة منها فذلك سيأخذ منا وقتا و يلهينا عن لبّ الموضوع ، و لنقتصر على إلقاء نظرة عابرة على إحدى المعلّقات و هي معلّقة امرئ القيس التي بلغ عدد أبياتها نحو اثنين و ثمانين بيتا منها نحو سبعة و أربعين بيتا في التشبيه منها قوله :²⁰⁰

ترى بعرا أرام في عرصاتنا .: و قيعانها كأنه حبّ فلفل

فقد وقف الشّاعر بسقط اللّوى بين الدّحول و حومل ، و راح يتأمّل ديار المحبوبة و يقول :
أنظر إلى ديار الحبّية التي كانت مليئة بالسكّان ، فيها استئناس الأهالي بأهاليهم قد تركوها بلا عودة ، فأقفر أرضها بعد خصبها ، و سكنت رمالها الضّباء ، فلست ترى غير بعرها يكسو السّاحات الشّاسعة كأنه حبّ الفلفل ، و الشّاعر في تشبيهه بعرا الضّباء بحبّ الفلفل قد ألقي سهمه في قلب حقيقة التشبيه .

²⁰⁰ الزّوزني "شرح المعلّقات السّبع" ، ص: 12

كأنّي غداة البين يوم تحمّلوا .: لدى سمّرات الحي ناقف حنظل
يوم رحيل قوم المحبوبة وقف الشّاعر عند سمّرات الحيّ حائر البال مفتّت الكبد ، جافّ
الحلق ، لمرارة الفراق حاله في ذلك حال من يجني الحنظلة و يثقلها بظفره ليستخرج ما فيها من
حبّ ، و يروى عن أصحاب الصّحراء ممّن يتعاملون مع الحنظل أنّه إضافة إلى مرارته الّتي تكظم
الأنفاس، فإنّه يسيل الدّمع أيضا ، و لعلّ الغاية من هذا التّشبيه أن تكتمل صورة الفراق هذا
بدموع حارّة ذرفها الحبّ و هو يرى نصفه الآخر يغادر بلا رجعة ، وهو الّذي كان يؤنس
وحده، و يشقى قلبه المجرّوح.

و نلتقي في المعلّقة ذاتها بتشبيه رائع حيث وصف الشّاعر ظاهرة نزول الغيث في الصّحراء
القاحلة، فتفرّج الكائنات جميعها و تهلّل له يقول:²⁰²

أصاح ترى برقاً أريك وميضه .: كلّمع اليدين في حبّي مكلّل
قعدت له و صحتي بين ضارج .: و بين العذيب بعدما متأمّلي
فأضحى يسحّ الماء حول كتفيه .: يكب على الأذقان دوج الكنهيل
و مرّ على القنّان من نفيانه .: فأنزل منه العصم من كلّ منزل
و تيماء لم يترك بها جذع نخلة .: و لا أطما إلاّ مشيدا بجندل
كأنّ ثبيرا في عرانيين وبله .: من السّيل و الأغشاء فلكة مغزل
و ألقى بصحراء الغبيط بعاعه .: نزول اليمانيّ ذي العياب المحمل
كأنّ مكاكيّ الجواء غديّة .: صبحن سلافا من رحيق مفلّفل
كأنّ السّباع فيه غرقى عشية .: بأرجائه القصوى أنايش عنصل

²⁰¹ محمّد رضا مرّّة "امرؤ القيس الملك الضليل" ، ماجستير في اللّغة العربيّة و آدابها ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط: 01 ، 1411 هـ .

1990 م ، ص: 111 .

أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة "الشعر و الشعراء" ، دار صادر، د.ط، 1902 ، ص: 40

الطاهر أحمد مكّي "امرؤ القيس أمير شعراء الجاهليّة حياته و شعره" ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط: 02 ، 1970 م ، ص: 239 .

²⁰² الزّوزني "شرح المعلّقات السّبع" ، ص: 12

و على الرغم مما تحويه هذه الأبيات من كلمات وحشية لطول العهد بيننا و بين الجاهليتين ، الشيء الذي ترتب عنه تباعد في اللغة إلا أننا واجدون أنفسنا نشاهد هذا المنظر العجيب الرائع، وتتابعه بشغف و لهفة ، كأنما هو قد فاتنا ذات مرة، و ها هي الطبيعة تعيد عرضه علينا من جديد.

و لم يكن الشعر وحده في ساحة الأدب العربيّ حاملا راية القصة بل كانت الأمثال إلى جانبه هناك ، ولا ريب في أنّ الأمثال العربيّة هي أكبر ناقدة يمكن أن نتطلع من خلا لها لمشاهدة القصة العربيّة ، فقد كان المثل الواحد يحوى قصة بأكملها ، فإذا ذكر المثل لزم حضور القصة كلّها، زيادة على ذلك نجد ما كان يدور في مجالس الناس من أحاديث ناذرة ، و أخبار مثيرة عن الحروب و الأسفار، و لا تزال القصة تغدّى و تنمى حتى تصير ملحمة شعبية ، كقصة سيف ذي زين، و قصة عنزة وأبي زيد الهلالي، و غيرها²⁰³.

و جاء الإسلام فأضحى القصّ وظيفة ثقافيّة لها مكانتها المرموقة ، حيث مورس القصّ في الوسط الإسلامي منذ زمن الرّاشدين، فلقد كان القصّاص يجتمعون بالناس في المساجد ، أو في مكان آخر للوعظ ، بغرض إيقاظ الحسّ الدّيني في النفوس متّخذين القرآن الكريم معينا لإرواء النفوس الضّائعة ، معتمدين في سردهم للقصص على بعض من أحييتهم و تصوّراتهم ، كما كان القصّ من أهمّ وسائل التّحريض التي رافقت حملات الفتح الإسلامي في مشارق الأرض و مغاربها بهدف تقوية نفوس المجاهدين ، و زرع حماسة الجهاد و حبّ التّضحية فيهم كي يحملوا راية الإسلام عالية في الآفاق كما كان القصّ أيضا مسخرا من طرف السّلاطين لغرض نفوذهم على أعوانهم ، و كلّ من لهم يد عليهم ، و مثلما استخدم الحكّام القصّ لأغراضهم ، وجدت الجماعات المهمّشة فيه متنفسا لها بحيث اتّخذته بريدا ينقل رسائلها الرّافضة للواقع المرير .

و هكذا تطوّر فنّ القصّ في الأدب العربيّ ، و انحاز قليلا عن وازعه الوعظي ليصبح خطابا سياسيا و عقائديا و ذلك إنّما كان استجابة لضرورات الحياة الكثيرة و حلّ العصر العبّاسي-

²⁰³ ينظر : عهد الكريم الخطيب " ينظر القصص القرآني في منطقته و مفهومه " ، ص : 36. 37

و هو كما يعرف في تاريخ الأدب بأنه العصر الذهبي في كلّ المجالات، و كثر القصّاص و لعبوا دورا مهماً بما نسجوه في بلورة واقع المسلمين التاريخي و الثقافي و النفسي²⁰⁴.

بعد هذا العرض الوجيز لبعض من القصص العربي ، نستطيع أن نقول إنّ القصص القرآني الذي سنستقبله بعد قليل في زيارة مطوّلة لا بدّ أن يكون قد سلك نفس الطريق التي سلكها القصص العربي الذي عرفه العرب في جاهليتهم و الذي اتّخذ الواقع قبله له و منهاجاً ، كالذي رأيناه مع عنزة و عمرو بن كلثوم في معلقتهما.

3- القصة في القرآن الكريم :

إنّ الحديث عن القصة يظلّ موضوعاً واسعاً لا سيّما إذا تطرّقنا إلى المقارنة بين القصة الأدبيّة و ما تحويه من عناصر ، و بين القصة القرآنيّة ، إنّ الكتاب الحكيم معجز في كلّ ما تضمّنه من قصص و غير ، فالقصص القرآني صدق كلّها ، ولا ينبغي أن يشكّ فيه فقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾²⁰⁵.

و القصة في القرآن تخرج في معظمها عمّا رسمه النقاد للقصة الفنيّة من حدود، فتعريف القصة الفنيّة لا ينطبق بحال من الأحوال على مفهوم القصة القرآنيّة " فهي أولاً ليست خاطرة من ذهن الله ، و لا هي ثانياً تسجيل تأثرت بها مخيلته، و لا هي ثالثاً بسط لعاطفة اختلجت في صدره فأراد أن يعبر عنها بكلام ليحدث أثراً في نفوس القارئین مثل أثرها في نفسه"²⁰⁶ فالكتاب ههنا ينفي تلك الصّلة بين القصة القرآنيّة و الفنّ القصصيّ، و الغاية عنده من القصة الفنيّة تتمثّل في بناء الفرد و المجتمع و تقويم الحياة بشكل عام، على حين أنّ القصة القرآنيّة إنّما وردت للعظة و العبرة و شرح الأوامر و النّواهي الشرعيّة ، و نشر الخير و الحقد و التعاون بين بني البشر ، و بذلك فالقصة عنده إحدى وسائل القرآن لبلوغ غايته.

²⁰⁴ ينظر: سليمان عشارتي "أدبيّة الخطاب القرآني"، رسالة دكتوراه، د. ط، 1991م، ص: 83. 84

²⁰⁵ سورة يوسف ، الآية: 111

²⁰⁶ بكري شيخ أمين "التعبير الفنّي في القرآن"، دار الشروق، ط: 4، 1400. 1980م، ص: 216

أما عند سيد قطب فهي - أي القصة - " ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه ، و طريقة عرضه ، و إدارة حوادثه.... إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية ، و القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء و القصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة و تثبيتها شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة و النعيم و العذاب ، و شأن الأدلة التي يسوقها على البعث و على قدرة الله²⁰⁷ .

أما الدكتور عبد الحافظ عبد ربّه فيحدد مفهوم القصة في القرآن بقوله : " القصة في القرآن الكريم مفهوم يحدده ما ورد فيه من أنباء خاصة سيقّت على وجه العبرة للمصدق و الردع و الزجر للمكذّبين ، فهي توجّه الأولين إلى الثبات على الحقّ ، و الإستزادة من عمل السير و الخير... كما تصرف المتهيّ من المكذّبين عن الباطل و الشرك و الشرّ بأنواعه²⁰⁸ .

معنى هذا أنّ للقصة القرآنية وظيفتان ، وظيفة ماضية تتمثّل في توجيه الأولين إلى الثبات على الحقّ ، و الإستكثار من الإحسان ، و وظيفة مستقبلية تتمثّل في وعظ المكذّبين ، و محاولة إبعادهم عمّا هم فيه من شرك و طغيان²⁰⁹ .

من هنا نجد أنّ القصة القرآنية هي الشعلة التي تضيء على البشر ، فهي النّفحة الإلهية التي تنفتح عليها النفس و تغمر الفؤاد ، و هي الوثيقة الوحيدة الخالدة التي يطمئن لها الإنسان ، فالناظرون في كتاب الله سبحانه و تعالى أثناء قراءتهم يجدون هناك قضايا ذكرت أكثر من مرة في أكثر من موطن كالقصص ، و قضايا تتعلّق بالعقيدة ، و بعض الجمل و الآيات فسمّوا ذلك تكراراً .

و أكثر الناظرين رأوا في هذا التّكرار سجراً و بياناً و عبراً ، و بلاغة و إعجازاً و اعتبروه منهجاً قوياً ، ولعلّ من أبرز الذين تعرّضوا لقضية التّكرار الإمام ابن قتيبة - رحمه الله - حيث قال : " أمّا التّكرار في القصص و الأنباء فإنّ الله تبارك و تعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث و عشرين سنة بفرض بعد فرض تيسيراً للعباد و تدريجاً لهم إلى دينهم ، و وعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سنة

²⁰⁷ سيد قطب " التّصوير الفنّي في القرآن " ، دار الشروق ، بيروت ، د.ت ، ص : 117

²⁰⁸ السيد عبد الحافظ عبد ربّه " التّصوير الفنّي في القرآن " ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط : 1 ، 1972م ، ص : 44

²⁰⁹ عبد العالي بشير " توظيف القصص الشعبيّ في القصيدة العربية الحديثة في المشرق " ، رسالة ماجستير ، 1992م ، 1993م ، ص : 87

الغفلة و شحذا لقلوبهم بتجدد الموعظة ، و ناسخ بعد منسوخ استعاراً لهم واختباراً لبصائرهم²¹⁰.

أما صاحب البرهان فيقول موجّها لتكرار القصّة في القرآن : " إنّ عادة العرب في خطاباتنا إذا اهتمت بشيء أرادت تحقيقه و قرب وقوعه أو قصدت الدّعاء إليه كرّرتة توكيداً ، و كأنّها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الإجهاد في الدّعاء بحيث تقصد الدّعاء ، و القرآن نزل بلسانهم فكانت مخاطباته فيما بين بعضهم و بعض و بهذا المسلك تستحكم الحجّة عليهم في عجزهم عن المعارضة.²¹¹

و يمضي الزّركشي بعد هذا موضحاً لظاهرة التّكرار في القرآن الكريم ، ويسوق أدلّة من القرآن نفسه لبيان صحّة ما يقول هو عنه بيد أنّه لم يأت بمثال واحد يحلّل فيه التّكرار في الأسلوب القرآني ، وإن لم يفته أهمّ غرض فيه و هو إفادته التّقرير و التّوكيد حيث يقول : " و فائدته العظمى التّقرير ، و قد قيل : إنّ الكلام إذا تكرر تقرر²¹²

و يرى الزّرخشري رأياً يقرب من رأي الزّركشي لكنّه أعمق في الفهم ممّا ذكره هذا الأخير يقول : « إنّ في التّكرير تقريراً للمعاني في الأنفس و تثبيتاً لها في الصّدور ألا ترى أنّه لا طريق إلى تحفّظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفّظه منها ، و كلّما زاد ترديده كان أمكن له في القلب ، و أرسخ في الفهم ، و أثبت للذكر ، و أبعد في النّسيان ، و لأنّ هذه القصص طرقت بها آذان و قر عن الإنصات للحقّ ، و قلوب غلف عن تدبّره ، فكوثر بالوعظ و التّذكير ، و روجعت بالتّريد و التّكرير ، لعلّ ذلك يفتح أذن ، أو يفتح ذهن ، أو يصقل عقلاً ، طال عهده بالصّقل ، أو يجلو فهما قد غطّي عليه تراكم الصّدأ²¹³.

فالقرآن إنّما يهدف من خلال التّكرار لذكر الأمور الغيبيّة كيوم القيامة ، و نعيم الجنّة ، و عذاب جهنّم ، و خلق آدم و حواء لتستقرّ في النفوس و تؤمن بها ، كما يهدف إلى تثبيت

²¹⁰ الدكتور محمد زغلول سلام " أثر القرآن في تطوّر النّقد العربي " قدّم له الأستاذ : محمد خلف الله أحمد ، دار المعارف ، مصر ، ط : 2 ، 1961م ،

ص : 142

²¹¹ الزّركشي " البرهان في علوم القرآن " ، ج : 3 ، ص : 9

²¹² المصدر نفسه ، ج : 3 ، ص : 10

²¹³ الدكتور : أحمد جمال العمري " المباحث البلاغيّة في ضوء قضيّة الإعجاز القرآني " نشأتها و تطوّر لاهّا حتّى القرن السّابع الهجري ، مكتبة

الخارجيّة للطباعة و النّشر و التّوزيع ، القاهرة ، د. ط ، 1410 هـ . 1990م ، ص : 185

العقائد و العبر و العظات، و الملاحظ من خلال استقراء النصوص القصصية المكررة أنّ هاته الأخيرة لم تكرر تكرارا تامّا، و إنّما كان القرآن يقتصر في ذكره على الوقائع التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السّور، و القرآن إذا كرّر حلقة من قصّة فلا ريب في أنّه قد أورد فيها شيئاً جديداً لم يذكره من قبل، فهو لا يسرد قصص الأنبياء باعتبارها تاريخاً يراعي فيه التّرتيب الزّمني للوقائع، و إنّما هو يذكرها لما في أحداثها من عبر و عظات، لذلك يقتصر على وقائع القصّة التي تناسب العبرة التي يريد بثّها²¹⁴.

و تجدر الإشارة إلى أنّ عرض بعض الوقائع و الأحداث في صيغ مختلفة، و صور متباينة هو ممّا يؤدّي إلى جلب انتباه القاريء، و إبعاده قدر المستطاع عن الملل الذي يصيب الإنسان إذا ما تكرر عليه عرض فكرة معيّنة عدّة مرّات في قالب واحد، و لعلّ الدّراسات الحديثة التي يقوم بها علماء النفس قد أعربت عن أهميّة تغيير الصّيغة التي يعبر بها عن فكرة معيّنة قصد إثارة الانتباه و تحبّب الملل " و التّكرار يثبت التّعلّم، سواء كان ما يتعلّمه الإنسان عادة حسنة، أم عادة سيّئة. فتكرار النّاس للسلوك السيّء يثبته و يجعله عادة مستقرّة يصعب التّخلّص منها إلاّ بمجهود كبير، وإرادة قويّة، و لهذا كان تكرار المشركين لعقائدهم، و عباداتهم القديمة التي تعلّموها عن آبائهم من عوامل استقرارها في سلوكهم بحيث لم يكن من السّهل عليهم التّخلّص منها"²¹⁵ لأنّ التّكرار يحوّل المكرّر إلى معتقد²¹⁶ كما يقول بذلك عالم الاجتماع.

وفي القرآن إشارات عديدة إلى ما لاقاه الأنبياء في جميع عصور التّاريخ من صعوبة في ردّ المشركين عمّا كانوا عليه من عبادة الأوثان لأنّهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، ومحاولة إقناعهم بعقيدة الإيمان، فغفلة الإنسان و انغماسه في الملذّات، و ارتكاب آثام كلّ هاته الأمور مجتمعة و غيرها تجعل الإنسان لا يتقبّل دعوة التّوحيد، و لعلّ هذا ما عبّر عنه القرآن في كثير من آيه

²¹⁴ ينظر الدكتور: نور الدين عنتر " القرآن الكريم و الدراسات الأدبية"، مديرية الكتب و المطبوعات، جامعة دمشق، د. ط، 1988م. 1989

م، ص: 226.

²¹⁵ الدكتور: محمّد عثمان نجاتي " القرآن و علم النفس"، دار الشّروق، ط: 5، د. ت، ص: 180.

²¹⁶ جوستاف لوبون " روح الاجتماع" ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، تقديم: محمّد السّويدي، موفم للنشر، د. ط، 1988م، ص: 82.

بفكرة: " الطَّبْع على القلوب " ، فقد ذكر في سورة غافر : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾²¹⁷

و القلب إنّما وصف بالتَّكَبُّر و التَّجَبُّر لأنّه مركزهما و منبعهما ، كما تلصق مطلقا عمليّة الرّؤيا بالعين ، و عمليّة السَّمع بالأذن.

و ذكر سبحانه و تعالى في سورة الأعراف قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾²¹⁸ فقد جاءت الرّسل بالبيّنات و دين الحقّ لكنّ الكافرين رغم تكرار المواعظ عليهم- و بحكم كفرهم و عنادهم - أصرّوا على البقاء على ما هم عليه، و ما ألفوا عليه آباءهم و أجدادهم ذلك أنّ الله طبع على قلوبهم فما يؤمنون إلّا قليلا.

وورد في سورة الروم قوله عزّ و جلّ : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾²¹⁹ فالجهلة ممّن يدّعون العلم يمنع الله عنهم الألفاف الّتي تنشرح لها الصّدور حتّى ترى الحقّ حقّا و الباطل باطلا، و حتّى تميز الخبيث من الطّيب ؛ و هذا المنع إنّما يقع لأنّ الله سبحانه و تعالى يعلم أنّ لا موعظة تجدي مع هؤلاء لأن قلوبهم قد صارت كالحجارة أو أشدّ قسوة²²⁰.

و يعبر القرآن أيضا عن فكرة استقرار العادات السيّئة و المعاصي نتيجة للتكرار بحيث يغشى العقل ما يشبه الصّدأ ، فيعوقه عن التّمييز " و يصعب على النفس الإقلاع عمّا اعتادت عليه من معاص ، و ذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾²²¹

و قد قيل : من السّهل جدّا الإيحاء بفكرة وقتيّة في عقول الجماعات ، لكن من الصّعب جدّا تمكين معتقد دائم في قلوبها أو هدم اعتقاد تمكّن منها . و الملاحظ أنّ القرآن الكريم لم يكرّر من القصص ، أو من حلقاتها إلّا ما كان أشدّ تجاوبا مع بيئة الدّعوة، وأكثرها استجابة لأهدافها، و خدمة لأغراضها مثل قصص آدم ، و نوح ، و هود ، و صالح، و ابراهيم ، و لوط،

²¹⁷ سورة غافر، الآية : 35

²¹⁸ سورة الأعراف، الآية : 101

²¹⁹ سورة الروم ، الآية 59

²²⁰ الزّخشري " الكشّاف " ، ج : 5 ، ص : 14 . 15

²²¹ سورة المطفّفين ، الآية : 14

و شعيب، و موسى، و يونس، و داوود، و سليمان، و أيوب، و يحيى و زكرياء، و مريم -عليهم السلام-

و مما يؤيد ذلك أننا لا نجد تكراراً إلا في قصص الأنبياء، حيث توجد قصص غير مكررة، كقصّة البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها في سورة البقرة، و قصّة أصحاب القرية في سورة يس، و قصّة نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب في سورة (ص)، و قصّة موسى و الخضر، و أمّا قصّة يوسف فقد وردت وحدها في تفصيل طويل تعزّزه دراسة مستقلة و كذلك قصّة أهل الكهف و قصّة صاحب الجنتين و قصّة ذي القرنين التي وردت كلّها في سورة الكهف و غيرها²²² لأنها لم تكن في مثل شدّة قصص الأنبياء في التّجاوب مع الدّعوة، و الإستجابة لأهدافها و خدمة أغراضها.

و يجمع علماء النفس على أنّه: "متى كثر تكرار أمر تولّد تيّار فكري و عاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد و الجماعات و هو العدوى، إذ لا يكفي لتحوّل الإنفعال إلى عاطفة أن يحدث مرّة واحدة، و لكن لا بدّ لحصول ذلك أن يتكرّر حدوثه، فالتكرار هو السبيل الوحيد لربط الإنفعال به، و تركّزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة"²²³.

و إذا تتبّعنا مواطن التّكرار في قصص القرآن استخلصنا مبرراته و أسبابه، و قبل الخوض في تفصيل ذلك كلّه لا بدّ أن نقرّر حقيقة هامّة هي أنّ الإشادة بجمال التّكرار في القرآن لم يقتصر على العلماء العرب بل إنّ كثيراً من المستشرقين قد شهدوا بذلك منهم "جيروينبادم"²²⁴. و مع هذا الحقّ الذي يشهد به الأصدقاء و الأعداء فإنّنا نستنتج القرآن نفسه و هو خير وأصدق و أعدل.

4- نماذج من القصص المكرر:

1- قصّة آدم - عليه السلام -

و لنبدأ حديثنا عن قصص القرآن و تكراره بقصّة آدم - عليه السلام - باعتبارها قصّة الإنسانيّة كلّها، في صراعها المتجدّد بين قوى الخير و الشرّ، فلقد عرض القرآن الكريم هذه

²²² عبد الحافظ عبد ربّه "بحوث في قصص القرآن"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: 1، 1972م، ص: 181

و كذلك سيكولوجية القصّة في القرآن مصدر سابق، ص: 118

²²³ مصطفى فهمي "الدوافع النفسيّة"، دار مصر للطباعة و النشر، مصر، د.ط، د.ت، ص: 101

²²⁴ كما نقل عنه عبد الكريم الخطيب في كتاب "الإعجاز القرآني"، ج: 1، ص: 385

القصّة في سبعة معارض في سبع سور هي : البقرة، الأعراف ، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، ص.

هذه هي المعارض السبعة التي ذكرت فيها قصة آدم، و ما وقع فيها من أحداث و تجدر الإشارة ههنا إلى حقيقة هامّة، هي ترتيب السور التي وردت فيها نصوص القصّة حسب نزولها على ما رجّحه كثير من العلماء، و ما اختاره صاحب الإتيقان رحمه الله²²⁵ و هي أولاً في مكة : سورة ص - الإعراف - طه - الإسراء - الحجر - الكهف.

ثانياً في المدينة : البقرة .

و من هنا ندرك أنّ أول سورة تتحدّث عن قصّة آدم - عليه السلام - هي سورة "ص" ، و أنّها مكيّة النزول، و أنّ نصيب العهد المكيّ من قصّة آدم - عليه السلام - كان وفيراً . حيث وردت في ستّ سور بدأت بسورة "ص" و اختتمت بسورة الكهف التي كانت المحطّة النهائيّة بالنسبة للعهد المكي.

أمّا العهد المدني فلم ترد فيه قصّة آدم - عليه السلام - إلّا في سورة واحدة هي سورة البقرة مع العلم أنّها أوّل ما نزل بالمدينة بعد الهجرة المحمديّة الشريفة .

و سنحاول أن نخللّ عناصر هذه القصّة في كلّ موضع وردت فيه، حسب هذا الترتيب النزولي، و إن كنّا قد ذكرنا التّصوص القرآنيّة التي وردت فيها قصّة آدم - عليه السلام - حسب التّرتيب الموجود في المصحف فذلك أنّ معظم القراء إن لم نقل كلّهم إنّما يلجأون لكتاب الوجود الأعظم حينما يريدون أن يطلّعوا على هذا القصص الحق.

أمّا سورة (ص) فبدأت بإخبار الله الملائكة بخلق بشر من طين، ثمّ يأمرهم بالسّجود له إذا سوّاه و نفخ فيه من روحه، فامتلأ له الملائكة أجمعون، إلّا إبليس خالف أمر ربّه، و أصرّ على كفره فسأله الله - و هو أعلم - عن سبب مخالفته و امتناعه عن السّجود، فاعتذر إبليس عن عدم سجوده و حجّته في ذلك أنّه خير من آدم، لأنّه خلق من نار أمّا آدم فقد خلق من طين، فطرد الله إبليس من الجنّة و ألحق لعنته به إلى يوم الدّين، فطلب هذا الملعون من ربّ العرش العظيم أن ينظره إلى يوم البعث، و استجاب الله له و جعله من المنظرين، و وصل به كفره و عناده إلى أن يعلن

²²⁵ الجزء الأوّل ، ص: 193 ، 194 .

مقسما أن يغوي الناس أجمعين، إلا المخلصين من عباد الله، فقال الله الحق - و الحق يقول - بأنه سيملاً جهنم منه و من أتباعه أجمعين يقول تبارك و تعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَلَسْتُ بِكَ مِنْ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ لَكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا مِثْرًا مِّنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَتَّبَعُ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ²²⁶ .

أما قصة آدم في سورة الأعراف، فلقد اختلفت بدايتها عما جاء في سورة (ص)، حيث أخبرنا الله بأمره الملائكة أن يسجدوا لآدم، و امتثلهم لهذا الامر و مخالفة إبليس، ثم سؤال الله - وهو أعلم - إبليس عن مخالفته، و اعتذار هذا الأخير، و حجته الواهية التي استند عليها، من أنه خير من آدم، لأن آدم هذا خلق من طين بينما خلق هو من نار، ثم أمره الله بالهبوط من الجنة ، و تكرار الأمر بالخروج مع ذمه ، فطلب هذا اللعين الإنظار إلى يوم يبعث من على الأرض ، فاستجاب له الله، و لكن الأمر لم يتوقف مع إبليس عند هذا الحد بل إن عناده دفعه إلى أن يترصد للناس و يغويهم ، و أن لا يدع ثغرة إلا و يأتيهم منها لإغوائهم ، و يكرّر عزّ و جلّ الأمر له بالخروج مع ذمه و توعدّه بأن يملأ جهنم منه و من كلّ ما يتبعه، و تحدثنا الآيات بعد ذلك عن مشهد آخر فبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى إبليس بالخروج من الجنة مذموماً مدحوراً ، أمر آدم أن يسكن الجنة هو و زوجته ، و يتمتعا بكلّ نعيم فيها إلا شجرة واحدة عيّنها لهما ، و حرّمها عليهما فإن أكلا منها صارا ظالمين ، فوسوس الشيطان لغرض دنيء في نفسه قد ذكرناه آنفاً ، و استطاع أن يخدعهما فلمّا ذاقا من الشجرة المحرّمة ، ظهرت لهما سوءاتهما فحاولا سترها بورق الجنة ، فناداهم الله مذكراً إياهما بنصائح ، فندما على فعلهما ، و أمرهما الله تبارك و تعالى بالهبوط إلى الأرض مع تحقّق العداوة بينهم و استقرارهم في الأرض و الإستمتاع بما عليها من

²²⁶ سورة (ص)، من الآية : 71 إلى الآية : 85

خيرات إلى وقت معلوم ، ثم أخبرهم الله تعالى بما سيكون عليه حالهم في الأرض ، و أن أي آدمي لا بد أن يعلّق سلسلة ذات ثلاثة قلائد : قلادة الحياة ، قلادة الموت ، قلادة البعث . يقول تبارك و تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمِنْ أَيْمَانِهِمْ وَمِنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَتَسَمَعُمَا إِبْدِي لَهُمَا لَمِنَ النَّاصِعِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ 227

التأمل في سورة الأعراف يجد أنها تشتمل على جزئيات كثيرة لم نجدها في سورة (ص)، ففي سورة (ص) ذكر الماء و الطين ، و لكنهما لم يذكر في سورة الأعراف ، و في سورة (ص) ذكر القول بعنوان الربوبية للنبي صلى الله عليه و سلم ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ و لكن في سورة الأعراف ذكر شيء آخر ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ ، و في سورة الأعراف ذكر الأمر ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ و لم يذكر الخلق باليدين الذي ذكر في سورة (ص) ﴿ لَمَّا خَلَقْتَهُ بِيَدَيَّ ﴾ ، و كذلك أمر الله آدم و زوجه أن يأكلا من كل شيء إلا شجرة واحدة، و كيف استطاع

227 سورة الأعراف، من الآية : 11 إلى الآية : 25

الشَّيْطَانُ أَنْ يَخْدَعَهُمَا وَ يَقْنَعُهُمَا بِعَصْيَانِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ دُونَ أَنْ يَشْعُرَهُمَا بِذَلِكَ حَتَّى أَكْلَا مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَاتُهُمَا ، فَرَاخَا يَسْتَرَانَهَا بِوَرَقِ الْجَنَّةِ ، فَهَذِهِ مَشَاهِدُ ذِكْرَتِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَ لَمْ تَذْكُرْ فِي سُورَةِ (ص) كَمَا اسْتَخْلَصْنَا ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ قِرَاءَةِ النَّصِّينِ.

أَمَّا سُورَةُ طه فَقَدْ بَدَأَتْ بِمَدْخَلِ قَصِيرٍ ، ثُمَّ جَاءَ أَمْرُ إِبْرَاهِيمَ بِالْمَلَائِكَةِ بِالسَّجُودِ لِآدَمَ ، وَ امْتِثَالِهِمْ لِلْأَمْرِ ، مَعَ مَخَالَفَةِ إِبْلِيسَ فَنَصَحَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى آدَمَ بِالْإِبْتِعَادِ عَنِ الشَّيْطَانِ مَا اسْتَطَاعَ لِذَلِكَ سَبِيلًا ، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى النِّعَمَ الَّتِي سَيَمْتَنِعُ بِهَا آدَمُ وَ زَوْجُهُ فِي الْجَنَّةِ ، لَكِنِ الشَّيْطَانُ أَرْزَلَهُمَا فَآكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ فَظَهَرَتْ سُوءَاتُهُمَا وَ رَاحَ يُحَاوِلَانِ سِتْرَهَا بِوَرَقِ الْجَنَّةِ ، فَحَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بَعْدَ أَنْ أَطَاعَا الشَّيْطَانُ بِالْهَبُوطِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَ تَرَقَّبَ الْهُدَى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَى اللَّهِ - الَّذِي لَا هَادِيَ إِلَّا هُوَ - فَهُوَ فِي سَعَادَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ وَ أُخْرَوِيَّةٍ ، وَ أَمَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنِ هُدَى اللَّهِ فَإِنَّهُ سَيَشْقَى وَ سَيَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ وَلَا يَحْيَى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى فَاكْأَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾²²⁸ وَ سُورَةُ طه كَمَا تَرَى لَمْ تَحْدِثْنَا عَنِ النَّارِ وَ الطِّينِ ، وَ لَكِنَّا حَدَّثْنَا فِي مَدْخَلِهَا الْقَصِيرِ - كَمَا ذَكَّرْنَا- عَمَّا عَهِدَ اللَّهُ لِآدَمَ وَ نَسِيَانِ أَبِي الْبَشَرِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَحْدِثْنَا عَنِ الْمَحَاوِرَاتِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ اللَّهِ وَ إِبْلِيسَ ، وَ لَكِنَّا حَدَّثْنَا عَنْ قَضَايَا جَدِيدَةٍ لَمْ نَلْفَهَا فِي سُورَتِي (ص) وَ (الْأَعْرَافِ) كَالَّذِي وَرَدَ فِيهَا عَنْ عِدَاوَةِ إِبْلِيسَ لِآدَمَ وَ زَوْجِهِ ، وَ عَنْ مُحَاوَلَةِ إِخْرَاجِهَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَ عَنْ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ الَّتِي هَيَّئَتْ لَهُ فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ ، وَ عَنْ الْفُجُوحَاتِ الَّتِي اسْتَطَاعَ إِبْلِيسُ أَنْ يَنْفِذَ مِنْهَا لِيَصِلَ لِآدَمَ مِنْ خِلَالِ الْإِسْتِعْدَادَاتِ الْفَطْرِيَّةِ الَّتِي مَنَحَهَا اللَّهُ لَهُ وَ الَّتِي

²²⁸ سورة طه ، من الآية : 115 إلى الآية : 124

أصبحت في جميع بنيه و هي حبّ البقاء و من ثمة حبّ التملك و هما فطرتان في الإنسان ﴿ هَلْ أَذُكُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ ، كما حدثتنا السّورة في بعض آياتها عن عصيان آدم و غوايته ، ولكن بعد ذلك عن اجتناء ربّه له و هدايته ، فهذه العناصر - كما ترى - لم تردّ في السّورتين الآنفيتين الذكر و هما سورة (ص) و سورة (الأعراف).

أمّا سورة الإسراء فقد حدثتنا عن هذه القصة من جانب آخر ، حيث بدأت بإخبار الله بأمره الملائكة بالسّجود لآدم ، و امتثالهم لأمره تعالى ، ثمّ محاجة إبليس ربّه مع تبرير عدم سجوده لآدم ، ثمّ عناده و إعلانه أنّه لو أخر إلى يوم القيامة ليزين للنّاس ما نهاهم الله عنه إلّا من آمن منهم ، و يدع الله إبليس في غوايته و إغوائه متوعداً إياه و من تبعه ممّن قلّ إيمانهم بإدخالهم جهنّم و بنس المصير ، كما بيّن عزّ و جلّ أنّ الشّيطان إنّما يعدّ أوليائه باطلاً ، و أنّ وعد الله هو الوعد الحقّ ، و أنّ الله يعصم و يهدي من يشاء من عباده المخلصين ؛ و أنّ الشّيطان مهمل و سوس لهم فإنّهم يستعبدون الله منه ، فيعده الله عنهم بقدرته و سلطانه، لأنّ من يهدي الله فهو المهتدي و من يضلّ فلن تجد له وليّاً مرشداً يقول تبارك و تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْبَغْتُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَخْتَنِكَ خُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اخْصَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَغْرَزَ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتَكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلَكَ وَرَجَلَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَمَحَدَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾²²⁹ فسورة الإسراء - كما ترى - يكاد حديثها يقتصر على ما سيفعله إبليس - لعنه الله -

مع بني آدم ﴿لَا تَخْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فمن تبعه منهم فله جهنّم لا يموت فيها و لا يحيى ، فليفعل إبليس ما يشاء و ليغريهم بأموالهم و أولادهم ، و ليعدهم ما وعد آبائهم من قبل و ما يعدهم إلّا غروراً ، ليفعل كلّ ذلك و كفى برّبك و كيلاً عليهم يحميهم من أن يميلوا إلى ما نهوا عنه ، فسورة الإسراء إذن طويت فيها كثير من المشاهد التي وجدناها في كلّ من سورة (ص) و "الأعراف" و "طه" ، كما وردت فيها عناصر جديدة يقول تبارك و تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا

²²⁹ سورة الإسراء ، من الآية : 61 إلى الآية : 65

لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوْثِقَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأُضْرِبَنَّ خَدْرِيَّةً إِلَّا هَلِيلًا قَالَ اخْضَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ بِخَلِيمِهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَمِمَّا يَعْذُبُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا تَخْرُورًا إِنَّ مِحْيَايَ لَيْسَ لَكَ بِخَلِيمِهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا²³⁰ .

أما سورة الحجر ، فقد جاءت بعنصر جديد و هو أن أخبر الله سبحانه و تعالى الملائكة بخلق بشر من صلب من حمى مسنون ذلك لأنّ للصلصال و الحمى المسنون في خلق الإنسان ، و في حياته دورا و أثرا لا يمكن إغفالهما ، فالصلصال كما هو معروف لا يتماسك كثيرا ، بل إنه كثير التفتت و هو هشّ ليس في شدته كالفخار ، و الحمى المسنون لا يملك خاصية المحافظة على ذاته ، لأنّه سرعان ما يأخذ منه الفساد بنصيب وافر ، هاتان الميزتان عدم التماسك ، و عدم الإحتفاظ بميزة الصلاح ، و لحاق الفساد و التغير به هما ملازمان للإنسان اللهم إلا ما رحم الله ، فإنه إذ ذاك يملك قوّة لا يصيبه بعدها ضعف ، و لعلّ هذا ما يشير إليه الحديث الشريف الذي روي عن سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلّم : " لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها و استقرّت فعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يا ربّ ؛ هل في خلقك شيء أشدّ من الجبال ؟ قال : نعم الحديد ؛ قالت : يا ربّ ؛ فهل في خلقك شيء أشدّ من الحديد ؟ قال : نعم ؛ النار ، قالت : يا ربّ ؛ فهل في خلقك شيء أشدّ من النار ؟ قال : نعم الماء ، قالت : يا ربّ ؛ فهل في خلقك شيء أشدّ من الماء ؟ قال : نعم الرّيح ، قالت : يا ربّ ؛ فهل في خلقك شيء أشدّ من الرّيح ؟ قال : نعم ، ابن آدم يتصدّق بيمينه و يخفيها عن شماله²³¹ .

آية الحجر هذه إذن جاءت بهاته المعلومة الجديدة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾²³².

²³⁰ سورة الإسراء ، من الآية : 61 إلى الآية : 65

²³¹ مسند أحمد بن حنبل ، نقلا عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ج: 2 ، 1943 م ، ص: 71.

²³² سورة الحجر ، الآية : 28

و بعد أن خلق الله هذا الآدمي و سواه أمر الملائكة بالسجود له فامتثلوا لأمر ربهم ، إلا إبليس فإنه عصى أمر ربه ، فسأله تعالى - وهو أعلم - عن سبب هذا العصيان فاعتذر مقدماً حجته الواهية - التي سبق وأن ذكرناها فيما آنف من عناصر القصة في السور السابقة - فأمره الله بالخروج من الجنة ملعوناً ، و طلب هذا اللعين من الله سبحانه و تعالى أن ينظره إلى يوم البعث فاستجاب له الله ، و لكن غرور إبليس و عناده لم يتوقف عند هذا الطلب بل راح يعلن أمام الخالق الأعظم لدراما الوجود أنه سيزين للناس معاصيهم و يلهيهم عن ذكر الله ، إلا من اطمأن قلبه للإيمان من عباد الله المخلصين الذين يجيهم الله و ينزل عليهم من فضله و رحمته ، أما إبليس و أتباعه فقد أعد الله لهم سبعة أبواب في جهنم لكل باب منها جزء مقسوم يقول تبارك و تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا مَجَادِكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ مَجَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْجِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾²³³

أما سورة الكهف فقد ذكرت لنا القصة في آية واحدة تضمنت عناصر أربعة أخبر الله في أولها أمره الملائكة بالسجود لآدم ، و استجابتهم لذلك، و في ثانيها بمخالفة إبليس اللعين لأمر ربه، و أنكر في ثالثها من أن يتخذ بنو آدم إبليس و ذريته أولياء من دون الله ، مع عداوته لهم، و ذكر في رابعها جزاء من يتخذ الشيطان ندًا من دون الله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ

²³³ السورة نفسها ، من الآية : 28 إلى الآية : 44

حُذِرْنِي وَهُمْ لَكُمْ حَذَرٌ بِنَسِ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا²³⁴ و بهذه الآية الكريمة من سورة الكهف ينتهي الحديث عن قصّة آدم في العهد المكي .

و يأتي العهد المدني حيث نجد الحديث عن قصّة آدم في سورة واحدة هي سورة البقرة ، و هي الأخرى يخبر الله فيها الملائكة بأنّه جاعل في الأرض خليفة ، و يأخذ الملائكة العجب من هذا الجعل ، فكيف يجعل الله - وهو الرؤوف الرحيم - في هاته الأرض من يفسدها و يسفك الدماء و يردّ الله عليهم فهو الذي علّم آدم الأسماء كلّها ، ثمّ عرضهم على الملائكة و طالبهم بأن يتنبّأوا بأسمائهم على سبيل الإختبار فعجزوا عن ذلك و فشلوا في الإمتحان الذي عرض عليهم ، و آثروا تفويض أمرهم لربّ العرش العظيم، ثمّ أمر الله آدم أن يحيطهم علما بأسمائهم و امثل له نبيّه - عليه السّلام- و أخبرهم بأسمائهم ، ثمّ ذكر تعالى استثنائه بغيب السّماوات والأرض وعلمه بما ظهر من الأمور و ما بطن منها على الإطلاق و أمره الملائكة بالسّجود لآدم و استحابتهم لأمر ربّهم أمّا إبليس فخالف و استكبر ، و أصرّ على كفره و عناده، ثمّ يوجّه تعالى أمره لنبيّه آدم أن يسكن الجنّة هو و زوجته و أن يأكلا ممّا شاءوا يتمتعا بنعمها و أن لا يقربا شجرة عينيها لهما لأنّه باقترابهما منها يصيرا ظالمين فأغواهما الشيطان و أكلا منها فضيعا بذلك ما كانا فيه من نعيم حيث أمر بالهبوط من الجنّة إلى الأرض مع تحقّق العداوة بينهم ، و مكثهم في الأرض يستمتعون إلى حين مع تلقّي آدم كلمات من ربّه و توبة الله عليه ، مع تكراره أمر الهبوط و ترقّب هدى الله، أمّا من اتّبع هدى الله فله ما شاء من نعيم وأمّا من عصى ربّه فالنار مأواه و ساء سبيلا ، يقول تبارك و تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

الكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَحْوٌ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٣٥﴾

تلك هي أهم عناصر القصة و ألوانها التي تحدثت بها آيات الكتاب المبين في هذه المعارض السبعة، و هذه العناصر و تلك الألوان المتشعبة بين هذه المعارض يلقانا بعضها مرة واحدة ثم يختفي، على حين أن بعضها الآخر يلقانا مرة و مرة و سنحاول الآن البحث عن المعاني المشتركة بين جميع السور مع النظر في فروق الصياغة، ثم البحث عن المعاني المشتركة بين مجموعة من السور دون أخرى فالحديث عن المعاني التي لم تتكرر مطلقا .

✧ المعاني المشتركة في جميع السور :

المتمحص و المدقق النظر في نصوص القصص الواردة في السور المذكورة آنفا يدرك أن هناك معان مشتركة بين جميع تلك السور و هي كالآتي :

ا- دعوة الله الملائكة إلى السجود لآدم .

ب- استجابة الملائكة لأمر ربها .

ج- امتناع إبليس عن السجود .

فقد ورد في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾²³⁵ .

و في سورة الاعراف ورد قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾²³⁷ .

²³⁵ سورة البقرة ، من الآية : 30 إلى الآية : 38

²³⁶ سورة البقرة ، الآية : 34

²³⁷ سورة الاعراف ، الآية : 11

و في سورة الحجر ورد قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾²³⁸

و في سورة الإسراء جاء قوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾²³⁹

و في سورة الكهف جاء قوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾²⁴⁰

و في سورة طه جاء قوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾²⁴¹

و في سورة ص جاء قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾²⁴²

فأنت تلاحظ أنَّ المعاني الثلاثة التي ذكرناها قد وردت في جميع السور السبعة لأنها العناصر الكبرى التي تدور حولها أحداث القصة.

و الملاحظة الجديرة بالذكر أنَّ سجود الملائكة قد عطف في جميع المواضع على القول لهم بالسجود قد عطف بالفاء وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على أنَّ امتثال الملائكة لأمر ربِّهم حدث بسرعة عجيبة، و لعلك تلاحظ أيضا أنَّ الأمر بالسجود قد تكرر خمس مرَّات على صورة واحدة في سورة البقرة، و في سورة الأعراف، و في سورة الإسراء، و في سورة الكهف و كذا في سورة طه؛ كما تكرر مرَّتين في سورتي الحجر و (ص).

²³⁸ سورة الحجر ، الآيات: من 28 إلى 31

²³⁹ سورة الإسراء ، الآية : 61

²⁴⁰ سورة الكهف، الآية: 50

²⁴¹ سورة طه، الآية: 116

²⁴² سورة ص، من الآية: 71 إلى الآية: 74

و مع أنّ هذا التكرار اللفظي لم يضيف جديدا للصورة التي خاطب بها سبحانه و تعالى ملائكته حين أمرهم بالسجود، إلا أنّ دلالته كانت جدّ قويّة في إظهار الإحتفاء بآدم²⁴³ هذا المخلوق الذي استصغرته الملائكة مع أنّه أوفر منهم علما، و أكثر معرفة بما أكرمه الله من ملكات التفكير الخلاق المبدع.

و في جميع المعارض السبعة التي ذكر فيها سجود الملائكة لآدم -عليه السلام- ذكر امتناع إبليس عن السجود.

ففي سورة البقرة قال تعالى : ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾²⁴⁴

و في سورة الأعراف : ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾²⁴⁵.

و في سورة الحجر : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾²⁴⁶.

و في سورة الإسراء : ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾²⁴⁷.

و في سورة الكهف : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾²⁴⁸.

و في سورة طه : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾²⁴⁹.

و في سورة ص : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾²⁵⁰.

و صفة إبليس كما نرى موزّعة في هذه المعارض :

أبى، لم يكن من السّاجدين، أبى و استكبر و كان من الكافرين، كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، و هذه الصفّات تكشف كلّها موقف إبليس، و تفضح فعلته و هي استكباره و عصيانه أمر ربّه، و يسأل الله سبحانه و تعالى إبليس عن سبب امتناعه عن السّجود في ثلاثة معارض:

أ- ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾²⁵¹.

²⁴³ ينظر: عبد الكريم الخطيب "القصص القرآني في منطوقه و مفهومه"، ص: 365

²⁴⁴ سورة البقرة، الآية: 34

²⁴⁵ سورة الأعراف، الآية: 11

²⁴⁶ سورة الحجر، الآية: 31

²⁴⁷ سورة الإسراء، الآية: 61

²⁴⁸ سورة الكهف، الآية: 50

²⁴⁹ سورة طه، الآية: 116

²⁵⁰ سورة ص، الآية: 74

²⁵¹ سورة الأعراف، الآية: 12

ب- ﴿مَا لَكُمْ أَلَّا تَكُونُوا مَعَ السَّاجِدِينَ﴾²⁵².

ج- ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ الْعَالِينَ﴾²⁵³.

فيحييه إبليس معللاً سبب امتناعه :

أ- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾²⁵⁴.

ب- ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾²⁵⁵.

ج- ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾²⁵⁶.

لقد وقف هذا اللعين أمام ما ألقى عليه الله عزّ وجلّ من أسئلة، يثرثر بالأعذار مكثراً من الحجج الواهية حتى أنا نجده في سورة الإسراء يجيب على سؤال لا وجود له حين قال :

﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾²⁵⁷.

و يرى الباحث أنّ هذه العناصر التي اشتركت فيها كلّ من الأعراف، والحجر، وسورة ص، والإسراء كان مهدداً مكّة لأنها مكّة النزول، والمعروف عن أهل مكّة أنهم كانوا قوماً شديداً الكفر، معاندون و ذلك الغناد والكفر إنّما تناسبه عناصر القصة المذكورة بما تضمّنته من قوّة و عنف في الردّ على إبليس، وذكر ما سيلحقه من عذاب هو و من اتّبعه كما أنّ رفض الحجّة التي بنى عليها إبليس اللعين اعتذاره و عدم قبولها شبيه برفض الإسلام للدعوي و حجج المعاندين من مشركي مكّة²⁵⁸.

كما نجد أنّ اختلاف الصياغة بين آية وأخرى لم يكن مجرد اتفاق و إنّما هو أمر اقتضاه المقام، و لا بأس أن نورد ههنا مثلاً لذلك:

²⁵² سورة الحجر، الآية : 32

²⁵³ سورة ص، الآية : 75

²⁵⁴ سورة الأعراف، الآية : 12

²⁵⁵ سورة الحجر، الآية : 33

²⁵⁶ سورة ص، الآية : 76

²⁵⁷ سورة الإسراء، الآية : 61

²⁵⁸ ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني " خصائص التعبير البلاغي و سماته البلاغية "، ج:1، ص : 353

قال إبليس في سورة الحجر معتذرا عن مخالفة أمر ربه : ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾²⁵⁹.

بينما نجد أنه نسب خلقه إلى الطين في كل من سورتي الأعراف، والإسراء و سورة ص. و الطين سابق على الصلصال و الحمأ المسنون. قال الراغب : " الصلصال تردد الصوت من الشيء الجاف و منه قيل صل المسمار، و سمي الطين الجاف صلصالا. قال في سورة الرحمن : ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾²⁶⁰ و قال في سورة الحجر : ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾²⁶¹ 262

" فأوثر الصلصال في الحجر لتقدمه في قوله تعالى : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾²⁶³ و لعل إثار هذا أيضا على أن يقول : (من طين) لأن مبدأ خلق الإنسان هنا قوبل بمبدأ خلق الجن، و لما قال في خلق الجن : ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾²⁶⁴ ناسب أن يكون المقابل له : ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ لأن الطين إذا قوبل بالنار جن و ييس و سمع له صوت إذا حرك. 264

و لعل ما يؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ نَارٍ مِنْ نَارٍ﴾²⁶⁵ حيث أوثر الصلصال في مقابلة المارج الذي من نار، كما أوثر الطين في سورة الأعراف و الإسراء و سورة (ص) لأنه أسبق وجودا من الصلصال، و أي اختلاف في الصياغة لا يخلو من دقائق و أسرار عجبية يقف أمامها الإنسان - ذلك المخلوق الضعيف - حائرا لا يجد إلا أن يسلم لقدرة الخالق الأعظم.

و إذا نحن نظرنا إلى تمهيدات السور فإننا واجدون بينها فروقا، ففي البقرة أخبر الله عز و جل ملائكته بالخليفة الذي جعله على الأرض دون تمهيد، أما في سورة الأعراف فقد كان

²⁵⁹ سورة الحجر، الآية : 33

²⁶⁰ سورة الرحمن، الآية : 14

²⁶¹ سورة الحجر، الآية : 33

²⁶² أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني " المفردات "، تحقيق : محمد سيد كيلاني، مصر، مطبعة الباي الحلبي و أولاده، 1966م،

ص: 263

²⁶³ سورة الحجر، الآية : 28

²⁶⁴ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني " خصائص التعبير البلاغي و سماته البلاغية "، ج: 1، ص: 354

²⁶⁵ سورة الرحمن، الآية : 14، 15

التمهيد صدر آية حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾²⁶⁶.

و العطف بـثم- في وسط الآية- المفيدة للترتيب مع التراخي يدل على أن التعبير تجوزاً، والمعنى المراد من الآية هو أن الله سبحانه وتعالى خلق أبانا آدم طينا غير مصور ثم صورّه بعد ذلك²⁶⁷.

أما في سورة الحجر فالتمهيد فيه حديث عن خلق الإنسان والجان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾²⁶⁸ ثم قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾²⁶⁹.

أما سورة الإسراء فلم يرد فيها تمهيد مثلها مثل سورة البقرة، وكذلك سورة الكهف، وأما سورة طه فقد ورد فيها تمهيد بديع كان مدخلا لسرد أحداث القصة حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَخْلَصْنَا إِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلُ فَتَبَيَّنَ لَهُ نَجْدُهُ لَمْ يَخْزُهَا﴾²⁷⁰ ووردت بعد هذا المدخل أحداث سردت سردا محكما.

فأما سورة (ص) فقد خلت من التمهيد المباشر كما الحال في سورة البقرة والإسراء، وطه، والكهف على حين أن التمهيد للقصة ورد في كل من سورة الأعراف، الحجر، وطه. وتجدر الإشارة إلى أن الحديث عن قصة آدم في سورة الكهف جاء بصورة عابرة، وهي وإن حوت العناصر الثلاثة التي لم يخل منها مصدر من مصادر القصة، فإن جانب القصص فيها يبقى غامضا.

ولما كانت السور الخمس المكية التي سبقت سورة الكهف قد فصلت الحديث عن قصة آدم، فإن العهد المكي لم يكن في حاجة إلى أن تفصل سورة الكهف هي الأخرى، ما أشبعته السور الخمس -السابقة- حديثا، وسورة الكهف على ما جاء فيها من إشارة وجيزة فإنها مع

²⁶⁶ سورة الأعراف، الآية: 11

²⁶⁷ ينظر: الزحشري "الكشاف"، ج: 2، ص: 100

²⁶⁸ سورة الحجر، الآيتان: 26، 27

²⁶⁹ سورة الحجر، الآية: 28

²⁷⁰ سورة طه، الآية: 115

ذلك قد اشتملت على جديد لم يرد في غيرها و ذلك الجديد يتمثل في قوله عز و جل:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾²⁷¹، فكون إبليس من الجن، و الحكم عليه بالفسق لم يرد إلا في هاته الآية من سورة الكهف، و هذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ القصّة المتكرّرة في القرآن حتّى و إن قصرت فإنّها لا تخلّ من جديد و كيف لا و هي من نسيج الذي لا حدود لخياله.

✧ المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى:

من المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى ما ذكرناه من أسئلة ألقاها الله سبحانه و تعالى على اللعين إبليس تتعلّق بعدم قبوله السجود لآدم، و ما ترتّب على ذلك من أمور.

أمّا مقولة إبليس فيما طلب من إنظاره إلى يوم البعث، فقد جاءت في أربع سور:

- أ- ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾²⁷².
- ب- ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾²⁷³.
- ج- ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾²⁷⁴.
- د- ﴿لَنْ أَعْرَتْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾²⁷⁵.

فأنت ترى أنّ هاته المقولة تكرّرت على صورة واحدة ثلاث مرّات لفظاً و معنى، بينما جاءت الصّورة الرّابعة مشتملة على المعنى الذي تكرّر - ثلاث مرّات من قبل - مع اختلاف في الألفاظ المستعملة لإيصال ذلك المعنى.

و هذا التّكرار إنّما يسير أغوار نفسيّة إبليس اللاّهفة و يبيّن حرصه على أن يتحقّق له هذا الطّلب فهو يعلّق عليه أملاً كبيراً كي يضلّ آدم و ذرّيّته، و يبعدهم - ما استطاع - عن ذكر الله، و أن يجيء بهم بين يدي الله و قد زين لهم ما نهوا عنه فاتّبعوه و اليوم توفّي كلّ نفس ما عملت، و يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً²⁷⁶.

²⁷¹ سورة الكهف، الآية : 50

²⁷² سورة الأعراف، الآية : 14

²⁷³ سورة الحجر، الآية : 36

²⁷⁴ سورة ص، الآية : 79

²⁷⁵ سورة الإسراء، الآية : 62

²⁷⁶ ينظر: عبد الكريم الخطيب "القصص القرآني في منطوقه و مفهومه"، ص: 367

و من المعاني التي اشتركت فيها مجموعة دون أخرى، أمر الله آدم و زوجته حواء أن يسكنوا الجنة، بعد طرد إبليس منها، و هذه المرحلة السابقة المتمثلة في مخالفة إبليس أمر ربه و ما ترتب عليها.

لقد جاء أمر الله لآدم - عليه السلام - أن يسكن الجنة هو و زوجته في سور ثلاث:

الأولى: البقرة؛ قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾²⁷⁷.

الثانية: الأعراف؛ قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾²⁷⁸.

الثالثة: طه؛ قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا نَحْوُكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾²⁷⁹.

و الملاحظ في هذه النصوص الثلاثة أن أمره سبحانه آدم بأن يسكن الجنة هو و زوجته جاء صريحاً في آيتي البقرة و الأعراف، أمّا آية طه فقد كشفت لآدم و زوجته عن إبليس، و عن عداوته لهما و أنه سيغويهما ليخرجهما من الجنة، و الدليل على كونهما قد ولجا الجنة فعلاً قوله عزّ و جلّ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾²⁸⁰.

و إذا كان الله سبحانه و تعالى قد ذكر في سورتي البقرة و الأعراف ما آذن به لآدم و زوجته من التمتع بما في الجنة من طعام و شراب مختلف ألوانه، فإنه قد ذكر في سورة طه مفصلاً مظاهر النعيم الذي كانا ينعمان به في الجنة و زاد في البقرة ﴿رَحَدًا﴾ لما زاد في الخير تعظيماً بقوله: ﴿وَقُلْنَا﴾ بخلاف سورة الأعراف فإن فيها ﴿قَالَ﴾.

و قد ذكر الخطيب الإسكافي في درّة التنزيل: " قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا﴾ بالفاء: الحمل على هذا المعنى في هذه الآية

²⁷⁷ سورة البقرة، الآية: 35

²⁷⁸ سورة الأعراف، الآية: 19

²⁷⁹ سورة طه، الآية: 117

²⁸⁰ سورة طه، الآية: 117

أولى، لأنه عزّ من قائل، لما قال لإبليس: ﴿ اَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾²⁸¹؛ فكأنه قال لآدم "أدخل أنت و زوجك الجنة". فقال: ﴿ اسْكُنْ ﴾ يعني أدخل ساكنًا ليوافق الدّخول الخروج، ويكون أحد الخطّابين هما قبل الدّخول، و الآخر بعده مبالغة في الأعذار و تأكيداً للإندار، و تحقيقاً لقوله عزّ و جلّ ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾²⁸² 283. و يلاحظ الباحث أنّ آية البقرة قد صدرت بقوله: ﴿ وَ قُلْنَا يَا آدَمُ ﴾ (الآية: 35)، أمّا الأعراف فقد حذف منها القول و صدرت بالنّداء وحده: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾. (الآية: 19)، كما صدرت آية طه بالقول مسبقاً بالفاء دون الواو كما في البقرة: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا مَحْدُوكٌ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾²⁸⁴.

و لعلّ السرّ في ذلك أنّ القول في البقرة عطف على نظيره في صدر الآية السّابقة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾²⁸⁵. أمّا في الأعراف فقد حذف القول، و بدىء في خطاب آدم بالنّداء لما سبقه قوله تعالى: ﴿ قَالَ اخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾²⁸⁶، فلو قال تعالى بعد هاتيه الآية: "و قلنا" لظنّ ظانّ أنّ "قال" في الآية السّابقة ليست من قول الله لأنّه أسند لضمير الغائب "هو" بينما أسندت "قلنا" لضمير المتكلّم، و قد وجدنا أنّ القرآن يحرص على إسناد القول إلى ضمير المتكلّم حين يأمر آدم و زوجه بأن يسكنا الجنة. قوله تعالى: ﴿ وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ ﴾²⁸⁷ الواو ههنا للإستئناف، حتّى تظهر المغايرة التامة بين مأمور بالخروج مذمومًا مدحورًا، و مأمور بالتّمكن معزّزا مكرّما.

²⁸¹ سورة الأعراف، الآية: 18

²⁸² سورة البقرة، الآية: 35 و سورة الأعراف، الآية: 19

²⁸³ الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز"، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 04،

1401هـ. 1981م، ص: 11.

²⁸⁴ سورة طه، الآية: 117

²⁸⁵ سورة البقرة، الآية: 34

²⁸⁶ سورة الأعراف، الآية: 18

²⁸⁷ سورة الأعراف، الآية: 19

أما العطف الذي ورد في طه "بالفاء" : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا مَدْعُو لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾²⁸⁸ ، "فمفاده الترتيب و التعقيب كما تفيد كذلك معنى السببية حيث تقدم عليها امتناع إبليس عن السجود لآدم -عليه السلام- و أبان العطف بالفاء و كذلك نصح الله لآدم على امتناع إبليس عن السجود، و أن ذلك حدث دونما فصل بين الإمتناع و النصح"²⁸⁹ .

كان هذا ما جاء في أمر الله لآدم -عليه السلام- بأن يسكن الجنة هو و زوجته، أما ما ورد عن وسوسة الشيطان لهما فقد ذكر سبحانه و تعالى في سورة البقرة : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مَدْعُو وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾²⁹⁰ .

و جاء في سورة الأعراف قوله تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَتَا سَمَعَهُمَا إِنَّهُ لَكَمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾²⁹¹ .

و جاء في سورة طه قوله : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذْنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَمَخَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾²⁹² .

و أنت ترى أن إبليس اللعين استطاع أن يحقق ما كان يصبو إليه منذ البداية، فقد أوقع آدم و زوجته في الخطيئة لأنهما بقيا في الجنة، بينما طرد هو منها فدفعه حسده و حقهه إلى أن يرلهما حتى لا يبقيا فيما هم فيه من نعيم، و نستطيع أن نستخلص ههنا ثلاثة أمور:

أولاً: أن التعبير عن إغواء الشيطان لآدم و زوجته بالوسوسة قد اتفقت فيه سورتا الأعراف و طه بينما عبرت سورة البقرة عن ذلك بالإزلال مع الإجمال في المعاني.

²⁸⁸ سورة طه، الآية : 117

²⁸⁹ عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني "خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغية"، ج : 1، ص: 356

²⁹⁰ سورة البقرة، الآيتان: 36، 37

²⁹¹ سورة الأعراف، الآيات: 20، 21، 22

²⁹² سورة طه، الآيتان : 120، 121

ثانيا: التفصيل الذي ورد في كل من سورة الأعراف و طه - مع اختصاص الأعراف بنصيب وافر فيه - تضمن أمورا هامة تمثلت في غرض الشيطان من الوسوسة، و الأسلوب الذي نهجه في الإزلال، و هو أسلوب اعتمد الإغراء و تأكيدده في الأنفس بالقسم، ظهور سوءات آدم و حواء و محاولتهما سترها بورق الجنة، تأنيب الله لهما على ما بدر منهما، فعلى الرغم من نصحه لهما إلا أن الشيطان استطاع أن يحقق مبتغاه بأن أزلهما، و لا شك أن الشجرة التي بالغ في وصفها لا تزيد عن أن تكون مجرد شجرة، فهي لا تمتاز عن الأشجار التي معها، إلا في تحديد ذاتها بالإشارة إليها²⁹³.

ثالثا: أن سورتي البقرة و طه اتفقتا في الإشارة إلى توبة الله تعالى عن آدم -عليه السلام- و اجتنابه له، بينما تحدّثت الأعراف عن ندمها على ما فعلاه، و تضرّعهما لربهما طالبن المغفرة، فكأن ما في البقرة و طه من الإشارة إلى التوبة و اجتناء الله لآدم استجابة لذلك الدعاء الذي انفردت به الأعراف خاصة، و أن كلا من سورة طه و البقرة نزلتا بعد سورة الأعراف، فهاتيه الأخيرة هي الثانية التي تحدّثت عنها قصة آدم بعد سورة (ص) لذلك نجد هاهنا فصلت القول أكثر مما فصلته سورة طه²⁹⁴.

و أما أمر الله لآدم و زوجه بالهبوط إلى الأرض، فقد ورد في بعض السور التي تحدّثت عن قصة آدم، و خلا بعضها الآخر منه حيث ورد ذلك في: سورة البقرة: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾²⁹⁵.

و في سورة الأعراف: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مَدُودٌ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾²⁹⁶.

و كذلك في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مَدُودٌ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي فَهِيَ

²⁹³ ينظر: عبد الكريم الخطيب "القصص القرآني في منطوقه و مفهومه"، ص: 387.

²⁹⁴ ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمد الطعني "خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغية" ج: 1، ص: 358.

²⁹⁵ سورة البقرة، الآيتان: 38، 39.

²⁹⁶ سورة الأعراف، الآيتان: 24، 25.

فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى²⁹⁷.

و المتأمل في هاته النصوص يمكن له أن يستنتج ما يلي:

أولاً: أمر الله لآدم و زوجه بالهبوط من الجنة بصيغة الجمع في سورتي البقرة و الأعراف لأن المخاطبون ثلاثة هم : آدم و زوجه و إبليس، على حين أنه ورد بصيغة التثنية في سورة طه، و أقرب الظن أن المأمور بالهبوط فريقان يمثل واحدا منهم آدم و زوجه، و يمثل ثانيهما إبليس. ثانيا: الأمر بالهبوط في سورتي البقرة و طه أكد بلفظ "جميعا"، ولم نجد ذلك في سورة الأعراف.

ثالثا : اشتركت كل من سورة الأعراف و طه في التصريح بثبوت العداوة بينهم ، أما سورة البقرة فلم يرد فيها ذلك. رابعا : التصريح بترقب هدى الله ورد في كل من سورة البقرة و طه، و لكننا لم نجده في سورة الأعراف.

خامسا: بيان جزاء من يتبع هدي الله عبر عنه في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾²⁹⁸.

و في سورة طه بقوله : ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾²⁹⁹. مع زيادة التفصيل إذا ما قورنت بسورة البقرة، و بيان نوع الجزاء الذي لم نجده في الأعراف ذلك أنه يتصل بترقب الهدى الذي لم يرد فيها كما ذكرناه³⁰⁰.

و هناك فرق دقيق ورد ههنا تجدر الإشارة إليه فقد جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾³⁰¹.

²⁹⁷ سورة طه، من الآية : 123 إلى الآية : 127

²⁹⁸ سورة البقرة، الآية : 38

²⁹⁹ سورة طه، الآية : 123

³⁰⁰ ينظر عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني "خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغية"، ج: 1، ص: 359

³⁰¹ سورة البقرة، الآية : 38

و جاء في طه قوله : ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعْ هُدَايَ ﴾³⁰².

فقوله تعالى : تبع و اتبع هما بمعنى واحد و إنما أثار استعمال "اتبع" في سورة طه موافقة لما جاء قبلها و هو قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾³⁰³.

و لعل آخر ما ذكر من قصّة آدم -عليه السلام- في العهد المكيّ كان أمر الله آدم و زوجته بالهبوط من الجنة، و هذا الأمر وارد أيضا فيما نزل متضمّنا قصّة آدم في العهد المدني مع اختلاف بين النصوص القرآنيّة المنزلة في العهدين و تجدر الإشارة إلى شيء هامّ و هو الجديد الذي أضافه العهد المدني لقصّة آدم -عليه السلام- و هذا الجديد يتمثل فيما يلي :

أولا : جاء في سورة البقرة -و هي مدنيّة العهد- قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾³⁰⁴ ، و جاء في سورة (ص) -و هي مكّيّة العهد- قوله تعالى : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾³⁰⁵.

يقول الكرمانى معلقا على هاتين الآيتين : " و لا ثالث لهما في القرآن، لأنّ جعل إذا كان بمعنى خلق يستعمل في الشّيء يتجدّد و يتكرّر كقوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾³⁰⁶ لأنّهما يتجدّدان زمانا بعد زمان و كذلك الخليفة لفظ يدلّ على أنّ بعضهم يخلف بعضا إلى يوم القيامة، و خصّصت هذه السّورة بقوله : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ ﴾ لقوله : ﴿ بَشَرًا ﴾ : إذ ليس في لفظ البشر ما يدلّ على التّجدّد و التّكرار فجاء في كلّ واحدة من السّورتين ما اقتضاه ما بعده من الألفاظ³⁰⁷ فقد حضى آدم -عليه السلام- و ذريّته بمنزلة رفيعة عند الله سبحانه و تعالى بأن جعلهم خلائفه في الأرض، و في هذا الخلف إكرام له.

ثانيا : تعجّب الملا ئكة من هذا الجعل و الخلق، أمّا الجعل فعّلوا تعجّبهم إزاءه بأنّ هذا الآدميّ سيفسد في الأرض و يسفك الدّماء.

³⁰² سورة طه، الآية : 123

³⁰³ سورة طه، الآية : 108

³⁰⁴ سورة البقرة، الآية : 30

³⁰⁵ سورة (ص)، الآية : 71

³⁰⁶ سورة الأنعام، الآية : 1

³⁰⁷ محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن" ص: 237-238

و أما الخلق فعلّلوا تعجّبهم إزاءه بأنهم يسبّحون الله بكرة و أصيلا، فهل هذا المخلوق سيفعل ما تفعل الملائكة أم أنه سيطغى في الأرض، فلقد كان الملائكة يرون أنهم أقرب إلى الله من هذا المخلوق الذي جاء متأخّر الوجود و من هنا فهم أولى بأن يكون منهم الخليفة في الأرض و لكن الله سبحانه و تعالى بيّن لهم بأنه يعلم غيب السّموات و الأرض، و يعلم ما لا يعلمون.

ثالثا : علّم الله آدم-عليه السلام- الأسماء كلّها، و أعدّه بذلك لمباراة بينه و بين الملائكة و لا شكّ في أنه هو المنتصر.

رابعا : عرض الله المسمّيات على الملائكة، و طلب منهم أن ينبّهوه بها فعجزوا عن ذلك و فوضوا الأمر إلى الله مسبّحين له.

خامسا : أمر الله آدم أن ينبّيء الملائكة بأسمائهم فاستجاب آدم لرّبّه فقال لهم الله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ خَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْذِرُونَ وَمَا تُحْتَمُونَ ﴾³⁰⁸ و لعلّ أوّل من يشدّ انتباه الباحث ههنا أنّ نصّ سورة البقرة قد تضمّن معان جديدة لم نعرّ عليها في غيره من ذي قبل، كما تضمّن معان تحدّثت عنها السّور المكيّة.

ورد في العهد المدني قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾³⁰⁹ بدّيلا عن قوله في العهد المكي : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾³¹⁰.

و من خلال ما نزل في العهد المكيّ و قياسا على هاتيه الآية من سورة (ص) باعتبارها أوّل ما تحدّثت عن قصّة آدم -عليه السلام- نقول أنّ كلمة الخلق ههنا مناسبة للعهد المكيّ، كونه عهد تكوين للعقيدة الصّالحة، و الأخلاق الفاضلة، و كذا تكوين أمة -تكون من خيرة النّاس- تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر، و تؤمن بالله، أمّا ما نزل في العهد المدني في نصّ سورة البقرة حول خلق آدم، فكلمة الجعل فيه تناسب هذا العهد لأنّه تابع للإيجاد و الخلق، فمفعول الجعل هو قوله تعالى : ﴿ خَلِيفَةً ﴾ و الخلافة مجعولة لآدم و ترثها عنه ذريّته جيلا بعد جيل³¹¹.

³⁰⁸ سورة البقرة، الآية : 33

³⁰⁹ سورة البقرة، الآية : 30

³¹⁰ سورة ص، الآية : 71

³¹¹ ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمّد المطعني "خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغيّة"، ج: 1، ص: 361. 362

و إذا نحن أمعنا النظر في نصوص هاته القصة - قصة آدم - في جميع مصادرها نجد أنّ بعض المعاني تذكر مع بعض معيّن، فإذا لم يذكر ذلك البعض المعيّن لم تذكر المعاني التي من المعتاد أن تذكر معه.

فمرحلة عدم سجود إبليس لآدم - عليه السلام - مثلاً مرتبطة بطلب هذا اللعين من الله - سبحانه و تعالى - أن يجعله من المنظرين و إعلانه عن أنه سيضلّ الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إلّا من قوى إيمانه و اهتدى فلا مضلّ له بعد ذلك، و لقد وردت هذه المرحلة في سور ثلاث هي : سورة (ص) ، سورة الحجر ، سورة طه و خلت هاته السور من مرحلة الهبوط من الجنة إلى الأرض، و هي مرحلة صاحبها ترقّب الهدى الذي جاء ذكره في سورتي البقرة و طه و خلت سورة الاعراف من ذكره، و لعلّ السر في ذلك أنّ هاته السورة قد سبقت سورة طه نزولاً فأرجئ الأمر إليها³¹² و إذا رحنا نتبّع ما اختصّ به كلّ نص من النصوص التي ذكرت فيها قصة آدم في المواضع السبعة حسب ترتيبها في المصحف فإنّنا واجدون أنّ :

1- سورة البقرة تكرر فيها أمر السجود و الهبوط ، و ترقّب الهدى أمّا ما عدا هاته الامور فهي خاصة بها.

2- سورة الاعراف انفردت بذكر تنذّم آدم و حواء و تضرعهما لله طلباً للرحمة ، و طمعاً في المغفرة و إلّا كانا من الخاسرين .

3- سورة الحجر انفردت بذكر الصلصال و الحمأ المسنون ، و بذكر السبعة أبواب للنار ، و التي لكلّ منها جزءاً مقسوماً .

4- سورة الإسراء انفردت بما صرّح به إبليس حاقداً على آدم - عليه السلام - ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الْبَاطِلِ كَرِهْتَهُ عَلَيَّ﴾³¹³ و مصرّاً على أن ينظر إلى يوم القيامة حتّى يحقق مبتغاه بأن يضلّ آدم و ذريته ، و يعدمهم و ما وعده لهم إلّا غروراً .

5- سورة الكهف : انفردت بالإخبار عن جنس إبليس - و هو الجنّ - و أنّه خالف أمر ربّه فحذر الله عباده من أن يتخذوه و ذريته أولياء من دونه .

³¹² ينظر المرجع نفسه، ج:1، ص: 363 . 364

³¹³ سورة الإسراء ، الآية : 62 .

6- سورة طه : انفردت بما جاء فيها كتمهيد مجمل للقصة : ﴿وَلَقَدْ نَحْنُ إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَنْسِيْ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ نَحْزَمًا﴾³¹⁴.

كما فصلت ما سيلقاه آدم و حواء في الجنة من نعيم ، مع ذكر اجتباء الله لآدم و هدايته و رحمته له بعد الخطيئة التي وقع فيها .

7- سورة ص : انفردت بقوله سبحانه و تعالى : ﴿لِمَا خَلَقْتُمْ بِيَدَيَّ﴾³¹⁵ فذا اليدين ينجز أكثر أعماله بيديه ، حتى أنّ عمل اليدين قد غلب على معظم الأعمال التي تباشر بغيرها ، و حتى أنه قيل في عمل القلب هو مما عملت يداك³¹⁶.

و قصة آدم كما نطقت بها كلمات القرآن هي قصة حافلة بمعطيات الإثارة التي تتخذ الحق قبلة لها ، و التي يقصر أمامها الخيال ، فتكون بذلك شجرة ثمارها الواقع و أشواكها الخيال ، و هي على ما وجد فيها من جزئيات ، فإنها تحقق الغاية موزعة كانت أو مجمعة.

ب- قصة نوح - عليه السلام -

مثلما تكررت قصة آدم - عليه السلام - باعتباره أب البشر تكررت قصة نوح - عليه السلام - لأنه هو الرائد الأول للرسول ، و أولهم إلى أهل الأرض في زمن كانوا يعبدون فيه الأصنام و الطواغيت ، فقد جعل الله تعالى ذريته خلفاء في الأرض ، و قد ذكرت قصة نوح مع قومه ، و جزاء من فكر برسالاته ، و كيف أنّ الله أنجاه و من آمنوا له ممن ركبوا السفينة ، و أغرق الآخرين في مواضع متعددة من القرآن الكريم بعضها فيها إشارات عابرة لقصة نوح - عليه السلام - و بعضها الآخر فيه تفصيل لأحداثها و مشاهدتها .

أمّا الإشارات العابرة فقد وردت في كلّ من سورة النجم ، و (ص) ، و الفرقان ، و الذاريات ، و الانبياء ، و الحاقة .

ففي سورة النجم نجد قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ ثَمَّا أَبْقَىٰ وَفَقَّهَ نُوْحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾³¹⁷.

³¹⁴ سورة طه ، الآية : 115

³¹⁵ سورة ص ، الآية : 75 ، ينظر عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني " خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغية " ، ج:1 ، ص:365

³¹⁶ ينظر: الزمخشري " الكشاف " ، ج: 5 ، ص: 150

³¹⁷ سورة النجم ، الآيات : 50 . 51 . 52 .

أما في سورة ص فقد ورد فيها قوله سبحانه و تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَمَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾³¹⁸.

و جاء في سورة الفرقان قوله تعالى : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ
وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ مَخَابَا أَلِيمًا﴾³¹⁹.

ثم جاء في سورة الذاريات قوله تعالى : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ﴾³²⁰.

و ورد في سورة الأنبياء - عليهم السلام - قوله تعالى : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَانْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾³²¹.

أما سورة الحاقة فجاء فيها قوله سبحانه و تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي
الْفَجَارَةِ (١١) لِنَجْعَلَكُم مَخْرَجًا وَنَجِيًّا أَكُنْ وَاحِدَةً﴾³²².

و هاته الإشارات و إن تكررت فإنّ في كلّ واحدة منها جديد لم يرد في غيرها .

فآية النجم مثلا فيها حديث عن قوم نوح -عليه السلام- و ما كانوا عليه من ظلم
و طغيان ، و أمّا آية (ص) فقد جاءت لما كذب المشركون الرسل ، "و قوله جلّ شأنه ﴿ذُو
الْأَوْتَادِ﴾ أصله من ثبات البيت المطنّب بأوتاده، قال الشاعر :

و البيت لا يبتني إلاّ على عمد .: و لا عماد إذا لم ترس أوتادا

فاستعير لثبات العزّ و الملك ، و استقامة الأمر كما قال الأسود : في ظل ملك ثابت الأوتاد
. قيل كان يشبح المعذب بين أربع سوار كلّ طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه
وتد من حديد، و يتركه حتّى يموت، و قيل كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض و يرسل عليها
العقارب و الحيات و قيل كانت له أوتاد و حبال يلعب بها بين يديه³²³

³¹⁸ سورة (ص) ، الآية : 12

³¹⁹ سورة الفرقان ، الآية : 37

³²⁰ سورة الذاريات ، الآية : 46

³²¹ سورة الأنبياء ، الآيتان : 76 ، 77.

³²² سور الحاقة ، الآيتان : 11 ، 12

³²³ الرّبخشري "الكشاف" ، ج:5، ص: 135

و قد كرّر التّكذيب بعد هاته الآية للتّوكيد على أنّهم سيلقون عذابا شديدا.

و أمّا آية الفرقان، فقد ورد فيها ما لم يرد في الآيتين الأولى من سورة النّجم و (ص)،
فقوم نوح -عليه السلام- حين كذبوا نبيّهم، فكأنّما كذبوا الرّسل جميعا، فعذبهم الله بأن أغرقهم
و جعلهم آية للنّاس.

و جاءت سورة الذّاريات واصفة قوم نوح -عليه السلام- بالفسق: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ﴾³²⁴

أمّا سورة الأنبياء فقد أخبرت باستجابة الله لنداء نوح -عليه السلام- و نجاته و من اتبعه
من الطّوفان، و أمّا سورة الحاقة، فقد ورد فيها ذكر الله سبحانه و تعالى بأنّه إنّما حمل نوحا و من
معه في السّفينة و أنجاهم من الطّوفان الهائل ليعتبر من كفر من قومه و يتّعظ.

هاته هي السّور الّتي وردت فيها قصّة سيّدنا نوح -عليه السلام- بصورة موجزة، أمّا
السّور الّتي أجملت الحديث عن قصّته تارة، و فضّلتها تارة أخرى فهي تسع سور و هي على
التّوالي: سورة القمر، و الأعراف، و الشعراء، و يونس، و هود، و الصّافات، و نوح،
و المؤمنون، و العنكبوت.

أمّا سورة القمر فإنّ الآيات الّتي وردت فيها تتحدّث عن قصّة نوح بدأت بقوله تعالى :
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُهُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا بِعِدَتِنَا وَمَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾³²⁵.

و ذكر التّكذيب ههنا مرّتين معناه " كذبوا فكذبوا عبدنا أي كذبوه تكذّبا على عقب
تكذيب، كلّما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذّبت قوم نوح الرّسل فكذبوا
عبدنا، أي لما كانوا مكذّبين بالرّسل جاحدين للنّبوة رأسا كذبوا نوحا لأنّه من جملة الرّسل "³²⁶.

بعد ذلك يحدثنا القرآن الكريم عمّا جرى بين نوح و بين قومه في أوجز عبارة : ﴿فَدَعَا
رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾³²⁷، ثمّ يبدأ التفصيل بعد هذا الدّعاء فقد فتحت أبواب السّماء
و أخذ الماء ينصب منها انسابا شديدا، و فجّرت الأرض عيوننا فالتقى ماء السّماء و ماء الأرض،

³²⁴ سورة الذّاريات، الآية : 46

³²⁵ سورة القمر، الآية : 09

³²⁶ الزّعشري " الكشّاف "، ج:6، ص : 55

³²⁷ سورة القمر، الآية : 10

و في غمرة هذا الطوفان الهائل حمل نوح : ﴿ عَلَى خَاتَمِ الْوَاحِ وَخُسْرِ ﴾³²⁸ ، و أخذت السفينة المصنوعة من الألواح و المسامير تجري يرعاها الله و يحفظها، و جعلها آية يعتبر بها كل جبار عنيد³²⁹ يقول تبارك و تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا مُنْجِدَنَا وَقَالُوا مَظْهُونٌ وَاذْكُرْ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَا عَلَى خَاتَمِ الْوَاحِ وَخُسْرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ فَعَيْنَهُمْ حَتَّى هَضَبُوا جُنُودَهُمْ وَفَعَلْنَا بِذُنُوبِهِمْ كَلْبًا مُتَجَلِّجًا وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾³³⁰ .

هذا ما ورد من حديث عن قصة نوح - عليه السلام - في سورة القمر، و هي أول سورة أخبرتنا عن نوح و قومه.

تليها سورة الأعراف، و التي عبرت عن القصة بأسلوب آخر، فقد أوردت جزءا من الحوار الذي دار بين نوح و قومه، حيث بدأت هكذا : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾³³¹ ، و لكن أشرف قومه المعرورين قالوا له إنك في ضلال مبين، و يردّ عليهم النبي نوح - عليه السلام - بكل تواضع و تسامح ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾³³² ، فهو قد بعث لينصح قومه الغافلين، و يبين لهم قدرة الله الخارقة، و يعلمهم ما لم يعلموا من قبل، و لكنهم كذبوا فحق عقابهم بأن أغرقوا و أنجى الله نبيه نوح و من آمن معه و إذا كانت سورة القمر قد فصلت الحديث -نوعا ما- عن قصة نوح فإن سورة الأعراف قد اقتضرت على بعض ما دار بين نوح و قومه من حوار كما ذكرنا سابقا يقول تبارك و تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قَالَ

³²⁸ السورة نفسها ، الآية : 13

³²⁹ ينظر: "تفسير الجلالين" (جلال الدين السيوطي، جلال الدين المحلي)، ص : 447، 448

³³⁰ سورة القمر ، من الآية : 9 إلى الآية : 17

³³¹ سورة الأعراف، الآية : 59

³³² السورة نفسها ، الآيتان : 61 ، 62

الْمَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ إِذَا لَنَرَكَ فِي ظِلَالٍ مُبِينٍ قَالِ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي خَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِي رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
أَوْحَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ
تُزَكُّونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٣٣٣﴾

و نلتقي بسورة الشعراء فنجد قوله تعالى في نوح وقومه : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ
الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ³³⁴ ، ومع أن نوحا - عليه السلام - قد كرر عليهم الأمر بالتقوى ليقرره في
نفوسهم إلا أن عنادهم و كبرياءهم منعهم من أن يؤمنوا له و يصدقوه، و قد اتبعه الأردلون كما
زعموا، و يجيبهم نوح إجابة فيها كل الصبر و التؤدة : ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنِ
حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَيَّ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
مُبِينٌ﴾ ³³⁵ ، و لم يقف عناد المكذبين عند هذا الحد بل أنهم أصبحوا يتوعدونه بالرحم إن لم ينته
على طلبه الإيمان منهم و يلجأ نوح بعد طول محاورة مع قومه إلى ربه شاكيا تكذيب قومه،
و طالبا منه أن يفتح بينه و بينهم و ينجيهم و من تبعه ممن احتقرهم من أولئك المكذبين،
و يستجيب الله سبحانه و تعالى لرسوله و ينجيهم و من معه في الفلك المشحون : ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا
بَعْدَ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ﴾ ³³⁶ يقول تبارك و تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ
الْأَارْخُلُونَ قَالِ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنِ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَيَّ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنْ

³³³ السورة نفسها ، من الآية : 59 إلى الآية : 64

³³⁴ سورة الشعراء، من الآية : 105 إلى الآية : 108

³³⁵ سورة الشعراء، من الآية : 112 إلى الآية : 115

³³⁶ السورة نفسها، الآيات : 120، 121، 122، ينظر : الزمخشري "الكشاف" ج:4، ص: 174

الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي فَكَّارِي فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَانْجِنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ³³⁷.

و الملاحظ من خلال استقراء آيات سورة الشعراء التي تحدت عن قصّة نوح -عليه السلام- أنها أضافت جديدا للحوار الذي دار بين نوح -عليه السلام- و قومه .

و تأتي سورة يونس و تكفيها قراءة الآية الأولى التي ورد فيها خبر نوح -عليه السلام- لنذكر ما تفرّدت به هذه السورة عن غيرها، يقول عزّ و جلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ نُوحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِي فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ³³⁸﴾.

لقد كذب قوم نوح نبيهم لما جاءهم بالهدى و دين الحق، فما كان من نوح -عليه السلام- إلا أن لجأ إلى ربه واثقا من قدرته عزّ و جلّ، فكان أن أغرق الله من كذب و تولّى من قوم نوح و أنجاه و من آمن معه ممّن لانت قلوبهم، و خشعت لله و على الرغم من الآيات القلائل التي وردت في سورة يونس تتحدت عن قصّة نوح - عليه السلام - مع قومه إلا أنها استطاعت أن تمسّ القصّة من جانب يكاد يكون لبّ القصّة في حدّ ذاتها، و هو عاقبة الطغيان و الكفر، و جزاء الصبر، و قوّة الإيمان، يقول تبارك و تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ نُوحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِي فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَانْجِنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ

³³⁷ السورة نفسها، من الآية: 105 إلى الآية: 122

³³⁸ سورة يونس، الآيتان: 71، 72

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ³³⁹، تليها سورة هود-عليه السلام-،
وقد فصلت القصة تفصيلاً لا نجد إلا في السورة الأم، إذا تحدثت عن الحوار الذي دار بين
نوح-عليه السلام- وقومه، والذي انتهى بوحى الله لنبيه نوح من أن قومه لن يؤمنوا إلا من قد
وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، ويأمره ربه بأن يصنع الفلك و لكن قومه كانوا يسخرون منه
فيسخرون منهم هو الآخر حينما يقع عليهم الغرق في الدنيا و سوء الجزاء في الآخرة، وإن كانت
أنفسهم الأمارة بالسوء قد خولت لهم أن يستجملوه فيما يصنع، فإنه و من آمن معه
سيستجملونهم فيما هم عليه من كفر و عناد، و سخط الله و عذابه، "إِنَّ السَّخِرِيَّ الَّتِي تَعْرِضُ لَهَا
نُوحٌ وَ جَمَاعَتُهُ الْمُؤْمِنَةُ عِنْدَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ السَّفِينَةَ، ثُمَّ جَوَابَهُ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ سَيَسْخَرُ مِنْهُمْ هَذِهِ
الْإِجَابَةُ إِنَّمَا كَانَتْ مَنْطُويَةً عَلَى تَمْهِيدٍ فَنِّي يَتِمُّثَلُ فِي أَنَّ الْأَحْدَاثَ الْمُقْبِلَةَ تَضُمُّ فِي أَعْمَاقِهَا مَفَاجِئَ
سَارَّةٍ لِصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ فَعَلًا جَاءَ حَدَثُ السَّفِينَةِ حَافِلًا بِمَا هُوَ مَسْرٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَ بِمَا هُوَ سَاخِرٌ مِنَ
الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَمَا شَغَلُوا بِصْنَعِ السَّفِينَةِ وَ هَا هُوَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ،
تَسَاوَقًا مَعَ حَدَثِ السَّفِينَةِ يَقْدِّمُ لَنَا وَصْفًا حَافِلًا بِالذَّهْشَةِ وَ الْإِثَارَةِ لِعَمَلِيَّةِ جَرِي السَّفِينَةِ ،
و لِرَكَابِهَا، وَ لِرِسْوَاهَا . مُؤَكِّدًا بِهَذَا الْوَصْلِ لَتَفَاصِيلِ بَيْئَةِ السَّفِينَةِ تَنَاسُقُ الْمَصِيرَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَعَ طَبِيعَةِ
الْمَوْقِفِ السَّاخِرِ حَيَاهُمْ³⁴⁰ قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا
قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ
تَجْرِي بِهِ فِي مَوْجٍ خَالِجٍ بَالٍ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا
وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي
مَاءَكَ وَياسماءُ اقلعي وَاغْصِي الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ³⁴¹ .

³³⁹ سورة يونس ، من الآية : 71 إلى الآية : 73

³⁴⁰ د: محمود البستاني "دراسات فنية في قصص القرآن"، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: 1، 1409هـ، 1989م،

ص: 181

³⁴¹ سورة هود ، من الآية : 40 إلى الآية : 44

وحقيق بالذكر أنّ هاته السورة الكريمة تضمّنت دروسا هادية هادفة و عبرا جمّة لا بدّ أن يلتفت إليها المصلحون، و رجال الدّعوات ليدركوا أنّ هناك أموراً هامّة يشترك فيها بني البشر مهما تطاول الزمن، و تباينت العصور، فالشّبه التي جوبه بها نوح-عليه السلام- من قبل قومه هي ذاتها التي نلّفها اليوم³⁴².

أَوَلَا : قوله عزّ وجلّ : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ ³⁴³ و ثانياً : قوله : ﴿ وَمَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ ³⁴⁴ و يردّ عليهم نوح -عليه السلام- : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا نَذِيرٌ مِنْكُمْ فَذَرُونِي سَهْلًا أَوْ يُصْعَقُوا لَعَنُوكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ³⁴⁵ فهو لا يكرههم على قبول ما لا يحبّون و لا يختارون فلا إكراه في الدّين، ثمّ هو بعد ، لا ينتظر منهم أجراً إنّما أجره على الله .

هكذا كان رده على الشبهة الأولى، أمّا الشبهة الثانية و هي انتقاصهم من المؤمنين فيقول في رده عليها : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾³⁴⁶

و إذا كانوا قد اتهموه بالكذب بهتاناً فإنه ردّ عليهم في تواضع و إيمان خالصين لوجه الله
: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ مِثْلَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزْحَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنُ
الظَّالِمِينَ﴾ 347

فَنُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَقُلْ أَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِنَ اللَّهِ فَيَدَّعِي بِذَلِكَ فَضْلاً عَلَى أَوْلَئِكَ
الْمُكَذِّبِينَ فِي الْغَنَى، وَ لَمْ يَدَّعِ عِلْمَ الْغَيْبِ حَتَّى يَنْسُبُوهُ إِلَى الْكُذْبِ وَ الْإِفْتِرَاءِ، أَوْ حَتَّى يَطَّلِعَ
عَلَى نَفُوسِ أَتْبَاعِهِ وَ مَا تَجِيْشُ بِهِ أَفْئِدَتَهُمْ، وَ لَمْ يَقُلْ نُوحٌ أَنَّهٗ مَلِكٌ حَتَّى يُوَاجِهُوهُ

³⁴² ينظر: د: فضل حسن عباس "القصص القرآني بإجاءه و نفعاته"، ص: 73، 74

343 سورة هود ، الآية : 27

³⁴⁴ السورة نفسها ، الآية : 27

³⁴⁵السورة نفسها ، الآية : 28

³⁴⁶ السورة نفسها ، الآية : 29-30

347 السورة نفسها ، الآية : 31

بقولهم : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾³⁴⁸ فهو لو قال ذلك لكان ظالماً و حاشي لله أن يكون أحد رسله ظالمين ، و إنما ظلموا من قبل أقوامهم فنالوا الثواب بإيمانهم و صبرهم ، و نال أولئك العقاب بكفرهم و عنادهم³⁴⁹ .

و لم يكفهم ما جاءهم به نوح - عليه السلام - من الحجج البينة ، و لما رأوا أن شبهاتهم كلها قد ردت امتطوا متن الكفر و العناد ، و ها هم يواصلون محاورته بعد كل ما سمعوه منه : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَاءَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾³⁵⁰ ، و يضيق صدر نوح - عليه السلام - بغيهم و عصيانهم فيقول : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾³⁵¹ و هنا يرد القرآن الكريم بما اجتمع عليه أعداء الحق و المكذبين بالدين القيم منذ زمن نوح - عليه السلام - حتى زماننا هذا بل و حتى المستقبل البعيد من تكذيب الأنبياء ، و أنهم إنما يفترون على الله يقول عز و جل في إثر ذلك : ﴿ قُلْ إِنْ أَهْتَدَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾³⁵² ، و يوحى الله إلى نوح - عليه السلام - : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾³⁵³ و المعنى الذي تحمله هذه الآية هو : " فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك و إيدائك و معاداتك فقد حان الانتقام لك منهم "³⁵⁴ فنوح - عليه السلام - سيحني و من آمن معه من قومه ثماراً جمّة جزاء صبرهم ، فمعجزتهم ستكون عظيمة .

لقد أوحى الله لنوح - عليه السلام - أن يصنع الفلك برعايته و حفظه ، و لا ينبغي له أن يخاطب الله في الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الحق ، و ظلموا المؤمنين باحتقارهم لهم ، و يبدأ نوح في صناعة السفينة ، و كلما مرّ عليه نفر من المكذبين سحروا منه فالسفينة لا تمشي في

³⁴⁸ السورة نفسها ، الآية : 27

³⁴⁹ ينظر: الزمخشري "الكشاف"، ج: 3، ص: 36

³⁵⁰ سورة هود ، الآيات 32-33

³⁵¹ السورة نفسها ، الآية : 34

³⁵² السورة نفسها ، الآية : 35

³⁵³ السورة نفسها ، الآية : 36

³⁵⁴ الزمخشري "الكشاف" ، ج: 3، ص: 37

اليس، و إذا كان لا وجود للماء فلما هذه السفينة إذن ؟ أَلَسَنَ صاحبها أصيب بالجنون، أم أنه يعث فقط؟ ، و يجيهم نوح -عليه السلام- كعادته هادئا و الحق يعلو كلامه: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ مَخَاطِبُ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ مَخَاطِبُ مُقِيمٌ ﴿355﴾

و يأتي أمر الله و يفور التنور، و يؤمر نوح-عليه السلام- بأن يحمل في فلكه أهله و المؤمنين من غيرهم ، و أن يستثني من أهله من سبق عليه القول ، و يركب المؤمنون السفينة قائلين باسم الله وقت إجرائها و وقت إرسائها ، و راحت تجري بهم في موج كالجبال و إذا بنوح - و قد دفعته عاطفة الأبوة -ينادي ابنه أن يكون مع الراكبين ، و لكنه يأبى، فهو سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، و يقول له والده: ﴿لَا مَخَصَةَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ﴾ ³⁵⁶ ، و يحول الموج بين الابن و أبيه فيغرق من كفر، و ينجوا من آمن ، و يأمر الله الأرض بأن تبلع ماءها ، و السماء بأن تقلع فيمشتلان لأمره كأنهما عاقلين قد عرفا عظمة الله و قدرته ، و ثوابه و عقابه ، و تبيّنوا تحتم طاعته عليهما ، فامتشلنا لأمره، و نزلنا عند مشيئته ³⁵⁷ .

و ينادي نوح-عليه السلام- ربّه ، فقد أمره أن يحمل أهله و ابنه من أهله ، و وعد الله حق ثابت لا ريب في الوفاء به فما بال ولدي ؟ و يجيبه عزّ و جلّ: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ³⁵⁸ فالأهلية ههنا أهلية العقيدة لا أهلية القرابة ، و قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ³⁵⁹ .

فلقد أعطى الإسلام لصلة القرابة حظا وفيرا ، و لكن لمراعاتها شرط هامّ و هو الإيمان بالله و الإخلاص في عبادته ، و المسلم لا ينبغي أن يتودد لمن ضلّ عن طريق الصواب و لو كان من أقرب الناس نسبا إليه مصداقا لقوله تبارك و تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

³⁵⁵ سورة هود ، الآيات : 38-39

³⁵⁶ .السورة نفسها ، الآية : 43

³⁵⁷ ينظر: الرخشري "الكشاف" ، ج : 3 ، ص: 39، 40

³⁵⁸ سورة هود ، الآية : 46

³⁵⁹ ينظر: الرخشري "الكشاف" ، ج : 3 ، ص: 40

الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ³⁶⁰.

و هنا يدرك نوح-عليه السلام- حقيقة الأمر فيعود إلى ربه معتذرا : ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ³⁶¹
و يطلب نوح-عليه السلام- مغفرة ربه ، و رحمته الواسعة حتى لا يكون من الخاسرين
فيستجيب له ربه : ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ ³⁶² .
و تستوي السفينة بعد طول مصارعة للأمواج الهائلة ، و ينزل نوح و من آمن معه في سلام آمين ،
بعد هذه الرحلة الممتعة التي ذهبنا فيها صحبة نوح-عليه السلام- و قومه ، و التي شاهدنا من
خلاها خراب الأرض و من عليها نتيجة تمرد الكافرين و عصيانهم لأوامر ربهم ، و كذا
سخرتهم من المؤمنين ، فإننا واجدون أن هاته السورة - سورة هود - قد جاء فيها من المواقف
و الاحداث ما لم نجد في السور التي سبقتها حديثا عن قصة نوح - عليه السلام- و إليك الآيات
كما وردت في الذكر الحكيم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ
لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْحَاكِ الرَّأْيِ
وَمَا نَرَى لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى
بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ مِّنْدِي فَقَمِيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْتُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا
كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّهُمْ مِلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ مِثْلِي خَزَائِنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا
أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا

³⁶⁰ سورة المجادلة ، الآية : 22، ينظر عفيف عبد الفتاح طيارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم" قصص و دروس و غير من حياتهم - دار العلم

للملايين - ط : 5 - د.ت - ص : 81

³⁶¹ سورة هود ، الآية : 47

³⁶² السورة نفسها ، الآية : 48

بِمَا تَعِدُّنَا إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْيِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَتَّبِعِنَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَاصْنَعْ الْفُلْكَ وَكَلِّمَّا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ مَخَاطَبُ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ مَخَاطَبُ مُقِيمٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا نَحْمَدُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَخَيَضَ الْمَاءُ وَقَضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْخَائِمِينَ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّي أَخُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتِنَا عَلَيْكَ وَعَلَى آئِمٍّ مِمَّنْ مَعَكَ وَآمَمَ سَمْعُتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا مَخَاطَبُ الْيَوْمِ³⁶³

أما سورة الصافات فقد تناولت القصة هي الأخرى ، و لكن من جانب آخر و من زاوية أخرى ، إذ لمسنا الجدة في موضوعها و في طريقة عرضها ، حيث لم يرد فيها الحوار الذي دار بين نوح-عليه السلام- و قومه - مثلما رأينا في سورة هود و ما قبلها من السور التي تناولت القصة - إنما الذي حدثتنا به الآيات هو إكرام الله لنبيه نوحا - عليه السلام- ، و ما منّ عليه من نعم

³⁶³ سورة هود ، من الآية : 25 إلى الآية: 48

و أفضل يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا خُرَيْتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا هَذَا نُجِزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَخَذْنَا مِنَ الْآخِرِينَ 364 .

فأنت تلاحظ أن لا ذكر للمحاورات التي دارت بين نوح و قومه ، و لا وجود للحجج و الشبهات، و كل ما فيها إكرام نوح-عليه السلام- و إنجائه و أهله من الطوفان الذي أتى على الأخضر و اليابس، و من هنا باين محتوى هاته الآيات في حديثها عن خير نوح-عليه السلام- غيرها مما تضمنته السور الأخرى.

و أما سورة نوح-عليه السلام- فقد شابهت سورة يوسف من حيث اختصاصها بالحديث عن نوح وحده ، بدأت بالحديث عن إرسال نوح-عليه السلام- لقومه كما وجدنا في السور السابقة و لكنها خالفتها في أسلوب القسم إذ حادت عنه إلى أداة التوكيد إن : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مَخَاطِبُهُ أَلَيْمَةٌ قَالُوا يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 365 .

لقد أرسل الله تعالى نوحا إلى قومه لينذرهم ، أمرا إيتاهم بالعبادة و تقوى الله ، و الطاعة لنوح ، و هو سر رائع إختصت به هذه السورة ففي اعتقاد معظم الناس أن العبادة و التقوى وجهان لعملة واحدة و ليس الأمر كذلك فلكل من العبادة و التقوى أسس و معايير تحكمها ، فقد يكون المرء عابدا دون أن يصل إلى مرتبة التقوى ، و من هنا نستخلص أن هاته الأخيرة أعلى من مرتبة العبادة.

إن سورة نوح-عليه السلام- حوت جديدا في موضوعها و جزئياتها و أسلوبها فقد حدثتنا بعض آياتها عن خطاب نوح-عليه السلام- لربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَمْتُ قَوْمِي لَيْلًا

364 سورة الصافات ، من الآية : 75 إلى الآية : 82

365 سورة نوح ، من الآية : 1 إلى الآية : 4

وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا³⁶⁶ ، بينما حدثتنا أخرى عما قاله لقومه : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ يُؤْتِيهَاكُمْ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا³⁶⁷ .

فها هو نوح -عليه السلام- يطلب من قومه التوبة عما اقترفوه من آثام و معاصي ، و أن توبتهم هاته ستكون ذات منافع جمّة و فوائد عاجلة في الدارين الأولى و الآخرة³⁶⁸ .

و يواصل نوح -عليه السلام- حديثه مع قومه مبيناً لهم آيات الله في هذا الكون الفسيح : ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا³⁶⁹ ثُمَّ نَجَّاهُ يَشْكُو عصيان قومه له : ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ مَحْضُونِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا³⁷⁰ .

فبما خطيئاتهم و مكرهم أغرقوا و أدخلوا نارا ، إلا من تاب و آمن و عمل صالحا فألئك يتوب الله عليهم و هو خير التوابين.

و إذا نحن أمعنا النظر في هاته السورة الكريمة وجدنا في بعض آياتها وصفا لدقائق الكون مثل : "سبع سموات طباقا" ، و التعبير عن القمر بكونه نورا ، و عن الشمس بكونها سراجا و ليس يشك أحد في أن سورة نوح كانت ذات نمط جديد ، لم نلفه فيما سبق من سور³⁷¹ . و تأتي سورة المؤمنون هي الأخرى متضمنة أحداث القصة و بدايتها كانت : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ³⁷² ، و يجيبه

³⁶⁶ السورة نفسها ، من الآية : 5 إلى الآية : 9

³⁶⁷ السورة نفسها ، الآيات : 10، 11، 12

³⁶⁸ ينظر : الرمحشري "الكشاف" ، ج : 6 ، ص : 160

³⁶⁹ سورة نوح ، الآيتان : 15 ، 16

³⁷⁰ السورة نفسها ، الآيتان : 21، 22

³⁷¹ ينظر : فضل حسن عباس "القصص القرآني إيجاز و تفحاته" ، ص : 80 ، و عفيف عبد الفتاح طيارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم" ،

ص : 78

³⁷² سورة المؤمنون ، الآية : 23

أشراف قومه المعاندين و هم يحادثون بعضهم البعض: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِنَّ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾³⁷³.

رغم كل ما جاءهم به نوح-عليه السلام- من بينات إلا أنهم لا زالوا على عنادهم ، و يضيق صدر نوح-عليه السلام- فيلجأ في بارئه ينجيه معلنا تكذيب قومه له، فيوحي الله له بصنع السفينة التي ستجري برعاية الله و حفظه وسط الطوفان الهائل ، و ترسو في النهاية إلى برّ الأمان بما تحمله ثمن هدى الله قلوبهم للإيمان و حادوا عن الشرك، فأنجاهم الله في الدنيا و لهم في الآخرة مقام كريم .

و تصل سورة العنكبوت قبل أن يغلق الباب لأنها آخر المدعوين لهذا الحدث العظيم، و لكنها مع ذلك أتت بهديّة مميزة و هي بيان المدة التي مكثها نوح - عليه السلام - في قومه و هي : ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ﴾³⁷⁴.

و الملاحظ على قصتي آدم و نوح-عليهما السلام- أنه مثلما تحدّثت سورة الكهف - و هي آخر ما نزل في العهد المكي متضمنا قصّة آدم -عليه السلام- - بلقطة موجزة مجملّة ذات فائدة بيّنة ، كذلك وجدنا سورة العنكبوت و هي آخر متحدّثة عن قصّة نوح - عليه السلام - أنها تضمّنت إلى جانب روح الإيجاز سرّ الإعجاز، كما نجد أنّ قصّة نوح-عليه السلام- لم ترد في السور المدنيّة على غرار قصّة آدم التي وردت في سورة البقرة ذلك أنّ الحديث عن آدم-عليه السلام- إنّما هو حديث عن خصائص الإنسان، فأدم-عليه السلام- هو أب البشر و وجوده لا يختصّ بمكان دون آخر - لأنه الأصل- هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى فإنّ قصّة نوح-عليه السلام- ناسب ذكرها العهد المكي دون سواه لما حوته من شبهات و افتراءات هي ميزة للعهد المكي³⁷⁵.

³⁷³ السورة نفسها ، الآيتان : 24.25

³⁷⁴ سورة العنكبوت ، الآية : 14

³⁷⁵ ينظر: فضل حسن عباس "القصص القرآني إجماله و تفصّلاته" ، ص: 83، 84، 85

و إذا رحنا نتبع السور التي وردت فيها قصّة نوح-عليه السلام- واحدة واحدة نجد أنّ كل واحدة منها اختصّت بما يتناسب و موضوعها.

فسورة القمر جاءت تتحدّث عن أولئك المكذّبين الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليهم فناسب ما ورد من قصّة نوح لموضوعها ، و لعلّ الدليل الواضح على ذلك هو تلك الفاءات المتعاقبة التي نجدّها في القصّة في قوله تبارك و تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا بِعِدَتِنَا ﴾ ﴿ فَدَمَرْنَا رَبَّهُ ﴾ ﴿ فَانْتَصَرَ ﴾ ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ ﴿ فَالتَفَى الْمَاءُ ﴾³⁷⁶.

و الملاحظ أنّ المدّة بين المقدمات و نتائجها كانت قصيرة جدّاً مناسبة لموضوع السورة، و التي بنيت على حقيقة ثابتة و هي قوله عزّ و جلّ : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذَارِ ﴾³⁷⁷.
أمّا سورة الأعراف و هي التي تحدّثت عن مبادئ العقيدة ، و ذكرت في ثناياها قصّة آدم-عليه السلام- مذكّره أبناءه بالنعم التي منها الله عليهم، كما أوردت قصّة نوح-عليه السلام- لأنّ موضوعها يتناسب مع ما تضمّنته السورة من سرد نعم الله على عباده و أنّ عليهم أن يخلصوا له العبادة ، و يكثرُوا له الشكر و أن يقدّروه حقّ قدره العالي ، و لا أدلّ على ذلك من الحوار الذي جرى بين نوح و قومه ، حيث حاول إقناعهم بأنّهم جاهلين بواقع الأمر ، و أنّ غرورهم بأموالهم و جاههم لن يغني عنهم من الله شيئاً ، و أنّه إنّما يهديهم لا لينال مالا و جاهاً و إنّما لينال رضا الله، و سورة الأعراف في جملتها تقوم على التذكير بآلاء الله على عباده كما أسلفنا الذكر³⁷⁸ فكلّ نفس ستحزى بما كسبت يوم تلقى بارئها ، إن عملت مثقال ذرّة خيراً تره ، و إن عملت مثقال ذرّة شراً تره كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم .

أمّا سورة الشعراء فقد ناسب موضوعها هي الأخرى ، ذكر قصّة نوح - عليه السلام- فقد جمعت السورة أعظم ما للشعر من خصائص تحرّك الوجدانات ، و تصل إلى كوامن القلوب ، و لله المثل الأعلى و الذي يقرأ ما ورد في هذه السورة الكريمة يجد نفسه أمام روضة مليئة بالأزهار الجميلة الطيبة الرائحة مهما قطف منها إلّا أنّه يرغب دوماً في المزيد .

³⁷⁶ سورة القمر ، الآيات : 9 ، 10 ، 11 ، 12

³⁷⁷ السورة نفسها ، الآية : 16

³⁷⁸ ينظر : عفيف عبد الفتاح طيارة " مع الأنبياء في القرآن الكريم " ، ص : 63، 64

أما سورة يونس فموضوعها إصرار الكافرين على ما هم عليه من ظلم و طغيان ، و تكذيبهم المرسلين ، و الذي يدق النظر في آيات السورة يجد أنها بنيت على هذا الموضوع ، و قد تناسب معه موضوع قصّة نوح -عليه السلام- تناسباً كاملاً يتبين لنا ذلك في قوله تعالى :

﴿وَأَنذَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ حُمْقًا ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِي﴾³⁷⁹

فأما سورة هود فلعلّها الوحيدة التي أسهبت الحديث عن قصّة نوح -عليه السلام- ، فقد اشتدت مواقف كثيرة على سيدنا نوح - عليه السلام - كالشبهات التي جابهه بها قومه ، ثم إخبار الله إياه من أنّ قومه لن يؤمنوا له ، ثم سحريتهم منهم ، ثم ندائه لابنه و قد كان من المغرقين ، و عتاب الله - سبحانه و تعالى - له على هذا العمل الغير صالح و هذا كله يتناسب مع ما ورد في السورة من شذائد .

و أما سورة الصافات فقد اختصّ حديثها عن الطاعة و جزاء من عمل بها ، و لما كان سيدنا نوح من الطائعين فقد استجاب له ربه حين ناداه : ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾³⁸⁰

و أما سورة نوح فلم يرد فيها ذكر غيره فحتى الآيات التي نسب فيها القول لقومه :

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾³⁸¹ جاءت محكية على لسان نوح -عليه السلام- ، فهي لم تأت مجردة عن قوله و لتأملها إذن لتبين ذلك جيّداً : ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ مَعْصُونِي وَاتَّبَعُوا مِن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾³⁸²

و السورة كلّها محكية على لسانه -عليه الصلاة و السلام- و لنبدأها من أولها : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾³⁸³ ثم قال : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾³⁸⁴ ﴿فَقُلْتُ

³⁷⁹ سورة يونس ، الآية : 71

³⁸⁰ سورة الصافات ، الآية : 75

³⁸¹ سورة نوح ، الآية : 23

³⁸² سورة نوح ، الآيات : 21 ، 22 ، 23

³⁸³ السورة نفسها ، الآية : 2

³⁸⁴ السورة نفسها ، الآية : 5

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴿٣٨٥﴾ ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾ ﴿٣٨٧﴾

فسورة نوح كما نرى إذن هي حديث له وحده .

أما سورة المؤمنون وهي السورة ما قبل الأخيرة التي ورد فيها ذكر لقصة نوح - عليه السلام - فقد تحدّثت عن صفات المؤمنين ، و ما يميّزهم منها عن غيرهم ، و التي استحقّوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنّات الخلد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ³⁸⁸

و قصة نوح-عليه السلام- في هذه السورة جاءت مبنية على ما يبعد الإنسان عن الإيمان و المتمثل في الإتياع ، و الرضا بالإهانة و الذل.

و أما سورة العنكبوت فإنها جاءت مبرزة أسس الدعوة و مقوماتها بإشارات موجزة مفيدة : ﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ³⁸⁹ ، و قد جاءت قصة نوح-عليه السلام- تتناسب مع موضوع هذه السورة لما فيها من اكتشاف الدعوة و الدعاة من شدائد و محن ³⁹⁰.

و من خلال استعراضنا للسور التي تحدّثت عن قصة نوح -عليه السلام- نجد أنّ موضوعها يتسق مع موضوع القصة لما اشتملت عليه من قضايا التوحيد و العقيدة، فقصة نوح "طرحت جملة

³⁸⁵ السورة نفسها ، الآية : 10

³⁸⁶ السورة نفسها : الآية : 21

³⁸⁷ السورة نفسها ، الآية : 26

³⁸⁸ سورة المؤمنون ، من الآية : 1 إلى الآية : 11

³⁸⁹ سورة العنكبوت ، الآية : 1 ، 2

³⁹⁰ ينظر : حسن فضل عباس " القصص القرآني إيجازة و تفحاته " ، ص: 84 ، 85 ، 86

من الأفكار عبر صياغة فنية ممتعة ، تتصل بعمليات التحدي و نتائجه و المصائر التي تغلف المؤمنين و الكافرين³⁹¹ .

هذا عن موضوع قصّة نوح-عليه السلام- و مناسبتة لمواضيع السور التي ورد فيها ، أمّا ما ورد فيها من تكرار الألفاظ و العبارات فذلك ما سنعرض له الآن :

جاء في سورة المؤمنون و سورة هود قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ³⁹²﴾ و جاء في سورة الأعراف : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ³⁹³﴾ ، فأنت تلاحظ ورود الواو في آيتي المؤمنين و هود و انعدامها في آية الأعراف ، ففي هاتيه الأخيرة لم يتقدّم ذكر رسول حتّى يعطف عليه إرسال نوح - عليه السلام- ، أمّا في سورة هود فقد تقدّم ذكر الرّسل و ما لاقوه من تكذيب و ظلم و اضطهاد، و في سورة المؤمنون ذكر سيّدنا نوح - عليه السلام- ضمنا نستشف ذلك من خلال قوله تعالى : ﴿وَعَلَيْنَا وَمَعَالَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ³⁹⁴﴾ ، فهو الذي ارتبط ذكره بالفلك، لأنّه أوّل من أوحى إليه بصنع الفلك : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا³⁹⁵﴾ .

و جاء في سورة نوح-عليه السلام- قوله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ³⁹⁶﴾ ، و قد جاءت بالحرف الدّال على التّوكيد لأنّها فاتحة السورة و بدايتها معا ، هناك سور أخرى في القرآن الكريم وردت مبتدئة بهذا الحرف كسورة الفتح في قوله تبارك و تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا³⁹⁷﴾ ، و سورة الكوثر في قوله عزّ و جلّ : ﴿إِنَّا أَنْطَقَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ³⁹⁸﴾ ، و سورة القدر في قوله عزّ و جلّ أيضا : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ³⁹⁹﴾ .

و حرف التّوكيد جاء في سورة نوح-عليه السلام- - و هي بيت القصيد ههنا - تسليّة لقلب الرّسول صلّى الله عليه و سلّم ، و تبشير المؤمنين بإرسال نبيّ لهم منهم يبلغهم رسالات ربّه

³⁹¹ محمود البستاني "دراسات فنية في قصص القرآن" ، ص: 184 .

³⁹² سورة المؤمنون ، الآية : 23 ، هود ، الآية : 25 .

³⁹³ سورة الأعراف ، الآية : 59 .

³⁹⁴ سورة المؤمنون ، الآية : 22 .

³⁹⁵ سورة هود ، الآية : 37 ، ينظر: الكرمانلي "البرهان في متشابه القرآن" ، ص: 187 .

³⁹⁶ سورة نوح ، الآية : 1 .

³⁹⁷ سورة الفتح ، الآية : 1 .

³⁹⁸ سورة الكوثر ، الآية : 1 .

³⁹⁹ سورة القدر ، الآية : 1 .

و ينذرهم من عذاب يوم عظيم، يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب خاشع، و عمل نافع .

أما سورة المؤمنون فقد تقدّم فيها الحديث عن قصّة سيّدنا آدم - عليه السلام - يقول جلّ شأنه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾⁴⁰⁰، ثمّ قال : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾⁴⁰¹، ثمّ أتبعها بعد ذلك ذكر قصّة سيّدنا نوح - عليه السلام - حيث قال سبحانه و تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾⁴⁰²، فكان قصّة نوح - عليه السلام - قد عطف على قصّة آدم - عليه السلام - .

و أما سورة هود فقد بدأت بذكر الكتاب المجيد ، المحكم الآيات : ﴿كِتَابٌ أُخْصِمَتْ آيَاتُهُ﴾⁴⁰³، ثمّ قال تبارك و تعالى بعد ذلك ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾⁴⁰⁴، ثمّ قال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾⁴⁰⁵، و قال أيضا : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾⁴⁰⁶.

قد ذكرنا آنفا أنّ موضوع قصّة نوح - عليه السلام - ناسب ما اشتملت عليه سورة هود من تقرير أصول الدّين و البرهنة على وجود الله و وحدانيّته و معارضة الشبه التي دارت حول الوحي و الرسالة و نبوّة محمّد صلى الله عليه و سلّم فلا ضرر إذن أن تأتي قصّة نوح - عليه السلام - معطوفة على ذلك كلّهُ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾⁴⁰⁷.

و إذا نظرنا إلى سورة الأعراف فإنّها تختلف عن سورتي المؤمنين و هود، إذ لم يذكر فيها كلام أمكن أن تعطف عليه قصّة نوح - عليه السلام - ، لقد ذكرت في أوّلها قصّة آدم - عليه

⁴⁰⁰ سورة المؤمنون ، الآية : 12

⁴⁰¹ سورة المؤمنون ، الآية : 17

⁴⁰² السورة نفسها ، الآية : 23

⁴⁰³ سورة هود ، الآية : 1

⁴⁰⁴ السورة نفسها ، الآية : 12

⁴⁰⁵ السورة نفسها ، الآية : 13

⁴⁰⁶ السورة نفسها ، الآية : 17

⁴⁰⁷ سورة هود ، الآية : 25

السلام- و لكن بجيئ القصة بدون الواو : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ دليل على أنه كلام جديد لا معطوف على ما قبله.

و من اختلاف التعبير عن المعنى الواحد في قصة نوح ما ورد في سورتي المؤمنين و هود في قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾⁴⁰⁸.

و ما جاء في سورة الأعراف : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾⁴⁰⁹ ، فقد قاله هنا بلا فاء كونه خرج مخرج الإبتداء، و إن تضمن الجواب، أمّا في سورتي هود و المؤمنون فقد قاله بالفاء لوقوعه جوابا لما قبله، و قد يتساءل متساءل لم جاء قولهم في سورتي المؤمنين و هود على سبيل التعقيب، و في سورة الأعراف على سبيل الاستئناف؟ لا بدّ أن نقرأ الآيات كاملة؛ ففي سورة هود ورد قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا﴾⁴¹⁰.

و في سورة المؤمنون ورد قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾⁴¹¹.

أمّا سورة الأعراف فجاء فيها قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾⁴¹².

فأنت ترى أنّ ما قالوه في سورتي هود و المؤمنين، أمر لا يستنكره النبيّ فهو بشر مثلهم، و لكن أوحى إليه، أمّا ما قالوه في سورة الأعراف فهو أمر مستنكر، و من هنا ناسب ذكر الفاء العاطفة في سورتي هود و المؤمنين لأنّ ما قالوه حقيقة صحّ أن يعقّب بها على كلام نوح - عليه السلام - أمّا قولهم في سورة الأعراف فناشئ عن جهل وقلة عقل و إيمان، لذلك لم يلق أن يعقّب به على كلام سيّدنا نوح - عليه السلام -، و إنّما لاق ككلام مستأنف⁴¹³.

⁴⁰⁸ سورة المؤمنون ، الآية : 24 ، و سورة هود ، الآية : 27

⁴⁰⁹ سورة الأعراف ، الآية : 60

⁴¹⁰ سورة هود ، الآية : 27

⁴¹¹ سورة المؤمنون ، الآية : 24

⁴¹² سورة الأعراف ، الآية : 60

⁴¹³ ينظر: أبو يحيى زكريا الأنصاري "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن"- تحقيق الشيخ : محمد علي الصابوني - الجزائر - ط: 2 1408 هـ،

1988 م - ص: 195، 196 و ينظر كذلك : الكرمانلي "البرهان في متشابه القرآن - ص: 189

آيات أخرى من قصة نوح-عليه السلام- ورد في بعضها عطف بالفاء ، و في البعض الآخر لم ترد الفاء، ففي سورتي الأعراف و المؤمنين نجد قوله عزّ و جلّ : ﴿فَقَالَ يَأْقَوْمِ اتَّخِذُوا اللَّهَ﴾⁴¹⁴، أمّا في سورة نوح: ﴿قَالَ يَأْقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾⁴¹⁵، ففي السورتين السابقتين ناسب العطف بالفاء التّعقيبيّة على الإرسال أمّا سورة نوح فناسب فيها الإستئناف كأنّه قيل : ماذا فعل نوح؟

فكان الجواب : ﴿قَالَ يَأْقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾⁴¹⁶.

و تجدر الإشارة ههنا إلى أنّ نوحا - عليه السلام - و هو الأب الثاني للبشر، بعد سيدنا آدم - عليه السلام- هو أطول الأنبياء عمرا، و أكثرهم بلاء و صبرا فقد مكث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاما، و هو يدعوهم إلى عبادة الله و لكنّهم صدّوا عن سبيل الله مكذّبين معاندين حتّى جاء أمر الله، و أرسل عليهم الطوفان ، فأبى نوحا و من معه من المؤمنين، و أغرق الآخرين، و هو مشهد رائع صوّره القرآن تصويرا تعجز أمامه بلاغة البشر جميعهم مهما كثر تبخّرهم في علوم المعرفة و البيان.

ج- قصة هود - عليه السلام - :

نلتقي الآن بقصة هود -عليه السلام- التي أشير إليها هي الأخرى في بعض السور، و فصل الحديث عنها في أخرى.

فمن السور التي أشارت إشارات موجزة لقوم هود نجد سورة النجم : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ فَفَمَا آتَيْتُ﴾⁴¹⁷ و سورة (ق): ﴿وَمَآءٌ وَفِرْعَوْنٌ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾⁴¹⁸، و سورة الفرقان :

و حسن فضل عباس " القصص القرآني إبحاؤه و نفحاته " -ص: 123، 124

⁴¹⁴ سورة الأعراف، الآية 59 و سورة المؤمنون ، الآية : 23

⁴¹⁵ سورة نوح، الأيد: 2

⁴¹⁶ سورة نوح، الآية نفسها، ينظر حسن فضل عباس " القصص القرآني نبي إبحاؤه و نفحاته " - ص: 124

⁴¹⁷ سورة النجم، الآيتان : 50، 51

⁴¹⁸ سورة (ق)، الآية : 13

﴿وَمَعَادًا وَثُمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقَدَرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾⁴¹⁹، وكذلك سورة العنكبوت: ﴿وَمَعَادًا وَثُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاجِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾⁴²⁰.

و على الرغم من تكرار الحديث عن عاد في هاته الصور الأربعة إلا أن لكل منها فائدة لا نجدها في الأخرى، و الأمر واضح لا يحتاج إلى برهان ، و الذي نريد تتبعه هو السور التي تحدت بإسهاب عن قصّة هود، و أغلب الظن أنها كلّها مكّية مثلما وجدنا في قصّة نوح-عليه السلام- ونبدا بسورة الفجر باعتبارها أوّل من أشار إلى قصّة هود-عليه السلام- حيث جاء فيها قوله تبارك و تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَوْ يُخْلَقُ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾⁴²¹.

و سورة الفجر - كما هو معروف - ورد فيها ذكر قصص بعض الأمم المكذبة للرسل كقوم عاد، و ثمود، و قوم فرعون و بيان العذاب الذي لقوه نتيجة طغيانهم، فقد ابتلى الله عباده في هاته الحياة بالخير والشر، بالغنّى و الفقر، كما تحدت السورة عن أهوال الآخرة، و أنّ الناس سيلقون جزاءهم كلّ بحسب عمله في هاته الدّنيا، فمن عمل خيرا جوزي بمثله و من عمل شرا فبئس المصير، فأيات قصّة هود ناسبت موضوع السورة حيث أدت الغرض و بلغت الغاية المنشودة⁴²².

تليها سورة القمر حيث نلفي قوله عزّ و جلّ: ﴿كَذَبْتَ مَعَادَ فَعَيْفَ كَانَ مَعَادِي وَنُذِرَ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُخِجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ مَعَادِي وَنُذِرَ﴾⁴²³، حيث نخبرنا عن قوم هود-عليه السلام- الذين كذبوه مثلما كذب نوح -عليه السلام- من قبل فأرسل الله عليهم ريحا شديدة البرودة في يوم نحس ذلك أنه يوم يتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي. فقد كانت تأتيهم هاته الرّيح فترفعهم

⁴¹⁹ سورة الفرقان، الآية : 38

⁴²⁰ سورة العنكبوت، الآية : 38

⁴²¹ سورة الفجر، الآيات : 6، 7، 8

⁴²² ينظر حسن فضل عباس " القصص القرآني إبحاؤه و نفحاته "، ص: 93

⁴²³ سورة القمر، من الآية : 18 إلى الآية : 21

حتى يغيبوا عن الأنظار، ثم يتساقطون على الأرض بلا حراك، و نعتهم بأعجاز النخل الخاوية
كون أن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقيهم جثثا بلا رؤوس⁴²⁴.

و الملاحظ أن سورة القمر هي الأخرى لم يرد فيها ذكر هود -عليه السلام- وإنما الذي
جاء فيها هو ذكر شأن من شؤون عاد مثلما وجدنا ذلك في سورة الفجر، و إذا كانت هذه
الأخيرة قد اختصت بالتساءل عن كيفية إهلاك قوم عاد، فإن سورة القمر جاءت تخبرنا عن تلك
الكيفية، و من هنا فإن كل قصة تتناسب مع موضوع السورة التي ورد لها فيها ذكر.

و لعل أول سورة ذكر فيها هود - عليه السلام- هي سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِي
أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَأْتِيهِمْ الْغَيْبُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَادِبِينَ قَالَ يَأْتِيهِمْ
لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ أَوْحَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي
أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا
كَانُوا مُؤْمِنِينَ⁴²⁵ فكما أرسل الله نوحا إلى قومه، أرسل كذلك هودا إلى قومه عاد الذين
كانوا من أشد الأمم تكديبا للحق فدعاهم هود - عليه السلام- إلى عبادة الله سبحانه و تعالى
و طاعته، و لكن أشرف قومه و سادتهم رأوه ضالافيمَا يدعوهم إليه من التخلي عن عبادة
الأصنام، إلى عبادة الله سبحانه و تعالى: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ⁴²⁶ ۞

⁴²⁴ ينظر ابن كثير " تفسير القرآن العظيم" - دارو مكتبة الهلال- بيروت. لبنان- ط: 1 - 1410 هـ، 1990م- المجلد السادس -ص: 43

و الزمخشري "الكشاف"، ج: 6، ص: 57

⁴²⁵ سورة الأعراف، من الآية: 65 إلى الآية: 72:

⁴²⁶ السورة نفسها، الآية: 70

و على الرغم ممّ أتاها به سيدنا هود - عليه السلام - من حجج و براهين و ما دعاهم إليه من عبادة الله الواحد الأحد، فإنهم يصرون على ما هم عليه ممّا كان يعبد آباءهم من أصنام لا تضرهم و لا تنفعهم فيقع عليهم رجس الله و غضبه فيقطع دابرهم و ينجي هودا و الذين معه من المؤمنين⁴²⁷ ، و هاته الامور التي وردت ههنا في سورة الأعراف لم نجد لها ذكرا في سورتي الفجر و القمر، ذلك أنّ سورة الاعراف هي أوّل من تعرّضت لقصة سيّدنا هود - عليه السلام - مع قومه فكان لا بدّ أن تذكر لنا شيئا ممّا لاقاه هود من شدائد لأجل إبلاغ دعوته و بيان رسالته .

ثمّ جاءت سورة الشعراء ، و قد تعرّضت للأغراض ذاتها التي تناولتها غيرها من السور المكيّة ، من الإيمان بالله، و حقيقة البعث و التذكير و الإنذار ، و قصص الأنبياء و أخبارهم كلّ ذلك بأسلوب رائع تليّن له القلوب القاسية ، و تذوّب أمامه المشاعر و الأحاسيس الرقيقة و اقرأ معي هاته الآيات - هداني الله و إياك - و ستجدها تعبّر عمّا لا يستطيع قلم بشر خطّه و التعبير عنه، مهما صال في علوم البلاغة و جال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَنْبُونَ كُلَّ رِيحٍ أَيُّهَا تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَنُحُورٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾⁴²⁸ ، و أمام هاته الآيات الناطقة بالحق و الداعيّة للتقوى يقف أولئك المعاندون غير مباليين بما يوعظون به : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾⁴²⁹ .

⁴²⁷ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " المجلد الثاني ، ص: 547 . 548 ، و الزمخشري " الكشاف " ، ج 2، ص: 113 ، 114

⁴²⁸ سورة الشعراء، من الآية 123 إلى الآية : 135

⁴²⁹ السورة نفسها، من الآية : 136 إلى الآية : 140

و سورة الشعراء كما نرى جاءت بمجديد عن قصّة هود -عليه السلام- مع قومه عاد، وهذا الجديد يتسق مع موضوع السورة و ما تناولته من التذكير بنعم الله التي لا تعدّ و لا تحصى، و الإنذار من عذاب الله الأليم⁴³⁰

ثم جاءت سورة هود - عليه السلام - حيث لاءمت آياتها التي تحدثت عن قصّة هود شخصيته و موضوع السورة معا: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَأْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَأْقَوْمِ لِمَ أَسَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فَبَرِّئُوا مِنِّي أَمْ لَأَسْأَلُكُمْ أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ وَيَأْقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اخْرُكْ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي كَيْدُوكُمْ ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ مَا مِنْ حَابَةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ نَحْنُ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نَحْنُ هُودًا مِنْ حَذَابِ غُلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَمَحْصُوا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٤٣١، فقول هود - عليه السلام - في بداية هذه الآيات هو غير قوله في سورتي الاعراف و الشعراء ، اللهم

و في سورة هود أخبرنا الله سبحانه و تعالى عن إرسال هود لقومه ، و أمره لهم بعبادة الله وحده، و أنّ نصحه إنما هو لوجه الله فهو لا يريد منهم جزاء و لا شكورا ، ثمّ أمرهم بأن يستغفروا ربّهم و يتوبوا إليه لأنّه غفور رحيم سيفرّج عنهم كربهم ، و يرزقهم من حيث لا يعلمون، ولكن قومه يعنون في عنادهم فيحييونه : ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ

430 ينظر: حسن فضل عباس "القصص القرآني إيجازاً و نفحاته"، ص: 95 . 96

431 سُورَةُ هُودٍ ، مِنَ الْآيَةِ : 50 إِلَى الْآيَةِ : 59

⁴³² سورة الأعراف ، الآية : 65 ، سورة هود ، الآية : 61

بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اخْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁴³³

و الملاحظ أنّ جواب قومه أيضا يختلف عمّا جاء في سورة الأعراف ، و سورة الشعراء ، بل إنّ عنادهم قد على درجات ، ففي سورة الأعراف قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ⁴³⁴ ﴾ ، و في سورة الشعراء أجابوه بقولهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاهِطِينَ⁴³⁵ ﴾ ؛ أمّا في سورة هود فقد نفوا مطلقا ترك آلهتهم ، و إيمانهم لأنّه على حدّ قولهم لم يأتهم ببينة و لم يتوقف كفرهم و عنادهم عند هذا الحدّ ، و لكن قالوا في سورة الأعراف : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ⁴³⁶ ﴾ و لعلّ هذا يأتين في الجمل الثلاث التي بنيت على قولهم : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ فإنّهم في سورة هود اتّهموه بأنّ السوء قد أصابه من آلهتهم : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اخْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ⁴³⁷ ﴾ و يصبر زعماء قبيلة عاد على عبادتهم لأوثانهم مخاطبين هودا : إنّك يهود لم تأتنا ببراهين على صحّة ما تدعونا إليه و ما نحن بتاركي عبادة آلهتنا و ما نحن لك بمصدّقين و إنّنا نرى أنّ بعض آلهتنا قد أصابتك بجنون و مسّتك بشرّ بسبب نهيك عن عبادتنا ، فصرت تهذي بكلام باطل ، و ليس هذا عجبا من قوم عاد و هم أعلام الكفر ، و أوتاد الشرك ، و لكنّ هودا - عليه السلام - يشهد الله على براءته و هو خير الشاهدين : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁴³⁸ ﴾ .

و بعد أن جحد قوم هود - عليه السلام - رسالة نبيّهم و استمروا على كفرهم و عنادهم ، نجّى الله هودا و الذين آمنوا معه و أهلك القوم الكافرين : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَهْرَؤَنَا وَنَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ⁴³⁹ ﴾ ، ذلك هو ما جاء من نبيا

⁴³³ سورة هود ، الآيتان : 53 ، 54

⁴³⁴ سورة الأعراف ، الآية : 70

⁴³⁵ سورة الشعراء ، الآية : 136

⁴³⁶ سورة الأعراف ، الآية : 66

⁴³⁷ سورة هود ، الآية : 54

⁴³⁸ سورة هود ، الآية : 54

⁴³⁹ السورة نفسها ، الآية : 58 ، ينظر ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " ، المجلد الثالث ، ص : 246

عاد في سورة هود - عليه السلام - و قد تضمّن جديدا في مضمونه و سياقه و أسلوبه ، من خلال محاوره عاد لقومه و دعائهم إلى عبادة الله و ترك عبادة الأوثان إتقاء لعذاب يوم القيامة⁴⁴⁰ .
 أما سورة فصلت و التي بيّن الله تعالى فيها الحجج و البراهين على وحدانيته و قدرته و قدّم الدلائل الباهرة على وجوده و عظمته ، و خلقه لهذا الكون الهائل الذي ينمّ عن جلال و عظمة الخالق⁴⁴¹ .

و قد جاءت قصّة عاد ملائمة لموضوع السورة : ﴿فَأَمَّا حَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾⁴⁴² ،
 فحديث هذه السورة كما ترى عن قوم عاد الذين غرّتهم قوّة أجسامهم، و شدّة تركيبتهم و نسوا أنّ الذي منحهم هذه التركيبة العظيمة هو أعظم و أقوى و أقدر، فأرسل عليهم ريحا قويّة شديدة البرودة في أيام متتابعات ، و إذا كان هذا العذاب قد نالوه في الدنيا فإنّ عذاب الأخرى أشدّ و أقسى لو كانوا يعلمون.⁴⁴³

و نحن نرى أنّ ما جاء في سورة فصلت من إشارات لم يرد في السور السابقة التي تحدّثت عن قصّة سيدنا هود - عليه السلام -.

ثمّ جاءت سورة الأحقاف تحمل في طياتها أمورا جديدة لم تذكر من قبل ، و لنقرأ الآيات الكريمة التي وردت فيها قصّة هود - عليه السلام - لنكتشف ذلك معا يقول عزّ و جلّ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ إِدَا أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّجُوزُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ مِنَ إِلَهَتِنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا

⁴⁴⁰ ينظر: حسن فضل عباس " القصص القرآني إيجاز و تفحاته " ، ص: 98

⁴⁴¹ ينظر: محمد على الصابوني " إيجاز البيان في سور القرآن " ، ص: 168

⁴⁴² سورة فصلت ، الآيتان : 15 ، 16

⁴⁴³ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " ، المجلد الخامس ، ص: 221 ، 222

مَارِضٌ مُّطِرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاجِدُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْعُدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁴⁴⁴ و لعلّ أوّل ما اختصّت به هذه الآيات - دون غيرها ممّا ذكرنا سابقا - هي

هاته اللّفة الّتي تحدّثنا عن مساكن عاد : ﴿وَإِذْ نَحْنُ أَخَا مَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾⁴⁴⁵ ، و كذلك السحاب الّذي عرض في أفق السماء ، وفرحوا به ظنا منهم أنّه يحمل الغيث لأراضيهم العطشى ، و لكنّه كان ريحا عاتية ، أتت على كلّ شيء مرّت عليه من الناس و البهائم و الأموال فهذا السحاب الّذي استقبلوه فرحين ظانين أنّه يحمل الحياة و الماء، إنّما كان في واقع الأمر يحمل الموت و الفناء بطريقة تذهل العقول الثاقبة ، و تهزّ القلوب الثّابتة⁴⁴⁶.

و استنادا لما حوته سورة الأحقاف من قضايا الإيمان بوحداية الله ، و بالأنبياء المبعوثين، و جزاء من آمن بهم أو كفر ، فإنّ ما جاء فيها من حديث عن قصّة سيّدنا هود- عليه السلام - قد لاءم موضوعها و جرى على نسقه .

أمّا سورة الذاريات فقد أوردت هي الأخرى شيئا من خبر عاد في هاتين الآيتين : ﴿وَفِي مَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْهُ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرِيمِ﴾⁴⁴⁷ ، و هذه الرّيح الّتي لا تنتج خيرا من إنشاء مطر ، أو إلحاق شجر ، و إنّما تفتّت و تبلي كلّ ما تأتي عليه⁴⁴⁸ لم تردّ بهاته الصيغة فيما ذكرنا من قبل من سور تحدّث عن قصّة هود - عليه السلام - مع قومه.

أمّا سورة المؤمنون ؛ و إن لم يصرّح فيها بذكر هود- عليه السلام- و لا ذكر قومه عاد ، فإنّها لما أعقبت قصّة نوح- عليه السلام- علمنا أنّ الحديث عنها ، لأنّ القوم الذين خلفوا قوم

⁴⁴⁴ سورة الأحقاف ، من الآية : 21 إلى الآية 26 -

⁴⁴⁵ السورة نفسها ، الآية : 21

⁴⁴⁶ ينظر: الزمخشري "الكشاف" ج:5، ص: 256، و محمد علي الصابوني "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن" هامش ص: 522.

⁴⁴⁷ سورة الذاريات ، الآيتان : 41، 42

⁴⁴⁸ ينظر: الزمخشري "الكشاف" ج:6، ص: 37 ، و ابن كثير "تفسير القرآن العظيم" ، المجلد الخامس ، ص: 425

نوح و استكبروا في الأرض و طغوا فيها هم قوم عاد، فلما انتهى من الحديث عن نوح و قومه إنفتحت إلى خلفائهم - قوم عاد- و محور هذه الآيات هو قضية البعث التي تشغل المؤمنون دون سواهم، و هذا ما جعل قصة هود - عليه السلام- تتناسب مع موضوع السورة ، و قد منعهم ترفهم من أن يؤمنوا : ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾⁴⁴⁹ ، و هذا الترف يصل بأصحابه إلى ما لا تستعذبه نفس و لا يستهويه خاطر: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾⁴⁵⁰ .

ولما دعاهم نبيهم هودا - عليه السلام - ليؤمنوا بالله ، و لا يشركوا به شيئا كذبوه كونه بشرا مثلهم لا ينبغي أن يطاع، فلا أخرى بعد هاته الدنيا التي يحيونها فما هم بمبعوثين، و ما نبيهم إلا آثم كذاب.

و أما سورة الحاقة و إن كانت قد ذكرت القصة ذكرا مجملا موجزا فإنه لا يخلو من فائدة، إضافة إلى أنه جاء ملائما لموضوعها، منسجما مع شخصيتها، فهي سورة الأهوال و الفجائع : ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا نَمَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ عَصْرٍ عَاقِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُخِجَازُ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾⁴⁵¹ ، و قد انفردت بذكر المدة التي سحرت فيها تلك الريح العاصفة على قوم هود⁴⁵² حيث تتابعت سبع ليال و ثمانية أيام، و انظر هداك الله في سور القرآن فإنك واجد فيها تناسقا ، فسورة العنكبوت و هي آخر سورة تحدثت عن قصة سيدنا نوح - عليه السلام - بينت المدة التي قضاها نوح مع قومه و هي ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم نلتقي بقصة هود - عليه السلام- لنجد أن آخر سورة تحدثت عنها، و هي سورة الحاقة - قد ذكرت المدة التي

⁴⁴⁹ سورة هود ، الآية : 116

⁴⁵⁰ سورة الإسراء، الآية : 16، ينظر فصل حسن عباس "القصص القرآني إيجازه و نبذاته" ، ص: 102

⁴⁵¹ سورة الحاقة ، من الآية : 1 إلى الآية : 8

⁴⁵² ينظر: فضل حسن عباس "القصص القرآني إيجازه و نبذاته" ، ص: 103، و عفيف عبد الفتاح طبارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم" ، ط: 5،

سلّطت فيها تلك الريح العاتية على عاد - قوم هود- و هي سبع ليال و ثمانية أيام ، فهلكوا جميعا و لم يبق منهم أحد.

تلكم هي قصّة سيّدنا هود -عليه السلام- مع قومه الذين جحدوا رسالته و أصرّوا على كفرهم و عنادهم، فنجّى الله نبيّه هودا و الذين آمنوا معه ، و أخذ الذين كفروا منهم عذابا غليظا ، و قد تكررت - كما رأينا - في كثير من السور المكية و إن كانت كلّها تصبّ في قالب واحد هو الدّعوة إلى الإيمان بالله، و توحيده ، و نشر العقيدة الصّحيحة، و هدم العقائد الفاسدة الّتي تمكّنت من نفوس قوم عاد، ثمّ بيان ما لحقهم من عذاب نتيحة طغيانهم و تكذيبهم .

د- قصّة صالح - عليه السلام -:

نغادر الآن قبيلة عاد لننزل قبيلة ثمود و قد تجاوزتا ذكرنا في جملة من السور، كما وردت إشارات في بعض السور عن قصّة عاد وجدناها كذلك عن قصّة ثمود، و لعلّ أوّل سورة وردت فيها الإشارة إلى ذلك هي سورة الفجر في قوله تبارك و تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ حَاطِ الْعِمَادِ الْبِئْسَ لَهُ خُلُقٌ مِّثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثُمُودَ الْأَظْمَرِ جَاءُوا الصَّخِرَ بِالْوَاحِدِ﴾⁴⁵³ أي الذين قطعوا صخر الجبال، و نحوا منه بيوتا لهم⁴⁵⁴، و هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على شدة قوتهم التي غرّتهم و جعلتهم يستكبرون في الأرض.

و بعد هاته الإشارة التي جاءت في سورة الفجر، وجدنا كذلك إشارات في كلّ من : سورة النجم : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثُمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾⁴⁵⁵ ، و سورة (ص) : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَكَانَ وَرَثَتُهُمْ دَاوُدَ الْأَوْتَادِ وَثُمُودَ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْحَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾⁴⁵⁶ ، و سورة الفرقان : ﴿وَكَانَ عَادًا وَثُمُودَ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَقَدُّونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾⁴⁵⁷ و سورة فصلت : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعِجْلَ فَمُلِئَ الْوَدْحَى فَاخْتَلَفْتُمْ صَاعِقَةَ الْعِجَالِ الْهُنَى فَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا

⁴⁵³ سورة الفجر، من الآية : 6 إلى الآية : 9

⁴⁵⁴ ينظر ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد السادس، ص: 417 و الزمخشري "الكشاف"، ج: 6، ص: 231

⁴⁵⁵ سورة النجم، الآية : 50 . 51

⁴⁵⁶ سورة ص، الآيتان : 12 . 13

⁴⁵⁷ سورة الفرقان، الآية : 38

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ⁴⁵⁸ و سورة الذاريات: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ⁴⁵⁹، و كذلك سورة الحاقة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ⁴⁶⁰ .

و هذه الإشارات على كثرتها و تنوعها، لا تخرج في مضامينها عن أن تبين ما لحق قوم ثمود من عقاب جرّاء تكذيبهم، و هناك ملاحظة مهمّة جدية بالذكر و هي اختصاص سورة الإسراء بذكر قوم ثمود دون عاد في قوله تبارك و تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا⁴⁶¹ .

فلقد كان قوم ثمود يعبدون الأصنام من دون الله إلى أن بعث الله فيهم نبيهم صالحا - عليه السلام- يدعوهم إلى عبادة الله، فأمنت به طائفة و كفرت أخرى، و مع أن الله أيد نبيه بالناقة المعجزة، التي أخرجها من صخرة صماء و الدالة على صدقه، إلا أن ثمودا كفروا بها و قتلوها فأنذرهم الله بعذاب شديد⁴⁶² .

كانت هذه السور التي أوجزت الحديث عن قصّة صالح -عليه السلام- أمّا السور التي فصلت الحديث عنها فنجد كلّ من سورة الشمس و القمر و الأعراف و الشعراء و النمل و هود و الحجر .

أمّا سورة الشمس فقد انفردت بالحديث عن قوم ثمود -دون قوم عاد- بشيء من التفصيل، و لعلّ ذلك يتناسب مع موضوع السورة ذاتها الذي هو النفس الإنسانية، و ما جلبت عليه من خير و هدى، أو شرّ و ضلال، و الآيات التي أشارت إلى قوم ثمود موضوعها الطغيان و ما يترتب عليه من نتائج وخيمة يقول تبارك و تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ

⁴⁵⁸ سورة فصلت، الآيتان: 17، 18

⁴⁵⁹ سورة الذاريات، الآيات: 43، 44، 45

⁴⁶⁰ سورة الحاقة، الآيتان: 4، 5

⁴⁶¹ سورة الإسراء، الآية: 59

⁴⁶² ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثالث، ص: 526

أَشْقَاهَا فَمَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَفَسَّوْهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا⁴⁶³ ففي هذه الآيات يخبرنا تبارك و تعالى عن ثمود الذين كذبوا بما جاءهم به رسولهم صالحا من البينات، بسبب ما كانوا عليه من البغي و الطغيان، فقد نهاهم عن أن يمسوا ناقة الله بسوء و لكنهم كذبوه، فأُنزل الله عليهم جميعا عقابه لأنهم بايعوا عاقرها و اشتركوا معه فدمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها⁴⁶⁴.

و أما سورة القمر فبعد أن ذكرت قوم هود -عليه السلام- و ما كانوا عليه من كفر و ضلال، انتقلت للحديث عن قوم صالح -عليه السلام- : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَوْلَقِي الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ سَيَعْلَمُونَ نَحْنَا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَمَقْنَهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّخْتَصِرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ مَخَاطِبِي وَنُذِرُ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ⁴⁶⁵ فقد كذبوه لأنه بشر مثلهم، و إن اتبعوه فهم إذن مضلون لأنه لو كان ملكا لوجبت طاعته، أما أن يكون واحدا منهم، و تتبعه أمة بأسرها فهذا لا يمكن أن يكون، فما هو إلا متكبر حمله بطره على ادعاء ذلك فتوعددهم ربهم يوم القيامة بأنهم من الخاسرين، كما أخبرهم بتلك الناقة العظيمة التي أخرجها لهم من صخرة صماء مثلما طلبوا من النبي صالحا -عليه السلام- إلا أن هاته المعجزة الباهرة لم تح ما في قلوبهم من كفر و طغيان فأبادهم الله و لم يبق منهم أحدا⁴⁶⁶ و الظاهر أن سورة القمر قد أضافت جديدا لما ذكر من قبل كونها قد فصلت الحديث -نوعا ما- عن قصة صالح عليه السلام إذ قورنت بما ذكرنا قبلها من سور.

⁴⁶³ سورة الشمس، من الآية : 11 إلى الآية : 15

⁴⁶⁴ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد السادس، ص: 431، 432

الزمخشري "الكشاف"، ج: 6، ص: 237

⁴⁶⁵ سورة القمر، من الآية : 23 إلى الآية : 32

⁴⁶⁶ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد السادس، ص: 43، 44، و الزمخشري "الكشاف"، ج: 6، ص: 57، 58

و أما سورة الأعراف و لعلها أول سورة يذكر فيها اسم النبي المبعوث لقوم ثمود - و هو سيدنا صالحا - عليه السلام - والذي راح يدعوهم إلى توحيد الله، ولكنهم لم يأنسوا بدعوته، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه فعلا رسول و وعدوه بأنه إن أخرج لهم ناقة عشراء تمخض من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ليومنن و ليتبعنّه، فتمخضت الصخرة تمخض التّوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء و برّاء كما سألوا ثم نتجت ولدا مثلها في العظم أمرهم أن لا يمسّوها بسوء، و جعل الله لها شربا في يوم معلوم، و جعل لهم شربا في يوم غيره، و توعدّهم بالعذاب إن هم اعتدوا عليها بسوء، و أكّد لهم بأنّ سلامتهم مقرونة بسلامتها، كما ذكرهم بما منّ عليهم من جعلهم خلفاء بعد قوم عاد، و بوأهم في هذه الأرض، يتخذون من سهولها قصورا، و ينحتون في الجبال بيوتا، و مع كلّ هاته النعم التي أنعمهم الله بها إلا أنّهم استكبروا في الأرض و كذبوا نبيّهم، و أمام هذا التّحدّي أخبرهم صالحا بأنّ عذاب الله سيقع عليهم بعد ثلاثة أيام فعقروا النّاقة، و عصوا بذلك أمر ربّهم فجاءتهم الصّيحة التي زلزلت لها الأرض، و اضطربوا لها و سقطوا هامدين لا حراك بهم، و خاطبهم صالحا و هم موتى: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحْسِنُونَ الْفَاعِلِينَ﴾⁴⁶⁷، و إذ كان تبارك و تعالى قد ذكر في كلّ من قصّة نوح، و قصّة هود، و قصّة شعيب، و قصّة موسى عليهم السلام ﴿رِسَالَاتٍ رَبِّي﴾⁴⁶⁸ إلا في قصّة صالح فإنّ فيها: ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾ على الواحدة: لأنّه سبحانه حكى عنهم بعد الإيمان بالله و التّقوى أشياء أمروا قومهم بها؛ إلا في قصّة صالح فإنّ فيها ذكر النّاقة فقط فصار كأنّه رسالة واحدة⁴⁶⁹.

هذا ما جاء في سورة الأعراف، و لعلّ جديدها يكمن في تلك المحاورّة بين أولئك الذين طغوا في الأرض و استكبروا، و أولئك الذين آمنوا بالحقّ لما جاءهم.

ثمّ جاءت سورة الشعراء تلك التي تمسّ المشاعر و الأحاسيس، و تنفذ بآياتها إلى داخل الوجدان فيسمعها حتّى الذي به صنم، و استمع لصالح - عليه السلام - و هو يحدث قومه لترى ذلك جليّا

⁴⁶⁷ سورة الأعراف، الآية: 79.

⁴⁶⁸ السورة نفسها، الآيات: 62، 68، 93، 144.

⁴⁶⁹ الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن "، ص: 190.

واضحاً: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنُحُلٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنُحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾⁴⁷⁰.

و نلمح في هذه الآيات الكريمة إقبال صالح -عليه السلام- على قومه يدعوهم إلى عبادة الله و طاعته فيما بلغهم به، و أنه إنما ينذرهم لوجه الله لا يريد منهم جزاء و لا شكورا، فهو يخشى عليهم نقم الله و يذكرهم بما أنعم الله عليهم من جنات و عيون، و نخل و زروع يجدون فيها قوتهم و يشغلون تحت ظلالها أوقاتهم، و رغم كل هاته الحقائق الثابتة التي وضعها أمامهم، و رغم كل هذا التذكير إلا أنهم رأوه مسحورا، فما هو إلا بشرا مثلهم، و إذا كان يود أن يصدقوه فليأتهم بمعجزة بأن يخرج لهم من صخرة معينة ناقة عشراء فدعى ربه و كان لهم ما أرادوا، و لكنهم نكثوا العهد الذي أبرموه مع سيدنا صالحا -عليه السلام- و عقروا الناقة التي كانت معجزة حري أن تكون كافية لمن له مسحة من عقل، فأخذهم عذاب شديد بسبب تكذيبهم و طغيانهم⁴⁷¹.

هكذا أضافت سورة الشعراء لسابقاتها حديثا بذكرها الجنات و العيون و النزرع و النخيل، و كذلك نجد أن المحاورة التي دارت بين سيدنا صالحا -عليه السلام- و قومه كان أكثر

⁴⁷⁰ سور الشعراء، من الآية : 141 إلى الآية : 159

⁴⁷¹ ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الرابع، ص: 330، 331، 332، و عبد الكريم الخطيب " القصص القرآني في منظوقه و مفهرمه "،

ما فيها من حديث من نصيبه -عليه السلام - و إذا كان الشعراء يطربون الناس بشعرهم، مع أن أعذبه أكذبه - كما يقال - فإنّ كلام الأنبياء إضافة إلى عذوبته فهو صدق كله.

ثم جاءت سورة النمل، و الظاهر أنها هي الأخرى أفردت قصّة صالح -عليه السلام - بالذكر عن قصّة هود مثلما وجدنا في سورة الإسراء إلا أن ذكرها هنا أعقب قصّة سيدنا سليمان -عليه السلام - : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اتَّخَذُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَأْقُومَ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ مَبْنَدُ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَمْلَكَتَهُ وَإِنَّا لَبَاصِدِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾⁴⁷² وها هو صالح -عليه السلام - يواصل

دعوته إلى قومه، فإذا هم ينقسمون فريقان أحدهما؛ مؤمن و الآخر؛ كافر فقال لهم: يا قوم لم تستعجلون العذاب الذي توعدون به قبل التوبة، هلا طلبتم مغفرة ربكم و رحمته، و لكنهم بدلا من أن يذعنوا لنصيحتة نجدهم يتمردون من جديد و يجيئوه، تشاء منا بك و بمن آمن معك، و قد أصابنا السوء و القحط منذ جئنا بدعوتك هاته، و يجيئهم سيدنا صالحا -عليه السلام - بأن لا شيء يتشأم منه لأن أسباب الخير والشر من عند الله، و الله سبحانه و تعالى إنما يختبر عباده بالشدائد لعلمهم يومنون .

ثم يخبرنا القرآن عن أولئك الطغاة التسعة الذين راحوا يتحالفون فيما بينهم على جريمة القتل -أي قتل صالحا- بعد أن قتلوا الناقة المعجزة التي أتاهم بها لكن الله أنجاه و أهلكهم و قومهم أجمعين⁴⁷³، و في ذلك آية لمن يريد أن يعتبر، و نلاحظ أن سورة النمل لا يرد فيها ذكر

⁴⁷² سورة النمل ، من الآية : 45 إلى الآية : 53

⁴⁷³ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الرابع، ص: 364، 365

للنّاقة، و قد أوردت لنا جديدا تمثل في تطيّرهم بسيّدنا صالح و من أسلموا معه، و عزّمهم على قتله لولا أنّ الله أنجاه.

وجاءت بعد ذلك سورة هود، و التي أطالت الحديث عن قصّة صالح -عليه السلام- مع قومه؛ حيث تبتدئ الآيات بدعاء صالح لقومه إلى الإيمان بالله، فلا إله غيره ترجى مغفرته و توبته، فقد جعلكم تعمرون الأرض و تستغلّونها، و لكنّ القوم المعاندين بخدمهم يركبون رؤوسهم من جديد و يجيئون و قد تمكك قلوبهم الجهل و العناد؛ لقد كنّا نرجوا الإنتفاع بك و استشارتك في أمورنا و لكنّ كلامك هذا غير نظرنا إليك فكيف تدعوننا إلى ترك ما كان يعبد آباءنا فنحن نشكّ بنبوّتك، و يجيهم صالح - عليه السلام - و كلّه صبر أمام عنادهم، هب أنّي حقيقة نبيّ، فإن اتّبعتم و عصيتم ربّي فهل أنتم قادرين على أن تنجونني من غضب الله، كلاًّ إنكم لن تغنوا عني من الله شيئا، فها هي رسالتي واضحة أمام أعينكم، فلما لا تؤمنوا بها؟ فكفروا و عقروا النّاقة فغضب الله عليهم، و متّعهم في الأرض ثلاثة أيّام ليعلموا أنّ وعد الله حقّ، و لما انقضت الأيام الثلاثة جاء أمر الله فأنجى صالحا -عليه السلام- و الذين آمنوا معه، و أخذ الذين كفروا العذاب⁴⁷⁴ و إليك الآيات التي تضمّت هاته التفاصيل يقول تبارك و تعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ احْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَغْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنِ خَشِيتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَغَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبَعُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ

⁴⁷⁴ ينظر ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الثالث، ص: 248

يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمُودَ⁴⁷⁵ ثم جاءت سورة الحجر، وكعادة أيّ سورة تأتي في الأخير لتحدثنا عن قصّة أيّ نبيّ من الأنبياء؛ أتى الحديث فيها مجملاً و كأنّها ليست سورة مفردة، بل تلخيص لما سبق من سور، و هذا التلخيص فيه من الفوائد ما لم نجده فيما فصل من قبل، و لنقرأ آياتها لنرى ذلك واضحاً بيناً : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجِبْرِ الْمُرْسَلِينَ وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁴⁷⁶ حيث نجد أول آية تتحدّث عن القصّة تبين لنا مكان قبيلة ثمود و هو الحجر و أنّهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾⁴⁷⁷، أي أنّهم كانوا واثقين من أنّها محكمة البنيان، تقيهم شرّ الأعداء فظنّوا أنّها تحميهم من عذاب الله كذلك، و لم يأبهوا بما قاله لهم نبيّهم صالحاً من أنّهم سينالون جزاءهم بعد ثلاثة أيام، و في صبيحة اليوم الرابع أتاهم الهلاك؛ فلم تغن عنهم أموالهم من الله شيئاً⁴⁷⁸.

و هذه الآيات على الرّغم من إيجازها ، فإنّها استطاعت أن تجمل ما جاء فيما سبقها من السور الّتي تناولت القصّة و أنّها استطاعت أن تمسّ قصّة سيدنا صالحاً- عليه السلام- في الصّميم. ثمّ جاءت سورة العنكبوت، و قد أشارت إلى عاد و ثمود معاً و بآية واحدة هي قوله تبارك و تعالى : ﴿وَمِمَّا كَذَّبُوا وَهُمْ أَشَدُّ كَذِبًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَمْحَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾⁴⁷⁹ حيث يخبرنا عزّو جلّ عن قوم عاد و ثمود الّذين كذبوا رسلهم لما أتوهم مبشّرين ومنذرين، و أصرّوا على ما كانوا عليه من تأليه الأصنام و عبادتها، و الغريب في الأمر أنّه برغم علمهم بما ينتظرهم من عذاب، إلّا أنّهم استمروا في طغيانهم و عنادهم، فويلهم ثمّ ويلهم من عذاب يوم عظيم.

⁴⁷⁵ سورة هود، من الآية : 61 إلى الآية : 68

⁴⁷⁶ سورة الحجر، من الآية : 80 إلى الآية : 84

⁴⁷⁷ السورة لنفسها، الآية : 82

⁴⁷⁸ ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الثالث، ص: 407

⁴⁷⁹ سورة العنكبوت ، الآية : 38

و هناك ملاحظتين مهمتين تجدر الإشارة إليهما بعد هذا العرض، أمّا أولهما فهو قول سيدنا صالحا- عليه السلام - : ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي﴾⁴⁸⁰ بالإفراد دون الجمع الذي ورد في كل من قصة نوح - عليه السلام - : ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي﴾⁴⁸¹، وقصة هود - عليه السلام - : ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي﴾⁴⁸² و كذا قصة شعيب - عليه السلام - : ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي﴾⁴⁸³.

و إذا رحنا نبحت عن تعليل لذلك فإننا واجدون أنّ الله تبارك و تعالى قد أرسل أولئك الأنبياء ليأمروا أقوامهم بتقوى الله، و الإيمان به، إضافة إلى ما أمروا به بعد هذا من أشياء، أمّا في قصة سيدنا صالحا - عليه السلام - فقد ذكرت الرسالة مفردة أو بالأحرى على الواحدة لأنّ فيها ذكر الناقة فصار كأنه رسالة واحدة⁴⁸⁴.

و أمّا ثانيهما، فهو ما وجدناه في هذه القصة من تعابير مختلفة عن العذاب الذي ألحقه الله تبارك و تعالى بقوم صالح - عليه السلام - ، فقد عبّر عنه القرآن بالرجفة تارة، و بالصيحة تارة، و بالطاغية تارة أخرى و إليك الآيات حسب الذكر المتسلسل في الذكر الحكيم : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾⁴⁸⁵ ، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾⁴⁸⁶ ، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾⁴⁸⁷.

فحين ذكر الرجفة التي هي الزلزلة و حدّ الدار، و حين ذكر الصيحة جمع الدار؛ لأنّ الصيحة كانت من السماء فهي إذن أشدّ وأبلغ من الزلزلة التي هي أقلّ وقعا من الصيحة⁴⁸⁸. و ما لحق قوم صالح من عذاب هو جزاء كلّ معاند متّرف، حاد عن الطريق السويّ، و جحد النعمة، و اتبع من لا ينفعه و لا يضرّه فحقّ عليه العذاب .

⁴⁸⁰ سورة الأعراف، الآية : 79

⁴⁸¹ سورة الأعراف، الآية : 62

⁴⁸² السورة نفسها، الآية : 68

⁴⁸³ السورة نفسها، الآية : 93

⁴⁸⁴ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 190، سبق أن أخذنا نصّه في هذا ، و لكنّا أثّرنا إعادة ذكره بالآيات ليتّضح الأمر أكثر.

⁴⁸⁵ سورة الأعراف، الآية : 78

⁴⁸⁶ سورة هود، الآية : 67

⁴⁸⁷ سورة الحاقة، الآية : 5

⁴⁸⁸ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 191

هـ- قصّة إبراهيم - عليه السلام - :

و كان إبراهيم الخليل - عليه السلام - من أكثر الأنبياء ذكر في القرآن الكريم بعد سيدنا موسى - عليه السلام -، و سيدنا إبراهيم هو أبو الأنبياء بعد نوح - عليه السلام - مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَمَا جَعَلَ خَلْقَهُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَأَ أَبْيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾⁴⁸⁹ و هو أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد صلى الله عليه و سلم، و لذلك أمر الله تعالى أن يصلى عليه بعده في التشهد، و كانت بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم استجابة لدعوة الخليل - عليه السلام - و لعلّ هذا كلّ كان سبباً في كثرة ورود شخصيّة إبراهيم - عليه السلام - في القرآن الكريم.

فقد وردت إشارات مبكرة تتحدّث عن أبي الأنبياء، ففي سورة الأعلى ورد قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّفْهِ الْأُولَى صُفْهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾⁴⁹⁰ أمّا سورة النجم فورد فيها قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ لَهُ يُنْبَأُ بِمَا فِي صُفْهِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى أَلَّا تَذَرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾⁴⁹¹ و أمّا سورة (ص) فنجد فيها قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ نُنَاجِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْمُسْلِمِينَ الْأَخْيَارِ وَإِذْ نُنَاجِي إِبْرَاهِيمَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾⁴⁹².

و في هاته الإشارات الوجيزة ذكر لما اتّصف به سيدنا إبراهيم من إخلاص لله، و من سعي لكسب رحمته، و الحصول على رضاه.

و قصّة إبراهيم - عليه السلام - ذكرت عدّة مرّات في القرآن الكريم لتعّدّد العبر فيها، و لكونه أبا العرب - كما ذكرنا -

⁴⁸⁹ سورة الحج، الآية : 78

⁴⁹⁰ سورة الأعلى، الآيتان : 18، 19

⁴⁹¹ سورة النجم، من الآية : 36 إلى الآية : 41

⁴⁹² سورة (ص)، من الآية : 45 إلى الآية : 48

و في اعتقادنا أنّ أول سورة فصلت الحديث عن إبراهيم -عليه السلام- بعد تلك الإشارات هي سورة مريم - عليها السلام - فالحديث فيها عن إبراهيم -عليه السلام- كان عن أسلوبه في الدّعوة إلى الله و هو أسلوب الدّعوة بالحلم الواسع، و الأدب الجمّ الذي يخترق القلوب القاسية فيلنّنها، و يجذب النفوس الشّاردة فيقرّبها . و اقرأ معي هاته الآيات لتلاحظ ذلك جلياً واضحاً: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ مَخْصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَتَى يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اخْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ﴾⁴⁹³

و هذه الآيات كما ترى واضحة لا تحتاج إلى بيان ، إنّما الذي لا يجب أن تفوتنا الإشارة إليه هو هذا التدرّج في نداءات إبراهيم -عليه السلام- لأبيه و التي تفيض عطفاً و حناناً . و انظر كيف استهلّ سيّدنا إبراهيم - عليه السلام- كلامه عند كلّ نصيحة بقوله : (يا أبت) توّسلاً إليه و استعطافاً لقلبه القاسي لأنّ الإنسان مهما كان جافي القلب، علينا أن نلقي إليه بالكلمة الحلوة، و الصّوت الحريّ المملوء بالحبّة فربّما يلتقيان بالجوّ الروحي الهادئ الذي يكون منفتح الهداية من خلال ذلك كله⁴⁹⁴ .

فأولها : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾⁴⁹⁵ ، و ثانيها: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾⁴⁹⁶ ، و ثالثها: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾⁴⁹⁷ ، و رابعها: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾

⁴⁹³ سورة مريم، من الآية : 41 إلى الآية : 49

⁴⁹⁴ محمد حسن فضل الله " الحوار في القرآن "، ص : 72

⁴⁹⁵ سورة مريم، الآية : 42

⁴⁹⁶ السورة نفسها ، الآية : 43

⁴⁹⁷ السورة نفسها ، الآية : 44

أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَانِ»⁴⁹⁸، فهذه النداءات المتتابعة، من سؤاله عن عبادة مالا يسمع ولا يبصر، وأن إبراهيم - عليه السلام - قد اجتباه الله وأعطاه من العلم ما لم يعط أباه، ونهيه عن عبادة الشيطان، لأنه عدو مفضل مبین، وأن ابنه يخشى عليه من العذاب الأليم؛ لكن الأب وقد أخذ الكفر فجرده من الرحمة يجب ولده الداعي بقسوة ما بعدها قسوة: ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا»⁴⁹⁹، و أمام هاته القسوة يجب ذلك القلب اللين والصدر الحنون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا»⁵⁰⁰، وقوله سلام من أجوبة المؤمنين إذا خاطبهم الجاهلون مصداقا لقوله جل شأنه: ﴿وَمُعْبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»⁵⁰¹.

و هكذا اجتنب إبراهيم قومه و تبرأ منهم ومن آلهتهم التي يدعونها من دون الله وهي لا تضرهم ولا تنفعهم شيئا، و اتبع دين الحق و دعا ربه الواحد الذي يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير⁵⁰²، حتى لا يكون ضائع السعي مثلهم في عبادتهم لتلك الآلهة الطينية التي لا تعني عنهم من الله شيئا.

ثم تأتي سورة الشعراء متضمنة قصة الخليل إبراهيم - عليه السلام - و دعوته إلى التوحيد، و موقفه من قومه و أبيه في كفرهم بالله و عبادتهم الأوثان، و تقرر البرهان الساطع الذي جابههم به إبراهيم و دعوته لهم بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له: ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا مَكْفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَمْ أَبْرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي

⁴⁹⁸ السورة نفسها، الآية: 45

⁴⁹⁹ السورة نفسها، الآية: 46

⁵⁰⁰ السورة نفسها، الآية: 47

⁵⁰¹ سورة الفرقان، الآية: 63

⁵⁰² ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الرابع، ص: 23

يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْغِ قَلْبِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي
الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَالْحَقُّ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ وَلَا
تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ⁵⁰³.

في هاته الآيات الكريمة يخبرنا الله تعالى عن رسوله إبراهيم - عليه السلام - وما كان يتّصف
به من إخلاص لله و توكل عليه، فعلى الرغم من علمه بأنّ قومه عبدة أصنام إلا أنّه سألهم ليؤكد
لهم أنّ ما يعبدون من دون الله لا ينفعهم ولا يضرّهم، و لكنّا نجدهم يتحجّجون على عبادتهم
تلك الأوثان بأنّهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، لقد تسرّب إليهم الجهل ، و أخذ منهم بنصيب
وافر؛ و إلا فكيف يقلّدون العقائد و هي ليست ممّا ينبغي فيه التقليد، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَخَبَوْنَ
لِي﴾⁵⁰⁴، نصيحة نصح بها نفسه، و لو قال عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة لأنّه لما نصح نفسه أوّلا
كان أدخل في باب التعريض، و في كثير من الأحيان يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح
لأنّ المنصوح يتأمّل عادة فيما يعرض عليه أو يقال له فلربّما تقبّل الشّيء بعد معارضته في البداية.

ثمّ يذكر سيدنا إبراهيم - عليه السلام - نعم الله عليه من خلق و هداية ، و إطعام
و إسقاء، و شفاء بعد السّقم، و إحياء بعد الممات، و هذا لا يقدر عليه أحد غيره عزّ و جلّ، و لا
يغفر الذّنوب في الدّنيا و الآخرة إلاّ هو سبحانه وإليه المصير، ثمّ دعى ربّه أن يهب له الحكم، و أن
يلحقه بالصّالحين، و أن يجعله صادقا و يجعله من أهل الجنّة، و هو يطمع في غفران ربّه و نيل
رضاه لا ينسى أن يطلب المغفرة لأبيه الذي ضلّ عن سواء السّبيل⁵⁰⁵ و للرّخشي ههنا تعليق
ظريف رأيت تسجيله قال رحمه الله: "وما أحسن ما رتب إبراهيم - عليه السلام - كلامه مع
المشرّكين حين سألهم أوّلا عمّا يعبدون، سؤال مقررّ لا مستفهم، ثمّ أغنى على آلهتهم فأبطل أمرها
بأنّها لا تضرّ و لا تنفع، و لا تسمع و لا تبصر، و على تقليدهم آبائهم الأقدمين فكسره و أخرج
من أن يكون شبهة فضلا أن يكون حجّة، ثمّ صوّر المسألة في نفسه دونهم حتّى تخلّص منها إلى
ذكر الله عزّ و علا، فعظّم شأنه و عدّد نعمته من لدن خلقه و إنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى

⁵⁰³ سورة الشعراء، من الآية : 69 إلى الآية : 89

⁵⁰⁴ سورة الشعراء، الآية : 77

⁵⁰⁵ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الرابع، ص: 322، 323 و ينظر: الرخشي "الكشاف"، ج: 4، ص: 169، 170

في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، و ابتهل إليه ابتهاال الأوّيين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة و ثواب الله و عقابه ، و ما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم و الحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، و تمنّي الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا و يطيعوا.⁵⁰⁶

و تأتي سورة هود هي الأخرى تحمل في طياتها حديثا عن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- دون أن تنطرق لما كان بينه و بين قومه و أبيه من حوار و لنقرأ هاته الآيات لنكتشف كنهها يقول عزّ و جلّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ فَصَيَّكْتَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ غَرِيبٌ قَالُوا أَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ فَلَمَّا طَصَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْحَ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَغَلِيْلٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَخْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ مَخَاطِبٌ مُّخْتَرَفٌ ۝٥٠٧﴾

فأنت ترى أن هاته الآيات الكريمة تبدأ بالحديث عن شخصية إبراهيم الخليل - عليه السلام- و ما كان يتّصف به من إكرام الضيف و حسن استقباله ، فالضيافة وحدها لا تكفي إذا لم تصحبها البشاشة ، و لكنّ الغريب في الأمر ههنا و الذي حير إبراهيم فعلا هو إعراض ضيوفه عمّا قدّم لهم، فامتلاً قلبه زعبا ، و أخفاه في نفسه لآلا يشعروا به ، و ربّما لاحظوا اضطرابه فأخبروه بأنهم مرسلون لقوم لوط، ثمّ تنتقل الآيات للحديث عمّا كان بينهم و بين امرأة الخليل ، من تبشيرها بإسحاق و يعقوب و عجبها من ذلك ثمّ أوردت مدحا لإبراهيم ، و ذكرها للصفات الحميدة من خشية الله و الحلم و غيرها مما لم يجتمع في بشر قط، و حقّت على الذين ظلموا الصيحة التي لا رادّ لها غير الله سبحانه و تعالى.

⁵⁰⁶ ينظر "الزمخشري" الكشاف "، ج: 4، ص: 172

⁵⁰⁷ سورة هود ، من الآية : 69 إلى الآية : 76

ثم جاءت سورة الحجر ، و قد رأينا من قبل أنها تضمنت جملة من القصص القرآني ، فلا غرو أن يكون لأبي الأنبياء نصيب منها : ﴿وَنَبِّئُهُمْ مَنْ ضَيْفُهُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيهِ تَبَشِّرُونَ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾⁵⁰⁸ ، و في هذه الآيات نلمح جدّة تتمثل في تصريح إبراهيم بخوفه منهم - لامتناعهم عن الأكل و قيل لأنهم دخلوا دون استئذان - على خلاف ما وجدنا في سورة هود من أنه أضمر عنهم خوفه و تبيّنوه بأنفسهم ، إضافة إلى أنّ إبراهيم -عليه السلام - لم يستنكر ذلك قنوطا من رحمة الله و لكن استبعادا له في العادة التي أجراها الله تبارك و تعالى فلا يقنط من رحمة الله إلا الكافرون⁵⁰⁹ لقوله عزّ و جلّ : ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾⁵¹⁰ .

و سيّدنا إبراهيم -عليه السلام - ما كان ليقنط من رحمة الله لأنه هداه إلى صراط مستقيم ، و من يهدي الله فلا مضلّ له .

ثم جاءت سورة الأنعام ، و قد عرضت قصّة سيّدنا إبراهيم مع قومه و أبيه و قد كانوا يعبدون الأصنام ، و الشمس ، و القمر ، و الكواكب فأراد أن يبيّن لهم خطأ ما يفعلون من عبادة ما لا ينفعهم ، و لا يضرّهم من دون الله شيئا و أن يرسم أمامهم الطريق السوي الذي إن هم اتبعوه فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون ، و بدأ إبراهيم - عليه السلام - يتأمّل الكون ليتعرّف على سرّ وجوده ، فلمّا أرخى الليل سدوله رأى كوكبا فظنّ أنه ربّه ، فلمّا غاب أبطل ظنّه ، ثم رأى القمر ساطعا فقال هذا ربّي ، فلمّا غاب هو الآخر أبطل زعمه ، ثم رأى الشمس فحسبها هي الأخرى كذلك ، و اهتدى في الأخير إلى أنّ هذه الكواكب جميعا حاكما قادرا على ظهورها و أفولها معا و إليك الآيات : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَأَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

⁵⁰⁸ سورة الحجر ، من الآية : 51 إلى الآية : 57 .

⁵⁰⁹ ينظر : الزمخشري "الكشاف" ، ج:3 ، ص: 134 .

⁵¹⁰ سورة يوسف ، الآية : 87 .

وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ خَوْفَهَا قَالَهُ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَهُ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَهُ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَهُ يَأْقَوْمُ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنَّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَفَيْتُمْ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَإِذَا الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُصْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مَن يَعْبُدِهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَتَاهُمْ أَفَتَدْعِيَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا طَعْنٌ لِّلْعَالَمِينَ⁵¹¹

و نرى أنَّ هذه الآيات ابتدأت بنفي عبادة الأصنام كونها لا تستحق العبادة، و أنَّ من يعبدها إنما هو ضال جاهل، ثم تنتقل الآيات لتبين لنا أنَّ البحث عن الحقيقة يبدأ بالشك و كثرة التردد في حسم الامور، فسيّدنا إبراهيم -عليه السلام- عرض على عقله ما تصوّر أنّه نافع و لكنه وجد أنَّ هاته المعروضات كلّها لم توجد هكذا، و إنّما هناك يد أوجدتها و هي تسيّرهما كيفما تشاء؛ و لكن قومه لم يأنهوا لذلك و استمروا في إشراكهم و حاجتهم إبراهيم -عليه السلام-

⁵¹¹ سورة الأنعام، من الآية : 74 إلى الآية : 90

و على الرغم من ذلك فإنه قد امتلك الدقة في إبطال تلك الحجج الواهية ؛ و للزمخشري - رحمه الله - ما يقول في هذا : " و كان أبوه آزر و قومه يعبدون الأصنام و الشمس و القمر و الكواكب فأراد أن ينههم على الخطأ في دينهم و أن يرشدهم إلى طريق النظر و الإستدلال و يعرفهم أن النظر الصحيح مود إلى أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلها لقيام دليل الحدوث فيها و أن وراءها محدثا أحدثها ، و صانعا صنعها و مدبرا دبّر طلوعها و أفولها و انتقالها و مسيرها و سائر أحوالها" ⁵¹².

ثم تأتي سورة الصافات تخبرنا عن إنكار سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عبادة الأصنام عن قومه ، و كان لهم عيد يخرجون إليه فتظاهر أمامهم بالسقم ففرّوا منه خوفا من العدوى ، و لما رأهم قد ذهبوا لعيدهم ، استفرد بألتهم فوجد بين أيديها ما طاب من الأطعمة ظنا منهم أن الآلهة ستباركها لهم حتى إذا ما رجعوا من عيدهم أكلوها ، فقال إبراهيم مخاطبا الآلهة على سبيل التهكم و الإستهزاء : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ ⁵¹³ ، فأقبل عليه ضربا فحطمهم جميعا إلا كبيرا لهم و لما قدموا من عيدهم وجدوا أصنامهم حطاما ، أسرعوا إلى إبراهيم - عليه السلام - ليعاتبوه ، فأخذ في تأنيبهم و تعييبهم ، فأرادوا أن يحرّقوه و لكن الله نجاه فهاجر امتثالا لأمر ربه لأنّ وعده حق سيثبتته على هداة و يزيده هدى على هدى ثم بشره بإسماعيل - عليه السلام - ⁵¹⁴.

و لما بلغ أشده و استوى ، رأى أباه في المنام أنه يذبحه و يمثل الولد لأبيه و يهّم الأب بذبح ابنه ؛ إنه فعلا مشهد لا يستطيع قلم إنس أن يعبر عنه مهما سال حيرا !! ، و إنّ مخيلة الإنسان العاقل لتتعب و تضعف و هي تقلب هذا المشهد داخلها ، إنها فعلا أقوى درجات الإيمان و أعظم درجات الطاعة ؛ عند كلّ من سيدنا إبراهيم و ولده اسماعيل - عليهما السلام -.

و بعد أن رأى الله عزّ و جلّ هذا الامتثال إلى أمره ، أرسل كيشا عظيما لسيدنا إبراهيم ليذبحه بدلا من ذبح فلذة كبده الوحيد ، فضلا عن أنه تعالى بشره بإسحاق نبيا صالحا ، و إليك الآيات كما جاءت في الذكر الحكيم ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

⁵¹² ينظر: الزمخشري "الكشاف" ج:2، ص: 74، 75

⁵¹³ سورة الصافات ، الآيتان : 91 ، 92

⁵¹⁴ ينظر ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " ، المجلد الخامس ، ص: 106 ، 107 ، 108

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَفُنُكُلًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاخَ إِلَى
 آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ فَرَاخَ عَلَيْهِمْ خُرْبًا بَالِغِينَ فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ
 يَزِفُونَ قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا
 فَأَلْقُوهُ فِي الْبَحْرِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي
 سَيُفْهِدُنِي رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
 يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُكُ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
 سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ
 هَذَا صَدَقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَوَدَّعَيْنَاهُ
 بِذَبْحٍ حَلِيمٍ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ
 مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ
 وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ⁵¹⁵

و الذي يقرأ هذه الآيات قراءة متأنية واعية سيجد فيها من الصبر و الإيمان و التضحية، ما
 لم تره عيناه ، و لم تسمع به أذناه.

و نجد سورة الزخرف هي الأخرى تشير إلى قصة إبراهيم -عليه السلام- الذي زعم
 المشركون أنهم أنصارا له، و إنهم إنما يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى، فجاءت الآيات
 الكريمة مبينة أن دين إبراهيم هو دين الحق و التوحيد ، و أن إبراهيم -عليه السلام- لن يشرك
 و لن يضل بربه شيئا لأن لا هادي له سواه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا
 تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيُفْهِدُنِي وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي مَقَامٍ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ﴾⁵¹⁶

ثم جاءت بعد ذلك سورة الذاريات ذاكرة القصة بإيجاز مفيد متحدثة عن الملائكة الذين
 بعثهم الله ليقوم لوط لما كذبوا المرسلين فدخلوا على إبراهيم - عليه السلام- ليسأروه بغلام عليم

⁵¹⁵ سورة الصافات ، من الآية : 83 إلى الآية : 113

⁵¹⁶ سورة الزخرف ، الآيات : 26 ، 27 ، 28

و كيف أنه أسرع إلى إكرامهم لأنهم ضيوفه و من حقّ الضيف أن يكرم ؛ و لعلّ هذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله تبارك و تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوا بِغُلَامٍ عَلَيْهِمْ قَاتِلَتُ امْرَأَتَهُ فِي حَرَّةٍ فَكَتَبَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾⁵¹⁷.

ثم جاءت سورة النحل - و تعرف أيضا بسورة النعم - متفقة مع ما أنعم الله به على سيدنا إبراهيم -عليه السلام- لأنه كان شاكرا لرّبه ، راضيا بحكمه كيفما كان ، فهو نموذج واضح للصبر و الشكر و الإيمان يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْتُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾⁵¹⁸ أما سورة إبراهيم -عليه السلام- فجاءت هي الأخرى لتبين للناس أنّ ما يعبدون من دون الله باطل ، لا ينفعهم و لا يضرّهم ، و أنّ الله -- سبحانه و تعالى - أحقّ و أولى بالعبادة لما منّ به على عباده من النعم ، و يتضرّع إبراهيم الخليل - عليه السلام - لرّبه أن يجعل بلده آمنا و أن يجنبه و بنيه عبادة الأصنام لأنها أظلت الكثير من الناس، فمن تبني على التوحيد فإنه من أهل ديني، كما تبرز الآية الكريمة حرص سيدنا إبراهيم -عليه السلام- على هذا البلد و على ساكنيه ، لأجل أن يشكروا ما أنعم الله به عليهم، و ما منّ به عليه من البنين على الرّغم من كبره و عقم زوجته ، و يسأله أن يجعله ممّن يقيمون الصلاة هو ذريّته و أن يغفر له و لوالديه و لجميع المؤمنين ؛ و إليك الآيات التي تضمنت هذا الذي ذكرناه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ

⁵¹⁷ سورة الذاريات ، من الآية : 24 إلى الآية : 30

⁵¹⁸ سورة النحل ، من الآية : 120 إلى الآية : 124

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَهْلَهُ مِنْ النَّاسِ نَهْوًى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ⁵¹⁹

ثم جاءت بعد ذلك سورة الأنبياء - عليهم السلام - متناولة قصة الخليل بإسهاب، عارضة
لها بأسلوب مشوق و تعبير دقيق يعجز أمامه أي بشر مهما كثر تبحره في علم البلاغة و البيان
يقول عز و جل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ
لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ
قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ
وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَيَعْلَمُهُمْ جَذَاحًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أُمَمٍ مِنَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا
أَأَنْتَ فَعَلْتَهُ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَحَسُوا عَلَى رءُوسِهِمْ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ أَمْ أَنْتُمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا
الْمَلَائِكَةَ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ

⁵¹⁹ سورة إبراهيم ، من الآية : 35 إلى الآية : 41

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا تَحَابِدِينَ ﴿٥٢٠﴾

و الآيات كما نرى واضحة لا تحتاج إلى بيان أو شرح ، وهذا الحوار الدائر بين سيدنا
إبراهيم - عليه السلام - و أبيه و قومه جليّ واضح ، هو صراع بين الحق و الباطل ، بين العلم
و الجهل ، بين عباد الرحمن و عبدة الأوثان ، كما ذكر تعالى تدبير خليله في تحطيم الأصنام ،
و إثبات عجزها و أنها لا تقدر على شيء لا نفعاً و لا ضاراً ، و ينتهي كل هذا بمعجزة خالدة
و مفاجأة لم يكن أحدهم يتوقع حدوثها و هي تحوّل النار إلى برد و سلام .

ثم تأتي سورة العنكبوت و هي آخر سورة تحدّثت عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في
العهد المدني ، حيث تبدأ بإخبارنا عن أمر إبراهيم قومه بعبادة الله وحده و تقواه ، ثمّ راح يبيّن
لهم أنّ ما يعبدون من دون الله باطل لا ينفعهم و لا يضرهم من الله شيئاً ، و يقول لهم إنّ
تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم فلطالما كذبت أمّ الرسل الذين بعثوا قبلي فما أضروهم و لكن
أضروا أنفسهم ، فأخذهم الله بعذاب أليم ، فكيف يكفرون بالله و هو الذي يبدئ الخلق ثمّ
يعيده.

و رغم كلّ هذا العظائم ، و رغم جميع الدلائل و الحجج التي وضعها بين أيديهم إلا أنّ قوم
إبراهيم لم ينتهوا بل أمروا بقتله أو حرقه فأجابه الله بسلطانه و قدرته ، و آتاه في الدنيا أجراً و هو
في الآخرة من الصالحين و إليك الآيات كما وردت في الذكر الحكيم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
فَاَبْتَغُوا مِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تَكَذَّبُوا فَقَدْ
كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ

520 سورة الأنبياء ، من الآية : 51 إلى الآية 73

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٢١﴾

الملاحظ من خلال استعراضنا للسور المكية أن بعضها أطال الحديث عن قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وبعضها الآخر أوجزه ، و لعل الحال ذاته مع السور المكية التي ذكرت قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أولاها سورة البقرة - وهي أول سورة المصحف بعد الفاتحة كما أنها أطول سور القرآن على الإطلاق-، ثم سورة آل عمران ، فسورة الحج .

فسورة البقرة تتحدث عن سؤال إبراهيم -عليه السلام - أن يجعل بلده آمنا و أن يمن على أهله بالرزق ، ثم يخبرنا عن بناء إبراهيم و ابنه اسماعيل للبيت ، و تضرعهما لله أن يتقبل منهما و أن يجعلهما مسلمين هما و ذريتهما ، و أن يبعث في الأمة رسولا يدعو أهلها و يتلوا عليهم آيات الرحمن ، و يستجيب الله لخليله إبراهيم - عليه السلام -، و إليك الآيات كما وردت في الكتاب المبين ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَجْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا

وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ
وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ
مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ⁵²²

أما سورة آل عمران فقد أشارت بإيجاز إلى بناء البيت العتيق ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ
لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ
دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ
اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾⁵²³ و أما سورة الحج فقد ذكرت فيها أحكامه ، و قصّة بناء البيت ،
و دعى إبراهيم الناس إلى حج البيت فاستجابوا له ، و أمّوا البيت من مشارق الارض و مغاربها
﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ
عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَاسِرَ الْفَقِيرِ ثُمَّ لْيَقْضُوا
تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾⁵²⁴

تلكم كانت قصّة الخليل إبراهيم - عليه السلام- و مواضعها في القرآن الكريم ، و إذا كان
الأنبياء الذين سبقوه قد هددوا من طرف أقوامهم ، فإن إبراهيم - عليه السلام- قد نفذ فيه
التهديد حيث ألقاه قومه في النار ، و لكنها تحوّلت إلى برد و سلام بقدره الخالق عزّ و جلّ ، فلقد
عادى إبراهيم أباه و قومه في سبيل ربّه فأحبّه ، و اصطفاه ، و اتّخذّه خليلاً.

و الملاحظ من خلال استعراضنا لقصص أولئك الأنبياء -عليهم السلام- أنّ التكرار لا
يمسّ القصة بأكملها ، و إنّما يتناول بعض حلقاتها بأسلوب رائع ، و تعبير دقيق ممّا يجعلنا ننسجم

⁵²² سورة البقرة ، من الآية : 126 إلى الآية : 133

⁵²³ سورة آل عمران ، الآيات : 96 ، 97

⁵²⁴ سورة الحج ، من الآية : 26 إلى الآية : 29

معها و كأننا نسمعها لأول مرة . و المتأمل في القصص القرآني و الناظر في أحداثه و مواقفه يجدها متميزة عن غيرها من الأحداث العادية الواقعة أو المفترضة الوقوع ، ففي أحداث القصص القرآني - كما أسلفنا الذكر - صور من الصراع بين قوى الخير و الشر ، و النور و الظلام، و بين الإيمان و الشرك ، و الهدى و الضلال ، كما نجد فيها كذلك صوراً من الحوار و الجدل الناشئ عن عقدة الحدث و أخيراً تحل العقدة و تنفرج الأزمة ، و القرآن حين يعرض قصص الانبياء و غيرهم نراه : " يأخذ مواد القصص فيه من أحداث التاريخ و وقائعه ؛ لكنه يعرضها عرضاً أدبياً و يسوقها سوقاً عاطفياً يبين المعاني ، و يؤيد الأغراض و يؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعا استهوائيا خطايا يستشير منها العاطفة و الوجدان "525 .

و نحن إذ نقرأ هذا النص لا نرتاب في محتواه، ذلك أنّ القصص القرآني قد خرج فعلاً بالأنفس من الدائرة التاريخية إلى الدائرة الدينية، لجمال ألفاظه و حسن نظمته حيث "لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح و لا أجزل و لا أعذب من ألفاظه ، و لا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، و لا أشدّ تلازماً و تشاكلاً من نظمته ، و أمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، و الترقّي لأعلى درجات الفضل من نعوتها و صفاتها "526 .

5- أسرار التكرار في القصص القرآني :

بعدما تحدثنا عن التكرار في القصّة القرآنية، و تناولنا نماذج من القصص المكررة نصل الآن إلى ذكر السر من وراء ذلك التكرار .

فالقصة القرآنية إنّما سبقت مكررة لتحقيق أغراض دينية بحثة و قد تناولت هذه الأغراض ؛ إثبات الوحي و الرسالة و غيرها من الأغراض الدينية ، و المرامي الخلقية التي جاء بها القصص القرآني .

و التكرار في القصص القرآني لا يقصد به الإعجاز البياني بقدر ما يقصد به التأثير النفسي، و لما كانت ظاهرة تكرار المعاني مؤكدة و مقرة للعقيدة أكثر ظهوراً في القصص القرآني

⁵²⁵ محمد أحمد خلف الله " الفن القصصي في القرآن الكريم " ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، ط: 3 ، 1965م ، ص: 124

⁵²⁶ أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت: 388هـ) "بيان إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، د: محمد زغلول سلام ، دار المعارف، القاهرة ، ط: 2، 1968م، ص: 28

كان البحث في هذه الظاهرة لا يستقيم إلا بمعرفة الظروف النفسية التي كانت تحيط بصاحب الدعوة و أتباعه و بهذا يتسنى لنا أن نعلم ما وراء عرض القصص و تكرارها .

من ذلك ضرب الأمثال للرسول صلى الله عليه و سلم و للمؤمنين و من اتبعهم في سبيل الله حتى كان حسن العاقبة لهم ، و المأساة على أعدائهم و ذلك في قوله تبارك و تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾⁵²⁷ ، فلم يكن سرد قصص الأنبياء بالنسبة للرسالة المحمدية موضوعا ثانويا ، بل كان يحمل عبرا شتى ، و موعظة للمؤمنين و عبرة للمشركين⁵²⁸ .

إن تكرار القصة في ضروب متنوعة و بأساليب متعددة إنما يرمي إلى ترسيخ السنن في النفس و تثبيتها في القلب من أجل تقوية العقيدة، فالقرآن الكريم لم يقتصر على قصة واحدة لأحد الأنبياء ليستدل بها ، بل تسرد جموع قصص الأنبياء لتأكيد و تقرير أنها من صنع الله؛ فكان الهدف من تكرار هذه القصص تخويف المشركين و إنذارهم بما جرت عليه سنة الله للمكذبين للرسول يقول تعالى متحدثا عن النبي نوح -عليه السلام-: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾⁵²⁹ ، و يقول تعالى أيضا متحدثا عن أقوام أخرى كذبوا رسلهم فأخذهم الله بعذاب أليم : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ وَحَادًا وَثُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ مَسَاجِدِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾⁵³⁰ .

⁵²⁷ سورة يوسف ، الآية : 110

⁵²⁸ ينظر: التهامي نفرة "سيكلوجية القصة في القرآن" ، ص: 128 . 129 . 130

⁵²⁹ سورة الأعراف ، الآية : 59

⁵³⁰ سورة العنكبوت ، من الآية : 36 إلى الآية : 40

كما يهدف القرآن من خلال تكرار قصصه إلى بيان وحدة الأديان ، و وحدة الدّعوة و تشابه أقوام الرسل في موقفهم منها كما رأينا فيما عرضنا من قصص ؛ يقول عزّ و جلّ في هذا المزمّار : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾⁵³¹.

فهذا التوحيد لأساس العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء ، و تأتي قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد الغرض المتوخّى ، و قد كان قصد القرآن من وراء التكرار في اللفظ و المعنى لتحسيسهم بأنّ ما جاءوا به إنّما هو صادر عن إله واحد و متجه إلى غاية واحدة هي التوحيد⁵³².

و هكذا نستنتج أنّ تلوين القصص ، و ما يجمع بينهم من تشابه في المبادئ و الأهداف لمن العوامل المؤثرة على النفس بالموعظة المتكررة ، و العبرة المتجددة. ممّا يجعل الإيمان أكثر رسوخا في النفس، فمبادئ الحق و العدل و غيرهما لا تتغير في جوهرها على مرّ الزمان، و من ذلك ما ورد في الكتاب الحكيم من حديث عن الأقوام المكذبة : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁵³³.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁵³⁴.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ حَالِجٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁵³⁵.

⁵³¹ سورة الأنبياء ، الآية : 25

⁵³² ينظر : التهامي نفرة "سيكلوجية القصة في القرآن ، ص: 132 ، 133 و محمد سعيد رمضان البوطي "من روائع القرآن " تأملات علمية و أدبية

في كتاب الله عزّ و جلّ ، مكتبة الفراهي ، دمشق ، د.ط ، د.ت ، ص: 193 . 194

⁵³³ سورة الشعراء ، من الآية : 105 إلى الآية : 109

⁵³⁴ السورة نفسها ، من الآية : 123 إلى الآية : 127

⁵³⁵ سورة الشعراء ، من الآية : 141 إلى الآية : 145

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁵³⁶

فهؤلاء الأقوام كما نرى وجهت لهم دعوة واحدة ، لكنهم كذبوا ما جاءهم به رسلهم واستكبروا، فأخذهم الله بعذاب عظيم، و رغم تباعد أزمانهم إلا أنهم نالوا مصيرا واحدا ، حيث كان القوم المكذبين للرسل المبعوث إليهم مكذبين لجميع الرسل، و يتأكد لنا هذا الإستنتاج و نحن نقرأ بداية كل آية من الآيات السابقة ، و لناخذ مثلا لذلك قوله عزّ و جلّ عن قوم نوح -عليه السلام- : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ فلما كذبوا نبيهم نوحا جعلهم الله و كأنهم كذبوا جميع الأنبياء المبعوثين ، و القرآن إذ يخاطب الرسل يتبع صيغة واحدة يحكي أمامها فارق الزمن و الجنس : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي﴾⁵³⁷.

و من هنا يتضح لنا أنّ التكرار في قصص الأنبياء اقتضى تنوع الاغراض في كل قصّة، و منها غرض التثبيت لوحدانية الله ، و غرض الترهيب و بيان وحدة الأديان و أنّ الله واحد لا شريك له ، و أنّه قادر على خرق العوائد ، فلقد خلق آدم من دون أب و لا أم، و خلق عيسى -عليه السلام- بدون أب و هذا دليل على أنّ لهذا الكون ربّا قادرا ، ففي خلق آدم - عليه السلام- يقول عزّ و جلّ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾⁵³⁸.

و قال في سيّدنا عيسى - عليه السلام- : ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾⁵³⁹.

⁵³⁶ السورة نفسها ، من الآية : 160 إلى الآية : 164

⁵³⁷ سورة المؤمنون ، الآيتان : 51، 52

⁵³⁸ سورة الحجر ، الآيتان : 28 - 29

⁵³⁹ سورة آل عمران ، الآية : 58

فالقادر على خلق شخص من دون أب و لا أم، هو أهون عليه خلق شخص آخر من أم دون أب⁵⁴⁰، كيف لا و هو ربّ العرش العظيم خالق السماوات و الأرض ، الذي يحي و يميت ، و الذي يخرج الحيّ من الميت و يخرج الميت من الحيّ بإذنه فتعالى الله عما يشركون.

و لعلّ من الأسرار الجليلة لتكرار القصص هو أنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه و سلّم كانوا يحفظون القليل من القرآن في الصلّاة، و هذا القليل يغنيهم عن الكثير منه لتكراره و للغطات الموجودة فيه ، و لم يفرض عليهم الرّسول صلى الله عليه و سلّم حفظ القرآن كلّهُ.

و التّكرار في الأنباء و القصص إنّما جاء نتيجة نزول القرآن الكريم منجّماً⁵⁴¹ لأنّه لو لم تكن الأخبار مكرّرة ؛ لوصلت قصّة نبيّ إلى قوم ، و قصّة آخر لقوم آخرين، و لما عرفت القصص عند جميع الأقوام ، و إذا نحن نظرنا نظرة دقيقة تليق بمقام القرآن و علوّ شأنه وجدنا أنّ هناك مغزى من وراء قصصه المكرّرة ، فالقرآن إنّما يروي أحداث واقعيّة، لا حوادث متخيّلة ، و قصصه إنّما سيقت - كما ذكرنا- للعبرة و الهداية و بيان جزاء المصلحين و عقاب المفسدين ، و لم تسرد لمجرد المتعة و القراءة العاديّة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁵⁴².

و المعروف أنّ أيّ شيء ينسج في قالب قصصي يكون أكثر سريانا في النفوس، لذلك كان يسوق الأدلة على التّوحيد في سياق قصصي يسري إلى النفوس من غير مقاومة، و كان تكراره يخطّ في النفس خطوطاً تتعمق بعد ذلك شيئا فشيئا فيكون الإيمان، و القصص القرآني لم يذكر لمجرد العظة و العبارة ؛ بل ذكر أيضا لإرشاد الناس و هديهم إلى صراط مستقيم⁵⁴³

⁵⁴⁰ ينظر: التّهامي نفرة "سيكلوجيّة القصّة في القرآن"، ص: 134، 135، 136 و عبد الرحمن طالب "التّربية من خلال القرآن الكريم" رسالة

ماجستير في العلوم الإسلاميّة، إشراف د: عمّار طالي، 1987م، ص: 158

⁵⁴¹ ينظر: محمّد زغلول سلام "أثر القرآن في تطوّر النقد العربي" دار المعارف، مصر، د.ط، 1961م، ص: 142، 143

⁵⁴² سورة يوسف، الآية: 111

⁵⁴³ ينظر: الإمام محمّد أبو زهرة "المعجزة الكبرى" القرآن، كتابته، جمعه، إعجازه، جدله، علومه، تفسيره، حكم الغناء به، دار الفكر

العربي، د.ط، د.ت، ص: 190، 196 و محمّد الغزالي "نظرات في القرآن"، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة، الجزائر، د.ط، د.ت،

ص: 110، 111

و قد باين القصص القرآني قصص البشر ، من حيث أنه رغم تكراره لا نجد فيه مللا و لا اضطرابا و نحن نتلوه المرة بعد الأخرى ، و هذا ممّا يعجز أمامه البشر ، فلو أنّ أحدهم نسج قصّة ثم أعادها لأحسنا بهذه الإعادة، و ظهرت عليها علامات الضعف و التفكك ، و لكان تكرارها من غير المفيد الذي يكسو الكلام ثقل، و يُذهب عنه رونقه ، و القصص القرآني إذ يذكر المعنى الواحد بصور مختلفة إنّما يجلب النفوس الشاردة التي تعشق كلّ ما هو متنوّع و جديد؛ يقول الباقلاني في هذا المضمار : " و كذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصّة الواحدة تفاوتاً بينا ، و يختلف اختلافا كبيرا ، و نظرنا إلى القرآن فيما يعاد ذكره من القصّة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف و لا متفاوت ، بل هو على نهاية البلاغة ، و غاية البراعة فعلمنا بذلك أنّه ممّا لا يقدر عليه البشر ، لأنّ الذي يقدرون عليه قد تبيننا فيه التفاوت الكثير عند التكرار " .⁵⁴⁴

و بناء على هذا فالقصّة القرآنيّة سجلّ حافل لجميع التوجيهات الإلهيّة ، حيث تصوّر النتيجة الأخيرة لكلّ صراع في سبيل المبدأ و العقيدة ، تلك النتيجة هي انتصار المؤمنين، و خذلان الكفرة المكذّبين ؛ يقول تبارك و تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾⁵⁴⁵.

و صدق الله العظيم حين يقول : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَقُصُّ بِهٖ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾⁵⁴⁶ و حين يقول : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾⁵⁴⁷

⁵⁴⁴ د. عبد الرؤوف مخلوف " الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن " دراسة تحليلية نقدية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د. ط ، 1978م ،

ص: 326

الرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني " ثلاث رسائل في اعجاز القرآن " ، حققها و علّق عليها: محمد خلف الله . محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ط: 02 ، 1387 هـ . 1968م ، ص: 93.

⁵⁴⁵ سورة غافر، الآيتان : 51 . 52

⁵⁴⁶ سورة هود، الآية : 120

⁵⁴⁷ سورة القصص، الآية : 5 . 6.

الفصل الرابع

التكرار في قصة موسى - عليه السلام -

عرضنا فيما سبق بالتناول لقصص بعض الأنبياء و صراعاتهم من أجل الدعوة و العقيدة مع كل قوم أرسلوا إليهم، مع الوقوف على ظواهر الردّ و المعاناة و الرّفص للهداية و كان النصر في النهاية لهؤلاء الأنبياء كلّهم - ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾^١ و كان جزاء القوم العذاب الأليم نتيجة كفرهم و عنادهم و وقفنا عند ظاهرة التكرار في قصص كلّ واحد منهم، و على الرغم من أنّ كلّ قصّة من قصصهم قد تكررت في غير موضع إلّا أنّنا لم نجد فيها تنافرا و لا إحساسا بالملل و نحن نقرأها في السور المتعددة، بل وجدنا بعضها يكمل بعضها كلّ ذلك كان بأسلوب سلس، و تعبير راق لا يقدر عليه إلّا الواحد الأعظم لهذا الوجود.

و في هذا الفصل سنعرض - بمشيئة الله - لقصّة أخذت نصيبا وافرا من كتاب الله، و قد خصّصنا لها فصلا كاملا كونها بيت القصيد في هذا البحث، فضلا على أنّها من أكثر القصص تكرارا في القرآن الكريم و هي قصّة سيّدنا موسى - عليه السّلام -.

1- ملخص عن القصّة :

في زمن كان فيه بنو اسرائيل يعانون من الطّغيان الفرعوني، حيث كان أبناءهم يذبّحون و نساءهم يستحيون، و قد أصدر فرعون قرارا بقتل كلّ ذكر يولد لبني اسرائيل ذلك أنّ الكهنة أخبروه بأنّ طفلا سيولد لبني اسرائيل سيكون سببا في زوال ملكه، في هذا الجوّ العكر استقبلت الدّنيا طفلا بريئا لقّب بموسى و لم يتسرّب خبره إلى فرعون ذلك أنّ أمّه قد احتزرت كلّ الإحتراز من أن يرى فيصل خبر مولده إلى فرعون فينفذ فيه الحكم الذي أصدره.

بقي موسى بين أحضان والدته أشهر قليلة، و المسكينة فرحة به حزينة عليه، و لما خشيت إفْتِصاح أمرها أعلمها الله تعالى و علّمها أن تصنع له صندوقا و تضعه فيه ثمّ تطليه بالقطران و تلقيه في اليمّ، فرضخت لأمر ربّها و فعلت ما أمرت به، و كان الله سبحانه و تعالى قد أخبرها بأنّه سيعيده إليها و يكرّمه بالرّسالة و طلبت من أخته أن تتبّع أثر الصندوق الذي يحوي أخاها؛ و لم تنزل القدرة الإلهيّة تحرسه، حتّى أتى أمام بيت فرعون، فالتقطه بعض آل فرعون و أتوه به فلمّا رآته زوجته أحبّته بإذن الله و طلبت منه أن لا يقتله و أن يتّخذاه ولدا و كانا قد حرما من الأولاد، و لم تنزل أخته تراقبه حتّى رأت إعراضه عن أيّ ثدي، فعرضت عليهم أن تدعو لهم امرأة

^١ سورة غافر، الآية : 51

ترضعه، فأصغى آل فرعون لرضعها وبعثوها في طلب المرضعة فجاءت أمه و كان قد أخذها من الخوف و الجزع على رضيعها ما أخذها، و لكن قدرة الله وسعت كل شيء فيها هو ابنها يعود إليها و لا أحد يدرك سره و لا سرها² : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَاَلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ مَحَدُّواً وَحَدًّا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكِن لَّا تُقَاتِلُوهُ فَخَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَنَا أَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتَنْفُذِي بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَّمِي قَلْبِي لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ³﴾

و لما تمت مدة الرضاعة أتت أم موسى به تحمله إلى بيت فرعون ليتولّى البلاط الفرعوني تربيته و رعايته، و لما شبّ و بلغ من القوة مبلغاً أتاه الله الحكمة و العلم و هذا جزاء المحسنين قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ⁴﴾ .

قضى موسى فترة شبابه في بيت فرعون و قد علم أنه اسراييليّ دخيل في بيت فرعون؛ خرج سيّدنا موسى - عليه السلام - ذات يوم قاصدا المدينة في تستر من أهلها فوجد فيها رجلين يتعاركان أحدهما من بني جلدته، و الآخر من آل فرعون، فطلب الإسرائيليّ يد العون من موسى لما رأى فيه من قوة جسمانيّة و قد أدّت يد العون هاته إلى قتل ذلك الفرعوني فندم موسى - عليه السلام - على فعلته و عدّها من عمل الشيطان و راح يستغفر ربّه، فغفر له و تاب عليه إنه هو التّوّاب الرّحيم⁵ و هو القائل : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا

² ينظر: عماد زهير حافظ " القصص القرآني بين الأبناء و الأبناء"، دار العلم، دمشق، د.ط، 1410 هـ. 1990 م، ص : 250 251 252.

³ سورة القصص، من الآية 7: إلى الآية: 13

⁴ السورة نفسها : 14

⁵ ينظر: عفيف عبد الفتاح طبّارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم"، دار العلم للملايين، بيروت. لبنان، ط : 5، د.ت، ص : 221، عبد الوهاب

النّجار " قصص الأنبياء"، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط: 3، د.ت، ص : 163

الزّحشري " الكشاف"، ج: 4، ص: 218

رَجُلَيْنِ يَفْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ مَحْدُوهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى
الَّذِي مِنْ مَحْدُوهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ مَحْدُوٌّ
مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنَّنِي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ
رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ⁶

و لما كان اليوم الثاني خرج موسى - عليه السلام - ليتجول في المدينة و كله وجل من أن
يعلم أمره ، فوجد ذلك الإسرائيلي الذي أغاثه بالأمس يتشاجر مع فرعوني آخر فطلب الإسرائيلي
موسى أن ينصره، فغضب موسى - عليه السلام - من المستغيث كونه كثير الخصام، ثم أقبل
ليفيض النزاع فخشى الإسرائيلي و ظن أن موسى ينوي قتله فقال له: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ
تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾⁷ و ما سمع ذلك الفرعوني هذا الخطاب حتى هرع إلى قومه
ليوافيهم بالخبر، و بدأ البحث عن موسى ، فسمع رجل ممن يخلصون لموسى

و يكونون له الحبّ و أخبره بالأمر فنصحه بأن يغادر مصر على الفور و عمل موسى
بالنصيحة المقدمة إليه و راح يتضرّع لربه أن ينجيه من القوم الظالمين⁸

و إليك الآيات الواردة في هذا الصدد: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ
يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ مَحْدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ
إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْطَفِينَ وَجَاءَ
رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ
إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ﴾⁹

عصمة الأنبياء محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي البكري فخر الدين الرازي (543 هـ. 606 هـ)، عصمة الأنبياء، 1981م، ص: 79.80

⁶ سورة القصص، من الآية : 15 إلى الآية : 17 .

⁷ السورة نفسها، الآية : 19 .

⁸ ينظر: عفيف عبد الفتاح طيارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم"، ط : 5 ، ص: 222

الزخشري "الكشاف"، ج: 4، ص: 218

ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد الرابع، ص : 386. 387

⁹ سورة القصص، من الآية : 18 إلى الآية : 21.

و خرج موسى من مصر قاصدا أرض مدين، طالبا النجاة بخيط رقبتة، ولما قصد ماء مدين ليلاً حلقه الذي جفّ من طول الطريق وعناء السفر وجد عند نفر من الناس يسقون أغنامهم و مواشيهم و القويّ منهم هو من يفرغ من السقي قبل غيره من المزدحمين، و أمام هذا المشهد لفت نظر موسى فتاتان راحتا تمنعان غنمهما من ورود الماء فعجب لذلك و راح يسألهما عن أمرهما فأجابته بأنهما أتيا ليسقيا غنمهما، و لكن كثرة الرعاة و شدة الزحام معا حالتا دون ذلك فهما ينتظران حلول المكان حتى يتسنى لهما سقي غنمهما و أضافت الفتاتين لجوابهما : ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾¹⁰، فعلم موسى ضعف الفتاتين و حياءهما، و أخذته الشفقة اتجاهاهما فسقى لهما و لم يتجرأ أحد على منعه لما رآوا فيه من قوّة و إقدام، و لما غادرت الفتاتين بقطيعهما، اتجه موسى - عليه السلام - إلى مكان ظلّ ليستعيد قواه شاكرا ربّه على ما أتاه من النعم و الأفضال¹¹.

و بعد قليل جاءته إحدى الفتاتين و كلّها خجلا و حياء و قالت له بأنّ أباهما يريد أن يجزيه أجر ما عمل و استجاب سيّدنا موسى - عليه السلام - لدعوة الشيخ كيف لا و هو غريب و وحيد في هاته الفيافي الواسعة .

أتى موسى - عليه السلام - الشيخ و أفضى له بما في نفسه من معاناة و خيوف و هلع، فاستأثر الشيخ بحديثه و طمأنه قائلا : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾¹² و لنقرأ الآيات الواردة في هذا الشأن : ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّهَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ

¹⁰ سورة القصص، الآية : 23.

¹¹ ينظر : عفيف عبد الفتاح طبارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم"، ط : 5 ، ص : 222 ، 223، عبد الوهاب النجار "قصص الأنبياء" ط : 5 ،

ص : 165 و 166 ، ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد الرابع، ص : 387 . 388

¹² سورة القصص، الآية : 25.

فَقَبِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِغْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ¹³.

نال سيدنا موسى - عليه السلام - الإعجاب من الشيخ و ابنتيه فطلبت إحداهما من والدها استئجاره لرعي غنمهم كونه قوي و أمين فوافق الشيخ و طلب من موسى أن يرعى له غنمه ثماني سنوات مقابل تزويجه إحدى ابنتيه، و إذا زاد سنتين فتلك منة جليلة، فقبل موسى - عليه السلام - على أنه بالخيار في أي الأجلين يخدم فإذا أراد أن يقضي الأجل الأول فلاحق للشيخ في مطالبته بإتمام العشر و إن هو أتمّ العشر فليس للشيخ أن يطلب منه الزيادة و اتفق الطرفان على ذلك قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْمَأْمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ إِيَّكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَهُ حَشْرًا فَمِنْ مَعْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا مُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ¹⁴.

لما نفذ موسى الإتفاق و أتمّ المدة، أخذ أهله و اتجه شطر الجنوب حتى وصل طور سيناء، و في ليلة مباركة أراد الله سبحانه و تعالى أن يكرم نبيه موسى - عليه السلام - بنبوته و كلامه، و كان قد ضلّ الطريق و بينما هو على هاته الحال إذ رأى نارا فطلب من أهله أن يمشوا في مكانهم. سأذهب لآتيكم منها بفس نستضيء به، أو جذوة نصطلي بها و لما انتهى إليها ناداه ربه آمرا إياه بخلع نعليه تعظيما و توقيرا لوادي طوى المقدس. فسمع من ربه ما آنس نفسه فقد اصطفاه الله و جعله نبيا و عليه أن يستمع لما يوحى إليه، و أنّ الله واحد لا شريك له و هو المستحق للعبادة و أعلمه كذلك أن سيأتي يوم لا ينفع المرء غير العمل الصالح، ثم أراه سبحانه و تعالى بعض معجزاته بدءا بالعصا التي تلقى على الأرض فتقلب حية تسعى، ثم يده حين ضمها إلى جيبه و لما أخرجها رآها بيضاء و متلألئة و أمره بالذهاب إلى فرعون ليلّغه الرسالة الإلهية، و لما كان سيدنا موسى - عليه السلام - يعلم ما هو عليه الملك فرعون من تجبر و طغيان طلب

¹³ السورة نفسها، من الآية : 28 إلى الآية : 35.

¹⁴ سورة القصص، من الآية : 26 إلى الآية : 28.

من ربه أن يشرح صدره و يسهل عليه أمر لقاء فرعون و أن يرسل معه أخاه هارون ليساعده في أداء هذه المهمة الصعبة التي ألقيت على عاتقه و هي مواجهة أحد الجبابرة الذي خلا قلبه من الرحمة و الرأفة، و يجيب الله سبحانه و تعالى دعوة نبيه موسى - عليه السلام - بالقبول، و يحقق له كل طلباته¹⁵ و اقرأ هاته الآيات لترى كم فيها من بيان رائع و تعبير راق : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اخْضَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاجْلُزْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ فَذُ أَوْتِيْتَ سَوْلكَ يَا مُوسَى﴾¹⁶.

بعث الله موسى - عليه السلام - و أخاه هارون إلى فرعون بعد أن أيدهما بالآيات و المعجزات و أمرهما بتبليغ رسالته على أتم وجه و أن يأتيا فرعون و يلقيا إليه الكلم الطيب عساه يتذكر أو يخشى . و على الرغم من جرعهما و وجلهما من مواجهة فرعون و رد فعله إلا أن الله سبحانه و تعالى طمأنهما و وعدهما بالحفظ و أن يقيهما شره، كما أمرهما أن يبلغاه

¹⁵ ينظر: عفيف عبد الفتاح طيارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم"، ط: 5، ص: 225 و 226، أبو الفداء إسماعيل بن كثير "قصص الأنبياء"،

مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1401، 1981 م، ص: 311 - 312.

الزمخشري "الكشاف"، ج: 4، من ص: 27 إلى ص: 32.

ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، الجزء الرابع، من ص: 50 إلى ص: 55.

¹⁶ سورة طه، من الآية: 9 إلى الآية: 36.

بأنهما رسولان من عند الله الذي هو عبد من عبده و ما أنت بإله فكيف تدعي الألوهية
و تستعبد عبادا مثلك فهذا ليس حقاً من حقوقك و لا عدلا منك فدع بني اسرائيل يتمتعون
بمآلديهم من حقوق مقابل قيامهم بواجباتهم.

و نحن إنما جئناك لنبلغ لك ذلك، و السلام على من اتبع الحق و أطاع الواحد الأحد قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ۖ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۚ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۚ قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ۖ أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ۖ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۚ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ۖ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَٰئِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ ۚ ۝١٧ ۚ

ذهب موسى - عليه السلام - برفقة أخيه هارون ليلبغا رسالة ربّهما، فقال موسى لفرعون: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ إِسْرَافِيلَ﴾¹⁸ فموسى - عليه السلام - يقول أنّ من واجبه الإخبار بالحقّ و المعجزات التي أيّده الله بها دليل قاطع على صدقه و قوله الحقّ.

عجب فرعون من قول موسى وراح يذكره بفضلہ علیہ و هو رضيع قد تخلّى عنه أهله، ففتح له بيته و قلبه هو و زوجته، و هذا يقتضي بالمقابل أن يكون وفيًا لهما، و ماذا عن الرجل الفرعوني الذي قتله و هل يكون القاتل إلاّ آثماً لا يحقّ له ادعاء حمل الرّسالة، و يردّ سيّدنا موسى - عليه السّلام - الاتّهام الموجه إليه فهو لم يقصد بحال من الأحوال قتل الفرعوني إنّما أراد فضّ النزاع ليس إلاّ، فخاف عقاب خطإ لم ينو ارتكابه فغادر مسقط رأسه إلى حيث يشاء الله فاتاه الله الحكمة و النبوة، ثمّ إنّ رعاية فرعون لسيّدنا موسى - عليه السّلام - لم تغطّي و ألو ذرة ممّا اقتطفه في حقّ بني اسرائيل فهو واحد منهم يحزنه ما يحزنهم و يسعده ما يسعدهم قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ مُمَرَاتِ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ

¹⁷ السورة نفسها، من الآية : 42 إلى الآية : 47.

¹⁸ سورة الأعراف، الآيتان: 104، 105

الَّتِي فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ نَحْدِثَ بَنِي إِسْرَائِيلَ¹⁹، ويستمر الحوار بين سيدنا موسى - عليه السلام - و فرعون مثلما تصوّره لنا الآيات : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَلْطَمَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلَّمُنَا عِنْدَ رَبِّنَا فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُّوا وَارْعَمُوا أُنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلأُولَى النَّاصِي مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى²⁰، فانظر كيف تجاهل فرعون اللعين معرفة رب موسى و هارون -عليهما السلام - ليبيّن لقومه أنّ هذا الذي جاءه ما هو إلا خصم له، ولما أجابه موسى - عليه السلام - الإجابة الشافية الكافية التي لم يجد بعدها كيف يعلل الموقف، بادره بسؤال آخر يتعلق بالقرون الأولى التي كانت تسير في غير خطّ الإيمان فأجابه موسى بأنّ علم ذلك كلّ عند الله في كتاب محفوظ، فالله سبحانه و تعالى هو الخالق لكلّ شيء فقد خلق الأرض و جعل فيها من السبل ما يجعلها صالحة للحياة، و بالمقابل خلق السماء لتحيتها بما يهطل منها من أمطار فتخصب و تنبت ما يمكن للبشر و الأنعام الإنتفاع به، ثمّ ذكر كيف أنّ الإنسان يدخل هاته الحياة ثم يخرج منها ليقف بين يدي الله²¹ فهو الخالق وهو الذي تعود إليه جميع المخلوقات.

و لم يزل موسى يدعو فرعون للإيمان في مجمع قومه، حتّى أحسّ ذلك الحقير بالضعف و لكي يداري هذا الضّعف أمر وزيره أن يبيّن له قصرا عاليا كي يطلع إلى إله موسى متغفلا قومه، موهما إياهم بقدرته الواهنة في هذا يقول تبارك و تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَٰؤُلَاءِ مَنْ لِي بِهِمْ أَوْثَرُ صَرْحًا لَعَلِّي أُدْعَىٰ مِنَ الْآسَابِجِ أَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ فَأُطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ

¹⁹ سورة الشعراء، من الآية : 18 إلى الآية : 22.

²⁰ سورة طه، من الآية : 49 إلى الآية : 55.

²¹ ينظر: محمد حسين فضل الله "الحوار في القرآن"، قواعد. أساليبه. معطياته. دار المنصوري للنشر، الجزائر، 1396 م، ج : 1، ص : 69

ربيع بن هادي المدخلي "منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله" فيه الحكمة و العقل قصر الكتاب، البلدية، دار المعارف العلمية، الجزائر، د.ت، من

ص : 69 إلى ص : 71

كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَلْعَنُونَ ۚ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ مَعْمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كُنْزُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي
تَبَاجُحٍ ۚ²²

يتواصل الحوار بين سيدنا موسى -عليه السلام- و الطاغية المتسلط فيطلب هذا الأخير
من محاوره أن يقدم دليلا على صدقه و كان الله عزّ و جلّ قد أيّده بمعجزتي العصا و اليد قبل أن
يرسله إلى فرعون - كما ذكرنا من قبل - فألقى سيدنا موسى -عليه السلام- عصاه فإذا هي
ثعبان نبين،

و أخرج يده من جيبه فإذا هي ناصعة البياض و رغم كلّ هاته الحقائق و المعجزات إلّا أنّ
فرعون و قومه تمادوا في غيهم و كفرهم و عنادهم و نعتوه بأنه ساحر يريد أن يخرجهم من
أرضهم فيستولي بذلك على الملك و تحداه فرعون و قومه أن يواجه السحرة و وعدهم بتقريبهم
إليه إن هم هزموا موسى - عليه السلام - و جاء اليوم المتفق عليه و كان يوم عيد حسب ما
يذكر و اجتمع الناس من كلّ حدب و صوب، و اجتمع موسى مع السحرة و ألقوا ما عندهم
و جاءوا بسحر عظيم زرع الرّعب في نفوس الحاضرين و ألقى موسى عصاه إذ هي تلتقم كلّ ما
ألقوه من عصيّ و حبال و رأى الجميع أنّ هذا الذي جرى أرفع من مستوى السحر بكثير و أنّ
مردّه لقوة خفية هي قوة الله سبحانه و تعالى الذي خلقهم مثلما خلق نبيه موسى فخرّ السحرة
سا جدين لله مؤمنين به، و ثارت نائرة فرعون و رفض تصديق ما رأى بأمر عينيه شأنه كشأن
كثير من الطّغاة الذين لا يريدون تصديق الاستجابات الشّعبية لقوى التّغيير، و تبدأ حرب
الأعصاب لدى فرعون بتهديد السحرة بالعذاب و قطع الأيدي و الأرجل و الصّلب علّهم
يتراجعوا و لم يشأ هو و لا هم و إنّما شاء الله و مشيئة الرّحمن لا تبديل لها إنّها فعلا موقف من
أسمى مواقف الثّبات على الحقّ أمام إعصار الكفر و الطّغيان²³، و لنقرأ هاته الآيات لتبيّن كل
ذلك واضحا جليّا : ﴿قَالَ إِنْ كُنْتُمْ حَنِتُمْ بِآيَةِ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ

²² سورة غافر، الآيتان : 36 و 37

²³ ينظر: عفيف عبد الفتاح طيّارة "مع الأنبياء في القرآن الكريم"، ط: 5، ص: 230، 231، و ينظر عمّاد حسين فضل الله "الحوار في القرآن"،

ج: 121، ص: 72، 73

الرّمحشري "الكشاف"، ج: 2، من ص: 124 إلى ص: 127

ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثاني، من ص: 564 إلى ص: 588

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَحَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تَوَكُّلْ سَاحِرٌ عَلِيمٌ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقُوا سَعَوْا الْغِيْنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغْلِبُوا هَٰؤُلَاءِ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ أَهَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِهِ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا نَبْقِمْ هَٰذَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿٢٤﴾

أصرّ فرعون على عناده وتمادى في كفره على الرغم من كلّ الآيات البينات التي جاءه بها موسى -عليه السلام- و وعد أتباعه بقتل أبناء بني إسرائيل و استحياء نساءهم فسمع بنوا إسرائيل ذلك و شكوا حالهم للنبي موسى فأمرهم بالصبر و أنهم مهما ضاق الأمر فإن الله سيفرجه بإذنه يقول تبارك و تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْقَرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ وَالْهَيْتَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أَوْحَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ نَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُمْلِكَ عَذَابَكُمْ وَيَسْتَحْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

²⁴ سورة الأعراف، من الآية: 106 إلى الآية: 126

²⁵ سورة الأعراف، من الآية: 127 إلى الآية: 129

خشي فرعون أن يتركه قومه و يتبعوا موسى فعزم على قتله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ خَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾²⁶، و حذرهم مؤمن منهم كان يكتف إيمانه من قتل موسى لأنهم إن فعلوا نالوا ما نالت الأمم السابقة التي كذبت بآيات الله ، كقوم عاد و ثمود و قوم نوح و غيرهم ممن انتقم الله منهم جزاء عنادهم و تكذيبهم كما حذرهم من عذاب الآخرة، و أن سيدنا موسى - عليه السلام - ليس هو الأول و لا الأخير الذي بعث لهداية الناس و إخراجهم من الظلمات إلى النور و لنقرأ هاته الآيات: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ حَادِثًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ حَادِثًا يُصِرُّكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ يَأْقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَأْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ حَاقِبِ قَوْمِ نُوحٍ وَنُوحٍ وَهَامُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ وَيَأْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ﴾²⁷

لا زال مؤمن آل فرعون يدعوهم إلى الإيمان بالله و عدم الإغترار بمظاهر هذه الدنيا، و أن ما يدعون من دون الله لا ينفعهم و لا يضرهم من الله شيئا و لا زالوا هم راكبين جواد العناد ظانين أنهم سيسلكون الجسر بسلام . لربما خائنا التعبير عن هذا المشهد فلتقرأه كما ورد في الذكر الحكيم: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَأْقُومُ اتَّبِعُونِي أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَأْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ حَارُّ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

²⁶ سورة غافر ، الآية : 26

²⁷ سورة غافر ، من الآية : 28 إلى الآية : 34

يَرْزُقُونَ فِيهَا بغيرِ حِسَابٍ وَيَأْتُوهُمْ مَا لِي أَخْذُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
الْعَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ
مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوَضُ
أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاةُ اللَّهِ سَيِّئَاتِهِ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ
سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٢٨﴾

جمع فرعون قومه و أخذ في تركية نفسه، و احتقار سيدنا موسى -عليه السلام- و الخط
من شأنه و استطاع بكلامه المعسول أن يقنعهم بأنه أقوى من موسى و أنّ هذا ما هو إلا رجل
حقير -على حدّ قوله- يقول تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ
مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ
مَهِينٌ وَلَا يَخَافُ يُبَيِّنُ قُلُوبًا أَلْقِيَ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ
مُتَنَزِّئِينَ فَاسْتَخَفَّهُ قَوْمَهُ فَاطْلَعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾²⁹

أصرّ فرعون و قومه على كفرهم و عنادهم على الرّغم من المنن و النعم التي خصّهم الله
عزّ و جلّ بها فحرّ ذلك في نفس موسى و دعا ربّه أن يمحّق أموالهم، و يزيد قلوبهم قسوة
و كبرياء لئلاّ يؤمنوا. حتّى ياتيهم العذاب الأليم، فأمرهما الله - أي موسى و هارون- أن لا يجيدا
عن طريق الحق و أنّ أولئك سيكون له معهم شأن آخر، قال عزّ و جلّ: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا
إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا
اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَذُوقُوا الْعَذَابَ أَلَيْسَ قَالَ
قَدْ أَجِيبْتَهُ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾³⁰، و استجاب الله
لدعاء نبيّه موسى -عليه السلام- و أخذ آل فرعون بال جذب و القحط لعلمهم يعودون إلى رشدهم
و يؤمنوا بالقادر الوهاب ، و لكنّ الكفر طبع قلوبهم فما يؤمنون إلا قليلا ، فإن أصابهم خيرا

²⁸ سورة غافر، من الآية : 38 إلى الآية : 45

²⁹ سورة الزخرف، من الآية : 51 إلى الآية : 54

³⁰ سورة يونس ، الآيات: 88 و 89

قَالُوا : إِنَّا نَسْتَحِقُّ ذَلِكَ وَإِنْ أَصَابَهُمْ شَرٌّ تَطَيَّرُوا بِمُوسَى وَمِنْ مَعَهُ وَهُمْ لَجهلهم لَا يَدْرِكُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَاطِرُ لِكُلِّ ذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ مِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾³¹

أَمهل الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه عليهم يتراجعون عما هم عليه من كفر وجهل وعناد ولكنهم واصلوا تكذيب موسى والإستهزاء برسالته فأصابهم بنكبات متتالية تمثلت في الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فكانوا كلما أصابتهم مصيبة من هذه توسلوا إلى موسى ليدعوا ربّه حتى يكشفها عنهم فيؤمنوا ولكنهم لم يوفوا بعهدهم ، بل إنّه كلما كشف عنهم العذاب عادوا لما كانوا عليه من ضلال وكبرياء³² قال تعالى : ﴿وَقَالُوا هَمُّمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْجُرَنَ بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَمِدَ مِنْكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنْنَا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُفْوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾³³

طال مقام موسى - عليه السلام - بمصر وهو يدعو فرعون وملئه إلى الحق وهم معرضون ورغم الحجج والبراهين التي أظهرها أمام أعينهم إلا أنهم لم ينتهوا عما هم عليه من علوّ وكفر فأمر الله نبيّه موسى - عليه السلام أن يغادر مصر مرفوقاً ببني إسرائيل³⁴ ففعل موسى - عليه السلام - ما أمر به ، وصل هذا النبأ إلى فرعون فجهّز جيشاً عظيماً ظناً منه أنّ الغلبة للأكثرية وفاته لجهله أنّه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ولحق

³¹ سورة الاعراف ، الآيتان : 130 و 131

³² ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " ، المجلد الثاني ، من ص : 571 إلى ص : 574

الزحشري " الكشاف " ، ج : 2 ، ص : 129 . 130

الطبري أبو علي الفضل بن الحسن " مجمع البيان في تفسير القرآن " ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت ، المجلد : 11 ، ج : 25 ، ص : 48 و نفسه :

المجلد : 6 ، ج : 9 ، ص : 29

³³ سورة الاعراف ، من الآية : 132 إلى الآية : 135

³⁴ ينظر : ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " ، المجلد الرابع ، ص : 319

موسى - عليه السلام - غير مدرك أن القدرة الإلهية تحرسه هو و من آمن معه و "لما انتهى موسى و من معه إلى البحر، هاج البحر، فصار يرمي بموج كالجبال، فصار بنوا إسرائيل يقولون : أين المفر؟ فرعون من خلفنا و خلفنا و البحر أمامنا ، و موسى يقول : هاهنا ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر ، فإذا الرجل واقف على فرسه و لم يتل سرجه و لا لبده" ³⁵ و ينقل لنا القرآن هذه الصورة بمعنى و جيز يوفي بالغرض المراد أو بالأحرى المنشود : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ فَأَرْسَلْنَا مُوسَىٰ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُطَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَنُحُيُونَ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ³⁶.

لقد حقت كلمة العذاب على فرعون و ملئه و قد تركوا كل ما كانوا يملكون من النعم الزائلة فما أغنت عنهم من الله شيئا لا هي و لا قوتهم التي كانوا يتباهون بها ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَنُحُيُونَ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاجْهِسِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ³⁷، و هاهو البحر يطبق على فرعون و شيعته ، و يحرمه من أنفاسه فيميتة الله و يطرح البحر جثته خارج الماء ³⁸ ليكون عبرة لمن يريد أن يعتبر، فهذا الملك القوي الذي ملك ما ملك في هاته الدنيا قد هلك و لم يغن عنه جنده و لا قوته و لا كنوزه و لا بطشه من الله شيئا، و ما كان جزاء طغيانه و تسلطه إلا الموت غرقا و نصر الله الطائفة المؤمنة التي طالما استعبدتها و استضعفها .

³⁵ أحمد الصاوي "حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين" ، دار الفكر، بيروت ، د.ت ، المجلد : 3 ، ص: 173

³⁶ سورة الشعراء، من الآية : 52 إلى الآية : 67

³⁷ سورة الدخان ، من الآية : 25 إلى الآية : 29

³⁸ ينظر د: طول محمد " البنية السردية في القصص القرآني " ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1991 ، ص: 25

كان ذلك مصير فرعون و قومه الدنيوي أما مصيرهم الأخرويّ فحدّثنا عنه القرآن حين قال تبارك و تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَغُمُشًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾³⁹.

و ها هم قد صاروا أئمة النار في الأخرى بعدما كانوا أئمة الضلال في الأولى⁴⁰، و هكذا انتصر الحق على الباطل و استقرّت في أذهان من لهم قيم و قواعد دينيّة أن لا قوّة في الوجود تستطيع أن تنافس قوّة الله و تحدّهاها ، و لا قيمة في هذا الكون الفسيح إلاّ للإيمان و للشرائع السماويّة.

أغرق الله فرعون و جنوده و أنجى الذين اتّبعوا سيّدنا موسى -عليه السلام- بعد طول هداية و إرشاد، و بعدما أظهر لهم المعجزات التي أيّده سبحانه و تعالى بها ، و لكنّ الظاهر من خلال الآيات التي سنعرضها أنّ الوثنيّة التي عاشوا في أحضانها قد عادت زيارة نفوسهم فجعلتهم يغارون ممّن يعبدوا أصناما لا تسمع و لا ترى ، إذ أنّهم لما جاوزوا البحر و جدوا قوما جهّالا يتضرّعون إلى الأصنام، فطلبوا من سيّدنا موسى -عليه السلام- أن يصنع لهم صنما يعبدونه فتعجّب من قولهم و رأى أنّ جهلهم جهل مطلق لا حدود له ، فكيف يودّون عبادة التماثيل بعدما رأوا من الآيات العظمى و المعجزات الكبرى ما رأوا⁴¹، يقول تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْطِفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَخْمِرْ اللَّهُ أَبْغِيهِمْ إِلَهًا وَهُوَ فَخْلُهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾⁴².

لا زال بنوا اسرائيل يتابعون سيرهم و كلّما أصابتهم مصيبة شكوا إلى سيّدنا موسى - عليه السلام- أن يطلب من الله عزّ و جلّ تفرّجها عنهم و كان ربّه يستجيب له في كلّ مرّة حتّى إذا فرّجت عنهم تلك الكرب طلبوا المزيد من النعم ضارّين بذلك أنفسهم و ما ضارّين من

³⁹ سورة غافر، الآيتان : 45 و 46

⁴⁰ ينظر: محمد سعيد " منهج القرآن في التزيّة "، مؤسسة الرسالة ، حقوق الطبع محفوظة ، بيروت ، 1402 هـ- 1982 م ، ص: 269

⁴¹ ينظر: الزمخشري " الكشّاف "، ج: 2، ص: 131

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلّد الثاني، ص: 545

⁴² سورة الأعراف، من الآية : 138 إلى الآية : 140

أحد قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ مِمْنًا هَذَا نَحْمُكُ كُلُّ أَنْاسٍ مَشْرَبُهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁴³.

و روي أنّ سيدنا موسى -عليه السلام- وعد بني إسرائيل لما كانوا بمصر أنّ الله سيهلك عدوهم، و ياتيهم كتابا يبين لهم فيه الحلال من الحرام ، فلما أهلك الله فرعون و جنوده سأله موسى الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما فلما أتمها أمره بزيادة عشرة أيام، و قبل أن يذهب سيدنا موسى -عليه السلام- لمناجاة ربه أوصى أخاه هارون أن يكون خليفته و أن يصلح ما استطاع من أمور بني إسرائيل و أن لا يتبع الفساد، و بعدما أتم الأربعين يوما طلب من ربه أن يظهر له و كله لهفة و شوق لرؤيته ، و لكنّ الله تبارك و تعالى أخبره بأنّه لن يستطيع رؤيته و طلب منه النظر إلى الجبل فلما تجلّى الله للجبل جعله أرضا دكاء مستوية و خرّ موسى -عليه السلام- مغشيا عليه لهول ما رأى و لما عاد إلى وعيه قال يا ربّ إني أنزّهك ممّا لا يجوز عليك و أنا أوّل المؤمنين بعظمتك و جلالك فاصطفاه الله و أيّده بالتوراة و بتكليمه إياه ، و قد حوت التوراة كلّ ما يحتاجه بنوا إسرائيل من المواعظ و تفسير الأحكام و بيانها⁴⁴ قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتِهِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبَتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَامِ مِنْ

⁴³ سورة الأعراف، الآية : 160

⁴⁴ ينظر: الزّخشي "الكشاف"، ج:2، ص: 132 . 133 . 134

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثاني، من ص: 576 إلى ص: 580

كُلَّ شَيْءٍ مَّوْبِغَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا
سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٥﴾ .

ذكرنا آنفا أنّ الوثنية قد أخذت من قلوب بني إسرائيل بنصيب وافر كونهم لازموا المصريين طويلا، و لعلّ من أبرز مظاهر الوثنية عندهم تأليه العجول و حدث أنّ موسى -عليه السلام- قبل ذهابه لمناجاة ربّه أخبر قومه بأنّ مدّة غيابه ستدوم ثلاثين يوما، - فكان أن أمره الله بعدما أتمّ هذه المدّة أن يريد مدّة عشرة أيّام ليتّم بذلك أربعين يوما ، و لما كان لا يخفى على الله شيء في السموات و لا في الأرض فقد علم ما كان من السّامري مع بني إسرائيل و عبادتهم العجل لما تأخرت عودة النّبي موسى - عليه السلام- و أنّ أخاه هارون الذي تركه خليفة له قد نهاهم عن عبادة ما لا ينفع و لا يضر . و لكنّ السامري استطاع أن يستزلفهم ، رجع موسى - عليه السلام- إلى قومه و هو في غاية من الغضب و الحنق، فكيف يعبد قومه غير الله وقد أيدهم بالتوراة و اتّجه إلى أخيه يلومه لما لم يخبره بأمر كفرهم بعبادتهم العجل أوّل حدوثه فقال هارون : لو أنّي تركتهم و لحقت بك لأخبرك بما جرى لعائنتي على تركهم و حدهم ، و لرأيت أنّ استخلافك لي كان خطأ، ثمّ راح موسى -عليه السلام- يقول للسامري متسائلا ما الذي دفعك لفعل ما فعلت و يجيبه السامري: بأنّه رأى جبريل لما جاء ليهلك فرعون فأخذ قبضة من تحت حافر فرسه فألقى ما كان في يده على خلية بني إسرائيل فانسبك عجلا جسدا له خوار حفيف الرّيح فيه فهو خواره ، فقال له موسى كما مسست في ما لا يحقّ لك المساس به فستعاقب في الدّنيا بأنك لن لا تماس النّاس و لا يمسونك و يوم القيامة يحكم الله بما يشاء⁴⁵، قال تعالى:

﴿قَالَ فَإِنَّا فَدَقْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَخْلَاهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعِدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوَاجِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ

⁴⁵ سورة الأعراف ، من الآية : 142 إلى الآية: 145

⁴⁶ ينظر: الزّخشري " الكشاف "، ج: 4، ص : 42 إلى 44

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الرابع، ص: 75 إلى 78

فَأَخْرَجَ لَهُمْ جِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَاسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ
يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ
إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ
مُحَافِظِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّا تَتَّبِعَنِ
أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ
بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ
فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى
إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا⁴⁷.

أحسن بنوا إسرائيل أنهم اقترفوا في حق أنفسهم ذنبا عظيما باتخاذهم العجل إلها من دون
الله، فاختار موسى سبعين رجلا و خرج بهم إلى طور سيناء لملاقات ربه ، فطلب منه قومه أن
يسمعوا كلام ربهم فقبل ذلك ، و لما دنا من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله
و دنا موسى فدخل فيه و قال للقوم اقربوا و كان سيدنا موسى -عليه السلام- إذا كلم الله وقع
على جبهته نور ساطع لا يستطيع آدمي أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب و اقترب القوم حتى
إذا دخلوا فقعدوا ساجدين فسمعوه و هو يكلم سيدنا موسى -عليه السلام- يأمره بما يجب فعله،
و ينهاه عما يجب اجتنابه⁴⁸، و لما كشف الله عن موسى الغمام و أقبل على قومه قالوا له أن
إيمانهم مرتبط برؤية الله فأخذتهم الصّاعقة و سقطوا على الأرض صرعى فدعى موسى ربه فتاب
عليهم و أعادهم إلى الحياة لعلهم يهتدون أو يحدث لهم ذلك ذكرى في نفوسهم تمنعهم من الشرك
بالله قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ
رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَآيَايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ

⁴⁷ سورة طه، من الآية: 85 إلى الآية: 97

⁴⁸ ينظر: الرَّحْمَنِي "الكشاف"، ج:2، ص: 138، 139.

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثاني، ص: 584، 585.

الْغَافِرِينَ وَاجْتَنِبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِعَابِي
أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاجِدْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الرِّزْقَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ⁴⁹ و يقول تعالى أيضا : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ
نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁵⁰ .

استمرَّ سيّدنا موسى - عليه السلام - في أداء رسالته محاولا إصلاح بني إسرائيل ،
و توجيههم الوجهة الصحيحة ، و ما عاهدوا الله من الإيمان به و اتباع رسله ، و لما أخذ الله عزّ
و جلّ ميثاقهم رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه، و أن يأخذوا الكتاب بجدّ
و عزيمة كاملين، و يدرسوا ما فيه و يحفظونه و لا يغفلوا عنه أبدا، ثمّ أعرضوا عمّا أبرموا و لم
يوفوا به، و لولا أن الله وفقهم لتوبته لباتوا قوما خاسرين⁵¹ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ
وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁵² .

لم يزل موسى يذكر بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها الله عليهم، و أنّه فضّلهم على كثيرا
مّن خلق تفضيلا، فلم يبعث في أمة ما بعث فيهم من الأنبياء ، كما جعلهم يمتلكون كلّ ما كان
لفرعون و للجبابرة من أرزاق، طلب موسى من قومه دخول الأرض المقدّسة و أن لا يكونوا
جنباء فيولّوا الأدبار إذا رأوا الجبابرة القاطنين هناك و لكنّ قومه رفضوا دخولها خوفا من هؤلاء
فلا طاقة لهم بهم، فإذا خرجوا منها فإنّهم داخلون قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ
يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَئِنْ

⁴⁹ سورة الأعراف ، الآيتان : 155 ، 156

⁵⁰ سورة البقرة ، الآيتان : 55 و 56

⁵¹ ينظر: الزمخشري "الكشاف" ، ج: 1، ص : 72 ، 73

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم" ، المجلد الأوّل، ص: 154

⁵² سورة البقرة ، الآيتان : 63 ، 64

تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ فَمَنْ تَقَتَّلُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ⁵³.

لما أعرض بنو إسرائيل عن طاعة الله و أتباع النبي موسى -عليه السلام- حرّضهم رجلان ممن يخشون الله بأن يتوكلوا على الله فإنه سينصرهم فييده التفوق و الهزيمة، لكنهم أخبروا موسى بأنهم لن يدخلوها و قالوا له بأسلوب خال من الإيمان تتصاعد منه رائحة اللؤم و التمرد و العصيان : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِمْدُونَ﴾⁵⁴، و هنا تأكد لسيدنا موسى -عليه السلام- أنّ لا ثقة بأحد غير أخاه "هارون"، فطلب من الله أن يفصل بينهما و بين قومهما و أن يجازي كلا حسب عمله، فاستجاب له ربّه و أخبره بأن الأرض المقدسة محرّمة عليهم ليس لهم حقّ الدخول إليها و لا امتلاكها، فلا تأخذك الرأفة و تحزن عليهم لأنهم يستحقّون ما لحقهم من عذاب لفسقهم و كفرهم و شدة عنادهم⁵⁵ قال تعالى : ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَخَلْنَا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِمْدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرِّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُرْمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾⁵⁶.

لقد ترك بنو إسرائيل سيدنا موسى في الميدان وحيدا ، حاله حال القائد الذي يتفرّق عنه جنده ؛ و المعركة حام و طيسها و في هذا دليل على أنّ الله طبع على قلوبهم فما يؤمنون إلّا قليلا ، فلطالما حاول نبيّهم موسى - عليه السلام - إصلاح عقيدتهم، و هدايتهم إلى ما فيه الخير في الدّنيا و الآخرة، و لكنهم حادوا عن السبيل و نكثوا العهد فأخذهم الله بعذاب أليم في الدّنيا و هم في الآخرة من الخاسرين .

⁵³ سورة المائدة ، من الآية : 20 إلى الآية : 22

⁵⁴ سورة المائدة ، الآية : 24

⁵⁵ ينظر: الزّخشي " الكشاف " ، ج:2، ص : 21 إلى 23

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " ، المجلد الثاني، ص: 275 ، 276

⁵⁶ سورة المائدة ، من الآية : 23 إلى الآية : 26

و نقف في نهاية المطاف من قصة سيدنا موسى -عليه السلام- لتحدث عن لقائه بالعبد الصالح و ما كان بينهما، و لماذا أراد الله أن يتم هذا اللقاء ؛ تذكر التفاسير أن موسى - عليه السلام- لما وقد مصر مع قومه و استقرّوا بها بعد هلاك الفنط، أمر الله نبيّه موسى أن يذكر قومه بنعم الله عليهم، فقد اصطفى نبيهم و كلمه، فبادره قومه بأنهم على علم بذلك ، و أن الذي يودون معرفته هو أيّ الناس أعلم؟ فقال : أنا فعاتبه الله على ذلك لأنه تعالى لديه علم السموات و الأرض و هو أعلم العالمين، و أخبره بأن هناك من هو أعلم منه إنه الخضر و هو موجود عند مجمع البحرين فسأل موسى -عليه السلام- ربه كيف له بلقائه و هو لا يعرف مكان وجوده، فأمره سبحانه و تعالى أن يأخذ حوتا في مكتل و أينما فقدته فثمّة مكان الخضر ، فقال موسى - عليه السلام- لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني ، فذهب يسيران حتى أتيا ملتقى البحرين فجلسا ليستريحاً ، فأخذته سنة من نوم ، فاضطرب الحوت و وقع في البحر ، و لما جاء وقت الغذاء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، ورجعا يقصّان المكان الذي فقداه فيه حوتهما فإذا برجل هناك - هو الخضر-⁵⁷ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا خُذَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِزِّنَا وَعِلْمَانًا مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا⁵⁸ .

طلب موسى من العبد الصالح أن يسمح له بمرافقته علّه يزيده علما ، و لكنّ العبد الصالح أكّد لموسى بأنه لن يستطيع الصبر على ملازمته، فكيف يصبر على أعمال يراها من خلال ظاهرها مخالفة لما في رسالته التي آيد بها فقال له موسى بأنه سيكون صابرا إنشاء الله و أن لا يخالف العبد الصالح فاشترط هذا على سيدنا موسى - عليه السلام- أن لا يسأله عمّا سيري من تصرفاته لأنّه

⁵⁷ ينظر: الزنجشيري "الكشاف"، ج:3، ص: 212، 213

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثالث، ص: 587، 588

⁵⁸ سورة الكهف ، من الآية : 60 إلى الآية: 65

سيوضحها له في حينها قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا تُفَلِّمُ
رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ
سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ
شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ لَكَ مِنْهُ جِزْرًا﴾⁵⁹.

سار موسى - عليه السلام - و العبد الصالح على ساحل البحر يطلبان السفينة ، حتى إذا
ركبا و رأى الخضر أنّ أهلها صاروا غافلين أخذ الفأس و خرقها فغضب موسى من فعل صاحبه
و بادره متسائلا عن سبب خرقه لها أنوى بذلك إغراق أهلها إذا كان ذلك قصده فقد فعل فعلا
شنيعا، فذكره العبد الصالح بما كان بينهما من اتفاق، فأخبره موسى بأنه ما قصد ذلك و إنما
حدث لسهو منه و نسيان .

تابعا مسيرهما فإذا بغلام في طريقهما، فأخذه العبد الصالح و قتله، فعجب موسى من فعلته
هذه و راح يسأله عن السبب الذي دعاه لقتل غلام بريء فذكره العبد الصالح ثانية بما اتفقا عليه
، و أحسّ موسى - عليه السلام - بخطأه و قال له : إن سألتك بعدها عن شيء فلا تصاحبني .
ثم لا زالا سائرين حتى أخذ التعب و الجوع منهما بنصيب وافر فأتوا إلى قرية و طلبا من أهلها
أن يطعموهما فأبى أهل تلك القرية أن يضيّفوهما، و فيما هما ينويان مغادرة القرية، إذ وجدا
جدارا يوشك أن ينهار فأقامه العبد الصالح، فاحتار موسى لأمر صاحبه و راح يعاتبه على إصلاح
الجدار دون أجر مع أنّهما بحاجة إليه و قد منع عنهم القرى و بعد هذا العتاب حدث الفراق بين
موسى و صاحبه الخضر⁶⁰ قال تعالى في هذا الصدد: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ
خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ
إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَاقْتُلْتُهُ قَالَ آتَيْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ

⁵⁹ سورة الكهف، من الآية: 66 إلى الآية : 70

⁶⁰ les récits du coran (قصص القرآن) par Mohamed Ahmed jad al moula - Ali mohamed albajaoui

Mohamed Abu al Fadel Lbrahim Al Said chahata

ط:1- 1416هـ - 1996م traduit par : Samar Hamdar - Dar al - Kotob al Ilmiyah , Beirout - lebanon

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، من ص: 177 إلى ص: 180

أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ مَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا⁶¹.

و قبل أن يفارق العبد الصالح سيِّدنا موسى -عليه السلام - راح يبيِّن له ما أشكل أمره عليه، و ما كان ظاهره يخالف باطنه كلَّ الخلاف قال : إنّ السفينة إنّما حرقها لأعييها لما علمت من أنّ ملكا ظالما كان يستولي على كلّ سفينة صالحة و يسلبها من أهلها ، فأردت أن أعييها حتى إذا رآها ظنّها غير صالحة فيتركها لهم فيصلحونها و ينتفعون بها .

أمّا الغلام فإنّما قتلته لأنّ علامات الكفر ظاهرة عليه منذ صغره ، فخشينا أن يطغى كفره على إيمان والديه و يحملهما إلى ما لا يرضى الله ، و أردنا بذلك أن يرزقهما الله بمولود غيره يكون صالحا .

و أمّا الجدار الذي تعبت في إصلاحه -على الرّغم ممّا قابلنا به أهل تلك القرية - فكان لغلامين يتيمين في المدينة و كان تحته مال مدفون لهما ، و كان أبوهما صالحا فأراد الله أن يحفظ لهما الكنز حتى إذا كبرا استخرجاه و هذا الذي قمت به إنّما هو من رحمة الله، و هذا هو تفسير ما ضقت به ذرعا ، و لم تصبر حتى أحيرك به⁶² قال تبارك و تعالٰ : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاحِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَحْبِسَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا⁶³ .

⁶¹ سورة الكهف ، من الآية : 71 إلى الآية : 78

⁶² ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الثالث، ص: 596، 597

⁶³ سورة الكهف من الآية: 79 إلى الآية: 82

و بعد هذا العرض الوجيز لقصة سيدنا موسى - عليه السلام - و أقول الوجيز لأننا لم نعرض للقصة بالتفصيل الممل كوننا سنأتي على كل ما ورد في القرآن عنها بعد هذا العرض ، و نحن إنما أعطينا ملخصاً للقصة و أحداثها بادئ الأمر لنجعل القارئ في الصورة و هو يتابع بحثنا هذا - لنا أن نقول أنّ سيدنا موسى - عليه السلام - قد لاقى من المعاناة و الشدائد ما لاقى ، فهو قد ولد في قوم لم يكن فيهم حقّ للذكور في العيش ذلك أنّ ملكاً غاصباً متجبراً يدعى فرعون كان يذبح كلّ طفل يولد "فلا شدة أعظم من أن يتلى الناس بملك يذبح أبناءهم حتى ألفت أمّ موسى ابنها في البحر مع طفليته ، و لا شدة أعظم من حصول طفل في البحر فكشف الله (تبارك اسمه) ذلك عنه، بالتقاط آل فرعون، و ما ألقاه في قلوبهم من الرقة عليه، حتى استحيوه، و تحريم المراضع عليه حتى ردّوه إلى أمّه، و كشف عنها الشدة من فراقه و عنه الشدة في حصوله في البحر" ⁶⁴.

و توالى المحن و الشدائد على سيدنا موسى - عليه السلام - فلقد أراد أن يفضّ الشجار و لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، و ما أغاض عليه آل فرعون فخرج من مصر خائفاً يترقب، و صار غريباً وحيداً في الفلات و لكنّ القدرة الخفية التي ترعاه قد أخرجته من غربته و وحدته بأنّ زوجته شيخ ابنته بعدما أسدى لها و لأختها معروفاً و هو لا ينوي من وراء ذلك نيل أيّ شيء غير رضی الله، و كان ذلك الشيخ قد استأجره لمدة معلومة و لما نفدت هذه المدة غادر هو و أهله فرأى ناراً و مضى بقبس منها فكلّمه الله و جعله نبياً لبني إسرائيل و أيّده بما لم يؤيد به أحداً قبله. و أمره بالذهاب إلى فرعون لأنّه طغى ، فطلب من الله عزّ وجلّ ان يشرك أخاه هارون معه ، فيكون وزيراً له ، حتى يمكن لهما أن يؤديا المهمة الموكولة إليهما على أكمل وجه و أمّه، و لكنّ فرعون يركب فرس العناد فعلى الرّغم من كلّ ما وضعه بين يديه و أيدي قومه من حجج و براهين على صحّة نبوته فإنّهم نعتوه بأنّه ساحر يريد أن يضلّهم على ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأوثان فأغرقهم الله بسبب كفرهم و طغيانهم و أنجى موسى و من معه.

⁶⁴ القاضي أبي علي الحسن بن علي التّوحي (م: 384هـ) "الفرج بعد الشدة"، تحقيق: عبود الشالحي، دار صادر، بيروت، 1398هـ.

كما عانى سيّدنا موسى - عليه السلام - كثيرا و هو يحاول هداية قومه إلى ما فيه الفلاح في الدّنيا والآخرة معا ، وقد رأينا كيف أنّه في كلّ مرّة يفرّج عنهم الكرب ، و كبف أنّهم كانوا ينكثون ما يعاهدونه عليه ، إلى أن ضاق ذرعا بكفرهم و عنادهم ، و طلب من العليّ القدير أن يفرّق بينه و بينهم لأنّهم تمادوا كثيرا في غيّهم و طغيانهم، ليلاقيه الله بعد ذلك كلّه بالعبد الصّالح ، الذي أصرّ على مرافقته ليستزيد ممّا خصّه الله به من العلم دون غيره ، و أعلن له مسبقا من أنّه لن يستطيع أن يصبر على ما سيراه لأنّ ظاهره يخالف المألوف ، و لكنّ موسى أبدى استعداده لقبول هذا العرض ، المتمثّل في عدم السؤال عن كلّ ما سيشاهده و يثير استغرابه و تساؤلاته، و أنّ عليه أن ينتظر حتّى يشرح له العبد الصّالح الدّاعي لما سيفعل ، و لكن ما قام به العبد الصّالح من خرق السفينة لأناس سمحوا لهم بالسّفَر فيها ، و من قتل لعلام لا يفرّق بين الصّالح و الطّالح، و من إقامة الجدار لقوم أبوا قراهما تحدّى صبر موسى، و أخذ يسأل العبد الصّالح في كلّ مرّة عمّا دفعه لفعل ما فعل، و في كلّ مرّة كان يذكره بما تعاهدا عليه، و لكن شخصيّة موسى - عليه السلام - القويّة الرافضة للظلم و الطّغيان دفعته ليعاود التساؤل المرّة بعد الأخرى ، إلى أن أبرم في آخر الأمر اتّفاقا يقضي بالصّبر على ما سيرى أو المفارقة بينهما، فحدث أن لم يستطع موسى - عليه السلام - السكوت على ما ظاهره منكرا ، فكان أن أقرّ العبد الصّالح حصول الفراق بينهما، و قبل أن يمضي كلّ منهما في طريقه ، راح يشرح له ما لم يستطع الصّبر و السكوت على رؤيته، و لكلّ ما عرضنا له من الحنّ و الشّدائد الّتي لاقاها سيّدنا موسى - عليه السلام - في سبيل تبليغ رسالته السماويّة العظيمة قد انجلت بمنح جليلة جازاه الله بها، كونه سار في طريق الرّشاد و الإيمان و لم يجد عنه على الرّغم ممّا ميّز هذا الطريق من منعرجات، لا يصبر على تحطّيتها إلّا من غمر قلبه حبّ الله و تمسّكه بطاعته، و خشية غضبه، و السّعي إلى الحصول على رضاه مهما كانت الظروف.

التأمّل في كتاب الله يلحظ التّنوّع في الأسلوب القرآني بين الإيجاز و الإطناب، و الإجمال و التفصيل، و الإطلاق و التقييد و العموم و الخصوص فما عبّر عنه بإيجاز في مكان قد يطنّب الكلام حوله في مكان آخر، و ما ذكر مجملا في موضع، فصّل في موضع آخر، و ما جاء في آية قد يدخله التّخصيص في أخرى.

و لما كانت قصّة موسى - عليه السلام - قد أخذت نصيبا وافرا من كتاب الله، فقد جاءت موجزة في بعض المواضع، و جاءت مسهبة مفصّلة في مواضع أخرى. و نحن إذ رمنا دراسة التّكرار في هاته القصّة - نعني قصّة موسى - عليه السلام - عمدنا إلى التّرتيب النّزولي بغرض التماس الزّيادة و النّقصان فيما نزل من الكتاب الحكيم متضمّنا هاته القصّة، و أثّرنا تعديد السّور التي اكتفت بالإشارة إلى قصّة موسى - عليه السّلام - و استثنينا منها في التّرتيب السّور التي فصلت الحديث عن هاته القصّة حتّى إذا خلصنا منها جميعا و ما حوته من آيات بيّنات عدنا إذ ذاك لنكشف الزّيادة و النّقصان بين ما جاء مجملا و مفصّلا، و ما نزل أوّلا و ما نزل آخرًا.

2- الإشارات الموجزة التي وردت في إثر قصّة موسى - عليه السّلام -:

ارتبطت حياة موسى - عليه السلام - بمواقف و أحداث انعكست على الحياة العامّة مؤثّرة في نفوس من حالفهم الحظّ للإطّلاع عليها⁶⁵، كما ارتبطت شخصيّة بميزات خاصّة جعلته يخطى بحصّة الأسد في كتاب الله، و لا غرابة في ذلك لأنّه أرسل إلى فتيين ركبت كلّ منهما فرس العناد و الكفر، ففرعون طغى و عصى أمر ربّه و كذّب بآيات الله و قد جاءته مبصرة، و بنوا اسرائيل اعتادوا الدّلّ و الإستعباد و ألفوا الوثنيّة التي ترسّبت فيهم منذ عهد طويل، فقد قاسى سيّدنا موسى - عليه السّلام - ما قاسى لتبليغهم رسالة ربّه، و لصرفهم عمّا لا ينفعهم و لا يضرّهم، و لكن إصرارهم على ما عهدوه صدّهم عن السّبيل و جعلهم يعرضون عمّا أتاهاهم به نبّيهم موسى - عليه السلام - من آيات بيّنات. و لا غرابة أيضا في أن يحضى موسى - عليه السّلام - بكثرة الذّكر في القرآن؛ لأنّ الله سبحانه و تعالى قد حدّثنا عن رسالته إلى فرعون، و عن رسالته إلى فرعون و بني اسرائيل، و حدّثنا في جانب آخر عمّا كان من شأنه مع قومه بنو اسرائيل، كما وجدنا في مواضع أخرى من كتاب الله حديثا عن ميلاده و طفولته و شبابه و كذلك مبدأ رسالته و نبوّته.

و لعلّ أوّل سورة وردت فيها الإشارة إلى قصّة سيّدنا موسى - عليه السّلام - هي سورة المزمل إذ يقول عزّو جلّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَىٰكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

⁶⁵ ينظر: محمد ناصر أبو حجاج "أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث" (1925-1776) بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري.

إشراف الدكتور: محمد ناصر، 1406 هـ. 1407 هـ م ل: 1986 م. 1987 م، ص: 256

رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا⁶⁶ و في هذا تحذير لأهل مكة من تكذيبهم لنبيهم، لئلا يصيبهم ما أصاب فرعون من العذاب بالموت غرقا.

ثم تأتي سورة الأعلى لنجد فيها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾⁶⁷.

تليها سورة الفجر بإشارة موجزة جدا: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذِي الْأَوْتَادِ﴾⁶⁸، و في هذا يقول الرّحشري: " قيل له ذو الأوتاد لكثرة جنوده و مضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا أو لتعذيبه بالأوتاد كما فعل بماشطة بنته و بأسية"⁶⁹

أما سورة (ق) فلما ذكرت الأقوام الذين كذبوا رسلهم أشارت إلى فرعون الذي طغى و كذب هو و قومه، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَحَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾⁷⁰.

أما سورة القمر فكانت إشارتها كالاتي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾⁷¹ ففي هاتين الآيتين يخبرنا تبارك و تعالى عن فرعون و قومه الذين كذبوا موسى و هارون لما جاءوهم مبشرين منذرين فكذبوهما فأخذهم الله بعذاب أليم.

و أما سورة (ص) فورد فيها قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَحَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾⁷²، في هذه الآية أيضا يخبرنا تعالى عن أولئك الأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم، فحلّ بهم ما حلّ من العذاب.

و قد يرى بعضهم أنّ ما ذكر في سورة (ق) هو ذاته الذي ذكر في سورة (ص) و لكنّ الأمر ليس كذلك، يقول الخطيب الإسكافي في هذا: " سورة (ق) مبينة فواصلها على أن يردف

⁶⁶ سورة المزمل، الآيتان: 15، 16

⁶⁷ سورة الأعلى، الآيتان: 18، 19

⁶⁸ سورة الفجر، الآية: 10

⁶⁹ الرّحشري "الكشاف"، ج: 6، ص: 231

⁷⁰ سورة (ق)، الآيتان: 12، 13

⁷¹ سورة القمر، الآيتان: 41، 42

⁷² سورة (ص)، الآية: 12

آخر حرف منها بالياء أو الواو و على ذلك جميع آياتها، و سورة (ص) بنيت فواصلها على أن تردف أو اخرها بالألف فكانت الآية التي من هذه العشر مختومة بوصف فرعون بذي الأوتاد، و بعدها ﴿أُولَئِكَ الْأَخْزَابُ﴾ ﴿فَهَقَّ بِمَقَابِهِ﴾، وما جاء بإزاء ذلك في سورة (ق) ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ﴾ و مكان ﴿فَهَقَّ بِمَقَابِهِ﴾ ﴿فَهَقَّ وَحِيدٌ﴾⁷³

و ما نلاحظه أيضا أن سورة (ق) اكتفت بذكر فرعون فقط، أما سورة (ص) فأتبعت ذكر فرعون بذي الأوتاد، وفي هذه الآيات التي ذكرنا اقتصرنا في إشارتها إلى قصة موسى - عليه السلام - على فرعون و السّورة الوحيدة من بينها التي ذكرت اسم النبي موسى - عليه السلام - هي سورة الأعلى.

ثم تأتي سورة الفرقان مشيرة للرّسالة و التّكذيب و إهلاك الذين كذبوا موسى و أخاه هارون يقول تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَحْمِيرًا﴾⁷⁴.

تليها سورة مريم - عليها السلام - بإشارة مقتضبة تخبرنا من خلالها عن سيدنا موسى - عليه السلام - و عن إخلاصه في عبادته، وفي أداء رسالته، و كيف أن الله أنجاه من آل فرعون لصدقه، و أجابه سؤله بأن جعل أخاه هارون نبيًا⁷⁵ يقول عزّ و جلّ : ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾⁷⁶.

ثم تأتي سورة هود تحدثنا عن إرسال سيدنا موسى - عليه السلام - إلى فرعون و قومه الذين طغوا في البلاد و أكثروا فيها الفساد فبئس عاقبتهم يوم القيامة يقول تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَلَيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُحُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ

⁷³ الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز"، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط : 04.

1401 هـ - 1981 م، ص : 398، 399

⁷⁴ سورة الفرقان، الآيتان : 35، 36

⁷⁵ ينظر: الرّخشي "الكشاف"، ج: 2، من ص : 77 إلى ص: 95

ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثاني، من ص: 446 إلى ص: 499

⁷⁶ سورة مريم، الآيات : 51، 52، 53

الْمُؤْرَدُونَ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِي الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْقُرَى نَقَصَهُ حَمْلُكَ مِنْهَا قَتْلَهُمْ وَحَصِيدُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ
عَنْهُمْ أَلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ
خَيْرًا تَتَّبِعُونَ⁷⁷، فلقد أرسل الله موسى بالآيات الواضحة و الدلائل الخارقة إلى فرعون و ملئه
و لكنهم كذبوه، و اتبعوا ذلك الطاغية الجاهل الذي لا يعرف للهدى منهجا، و لا للرشد طريقا
فاظلمهم في الدنيا و ما لهم في الآخرة من ناصرين، يومئذ لا تغني عنهم أوثانهم التي كانوا يدعونها
من دون الله شيئا⁷⁸.

ثم جاءت سورة الأنعام و قد شابها في سياقها المتدافع، بمشاهدها و مواقفها مجرى النهر
المتدافع بالأمواج المتلاحقة، بحيث ما تفتأ موجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة
لها، متشابكة معها في المجرى المتصل المتدفق.

و قد كانت قصة موسى - عليه السلام - إحدى تلك الموجات و إليك وصفها : ﴿وَمَا
تَدْرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ
الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَخْشَوْنَ
كَثِيرًا وَاعْلَمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾⁷⁹
﴿ثُمَّ أَنْبَأْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾⁸⁰، وفي هاتين الآيتين يخبرنا تعالى عن أولئك العباد المكذبين الذين
لم يعرفوا الله حق معرفته، فعلى الرغم من أنهم كذبوا الرسل و ما جاءوا به من الوحي إلا أن
الله تبارك و تعالى لم يمنعهم رحمته و لطفه، فقد جاءهم موسى بالتوراة فجعلوها قرايطيس مقطعة
و ورقات مفرقة، ليتمكنوا من إظهار ما يشاءون و إخفاء ما لا يشاءون، فدعهم في باطلهم
يخوضون بعد أن ألزمتهم الحجة، فلقد أوتي موسى الكتاب تاما كاملا على أحسن ما تكون عليه
الكتب لعل الذين كفروا بقاء ربهم يؤمنون⁸⁰.

⁷⁷ سورة هود، من الآية : 96 إلى الآية : 101

⁷⁸ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثالث، ص: 260

⁷⁹ سورة الأنعام، الآيتان : 91، 154

⁸⁰ ينظر: الرّخشي " الكشاف"، ج:2، من ص: 77 إلى ص: 95

ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثاني، ص: 446 إلى ص: 499

ثم جاءت سورة فصلت مشيرة للقصة هي الأخرى في آية واحدة وهي قوله تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَأَمَلْنَا سَبَقَتَهُ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّلَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيدِينَ﴾⁸¹ ، وفي هذه الآية يخبرنا الله عز وجل عن أنه أتى نبيه موسى التوراة، فأمن بها بعضهم، و كفر بها بعضهم الآخر، و لولا أن الله تبارك و تعالى أخر حساب الذين كفروا إلى يوم القيامة، لعجل عذابهم لأنهم ما كذبوا موسى عن بينة، و إنما ارتابوا فيما أتاهاهم به من المعجزات التي تبهر العقول النيرة.

ثم تأتي سورة الذاريات و فيها إشارة خاطفة إلى إرسال موسى -عليه السلام- إلى فرعون بسلطان مبين، فكذب فرعون موسى و نعته بالسحر و الجنون، فألقاه الله و جنوده في البحر جزاء بما جحدوا و كانوا يكفرون يقول تبارك و تعالى : ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّىٰ وَرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُمْ هَالِكُونَ﴾⁸².

ثم تليها سورة الأنبياء بإشارة موجزة هي الأخرى يقول تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁸³ ، وفي هاته الآية يخبرنا الله سبحانه و تعالى أنه أتى موسى و هارون الفرقان الذي هو التوراة، وقد نعته تبارك و تعالى بأنه ضياء و ذكر لما فيه من الشرائع و المواعظ.

ثم تأتي سورة المؤمنون و فيها يخبرنا تبارك و تعالى أنه بعث نبيه موسى - عليه السلام - و أخاه هارون إلى فرعون و ملأه بالآيات البينة و الحجج الواضحة فاستكبروا و أبوا اتباعهما كونهما بشرين فأهلكهم الله بذنوبهم، و أغرقهم أجمعين، و أنزل على موسى الكتاب - و هو التوراة - فيه أوامره و نواهيه بعد أن قصم فرعون و القبط و أخذهم بعذاب أليم⁸⁴ ، و إليك الآيات كما وردت في الذكر الحكيم يقول تبارك و تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَّالِينَ فَقَالُوا

⁸¹ سورة فصلت، الآية : 45

⁸² سورة الذاريات، الآيات : 38، 39، 40

⁸³ سورة الأنبياء، الآية 48

⁸⁴ ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الرابع، ص: 194

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ⁸⁵

ثم جاءت سورة السجدة مشيرة إلى القصة في آية واحدة حيث يقول عز وجل ﴿وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾⁸⁶
خبراً عن أنه أتى موسى - عليه السلام - التوراة، فلا يشك المشركون بعد ذلك في لقاء موسى
لربه، وقد شرع في التوراة ما فيه هدى لبني إسرائيل و نورا⁸⁷.

ثم جاءت سورة العنكبوت مشيرة إلى أولئك الذين طغوا في الأرض و استكبروا، كقارون
الذي ملك ما ملك من الأموال و الكنوز، و فرعون و وزيره هامان اللذين استكبرا في الأرض بغير
الحق، فحسف الله بهامان و بداره الأرض لأنه عصى ربه و تاه بما كسب من الأموال، و أغرق
فرعون و وزيره و جنودهما جزاء بما كفروا و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون يقول
تبارك و تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁸⁸

ثم تأتي سورة الحج بإشارة موجزة ذكرت من خلالها كيف أن سيدنا موسى - عليه
السلام - قد كذب رغم وضوح آياته و عظم معجزاته، فكان أن أبدل القوم المكذبين المحن بعد
النعم، و الهلاك بعد الحياة، و الخراب بعد العمران⁸⁹، يقول تبارك و تعالى في هذا المضمار:
﴿وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْنَا لِلظَّالِمِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾⁹⁰ "أي فكيف
كان إنكاري عليهم و معاقبي لهم"⁹¹ جرأ تكذيبهم و كفرهم بآيات الله و قد جاءتهم مبصرة.

⁸⁵ سورة المؤمنون، من الآية : 45 إلى الآية : 49

⁸⁶ سورة السجدة، الآية : 23

⁸⁷ ينظر: المصدر نفسه، مج : 4، ص : 498، و الزمخشري "الكشاف" ، ج : 5، ص : 30

⁸⁸ سورة العنكبوت، الأيتان : 39، 40

⁸⁹ ينظر : الزمخشري "الكشاف" ، ج : 4، ص : 86

⁹⁰ سورة الحج، الآية : 44

⁹¹ ينظر : ابن كثير " تفسير القرآن العظيم"، المجلد الرابع، ص : 168

تلتها سورة النساء مشيرة إلى القصّة في موضعين الأوّل في ثلاث آيات في قوله تعالى :
﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقَتَلْنَا لَهُمْ أَخْطَلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَتَلْنَا لَهُمْ لَأَ تَعْبُدُوا فِي السَّنَةِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا خَلِيطًا فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَتَلَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفَةً بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁹².
و الثاني في آية واحدة في قوله تبارك و تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾⁹³.

ثم تأتي سورة الصفّ وهي حسب ما نعتقد آخر السور التي اكتفت بالإشارة إلى قصّة موسى - عليه السلام - لما أذاقه من الأذى بانتقاصه و جحود آياته و عبادتهم البقر و طلبهم رؤية الله و فوق كلّ ذلك تكذيبه مع أنّ ما جاءهم به كاف لتصديقه، و الشّهادة له بأنّه رسول الله إليهم و في هذا يقول عزّ و جلّ : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُذَوْنَنِي وَكَذَّبْتُمْ عَنْ أَنْبِيَائِكُمْ وَرَبِّيَ عَلَّمُ الْأَنْبِيَاءَ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾⁹⁴.

و هكذا نجد أنّ قصّة موسى - عليه السلام - قد أشير إليها في كثير من السور القرآنيّة، و قد كانت تلك الإشارات تطول نوعاً ما أحياناً، و تقصر لتقتصر على آية واحدة أحياناً أخرى، مثلما وجدنا ذلك في كلّ من سورة الفجر، الآية : 10، سورة (ص)، الآية : 12، سورة فصلت، الآية : 45، سورة الأنبياء، الآية : 48، سورة السّجدة، الآية : 23، سورة الحجّ، الآية : 44، فسورة الصفّ، الآية : 5 على التّوالي.

⁹² سورة النساء، من الآية : 153 إلى الآية : 155

⁹³ سورة النساء، الآية : 164

⁹⁴ سورة الصفّ، الآية : 5

3- الجوانب المفصلة في قصة موسى - عليه السلام - :

حضيت قصة موسى - عليه السلام - بنصيب وافرم من القرآن الكريم، فعلاوة على الإشارات التي ذكرنا نجد أنّ كثيرا من السور القرآنية قد تناولت القصة بتفصيل واف نجد على رأسها سورة الأعراف و هي إحدى السبع الطوال التي تناولت القصة مفصلة خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون، و خبره مع بني اسرائيل، فبعد أن حدثتنا السورة عن مجموعة من الرسل كنوح و هود و صالح و لوط و شعيب صلوات الله و سلامه عليهم و على سائر أنبياء الله أجمعين، انتقلت لتخبرنا عن سيدنا موسى - عليه السلام - و أنّه بعث بعد هؤلاء الرسل مؤيدا بالحجج و البراهين الواضحة إلى فرعون و قومه و لكنهم كفروا بها فانظر يا محمد - كيف أغرقناهم و تلك هي عاقبة كلّ معاند جبّار.

و يبدأ موسى - عليه السلام - بتبليغ رسالته و مناظرة فرعون ، فيخبره بأنّه رسول الله إليه و أنّ عليه أن لا يقول غير الحقّ فقد جاءهم بحجة قاطعة أيده بها الله و طلب من فرعون أن يدعو بني إسرائيل ليعودوا معه إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم و مسقط رؤوس آبائهم .

و لكنّ فرعون -لعنه الله- يقول له بأنّه لن يصدّقه و لن يقبل طلبه هذا ما لم يأتيه بحجة ظاهرة، فلم يكن من موسى إلّا أن ألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة، ثمّ أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء يابضا نورانيا عجبيا غلب شعاعها شعاع الشمس و هي من الآيات الباهرة التي لا يمكن لبشر أن يؤتيها إلّا بفضل من الله و معجزة من لدنه تبارك و تعالى .

و يحدثنا الله عزّ و جلّ بعد كلّ هذا عن اتّهام قوم فرعون سيّدنا موسى - عليه السلام - بالسحر و أنّ الذي يبيغيه هو إخراجهم من أرضهم و راحوا يتشاورون على ما سيفعلون به، و كان أن اجتمعوا على رأي واحد مفاده تأخير موسى و أخاه حين جمع السحرة الماهرين ليعارضوه بنظير ما أراهم موسى من الآيات البينات.

جاء اليوم و الموعود، و حضر السحرة و من الوهلة الأولى بادروا فرعون بالسؤال عمّا سيكون لهم من أجر إن هم هزموا موسى فوعدهم فرعون بأنّه سيمنحهم أجورهم و يجعلهم من المقرّين ، و لما اطمأنّوا لما عاهدهم عليه، سألوا موسى - عليه السلام - و كلّهم ثقة و اعتزازا

بأنفسهم إِمّا أن يلقي ، و إِمّا يلقوا هم و في طريقة مساءلتهم ما يدلّ على أنهم يرغبون في أن يبدأوا هم بإلقاء حبالهم و عصيّهم.

فقال لهم موسى : ألقوا ازدراء لشأنهم و قلّة مبالاة بهم و ثقة منه بأنّ المعجزة السّماويّة لا يضاهيها سحر أبداً، فسحروا أعين النّاس و أخافوهم حيث لوّنوا حبالهم و خشبهم ، و جعلوا فيها ما يوهّم الحركة فأرهبوا الجمع الحاضر، و أوحى الله إلى سيّدنا موسى - عليه السلام - بأن يلقي عصاه فإذا هي تلقف كلّ الإفك الذي جاءوا به فثبت الحقّ ثمّ أخذ موسى عصاه فعادت سيرتها الأولى ، و خرّ السّحرة ساجدين قالوا آمنا بربّ العالمين ربّ موسى و هارون ، فلو كان موسى - عليه السلام - ساحرا لما غلبهم.

و تثور نائرة فرعون لما فعله السّحرة من أنهم آمنوا بموسى - عليه السلام - و أنهم اتفقوا معه ليخرجوا القبط من مصر و يسكنها بنو اسرائيل، و كلامه هذا إنّما تمويها على النّاس لكي لا يتبعوا السّحرة و يؤمنوا و راح يتوعّدهم بأنّه سيقطّع أيديهم و أرجلهم من خلاف، ثمّ يصلّبهم كلّهم، و لكنّهم أعلنوا له أنهم إلى ربّهم راجعون، لأنّ من يهديه الله فلا مضلّ له و لن يستطيع أيّ تيّار أن يغيّر طريق الهدى مهما كان عاتياً، و يؤكّد السّحرة لفرعون أنّه ما عاب منهم إلّا إيمانهم بآيات الله لما جاءتهم مبصرة في الآفاق و راحوا يترضّعون لله أن يهبهم الصّبر و يكرهه عليهم و أن يتوفّاهم و هم ثابتين على الإسلام.

و لكنّ أتباع فرعون الذين أكّدوا له من قبل بأنّ موسى - عليه السلام - ليس برسول و إنّما هو ساحر خبير تجدهم بعدما بطل ما كانوا يفترون، يعودون ليحرّضوا ملكهم على سيّدنا - عليه السّلام - بأن ينظر في شأن موسى و قومه و أن لا يدعهم في سلام لأنّهم سيفسدوا رعيّته و يدعوهم إلى عبادة الله وحده، إنّهُ لأمر عجيب، غريب المفسد يتّهم المصلح، فما شهد العالم فسادا كالذي قام به فرعون اللّعين و ملأه و هاهم يتّهمون موسى - عليه السلام - بالفساد، و يجيئهم فرعون واعداءه بأنّه سيعيد عليهم ما كان قد محّتهم به من قتل أبناءهم و استحياء نسائهم، و أنّهم مقهورون تحت أيديهم، و أنّ غلبة موسى لا أثر لها في ملكهم، و حتّى لا يتوهّم الجمع الذين حضروا أنّ موسى هو المولود الذي أخبر عنه الكهنة و الذي سيكون زوال ملك فرعون

على يده، راح فرعون يتباهى بقوّته و جبروته، و أنّه هو القاهر فوقهم جميعا و أنّه مصمّم على إيذاء بني اسرائيل . فماذا كان موقف موسى أمام كلّ هذا ؟

لم يأبه موسى لما قاله فرعون، و إنّما راح يأمر قومه بالإستعانة بالله و الصّبر لأنّ الله تبارك و تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، و أنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، و أنّ الخاتمة المحمودّة ستكون للمتّقين، و لكن قوم موسى - عليه السّلام - شكّوا إليه ما كان من فرعون قبل مولده و من بعد ذلك، فقال موسى - عليه السّلام - منبّها على ما هم عليه، و ما سيصيرون إليه مستقبلا، فاشكروا ربّكم ليديم نعمه عليكم، و لا تكفروا به فيعاقبكم، و يهلككم كما عاقب و أهلك الذين كفروا من قبلكم.

و بعد هذه المحاورّة بين موسى - عليه السّلام - و بين قومه يخبرنا تبارك و تعالى عن آل فرعون لما ابتلاهم بالقحط، و نقص الثّمرات لعلّهم يردّعون عن الغيّ و يرجعون عن الكفر لأنّ النّاس في حال الشّدّة أضرع حدودا و أرقّ أفئدة، و لكن عنادهم طغى على قلوبهم، فإذا أصابتهم حسنة فرحوا بها و قالوا بأنّهم مستحقّوها، و إذا أصابتهم سيّئة تشاءموا بموسى و من معه، ألا إنّ سبب خيرهم و شرّهم عند الله و لكنّهم لهذا يجهلون، فهم لا يزالون مصرّين على نعت موسى بالسّحر، و ها هم يواجهونه مؤكّدين له بأنّه مهما جاءهم به من الحقائق و الدّلائل و البراهين المسحورة فإنّهم لن يؤمنوا، و لن يتخلّوا عن أوثانهم التي ألفوا عبادتها ضارّين بذلك أنفسهم و ما ضارّين من أحد فأرسل الله عليهم أنواعا من العذاب تمثّلت في الطّوفان و الجراد و القمل و الضّفادع و الدّم و آيات مبينات ظاهرات لا يشكّ عاقل أنّها من آيات الله و أنّ لا أحد يقدر عليها غيره، و يستغيث القوم المكذّبون بموسى - عليه السّلام - كي يدعوا ربّه ليكشف عنهم العذاب حتّى يؤمنوا، و لكنّهم نكثوا عهدهم كعادتهم، فانتقم الله منهم بأنّ أغرقهم في البحر جزاء بما كذبوا و كانوا يكفرون.

تنتقل الآيات بعد هذا إلى الحديث عن بني اسرائيل الذين استضعفهم فرعون و قومه، فأورثهم الله مشارق الأرض و مغاربها جزاء بما صبروا و كانوا يؤمنون، و بعدما أراهم الله آياته واضحة متألّفة في الآفاق ها هم بعد نجاتهم من الغرق يمرّون على قوم يواظبون على عبادة الأصنام و الذي يبهر العقول النّيّة أنّهم بدل أن يطلبوا من موسى السّماح لهم بقتالهم، طلبوا منه

أن يجعل لهم صنما يعكفون على عبادته كما هو حال أولئك القوم فبهت موسى و نعتهم بالجهل، فلا جهل أعظم من أن ترى كلّ تلك الآيات و المعجزات ثمّ يكذب صاحبها، و أن أولئك الذين يعكفون على عبادة الأصنام سيهدم الله دينهم، و يحطّم أصنامهم لأنّ عبادتهم غير الله باطل لا ينفعهم شيئا.

ثمّ راح موسى - عليه السلام - يذكر قومه بنعم الله عليهم، و أنّه أنقذهم من آل فرعون، و من الدّلّ و الهوان و عوّضهم بدلا من ذلك عزّة و اشتفاء، و يخبرنا تبارك و تعالى أنّه أعطى موسى - عليه السّلام - التّوراة فيها أحكام بني اسرائيل و تفاصيل شرعهم، و واعد الله موسى ثلاثين ليلة ثمّ زاده عشرا فتمّ مليقات ربّه أربعين ليلة و حينئذ استخلف موسى أخاه هارون على بني اسرائيل، و وصّاه بالإصلاح و عدم الإفساد، و يخبرنا تبارك و تعالى أنّ سيّدنا موسى - عليه السّلام - لما جاء لمليقات ربّه و كلّمه طلب رؤيته و لكنّ الله سبحانه و تعالى قال له: لن تراني، و لكن عليك أن تنظر إلى الجبل فإن بقي مكانه فسوف تراني، فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكا، فخرّ موسى نغشيا عليه غشية كالموت، و لما أفاق قال سبحانه إنّك منزّه ممّا لا يجوز عليك من الرّؤية و غيرها و أنا أوّل المؤمنين.

و يختاره الله و يؤثّره على أهل زمانه برسالاته - و هي أسفار التّوراة - و كلامه و ما أعطاه من شرف النبوة و الحكمة و يأمره بأن يشكر له و لا يشرك به شيئا، فقد كتب له تبارك و تعالى في الألواح من كلّ شيء موعظة و أحكاما مفصّلة، مميّزة الحلال من الحرام فأمره أن يعزم على الطّاعة، و أن يأمر قومه بالعمل بما هو أدخل في الحسن و أكثر للصّواب.

ثمّ تذكر الآيات الكريمة بعض صفات أولئك، و هي صفة التّكبر، و هم ليسوا جديرين بآيات الله، لأنّهم تكبّروا على الحقّ لما جاءهم بعدما كانوا مستضعفين، و إن ظهرت لهم طريق النّجاة لا يسلكونها و إن ظهر لهم طريق الضّلال يتخذوه سبيلا و تعليل مصيرهم هذا هو أنّهم كذبوا بآيات الله و لم يعلموا ما فيها، أولئك حبّطت أعمالهم و يجازيهم الله بحسب أعمالهم؛ إن عملوا خيرا و جدوه، و إن شرا و جدوه كذلك.

بعد أن ذهب موسى - عليه السّلام - لمليقات ربّه يخبرنا تبارك و تعالى أنّ بني اسرائيل ضلّوا من بعده و اتّخذوا العجل إلها لهم، و هو لا ينفعهم و لا يضرّهم من الله شيئا، و كيف أنّهم

حين اتَّخذوه إلهًا لم ينتبهوا إلى أنه لا يقدر على الكلام، و لا يستطيع الهداية، و كيف أنَّهُم اختاروه على من لو كان البحر مدادا لكلماته لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلماته، و لما اشتدَّ ندمهم و حسرتهم على عبادة العجل و تبَيَّنوا ضلالهم راحوا يتضرَّعون لله طالين رحمته، راجين مغفرته.

أما سيِّدنا موسى - عليه السَّلام - فقد رجع إلى قومه بعد مناجاته لرَّبِّه و هو شديد الغضب على ما فعله قومه من عبادتهم العجل بدلا من عبادة الله عزَّ و جلَّ بعدما رأوا منه من توحيد الله و نفي الإِشراك به و إخلاص العبادة له و حده فبئس ما صنعوه من عبادة العجل و أنَّهُم استعجلوا مجيئه، فطرح الألواح - التي تحوي ما ينفعهم و يهديهم سواء السَّبيل - لفرط دهشته و شدَّة ضجره لما بلغه من عبادتهم العجل بعده، ثمَّ أخذ رأس أخيه و راح يجرُّه إليه، ظنًّا منه أنه قرط في الرِّسالة التي أوكلها إليه، فراح هارون - عليه السَّلام - يتودَّد و يتلطَّف بأخيه، فهو قد بذل جهده في وعظهم و إنذارهم في غياب أخيه موسى - عليه السَّلام -، و لكنَّهُم استضعفوه و لم يبق إلَّا أن يقتلوه، فحريَّ بموسى أن لا يشمت به الأعداء و ألا يعاقبه فيجعله بذلك قرينا لهم، فهو ليس منهم و يرقَّ قلب موسى على أخيه فيدعو الله أن يغفر له و لأخيه و أن يدخلهما في رحمته.

تحدَّثنا الآيات بعد ذلك عن أولئك الذين اتَّخذوا العجل، و ما نالهم من غضب الله حيث قتلوا أنفسهم و أخرجوا من ديارهم، أمَّا الذين كفروا ثمَّ رجعوا إلى الله و اعتذروا إليه، فإنَّ ربَّك من بعد ذلك لحاء لما كان منهم، منعم عليهم بالجنة و نعم المصير. و يسكت عن موسى الغضب - و هو تعبير تهتَّزَّ له النفوس السَّليمة لما فيه من الرُّوعة و الإبداع - و يأخذ الألواح التي ألقاها و فيما نسخ منها هدى و رحمة للذين هم لربِّهم يرهبون.

ثمَّ يختار موسى من قومه سبعين رجلا ليدعوا ربَّهم و يستغفروه، و تأخذهم الرَّجفة فيقوم موسى يناشد ربَّه و يدعوه لأنَّ الله لو شاء لأهلكهم قبل هذا، فهل تهلكنا يا ربَّ لأنِّي إنَّما طلبت الرُّؤية زجرا للسَّفهاء المكذِّبين و هم إنَّما طلبوها تكبُّرا و جهلا، فمأهو إلَّا ابتلاؤك و اختبارك يا ربَّ حين كلَّمتني و سمعوا كلامك فاستدلُّوا بالكلام على الرُّؤية استدلالا فاسدا حتَّى افتتنوا و ضلُّوا فأنْتَ مولانا تضلُّ من تشاء و تهدي من تشاء، فاغفر لنا و ارحمنا فإنَّه لا يغفر الذَّنوب إلَّا أنت، و أثبت لنا في الدُّنيا و الآخرة حسنة لأنَّا تبنا و رجعنا إليك و يجيئهم

تبارك و تعالى : بأنه يصيب بعذابه من ضلّ عن السبيل، و أنّ رحمته الواسعة سيكتبها للذين يتّقون
و يؤتون الزّكاة.

و تنتقل الآيات بعد ذلك لتبيّن أنّ هذه الرّحمة سيكتبها للذين يكونون في آخر الزّمان من
أمة محمّد صلى الله عليه و سلّم الذين يؤمنون بما أنزل الله و لا يكفرون به شيئاً، الذين يتّبعون
النبيّ صاحب المعجزات سيجدون أنّه مكتوب عندهم في التّوراة و الإنجيل، و ما فيها من تحليل
الطّيّبات و تحريم الخبائث نحو الدّم و الميتة و لحم الخنزير و ما أهلّ لغير الله به أو ما خبث في
الحكم كالرّشوة و الرّبا و غيرها من الكسب الحرام الذي يأسر صاحبه و يمتعه الخراك.

و بعد هذا نجد الله تبارك و تعالى يأمر رسوله محمّد صلى الله عليه و سلّم أن يعلن للنّاس
جميعاً بأنّه نبيّ الله إليهم كلّهم عرباً كانوا أم عجماً لأنّه مبعوث ممّن في قبضته ملك السّموات
و الأرض، الذي يحيي و يميت و هو على كلّ شيء قدير، و يحدثنا القرآن الكريم عن أنّ من قوم
موسى من هم موقنين يهدون النّاس بكلمة الحقّ و يدلّونهم على الإستقامة و بالحقّ يعدلون في
أحكامهم.

ثمّ تبين لنا الآيات الكريمة ما كان عليه بعض بني اسرائيل من الكفر و النّفاق حتّى قطعهم
الله اثنتي عشرة أمة أسباطاً أمماً، و لما أخذ منهم العطش في الصّحراء القاحلة التي كانوا فيها طلبوا
من موسى أن يدعو ربّه ليسقيهم ماء و أوحى إليه ربّه أن يضرب بعصاه الحجر فتتفجر منه اثنتا
عشرة عينا لكلّ أناس مشربهم - أي عين خاصّة بهم -، و كان بالإمكان أن تكفيهم عين
واحدة، و لكنّ قدرة الله وسعت كلّ شيء، و معجزاته البيّنة فاقت حدود الخيال، ثمّ بعد أن
أرووا عطشهم ظلّل عليهم تبارك و تعالى الغمام حتّى لا يؤذيهم الحرّ، و أنزل الله المنّ و السّلوى
ليقتاتوا و أمام هذه الطّيّبات التي رزقهم الله بها، إلّا أنّهم أصرّوا على كفرهم، و لم يشكروا الله
على نعمه.

ثمّ تنتقل بنا الآيات لتحدّثنا عمّا كان من أمرهم بدخول القرية - و هي بيت المقدس -
و أن يقولوا كلمة أمرها بقولها ﴿حِطَّةٌ﴾ و لكنّهم بدّلوا القول الذي أمروا به فأخذهم الله بعذاب
عظيم، و يحدثنا تبارك و تعالى عن القرية التي كانت راكبة شاطئ البحر، و التي منعهم الله من
أن يصطادوا سمكها يوم السّبب و أن يتّخذوه يوم عبادة و تضرّع لله على ما هداهم، و يريد ربّك

أن يختبرهم بإظهار السمك على السواحل القريبة منهم في اليوم المحرم عليهم، وما كان السمك
ليقدم على ظهر الماء في بقية أيام الأسبوع فعدوا في السبت وخالفوا أمر الله فكذلك يختبرهم
بفسقهم عن طاعة الله وخرجهم عنها، ونجبرنا تبارك و تعالى بعد ذلك من أن أهل هذه القرية
قد صاروا فرقا ثلاثا فرقة غصت أمر ربها واعتدت يوم السبت بأن اضطادت السمك، و فرقة
نهت عن ذلك واعتزلتهم، و فرقة ثالثة قالت للمنكرة متسائلة لم تنهون هؤلاء القوم و أنتم
تعلمون أنهم هلكوا لتماديهم في الشر، و قولهم هذا دليل على أن الوعظ لا ينفع فيهم، فقالت
الفئة المنكرة إن موعظتنا إبلاء عذر إلى الله، فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف و النهي عن
المنكر، و لعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه و يدعونهم و يعودون إلى الله تائبين، و لكنهم لما أبوا
ترك ما ذكروا به نجى الله الناهين و أهلک الظالمين، فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه عذبهم الله
عذابا شديدا، ثم مسحهم بعد ذلك، و عزم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء
العذاب، ثم فرقهم في الأرض حتى لا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم، فيهم الصالح و الطالح،
و اختبرناهم بالرجاء و الشدة و العافية و البلاء لعلهم يهتدون فينبون، و جاء من بعد ذلك الجيل
جيلا لا خير فيهم، و قد ورثوا التوراة و راحوا يدرسونها و يقفون على ما فيها من الأوامر
و النواهي، و الحلال و الحرام و لا يعملون بها، و يقولون أن الله لن يؤاخذنا و يرجون المغفرة مع
إصرارهم على ما هم عليه من اقتراف الذنوب و ارتكاب المعاصي، مع أن الله قد شرع لهم في
الكتاب الذي تدارسوه - و هو التوراة - أن ارتكاب الذنوب العظيمة لا يغفر إلا بالتوبة
و للآخرة خير للذين آمنوا و اتقوا لو كانوا يعلمون، ثم نجبرنا تبارك و تعالى أنه بعد كل هذا قلع
الجبل و رفعه فوقهم، و ظنوا أنه ساقط عليهم كونهم رفضوا قبول أحكام التوراة لثقلها، فرفع الله
الطور على رؤوسهم و أمروا بأن يقبلوا كل ما جاء فيها، و إلا فسيقع عليهم هذا الجبل، فلما
نظروا إليه هالهم أمره و حر كل واحد منهم ساجدا على حاجبه الأيسر، و هو ينظر بعينه اليمنى
إلى الجبل خوفا من أن يسقط عليه، فلذلك لا ترى اليوم يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر،
و اليهود يزعمون أنها السجدة التي رفعت عنهم العقوبة، و أمر بنو اسرائيل بأخذ الكتاب بكل عزم
و تحمل تكاليفه، و ذكر ما اشتمل عليه من الأوامر و النواهي.

هذه هي قصة موسى - عليه السلام - في سورة الأعراف و هي كما نرى قد عرضت لجانبين موسى مع فرعون و ما لاقاه و هو يحاول جاهدا هدايته و قومه لما فيه ثواب الدنيا و الآخرة، و لكنهم ركبوا فرس العناد و الكفر على الرغم مما جاءهم به من الآيات البينات فأخذهم الله بعذاب أليم جزاء عما كفروا و كانوا يكذبون، و موسى مع بني اسرائيل و ما كان منهم من عبادة العجل و الخروج من طاعة الله بعدما أورشهم الله مشارق الأرض و مغاربها⁹⁵ و إليك الآيات كما وردت في الذكر الحكيم، قال تبارك و تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكَ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَلَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بِيضٌ لِلنَّازِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَهَاجَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا آتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَكِيحِينَ قَالُوا أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا الْبَنِي النَّاسِ وَاسْتَزْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ قَالُوا فِرْعَوْنُ آمَنَ بِكُمْ بِ قَوْلِ أَنْ أَتَىٰ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا نُنَبِّئُكَ مِنْهُ إِلَّا أَنَّ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرَكَ وَالْمَلَائِكَةُ قَالُوا سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ نِسَاءَهُمْ وَابْنًا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ قَالُوا

⁹⁵ ينظر: ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد الثاني، من ص: 562 إلى ص: 601

مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أَوْحَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ
أَنْ يَهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ
فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا
هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا عَصَمْنَا أَنَا مِنْ آيَةِ أَنْتُمْ لَتَسْعَرْنَا بِهَا فَمَا نَعْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْخُلْ لَنَا
رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنُؤْمِنَ بِكَ وَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ بِالْعُوقِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ
كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا
كَانُوا يَغْرُسُونَ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْيَمْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْتَبُونَ عَلَى أَصْنَامٍ
لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ
مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أَدْبِغِكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي
قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ
أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ
تَرَانِي فَلَمَّا تَبَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ
إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي
وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَامِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ
الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ
بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ مَجَلًّا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا
اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ
يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ
أَسِفًا قَالَ بُنْسَا خَلَقْتُمُْونِي مِنْ بَعْدِي أَعْبَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضَعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ
الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ
وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا
مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ
أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نَسِجَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ وَاخْتَارَ مُوسَى
قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ
وَأَيَّامِي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ
تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَارْكُتْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَادِرِينَ أَصِيبْ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا مَعَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَمِنْ قَوْمِ
مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا
إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ
عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَإِذْ قِيلَ
لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجَازًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ وَاسْأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ
تَعْبُدُونَ قَوْمًا مَا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا كُتِبَ لَهُمْ أَنِجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعُقَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِيينَ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ
الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَخَلَفَ مِنْ
بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ
يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُطْلَعِينَ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ
فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٩٦﴾

و بعد سورة الأعراف جاءت سورة طه عارضة لثلاث جوانب : مبدأ الرسالة، موسى مع فرعون و موسى مع بني اسرائيل.

و تبدأ قصّة موسى - عليه السّلام - في سورة طه على غرار ما بدأت به في سورة الأعراف، حيث يخبرنا تبارك و تعالى عن كيفيّة ابتداء الوحي و تكليم الله لموسى بعد أن قضى الأجل الذي كان بينه و بين صهره، و سار بأهله فرأى نارا و طلب من أهله أن يقيموا في مكانهم لعلّه يأتيهم بشهاب من تلك النار، أو يجد من يهديه إلى الطريق الذي ظلّه في تلك الليلة الشّاتية، و لما اقترب سيّدنا موسى - عليه السّلام - من تلك النار سمع نداء إنّ نداء ربّه يسمعه من جميع الجهات و بجميع أعضائه، و يأمره تبارك و تعالى أن يخلع نعليه تعظيما لتلك البقعة المباركة، فقد اختاره الله من بين جميع النّاس و خصّه بالتّكليم، و طلب منه أن يستمع لما يوحى إليه، فهو الله الذي لا إله إلاّ هو عبادته واجبة و الصّلاة له كذلك لأنّ السّاعة قائمة لا محالة، و لا يستطيع أن يطّلع عليها أحد غيره تعالى، فلا تتبع سبيل المكذّبين فيهلكك الله كما أهلكهم.

و تبدأ المناجاة بين سيّدنا موسى - عليه السّلام - و بين ربّه فيسأله تبارك و تعالى عمّا بيده اليمنى و يجيبه موسى - عليه السّلام - بأنّها عصاه يعتمد عليها حين يمشي، و يهزّ بها الشّجر لتساقط أوراقه فترعاه غنمه هذا علاوة على أنّ له فيها منافع و مصالح أخرى فأمره ربّه بإلقائها فإذا هي تصير حيّة عظيمة فولّى موسى مدبرا و هو شديد الخوف لهول ما رأى فأمره تعالى بأخذها و عدم الخوف لأنّه سيعيدها سيرتها الأولى، و يؤيّد الله نبيّه موسى - عليه السّلام - بآية أخرى لتكون برهانا ثان للمكذّبين على صحّة نبوّته، حيث أمره بضمّ يده إلى جنبه تحت العضد تخرج بيضاء من غير برص و لا أذى ليريه بهاتين الآيتين بعض آياته الكبرى.

و لما أمر الله تبارك و تعالى نبيّه موسى - عليه السّلام - بالذهاب إلى فرعون أحسن سيّدنا موسى - عليه السّلام - بثقل المهمّة الموكولة إليه و عظمها راح يطلب من ربّه الشّرح و التّيسير لصدّره و أمره، و أن يفكّ عقدة من لسانه حتّى يستطيع التّعبير عمّا أوصاه به الله، و أن يبعث معه أخاه هارون ليساعده في مهمّته و يكون شريكا له فيها و يستجيب تبارك و تعالى لطلبات رسوله موسى - عليه السّلام - و يذكره بأنّه قد أوحى إلى أمّه من قبل - حين كان صبيّا مرضعا - أن تضعه في الثّابوت و تلقّيه في اليمّ، و يقع بين أيدي أعدائه و يحبّونه بإذن الله، و تحرّم

عليه جميع المراضع فلا يقبل ثدي امرأة، حتى يعيده الله إلى أحضان والدته، فيلتقم ثديها و تفرح بذلك فرحاً شديداً مدركة أنّ وعد الله حقّ ، و كان ممّا من الله به عليه أنّه قتل القبطي فأُنجاه الله من فرعون مخافة أن ينشب فيه أظفاره، ثمّ ها هو موسى - عليه السّلام - يعود إلى وطنه الأمّ بعدما أوفى قدره في أهل مدين ، لا مستقداً و لا مستأخراً فخصّه الله بمنزلة رفيعة تمثّلت في تربيته، و تكريمه بالرسالة و تكليمه.

و بعد هذه المنن التي خصّه الله بها يأتي دور أداء الرسالة، فيأمره تبارك و تعالى أن يذهب برفقة أخيه إلى فرعون و أن يتّخذاً ذكره جناحاً يطيران به، و يعلمهما كيف أنّ عليهما أن يأتيانه بجانب اللّين فلعلّ في هذا اللّين ما يدعو إلى التذكّر و التّفكير في ملكوت الله، و يجييه موسى بلسانه و لسان أخيه بأنّهما يخشيان أن يعجّل عليهما بالعقوبة، و أن يعتدي عليهما، و لكنّ الله يطمئنهما فليس لهما أن يخشياهُ لأنّه تبارك و تعالى معهما يسمع و يرى، و يعلمهما ما الذي ينبغي أن يقولا حين يأتيانه : إنّنا رسولا ربّك فأرسل معنا بني اسرائيل و لا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الصّعبة من الحفر و البناء و السّخرة في كلّ شيء مع قتل الولدان و استحياء النّساء، و قد جئناك بدلالة و معجزة من ربّك و السّلام عليك إن اتّبعْتَ الهدى.

بعدما تلطف موسى - عليه السّلام - مع فرعون، بدءاً يلّمّحان له بالقول بأنّه قد أوحى إليهما أنّ العذاب لا يترك أحداً من المكذّبين و المتولّين إلّا و وقع عليه، فيقول فرعون منكراً متجاهلاً وجود الخالق الأعظم : فمن ربّكما يا موسى ؟ فيجيبانه بأنّه القادر على كلّ شيء و هو الذي أعطى كلّ ذي خلق ما يصلحه من خلقه، فلم يجعل للإنسان من خلق الدّابة، و لا للدّابة من خلق الكلب و لا للكلب من خلق الشّاة و إنّما أعطى كلّ شيء فطرته التي تناسبه ثمّ هدى، فسبحانه تعالى عمّا يشركون، و يستمرّ فرعون اللّعين في تساؤلاته الدّنيئة متسائلاً هذه المرّة عن الأمم الغابرة التي لم تعبد الله فما بالها قد عبدت غير الله، فيجيبه موسى - عليه السّلام - بأنّ ذلك من أنباء الغيب لا يعلمها إلّا الله، و سيجزيهم الله حسب أعمالهم لأنّه تبارك و تعالى محيط بكلّ شيء لا تفوته صغيرة ولا كبيرة، في الأرض و لا في السّماء إلّا أحصاها و عدّها عدّاً.

ثمّ يبيّن تبارك و تعالى نعمه على عباده في هذه الدّنيا، فهو الذي جعل لهم الأرض مهذا يستقروّن عليها في نومهم و يقظتهم، و يسافرون على ظهرها، و جعل أنواعاً من النّباتات من

زروع و ثمار، منه ما هو لكم و منه ما هو لأنعامكم و في ذلك حجج و براهين لذوي العقول السليمة، ثم يذكرهم باليوم الآخر بعد كل هذه النعم، فقد خلقهم الله من الأرض و فيها يعيدهم تارة أخرى.

ثم يخبرنا تبارك و تعالى أنه قد أقام الحجج و البراهين أمام فرعون و لكنه كذب بها و أباهها كفوا و عنادا، و مع أنه كان يعلم مؤقتا أن ما جاء به موسى - عليه السلام - هو الحق إلا أنه راح ينعته بالساحر أمام الملأ، و يعده بسحر مماثل، و يطلب منه أن يجعل بينه و بينهم موعدا لا يخلفه هو و لا هم، و يحدد موسى - عليه السلام - الموعد يوم الزينة، و في ضحوة ذلك اليوم يتم اللقاء، و يتولى فرعون و يجمع كيده ثم يحيي. و يكرر موسى تذكيرهم بعذاب الله و إرشادهم لما فيه الخير، و لكنهم راحوا يتنازعون أمرهم بينهم و يتسارون متناجين أن ما موسى و هارون - عليهما السلام - إلا ساحران كل ما يريدانه هو إخراجكم من أرضكم بسحرهم و يستبدأ به و يصرفان الناس إليهما، فما لكم إلا أن تجمعوا كيدهم، و تجتمعوا صفًا واحدًا و تلقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار، أما سحرة فرعون فقد وعدهم العطاء الوفير و أما هو فسينال الرياسة.

و يسأل السحرة موسى : إما أن يلقي هو أولا و إما أن يكونوا هم الملقين، و يجيبهم موسى - عليه السلام - بأن يلقوا هم أولا، و لما كانوا قد لطمخوا حباهم و عصيهم بالزئبق و ضربت عليها الشمس اضطربت و اهترت فخيّل للحاضرين أنها تسعى و خشي موسى - عليه السلام - أن يفتن الناس بسحرهم، و يخالجهم الشك في سحره فلا يتبعوه فأوحى الله تبارك و تعالى إليه أن يلقي عصاه - و قد كانت في يمينه - فإذا هي تلقف ما صنعوه، و هذا الذي صنعوه إنما هو كيد ساحر، و لا يفلح الساحر من حيث أتى، فسبحان الله ما أعجب أمرهم فبعد إلقاء حباهم و عصيهم للكفر و الطغيان ما هم بعد برهة من الزمن يلقون وجوههم سجدا لله إنها قدرة الله القاهرة فوق عباده، فقد آمنوا به لما رأوا من الآيات البيّنات و الدلائل الواضحة على ألوهيته و وحدانيته. و تنور نائرة فرعون و يخاطبهم و الغضب يملأ جوفه لم آمنوا بموسى من دون أن يأذن لهم فبعزته ليعذبهم بتقطيع أيديهم و أرجلهم، و ليصلبهم في جذوع النخل ليكونوا لمن بعدهم آية، و لكنهم و قد سكن الإيمان قلوبهم لم يأبهوا بما قاله لهم بعد أ، جاءهم موسى

بالدلائل و البراهين الواضحة على أنّ وراء هذا الكون قوّة خفيّة تسيّره، و هي قوّة الله تبارك و تعالى الذي لا تأخذه سنة و لا نوم، و هو على كلّ شيء قدير.

ثمّ يقولون له افعل ماتريد، فكلّ ماتفعله لن يتجاوز الدّنيا إلى الآخرة و نحن لا يهّمنا ما يلحقنا منك في هذه الدّنيا لأنّها زائلة، فقد آمنا برّبنا ليغفر لنا ما ارتكبناه من آثام و قد كنّا جاهلين بحقيقته و قدرته و جلاله، ثمّ راحوا يعظون فرعون محدّرين إيّاه من نقمة الله و عذابه لكلّ مجرم، و يرغبونه في ثواب الله إذا ما آمن و عمل صالحا.

و تحتتم قصّة موسى مع فرعون في سورة طه، بأنّ أوحى تبارك و تعالى إلى نبيّه موسى -عليه السّلام- بني اسرائيل ليلا و يضرب لهم طريقا في البحر ييسا، لا يخاف أن يدركه فرعون و جنوده و لا يلحقونه، فتبعهم فرعون و جنوده فأغرقهم الله في البحر و هكذا أضلّ فرعون و قومه و ما هدى.

تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك لتحدّثنا عمّا كان من أمر موسى - عليه السّلام - مع بني اسرائيل حيث يبدأ حديثه معهم مذكّرا إيّاهم بما أنعم الله عليهم من أنّه أنجاهم من عدوّهم فرعون، ثمّ هداهم لما فيه الخير في الدّنيا و الآخرة معا، ثمّ أنّه أنعم عليهم بما تصحّ به أبدانهم من المنّ و السّلوى، و لما كان تبارك و تعالى و هو القاهر فوق عباده يعلم ما سيكون منهم من طغيان و كفر بالنّعم أمرهم بأن يأكلوا ممّا رزقهم و حذرهم من الإشتغال باللّهو و التّنعّم و نسيان شكر النّعم فيحلّ غضبه عليهم، و من يصيبه غضب الله فسيسقط سقوطا لا نهوض بعده، أمّا من تاب و آمن من صميم قلبه و عمل بخوارحه علما منه أنّه سيثاب على ذلك فإنّ الله غفور رحيم.

ثمّ تنقل لنا الآيات الكريمة ما كان بين موسى - عليه السّلام - و بين ربّه حيث يسأله ربّه أيّ شيء عجلّ به على قومه و يجيبه موسى - عليه السّلام - بأنّ سبب عجلته هو شوقه للقاء ربّه و تكليمه و كذلك طمعه في رضاه جلّ شأنه، ثمّ يخبره تعالى أنّه فتن قومه من بعده و أضلّهم السّامري بعبادتهم العجل و اشتدّ غضب موسى لما سمع و عاد إلى قومه و كلّه أسفا و غضبا على ما فعله قومه في غيابه من عبادتهم العجل و راح يسألهم عن الذي دعاهم لترك دينهم و إلههم و اتّباع ما لا ينفعهم و لا يضرّهم من الله شيئا، أطال غيابه فملّوا الإنتظار؟ أم أنّهم أرادوا لجهلهم أن يلحقهم غضب الله فأخلفوا وعدهم لموسى - عليه السّلام -، و يجيبه قومه بأنّهم ما أخلفوا

وعده بإرادتهم ولا باختيارهم ولكنهم ألقوا حليهم في الحفرة التي أوقد فيها السامري النار وكذلك ألقى هو التربة التي أخذها من موطئ فرس جبريل، فأخرج لهم السامري من الحفرة عجلا خلقه الله من الحلي التي سبكتها النار ينخور كما تنخور العجول فعكفوا عليه وأحبوه فترك السامري ما كان عليه من الإيمان - وقال آخرون في قوله تعالى "فنسي" موسى أن يطلبه ههنا وذهب إلى الطور لطلبه.

ويرد عليهم تبارك وتعالى مبينا فضيحتهم وسذاجتهم فكيف يعبدون من لا يجيبهم إذا خاطبوه، ولا يملك لهم ضررا ولا نفعا في دنياهم ولا في آخراهم، وينهاهم هارون - عليه السلام - عن تأليههم العجل، ويخبرهم محذرا من أنهم قد فتنوا بالعجل وأن إلههم الرحمن لا إله إلا هو وأنه إنما يأمرهم بما فيه صلاحهم، وينهاهم عما يكون فيه طلاحهم، ولكنهم يصرون على ما هم عليه حتى يعود إليهم موسى - عليه السلام - وينظرون ماذا يأمرهم.

عاد موسى - عليه السلام - إلى قومه غاضبا، وألقى ما كان في يده من الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره ويلومه عن عدم هدايته لهم، وقد رأهم قد ضلوا من بعده ويعتذر هارون - عليه السلام - لأخيه عن عدم اللحاق به ليخبره بما كان من قومه وهو خشية أن يلومه أخاه على تركهم وحدهم وقد استخلفه عليهم.

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد آخر، وهو محادثة سيدنا موسى - عليه السلام - للسامري سائلا إياه على الذي حملة لفعل ما فعل، فيخبره أنه علم ما لم يمكنهم أن يفطنوا له، حيث أنه رأى جبريل لما جاء ليهلك فرعون فأخذ ترابا من تحت حافر فرسه فألقاها مع ما ألقاه بنو إسرائيل فاستحسنت نفسه الذي فعل وأعجبها، فيقول له موسى - عليه السلام - إن كنت فعلت ذلك وكفرت بخالقك فاذهب ولا بد أن تلقى جزاءك في العاجل والآجل معا، أما ما هو عاجل فإنك ستعاني من الوحدة ولن يستطيع أحد أن يمسك لأن في هذا المساس إيذاء لك، وأما ما هو آجل فإن لك موعد لن تخلفه، أما هذا العجل الذي عكفت على عبادته، وفتنت به بني إسرائيل فإننا سنحطمه، ونحرقه وننسه في اليم نساء، ويخبر موسى - عليه السلام - قومه أن إلههم

إنما هو الله الذي لا إله إلا هو، أحاط بكل شيء علما، فما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين⁹⁷

تلكم هي قصة سيدنا موسى - عليه السلام - في سورة طه يقول تبارك و تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِئِ الْمُقَدَّسِ طَوْى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَخَّرَ اللَّهُ سَبْعَ مَدِينٍ لِّهَا وَلَئِي وَاضِعُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِّنْ خَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَىٰ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ اخْضَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ هَذَا أَوْتِيْتُكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُكَ عَلَيْهِ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَفَقَدْتَ نَفْسًا فَانْجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَقَدْنَاكَ فَنُنَوِّنَا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي اخْضَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اخْضَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ

⁹⁷ ينظر: ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، المجلد الرابع، من ص: 50 إلى ص: 79

و الزعشري "الكشاف"، ج، 2، من ص: 27 إلى ص: 44

وَأَرَىٰ فَاتِّبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ
بَآيَةً مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَىٰ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ
هُدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا بِعَدِّ رَبِّي فِيهِ كِتَابٌ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا
يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا وَارْعَمُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلأُولَى
النُّهَىٰ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آبَائِنَا
كُلَّمَا فُكِّدَ وَأَبَىٰ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِك يَا مُوسَىٰ فَلَنُؤْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ
مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ
الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضَعِىٰ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ
وَيْلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ فَتَنَازَعُوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ أَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ
أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ
أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ
قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبالُهُمْ وَحِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي
نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا
صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبُحًا قَالُوا
أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافِهِ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ
وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي
فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا
خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِ مُبِرِّمًا فَإِنْ
لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا وَمَنْ يُاتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ
الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ

تَزَكَّى وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْجًا وَلَا تَخْشَى فَاتْبَعَهُمْ فَرَعُونُ يَبْجُودُوهُ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فَرَعُونُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ مَخْذُوكُمْ وَوَاخَذْنَاكَ مِنَ الْجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى وَمَا أَهْلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ صِجِلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا إِلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلُغِيَّتِي وَلَا بَرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَّلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝⁹⁸

ثم جاءت سورة الشعراء مقتصرة من القصة على ما كان بين موسى و فرعون من المحاوره
و ما آيد الله به موسى من الحجج و البراهين الواضحه التي سعى فرعون جاهدا لإطفائها مع أنها
تشتع بنور الحق .

⁹⁸ سورة طه، من الآية : 9 إلى الآية : 98

تبدأ الآيات بإخبارنا عن أنه تبارك و تعالى نادى نبيه موسى - عليه السلام - من جانب الطور الأيمن، و اصطفاه من بين العالمين بتكليمه و أمره بالذهاب إلى فرعون و ملئه، و لكن موسى - عليه السلام - أبدى تخوفا من هذه المهمة خوفا من تكذيبهم، و بما يحصل له بسببه من ضيق الصدر و الحبسة في اللسان، فطلب من ربه أن يرسل إلى أخيه هارون ليساعده في أداء رسالته و يهون عليه هذه الأمور و لكن يبقى أمر آخر ربما لن يقدر هارون على تهوينه بأي حال من الأحوال، و هذا الأمر هو قتل موسى - عليه السلام - للقبطي و خوفه من أن يقتلوه، و يطمئنه الله تبارك و تعالى بأن لا يخشى شيئا و أن يذهب هو و أخوه إلى فرعون و أنه معهما يحرسهما بعنايته و يسمع ما يدور بينهما فينصرهما على عدوهما، فما عليهما إلا أن يأتيا فرعون و يخبراه بأنهما رسولا الله إليه لعله يذكر و يؤمن فيقبل طلبهما بإرسال بني اسرائيل معهما.

و لكن فرعون - اللعين - راح يهرب من المواجهة كعادته متبعا طريقته الدنيئة للحط من شأن من هم أعظم منه شأنًا، و أعلى مرتبة حيث بدأ بتذكير موسى - عليه السلام - بما أكرمه به في صغره، حيث تربى في بيته و شبّ و ترعرع هناك و لكنه كفر بنعمه عليه و قتل واحدا من قومه، و لو كان صاحب رسالة كما يدعي لما أمكنه فعل ذلك.

و يجيبه موسى - عليه السلام - أنه ما فعل ذلك بعد تأييده بالرسالة، و إنما فعلها قبل أن يوحى إليه و قبل أن يعرف الطيب من الخبيث، و الحلال من الحرام، ثم فر منهم لما خشيتهم فأكرمه الله بأن وهبه الحكم، و منّ عليه بالرسالة، و يتعجب موسى - عليه السلام - من أمر فرعون كيف يعيره بما منّ عليه، و هو لم يفعل ذلك إلا مقابل ما أساء إلى بني اسرائيل فكيف لفرعون أن يلومه و قد أحسن إليه و هو فرد، مقابل ما أساء به للجماعة الإسرائيلية كلّها، و يسأل فرعون موسى - عليه السلام - متجاهلا ربّ الكون من يكون، و يجيبه موسى بأنه خالق كل شيء و مالكة لا شريك له في ذلك، و أنّ العالمين العلوي و السفلي كلاهما تحت قبضته إن كنتم فعلا ذووا قلوب موقنة ذات نظر صحيح تستهدون لذلك و إلا فقد عميت أبصاركم عن رؤية الحقّ و ما أنتم بمؤمنين و هنا يلتفت فرعون لملاه و لأشراف قومه ممن كانوا حوله مستغربا ما قاله موسى - عليه السلام - و كأنّ قوله يدعو للغرابة و العجب، و يزيد موسى على ذلك أن قال إنّ الله هو خالقكم و خالق آبائهم الأوّلين الذين وجدوا قبل أن يوجد فرعون

بزمن طويل، و يخاطب فرعون قومه مستهزئاً بموسى - عليه السّلام - ناعتاً إياه بالجنون و لكنّ موسى - عليه السّلام - لا يتوانى عن التّأكيد و التّقرير بأنّ ربّه هو الذي خصّص المشرق و المغرب، فجعل المشرق لتطلع منه الشّمس، و المغرب لغروبها، و إن كنتم ترون غير هذا فادعوا إلهكم المزعوم ليحعل المشرق مغرباً و المغرب مشرقاً إن كان فعلاً صادقاً، و أنّى له ذلك و هو لا يحسن حتّى التّمييز بين الصّاح و الطّاح.

و يشتطّ فرعون غضباً لما سمعه من موسى - عليه السّلام - و يهدّده بأنّه إن آمن بغيره فسيسخّنه، فيقول موسى - عليه السّلام - متسائلاً - أو لو جئت بك برهان قاطع، و دليل واضح، فيقول فرعون : فلنأتنا برهانك و دليلك إن كنت من الصّادقين، فألقى موسى - عليه السّلام - عصاه فإذا هي حيّة عظيمة، فأخذها فعادت عصا و نزع يده فإذا هي بيضاء بياضاً نورياً يكاد يغشى الأبصار و يسدّ الأفق، و لما رأى فرعون ما رأى و أحسّ بغلبة موسى و أنّه رسول الله إليه بادر بكفره و عناده لتزويج تهمة السّحر و إلصاقها بموسى - عليه السّلام - ليستطيع بعد ذلك أن يجرّضهم على الكفر به و مخالفته لأنّه ليس غير ساحر، غرضه هو إخراجهم من أرضهم.

و يشاور فرعون قومه عمّا يجب عليه فعله فيطلبوا منه أن يؤخّره و أخاه حتّى يأتي بالسّحرة المقيمين في مدائن مملكته و أقاليم دولته حينها سيهزمه أمام الجميع، و هذا الإجتماع إنّما كان بمشيئة الله - تبارك و تعالى - ليظهر لنبيّه موسى - عليه السّلام - الآيات التي أيّد بها و أمام كلّ النّاس الذين سيحضرون هذا المشهد المريب.

و يأتي اليوم الموعود وهو يوم الزّينة، و ميقاته وقت الضّحى حسب ما وقّته لهم موسى - عليه السّلام - و نودي في النّاس ليجتمعوا كي يشهدوا هذه المناظرة الفعلية، لعلّهم يتبعون السّحرة إن كانوا هم الغالبين، وجاء السّحرة و بادروا بسؤال فرعون عن أجرهم إن هم هزموا موسى - عليه السّلام - فوعدهم بأن يجعلهم من المقربين. و يقول لهم موسى : ألقوا ما تريدون إلقاءه، فألقى السّحرة حبالهم و عصيّهم و أقسموا بعزة فرعون ليكوننّ هم الغالبون فخيّل إليهم من سحرهم أنّ حبالهم و عصيّهم حيّات تسعى، و يلقي موسى عصاه فإذا هي تخطف جميع ما ألقوه و لا تدع منه شيئاً، و هنا و أمام هذا المنظر المدهش يلقي السّحرة حبالهم على الأرض ساجدين معلّنين إيمانهم بربّ العالمين ربّ موسى و هارون.

و يهددهم فرعون و يتوعددهم عن إيمانهم دون إذنه ، متهما موسى - عليه السلام - بأنه من علمهم ذلك، و لما كان السحرة لم يجتمعوا قبلا بموسى فقد عرفوا و تيقنوا أنها تهمة لفقها فرعون له، و أن فرعون آثم كذاب فيها هو بعدما ظهرت قدرة الله واضحة أمامه، و حجة موسى التي أيده بها بينة لا غبار عليها راح يهدد الذين آمنوا منهم بتقطيع أيديهم اليمنى و أرجلهم اليسرى، و لكنهم لم يأبهوا لتهديداته، و أصرّوا على إيمانهم طامعين في مغفرة ربهم كونهم أول من آمن بموسى و رسالته .

بعد أن حدثتنا الآيات عن إيمان السحرة، تنتقل للحديث عما أوحى به الله لموسى - عليه السلام - أن يخرج بني اسرائيل ليلا من مصر بعدما استعاروا من قوم فرعون حليّا كثيرا، فأرسل فرعون في بلاده من يجمع الجند و نادى في قومه بأن بني اسرائيل طائفة قليلة، و قد وصل إلينا منهم ما أغاضنا، و إنا لمستعدّون لمواجهتهم بالسلاح، فجازاه الله و جنّده بقدر نواياهم الخبيثة و ظلمهم لبني اسرائيل بأن أخرجهم من جنّات و عيون، و كنوز و مقام كريم و أورثها بني اسرائيل.

و تنقل لنا الآيات مشهدا آخر تمثّل في التقاء الفريقين موسى - عليه السلام - و من كان معه من بني اسرائيل، و فرعون و ملاه الذين لحقوا بموسى - عليه السلام - و من معه فظنّ أصحاب موسى أنّهم قد أشرفوا على النهاية، و لكنّ موسى طمأنهم بأن ربهم سيهديهم طريق النجاة، و تحدث المعجزة و يوحى الله لكليمه أن يضرب البحر بعصاه فينفلق البحر ، و يمرّ موسى و من معه، و يحاول فرعون و جنوده اللّحاق بهم فأنجى الله موسى - عليه السلام - و بني اسرائيل و كلّ من اتّبعهم، و أغرق فرعون و جنوده و في هذه القصة من دلائل قدرة الله ما لا ينكره كلّ ذي بصيرة نفاذة و عقل سليم⁹⁹ يقول تبارك و تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ اتَّبِعْنِي فَإِنَّهُمُ الْغَالِبِينَ قَوْمٌ فَرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ

⁹⁹ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الرابع، من ص : 314 إلى ص : 322

و الزمخشري " الكشاف "، ج : 4، من ص : 160 إلى ص : 169

يَقْتُلُونِي قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ
عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي وَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا
مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ
وَبَلَكَ بَعْمَةً تَمْنَأَ عَلَيَّ أَنْ عِبُدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ
رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي
لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ
قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا أَتُوكَ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ
فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِهِ يَوْمَ مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ
إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ
الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ
فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ
فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ
مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السَّحَرَ
فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا
ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُكُمَةٌ قَتِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَانِطُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ
فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَوُجُوهِ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُوكَ قَالُوا كَلَّا

إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ
 كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ
 أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ¹⁰⁰

ثم تأتي سورة النمل و فيها ذكر موجز لقصة موسى - عليه السلام - بدءا من تكليفه
 بالرسالة حين سار بأهله ليلا و أضل الطريق، فأنس من جانب الطور نارا تضطرم، فطلب من أهله
 أن لا يبرحوا مكانهم حتى يقترب من تلك النار لعله يأتيهم منها بما يستدفعون به، فإذا به يرجع
 لأهله بخبر عظيم فلقد رأى باقترابه منها نورا هائلا، ولما انتهى إليها إذا بشجرة خضراء تضطرم
 فيها النار و تزداد توقدا و الشجرة تزداد خضرة فرفع رأسه فإذا بنورها متصل بعنان السماء فبهت
 موسى مما رأى و نودي أن بورك من هو في مكان النار و من حول مكانها، و مكانها هو
 تلك البقعة المباركة التي وقع فيها تكليم الله تبارك و تعالى لنبيه موسى - عليه السلام - و أظهر
 له من المعجزات ما جعل أقوى الناس عنادا و كفرا و هم السحرة يؤمنون به لحظة رؤيتهم أول
 معجزة، تعجب موسى - عليه السلام - من المنظر الذي رآه وأدرك أن وراءه مريد و مكون هو
 ربه و رب العالمين جميعا، و ناداه ربه يطمئنه أنه هو المخاطب و هو الذي يناجيه فهو القاهر فوق
 عباده و هو الحكيم الخبير. ثم أمره أن يلقي عصاه ليكون فيما ستتحول إليه آية بينة على أن الله
 هو القادر، فلما ألقاها تحولت حية عظيمة فخشي موسى و لم يلتفت من شدة فزعته، فخاطبه ربه
 أن لا يخشى لأنه قد اصطفاه ليجعله رسوله و أن من عمل عملا غير صالح ثم تاب وأصلح فإن
 ربك من بعدها لغفور رحيم، ثم أمره أن يدخل يده في جيبه لتكون آية أخرى لعل الذين كذبوا
 بربهم يهتدون إذا ما رأوه حين يخرج يده فتكون بيضاء تاللا كالبرق الخاطف لتكون هي
 و معجزة العصا آيتين من بين التسع اللائي أيده بها الله ليظهر لفرعون و قومه صحة رسالته
 لأنهم جحدوا بآيات الله ظلما و عدوانا، مع تيقنهم من صحتها و قالوا بأنها سحر مبين، فانظر
 يا محمد كيف انتهى بهم الأمر إلى الهلاك، بأن أغرقوا جزاء بما كفروا و كانوا يعتدون.

¹⁰⁰ سورة الشعراء، من الآية : 10 إلى الآية : 68

ذلك ما حوته سورة النمل وإليك الآيات كما وردت في كتابه عز وجل يقول تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ ۖ فَمِنْ قَبْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۚ فَلَمَّا جَاءَهَا نُوحِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ يَامُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَامُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بُعْدَ سَوْءٍ ۚ فَلَئِنِّي أَخْفُوهُ رَجِيمٌ ۚ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ۚ فِيهِ تِسْعٌ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ ۚ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۚ وَجَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْفِتْنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ۚ ظَلَمُوا وَعُغِلُوا ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝١٠١

وجاءت سورة القصص تحمل بين طياتها جوانب ثلاثة من قصة موسى - عليه السلام - الميلاد، الرسالة و فرعون، مع العلم أنها السورة الوحيدة التي تحدثت عن مولده و نشأته - عليه السلام - بعد أن مهدت لذلك بتكبر فرعون و طغيانه في الأرض، فقد جعل أهلها فرقا يصرف كل فرقة منهم على ما يريد، و هم أمام ذلك كله لا يملكون غير الطاعة و التنفيذ، فهو طالما ذبح أبناءهم و استحيى نساءهم خوفا من أن يوجد ذلك الغلام الذي تخوف منه هو و أهل مملكته لأن وجوده سيتسبب في ذهاب ملك فرعون و دولته، كما بينت أن الله تبارك و تعالى أراد أن يمن على بني اسرائيل بأن يجعلهم أئمة، و يورثهم ملك فرعون و قومه، و يهلك فرعون و هامان و جنودهما بإغراقهم جميعا في البحر.

و بعد هذا الحديث المحمل الذي يبين ثواب الصابرين و عاقبة الكفرة المعاندين، تنتقل الآيات لتحدثنا عن مولد سيدنا موسى - عليه السلام - و ما فيه من العبرة و العظة، و من حكمة الله الواسعة، و لما كان بيت أم موسى على حافة النيل ألهمها ربها أن تصنع تابوتا إذا ما خافت على ابنها وضعت فيه، و ألقت في اليم، و وعدا بأنه سيرده إليها و يجعله رسولا، و مضى التابوت على سطح الماء و القدرة الإلهية تحرسه حتى يصل أمام بيت فرعون فالتقطه بعض آلِه و ذهبوا به إلى زوجة فرعون و هم لا يعلمون ما بداخله، و لما كشفت عنه إذا هو غلام لم تقع عينها من

¹⁰¹ سورة النمل، من الآية : 7 إلى الآية : 14

قبل على ما هو أحسن و لا أجمل و لا أحلى منه، فأحبته بمشيئة الله لأنه تعالى أراد إكرامها و شقاء بعلمها المكابر المعاند فها هو تبارك و تعالى يدخل بيته من ستكون نهاية ملكه على يديه و هو لا يعلم عن ذلك شيئا و كيف يعلم، و هو المخلوق الضعيف و قد أراد أن يتكبر في الأرض و يتجبر بملكه فأراد الله أن يبين له أن ربّ هذا الكون الفسيح واحد لا شريك له، و أن ادّعاء الألوهية و الملك باطل زائل كما سيشهد على ذلك أتباعه كلّهم، بما سيلهم كليمه من المعجزات البينة.

ها هو فرعون اللعين يهّم بقتل الصبيّ و لكنّ زوجته تمنعه عساهما يتخذاه ولدا دون أن يشعروا بهم، و ها هي أمّ الطفل المسكينة يائسة و قد أصبح قلبها فارغاً من كلّ شيء من أمور الدنيا إلا من موسى - عليه السلام - و كيف و هو فلذة كبدها و جزء منها، و كاد حزنها يظهر لولا أن الله ألهمها الصبر و طمأنها بأنّه سيعيده إليها، و أمرت أختها أن تتبّع أثره لتأتيها بخبره، و حين كانت الأمّ اللهيّة تنتظر الأبناء على أحرّ من الجمر كانت البنت الطيّعة تراقب إلى أين سينتهي أمر شقيقها، حدث ما هو أغرب من الغرابة ذاتها حيث أنّ الرضيع لم يقبل ثدي أيّ امرأة من اللواتي أحضروهم لإرضاعه فتدخلت أختها و عرضت عليهم أمر الإرضاع فشكّوا في أمرها و قالوا بأنّها تعرفه و لكنّها علّلت موقفها لما قالت ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾¹⁰² بأنّها إنّما أرادت أنّهم للملك - فرعون - ناصحون و النصّح - كما هو معلوم - إخلاص العمل و تنزيهه عمّا يعكّر صفوه. و انطلقت لإحضار أمّها، و لما حضرت و حملت نصفها الآخر استأنس بريحتها و التقيمت ثديها فطلبت منها زوجة فرعون أن تقيم عندهم لترضعه في كلّ وقت و لكنّها اعتذرت فهي ذات بعل و أولاد ليس بمقدورها فراقهم و لكنّها تستطيع أن تأخذ الرضيع ليقيم عندها، و كيف لا تستطيع و قد فرغ فؤادها قبلاً من كلّ شيء إلا منه !!

ولقد أبدت امرأة فرعون استعداداً تاماً لقبول الفكرة فأرسلته معها و منحتها النفقة و الكساوي، و ها هي الأمّ تستعيد ابنها بأعجوبة أرادها ربّها كي تقرّ عينها و لا تحزن و لتعلم أنّ ما وعدها ربّها من إرجاعه إلى كنفها و جعله من المرسلين حقّاً لا باطل يشوبه و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون حكم الله فلربّما يحدث للإنسان أمراً يحزنه و لكنّ عاقبته تكون محمودّة

¹⁰² سورة القصص، الآية 12

و العكس لقوله تبارك و تعالى : ﴿ وَحَسْبِيَ أَنْ تَكْفُرُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَحَسْبِيَ أَنْ تُجِيبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ ¹⁰³.

ثمّ يحدثنا القرآن عن مشهد آخر يتعلّق باستواء سيّدنا موسى - عليه السّلام - و ما صار عليه من الشّباب و القوّة، و ما ألهمه الله به من الحكم و العلم و ذلك هو جزاء المحسنين دائما و في كلّ الأزمنة، و خرج سيّدنا موسى - عليه السّلام - ذات يوم يتجوّل في المدينة على غفلة من النّاس و إذا برجلين يقتتلان أحدهما ممّن شايعه على دينه من بني اسرائيل و الآخر من عدوه من القبط فاستغاثة الإسرائيليّ على القبطيّ، فضربه موسى ضربة كان فيها حتفه، فلمّا رأى ذلك قال هذا من عمل الشّيطان و سمّاه ظلما لنفسه و استغفر ربّه لأنّه فعل ما فعل دون إذن ربّه فكان ذنبا يستوجب الاستغفار منه، و يقول لربّه أنّه ما منحه من النّعم و الجاه سيمنعه إعانة الكافرين.

و يخبرنا القرآن بعد ذلك عن حال موسى - عليه السّلام - بعدما قتل ذلك القبطيّ أصبح خائفا يتلفّت يمنة و يسرة ماذا سيحدث، و بينما هو مارّا في صباح اليوم الموالي فإذا ذلك الرّجل الذي استنصره بالأمس يقاتل آخر فاستصرخه، و لكنّ موسى الذي يقبّر بنعمة الله عليه و عصمته من أن يكون ناصرا للمجرمين يصرخ في وجه ذلك الإسرائيليّ مبديا غضبه منه كونه كثير الشرّ محبّب إليه الشّجار ثمّ راح قاصدا العزم على البطش بذلك القبطيّ فظنّ الإسرائيليّ لضعفه و تعنّته أنّ موسى يريد قتله، فبادره بالقول متسائلا إن كان يريد قتله مثلما قتل نفسا البارحة و لمّا كان هذا الخبر سرّا بين موسى - عليه السّلام - و الإسرائيليّ بهت القبطيّ لما سمع، و هروا نحو بيت فرعون ليخبره بما علم، و لمّا باغ فرعون هذا الخبر ثارت ثائرتة و عزم على قتله و بعث في طلبه، و لمّا كانت القدرة الإلهيّة تحرسه، فقد خالف رجل من آل فرعون الطّريق الذي سلكه الآخرون، و سلك طريقا مختصرا فوصل إلى موسى و أخبره بما يحاك له من أنّ فرعون و ملاءه يتشاورون على قتله، و أنّ عليه أن يغادر البلد بأسرع ما يمكن، و لمّا سمع سيّدنا موسى - عليه السّلام - ذلك خرج مغادرا المدينة و هو يتلفّت يمينا و شمالا و كلّ رجائه أن ينجيه الله من فرعون و ملاءه.

و تمّده قوّة الإيمان الشّجاعة الكافية، و هو يمشي وحيدا خائفا ممّا يجتبه له القدر، و يقصد مدين و نفسه كلّها رجاء أن يهديها ربّها، و تطوى المسافات بكلّ ما عاناه موسى و كلّ ما دار

¹⁰³ سورة البقرة، الآية : 216

في نفسه من أفكار و تخيلات و وصل مدين و ورد ماءها الذي يستقون منه فوجد هناك جماعة كثيفة من الناس و من بينها امرأتان تمنعان غنمهما عن الماء لئلا تختلط بأغنام الآخرين، فلفتتا انتباه سيدنا موسى - عليه السلام - و اقترب منهما يسألهما عن شأنهما و كيف أنهما لا تردان مع هؤلاء ؟ فأخبرتا به بأنهما لا يسقيان حتى يفرغ هؤلاء و أن والدهما شيخ كبير السن لا يقدر على هاته الرحمة، فسقى لهما غنمهما و انصرفتا، ذهب إلى مكان ظل و استلقى هناك و ناجى ربه أن ينزل عليه من خيره ما يسدّ به رمقه و قد أخذ منه التعب و الجوع و لم يعد يتحملهما لأنه تحمّل الكثير مبرهننا بذلك على قوة إيمانه و صدقه معا و للزّخشري - رحمه الله - ما يقوله في هذا المقام أثّرنا نقله حرفياً ليفيد منه القارئ و تتضح أمامه الرؤيا فلقد قال - رحمه الله - في تفسيره هذه الآيات : " و المعنى أنه وصل إلى ذلك الماء و قد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد و رأى الضّعيفتين من وراءهم مع غنمهما مترقبتين لفراغهم فما أخطأت همّته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصيب و سقوط خفّ القدم و الجوع، و لكنّه رحمهما فأغاثهما و كفاهما أمر السقي في مثل تلك الرحمة بقوة قلبه و قوة ساعده و ما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة و رصانة الجبلة و فيه مع إرادة اقتصاص أمره و ما أوتي من البطش و القوة، و ما لم يغفل عنه ما كان به من فرصة الإحتساب ترغيب في الخير و انتهاز فرصه و بعث على الإقتداء في ذلك بالصالحين و الأخذ بسيرهم و مذهبهم ¹⁰⁴ .

و النصّ كما نرى قد فسّر الآيات تفسيراً شافياً كافياً بأسلوب سلس سهل، لا يعلو حتى على المبتدئين، و ينمّ على حسن تذوّقه لكتاب الله و تبسيط محتواه ليتسنى للجميع فهم الرسالة الحمديّة و استيعابها.

ثمّ يخبرنا القرآن عمّا كان بعد ذلك فقد رجعت المرأتان بسرعة على غير عادتهما فأحسّ والدهما أن وراء ذلك سرّاً و سألهما فقصّتا عليه القصّة فأرسل إحداهما إليه لتدعوه فأقبلت نحوه و كلّها حياء، و في تأدّب طلبت منه أن يرافقها إلى حيث والدها ليثيبه على سقيه غنمهما فرافقها ولما أتى والدها و قصّ عليه قصّته قال له الشّيوخ لا تخش شيئا فلا سلطان هنا لفرعون و قومه،

¹⁰⁴ الزّخشري " الكشف "، ج : 4، ص : 249

و تطلب إحدى القتاتين من أبيها استئجار موسى - عليه السلام - لرعى غنمهم فهو قويّ و أمين، يطلب الشيخ بدوره من موسى - عليه السلام - أن يرعى له غنمه و يزوجه إحدى الفتاتين شريطة أن يبقى يرعى غنمه مدّة ثمانى سنين فإن تبرّع موسى - عليه السلام - بإضافة سنتين فهي له و إلّا اكتفى بالثمانيّة، و وعده الشيخ بالمساحّة و حسن المعاملة، و أنّه لن يشقّ عليه مثلما يفعل بعض المعاسرين من المسترعين من المناقشة في احترام الأوقات و الدقّة في استيفاء الأعمال و تكليف رعاتهم ما لا طاقة لهم بتحمّله، ثمّ أخبر موسى - عليه السلام - الشيخ شيئاً آخر هو أنّ ما تعاهدا عليه يجب احترامه من كليهما فلا أحد يخرج عمّا شرطه الآخر، و أنّ له الخيار فيما يريد قضاءه فإن شاء الله قضى الأجل الأطول و هو عشر سنين، و إن شاء اقتصر على قضاء ثمانى سنين و هو الأجل الأقصر، و لما أتمّ موسى أجله أخذ أهله و عزم على الرّحيل في ليلة مطيرة مظلمة فرأى ناراً مضيئة من بعيد، فطلب من أهله أن يلزموا مكانهم لعلّه يستطيع أن يأتيهم بما يستدفعون به، أو تهديه تلك النّار بضوئها إلى الطّريق و كان قد أضلّه، فلمّا اقترب منها وجدها تضطرم في شجرة خضراء فوقف متعجباً ممّا يرى، و في هاته اللّحظة سمع نداء فمّن المنادي ياترى؟ إنّ ربّه قد اصطفاه بالتّكليم و أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حيّة عظيمة تضطرب كأنّها جانّ لسرعة حرّكتها فابتعد موسى و لم يلتفت لما وراءه خوفاً و رهبة، فطمأنه ربّه بأن يقترب و لا يخاف ففعل، ثمّ أمره أن يدخل يده في جيبه حتّى إذا أخرجها كانت بيضاء تتلألأ كأنّها قلادة من الماس تضعها حسناء في سهرة و في مكان قليل الأنوار، فهذان دليلان قاطعان لفرعون و ملأه على قدرة الله تبارك و تعالى، و على صحّة نبوّة سيّدنا موسى - عليه السلام -.

و لما أمر الله عزّ و جلّ موسى - عليه السلام - الذّهاب إلى فرعون أبدي تخوّفاً منه و من قومه لأنّه قتل رجلاً منهم، و طلب من ربّه أن يرسل معه أخاه هارون كونه أفصح لساناً منه، و حتّى يساعده في تبرير موقفه فيتمّ التّصديق من جانبهم، و يستجيب تبارك و تعالى لرسوله فيخبره بأنّه سيبعثه معه كي يعييه عليهم و أنّ الله سيجعلهما الغالبين، و أنّهم لن يستطيعوا الوصول إليهما ليؤذوهما، كما تخبرنا الآيات الكريمة أنّه لما جاءهم موسى بالآيات مبصرة في الآفاق قالوا إنّ هذا سحر تقوم به أنت و تنسبه إلى الله، و ذكروا بأنهم لم يسمّعوا بمثل هذا من

قبل، و يجيبهم موسى - عليه السلام - بأن الله قد أكرمه بالنبوة و هداه إلى ما فيه حسن عقبي الدار، و أن الذين أشركوا في النار خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب و لا هم ينصرون.

كلّ هذه الدلائل و البراهين لم تقلل من تجبر فرعون و طغيانه و إنما زادتة تجبراً على تجبر، و طغياناً على طغيان حيث راح يعلن ألوهيته لملاه و يطلب من وزيره هامان أن يتخذ له أجراً لبناء قصر عال لم يبلغه بنيان أحد من الخلق. و تحذر الإشارة ههنا إلى أمر مهمّ يبيّن بوضوح غباء قوم فرعون فإذا كان قد أكد لهم بأن لا إله غيره كيف أمر ببناء الصرح ليطلع إلى إله موسى و هو على يقين من أن موسى ليس غير ساحر كذاب فلو كانت لدى قومه مسحة عقل و جرأة لما أسعفوه في ذلك البناء العظيم الذي شيّدوه ليطلع إلههم إلى إله آخر لم يؤمن بوجوده بل إنه أنكره تماماً، و علا في الأرض و استكبرهو و ملأه و ظنّوا أنهم سيخلدون في هذه الدنيا و كذبوا بقاء الآخرة فأغرقهم الله جميعاً و جعلهم آية لكلّ من كذب و تولّى، و لعنهم في هذه الدنيا و لهم في الآخرة عذاب عظيم.

ثمّ تنتقل الآيات بعد ذلك لتخبرنا عمّا أنعم الله به على كليمه حيث أتاه التّوراة لعلمهم يتذكرون و يهتدون بسببه، و لكنّهم أصرّوا على عنادهم و كذبوا ما جاءهم به فأهلكهم الله، و يقول تعالى لنبيّه محمّد صلّى الله عليه و سلّم أنه لم يكن حاضراً المكان الذي أوحى فيه لموسى - عليه السلام - و لم يشهد الوحي، و أنه تبارك و تعالى قد أنشأ بعد عهد الوحي قروناً كثيرة، و ما كنت مقيماً في أهل مدين تقرأ عليهم الآيات تعلّما منهم و لكنّا أرسلناك إليهم بعد أن أخبرناك بالآيات و زودناك بها، و ما كنت يا محمّد بجانب الطّور إذ نادينا موسى و لكن ربّك أوحى إليك بكلّ ذلك و أخبرك رحمة منه بك و بعبادك لعلمهم يهتدون بما تحييتهم به من الآيات البينات، و إذا أصابته مصيبة بما أشركوا و عصوا لجأوا إلى ربّهم أن لو أرسل إليهم رسولا يتلو عليهم آياته ليؤمننّ به و يتبعوه، فلمّا بعث الله إليهم سيّدنا محمّد عليه الصّلاة و السّلام ركبوا فرسان العناد و قالوا بأنّ هذا لم يؤت ما أوتي موسى من المعجزات، و لو كان مؤيّداً بمثلها لا تبعناه، و هم إنّ ما يقولون ذلك تبريراً لموقفهم فكيف و قد جاءهم موسى و أخاه فكذبوهمما و قالوا ساحران تعاوننا و صدّق كلّ منهما الآخر فكفروا بكلّ ما أتوهم به، و لو كانوا صادقين لأمكنهم أن يأتوا بكتاب أهدي ممّا أتاهم به فإن لم يجيبوه على ذلك و لم يتبعوا ما جئتهم به من الحقّ، فاعلم أنّهم

إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْبَاطِلَ وَ لَا أَضْلَ عِنْدَ اللَّهِ مَن يَسِيرُ بِغَيْرِ حِجَّةٍ قَاطِعَةٍ تَسِيرُ طَرِيقَهُ، وَ اللَّهُ لَا يُلَظِّفُ
بِأُولَئِكَ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَى الظُّلْمِ.¹⁰⁵

كانت هذه هي قصّة موسى - عليه السّلام - في سورة القصص و إليك الآيات كما
وردت في الكتاب المين: ﴿ نَقُلْ عَلَىكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنُ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُطْبِخُ أَبْنَاءَهُمْ
وَيسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي
الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ
فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنْ
الْمُرْسَلِينَ فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تُقْبَلُوهُ عَسَى
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ
لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لَأَخْتِهِ قُصِّيه
فَصَرَفَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ
أَدْلُكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ
وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ
مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ
الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي

¹⁰⁵ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الرابع، من ص: 386 إلى ص: 401

و الزمخشري " الكشاف "، ج: 4، من ص: 214 إلى ص: 228

الْمَدِينَةَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ
 لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ
 تَمُتْلِيَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ
 أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ
 يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ
 رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي
 سَبِيلَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ
 دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا
 شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظَّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
 فَهَيْزَ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
 سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَتْ
 إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
 أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ حِشْرًا فَمِنْ
 عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي
 وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ فَلَمَّا قَضَى
 مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ
 نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ
 شَاطِئِ الْوَادِئِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ
 يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ
 سُوءٍ وَإِصْفُ إِلَيْكَ جَنَاحُكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي وَأَخِي
 هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ مُعَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ نَارَ الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَغْبِرْهُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَآخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ مُعَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذَّبُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَإِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ مِنْ قَبْلِ قَاتِلٍ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ حَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ¹⁰⁶

ثم جاءت سورة يونس بأسلوبها المؤثر و كلماتها المعبرة، مبتدئة الحديث عن بعث موسى و هارون -عليهما السلام - بالدلائل و البراهين إلى فرعون و ملاه، و لكنهم استكبروا عن اتباع الحق و عن قبول الآيات الباهرة التي جاءوهم بها لأنهم كانوا ذوي آثام عظيمة، فلما عرفوا أنَّ

¹⁰⁶ سورة القصص، الآيات من الآية: 2 إلى الآية: 50

الذي جاءهم به حقّ و من عند خالق الكون قالوا لحبّهم الشّهوات إنّ هذا لسحر مبين، فكيف يقولون هذا و الحقّ أعلى و أبعد من السّحر الذي هو باطل، فغضب موسى - عليه السّلام - من قولهم كيف يطعنون في الحقّ و كان من واجبه أن يذعنوا له و يعظّموه، و لكنّهم لم يأبهوا لما قاله لهم، و أجابوه بأنّه إنّما جاءهم ليصرفهم عن عبادة الأصنام التي وجدوا آباءهم عليها عاكفين، و قد صمّموا على عدم الإيمان خوفا من أن يتكبّر موسى و أخاه في الأرض و طلب فرعون من جنده أن ينتشروا في مملكته و خارجها و يأتوه بكلّ ساحر عليم، و يجيء السّحرة لمناظرة موسى - عليه السّلام - و يطلب منهم أن يلقوا الذي يريدون إلقاءه و لما ألقوا قال لهم موسى إنّ هذا الذي جئتم به سحرو سيطله الله و يحقه لأنّ الله لا يدعه و إنّما يسلّط عليه الدّمار و يثبت الحقّ و لو كره المجرمون.

و لم يؤمن الكثيرين من بني اسرائيل لموسى - عليه السّلام - خوفا من فرعون و ملا بني اسرائيل من الأشراف، لأنّ فرعون أراد تعذيبهم فهو الغالب في الأرض و الظّالم المفسد فلقد كان يسومهم سرّ العذاب بذبح أبنائهم و استحياء نساءهم. و يلتفت موسى - عليه السّلام - للذين آمنوا معه و قد وجدوا أنفسهم بين أمرين أحلاهما مرّ فرعون من جهة، و ملئهم من جهة أخرى و يقول لهم بأنّ الله يكفي من يتوكّل عليه، و يجيونه مؤكّدين إيمانهم بالله و توكلهم عليه، راجين منه تبارك و تعالى أن يمنع القوم الظّالمين من أن يفتنّوهم و أن يخلصهم منهم برحمته و إحسانه. و يوحى الله عزّ و جلّ إلى سيّدنا موسى و أخيه - عليهما السّلام - أن يهيّئا لقومهما بمصر بيوتا، و أن يجعلوا هذه البيوت قبله ليعبدوا الله فيها بإقامة الصّلاة، ثمّ يأمر الله نبيّه موسى - عليه السّلام - أن يبشّر المؤمنين بالثّواب و النّصر القريب.

و تنتقل الآيات لتبيّن لنا ما كان من دعاء موسى - عليه السّلام - على فرعون و ملاه لما أبوا قبول الحقّ و تصديقه و استمرّوا في كفرهم و عنادهم، و هو لم يدع ربه حسدا على أوتيه فرعون، و لكنّه أدرك أنّ الغنى يدفع صاحبه إلى التّعالي و الغرور، فرجى ربه أن يطبع على قلوبهم حتّى لا يدخلها الإيمان حتّى إذا جاء اليوم الموعود إذا هم يتمنّون أن يكونوا ترابا حتّى لا يروا العذاب، و استجاب الله لنبيّه موسى و أخاه و أمرهما بأن يثبتا على ما هما عليه من دعوة الكافرين و إلزامهم الحجج الظّاهرة و أنّ عليهما أن يجيدا عن طريق الجهلة.

أخيراً تحدّثنا الآيات عن موسى وقومه وقد جاوزهم الله عزّ وجلّ البحر، فلحقهم فرعون و جنوده محاولين عبثاً النيل منهم، ولكن ربّك هو أعلم بالمفسدين فقد أغرق فرعون و جنوده، ولما كان الأوان قد فات و علم فرعون أنّ هذه هي النهاية المحتومة أشار بإصبعه و قال بصوت مرتفع ﴿أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾¹⁰⁷.

ويقول تبارك و تعالى بعد ذلك أتومن الآن بعد أن اضطرّك الوضع الذي أنت فيه لتعلن إيمانك فلطالما أتتك آياتنا مشرقة و لكنك كذّبت و كنت من الضّالين، فالיום ننجيكَ بجسم لا روح فيه لتكون لبني اسرائيل دليلاً على رحيلك إلى الأبد ليتعظ برويتك كلّ من يريد أن يتعظ و يعتبر¹⁰⁸.

تلك هي قصّة سيّدنا موسى -عليه السّلام- في سورة يونس و إليك الآيات كما وردت فيها ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمًّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ أَعْيُنٌ عَلَى آلِهَاتِنَا لَمَّا جَاءَكُمْ فَلَمَّا بَلَغَ مِنْ ذَلِكَ شِئًا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَتَقُولُونَ الْمَلِئُونَ أَلَمِئُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ مِنْ قَبْلُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قَالُوا أَتَقُولُونَ لِمَنْ يُدْعَى إِلَهُكُمُ اللَّهُ جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُطِيعُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِرِينَ قَالُوا لِمُوسَى يَا قَوْمِ إِنَّ كُنْتُمْ تَمُنُّونَ بِاللَّهِ فَلْيُحْلِلْهُ تَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا

¹⁰⁷ سورة يونس، الآية : 90

¹⁰⁸ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الثالث، من ص : 212 إلى ص : 219 و الزمخشري " الكشاف "، ج : 3،

من ص : 21 إلى ص : 24

وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَآمَوالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ النَّالِيَهُمْ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وَجَاوِزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْيَمْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَمَكْرًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلَا الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نَنجِيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ¹⁰⁹

أما سورة الصافات ففيها إشارة لقصة موسى -عليه السلام- و لكن من نوع آخر، و من جانب غير كل الجوانب التي عرضت له السور السابقة، إنه جانب المنن التي أكرم الله بها نبيه موسى و أخاه هارون -عليهما السلام- من النبوة و النجاة بمن آمن معهما من بطش فرعون و قومه و ظلمهم، و نصرهم الله و استطاعوا على الرغم من قتلهم غلبة فرعون، فصارت الأرض و ما عليها ملك لهم بعدما كانت في يد فرعون، و أيدهما الله بالتوراة، و هداهما إلى ما يقولان و ما يفعلان، و أبقي تبارك و تعالى لهما ذكرا جميلا و ثناء حسنا¹¹⁰ يقول تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاَنْتَابُوا هُمُ الْغَالِبِينَ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَتَرَكْنَاهُ لِحَيْهِمَا فِي الْأَخْرَيْنَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ¹¹¹﴾

ثم تأتي سورة غافر و أول ما تبتدىء به من حديث هو إرسال موسى - عليه السلام - بالحجج و البراهين إلى فرعون و هامان و قارون الذين كذبوا موسى و قالوا أنه ساحر، فلمّا جاءهم بالنبوة، اشتطوا غضبا و قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا مع موسى و استحيوا نساءهم ظلّا

¹⁰⁹ سورة يونس من الآية : 75 إلى الآية : 92

¹¹⁰ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الخامس، ص : 115

¹¹¹ سورة الصافات، من الآية : 114 إلى الآية : 122

منه أنه يصدّهم بذلك عن الوقوف إلى جانب موسى و لكن كيده ضائع لأن الله سينصر نبيّه موسى - عليه السّلام - و قومه على القوم الكافرين.

و يحدثنا القرآن عمّا أَراده فرعون من قتل موسى - عليه السّلام - و لكن قومه منعوه لا بالقوّة و إنّما بالكلام اللّين الذي أظهروا من خلاله أنّ قتله لموسى - عليه السّلام - سيدخل الشبهة على الناس و سيعتقدون أنّك إنّما قتلته لعجزك عن معارضته بالحجّة الدامغة، و الدليل الواضح أنّ فرعون لعنه الله كان قد تأكّد تأكّده من قوّته أنّ موسى - عليه السّلام - نبيّ حقّ و أنّ ما جاء به آيات بيّنات و ليست بسحر، و إذا كان فرعون قد اعتاد سفك دماء من يحنون أمامه متضرّعين، فكيف لا يقتل من أبى الإذعان إليه وأصرّ على إسقاط كلمته لأنها باطل و إعلاء كلمة الحقّ، و الذي نعجب له هو ما علّل به فرعون هذا القتل و هو خوفه من أن يغيّر موسى دين قوم فرعون و التفاتن الذي يذهب معه الأمن.

و لم يزد موسى بعد أن سمع ما سمع على أن طلب من قومه أن يقتدوا به فيعودوا بنا لله عياده، و يعتصم بالتوكّل عليه اعتصامه ثمّ تنتقل الآيات بعد ذلك لتفصّل لنا قول الرّجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتُم إيمانه و راح ينصح قومه منكرا عليهم قتلهم نفسا محرّمة عليهم كلّ ما صدر عن صاحبها هو كلمة حقّ، فكيف تقتلون له لكونه قال ربّي الله، و أقام لكم الحجج و البراهين على صدق ما أتاكم به، فإذا رأيتم أنّ ما جاءكم به ليس بحقّ فمن العقل بل من الرّأي التّام أن تتركوه و لا تؤذوه، فإن كان قد كذب عليكم فإنّ الله سيعاقبه في الدارين الأولى و الآخرة، و إن كان صدقكم القول و ظلمتموه بإيذاءكم له فإنّ الله سيعذبكم عذابا أليما في الدّنيا و ما لكم في الآخرة من ناصرين، و يذكرهم بنعم الله عليهم من الملك و الجاه و يطلب منهم أن يراعوا هذه النعم ويشكروا ربّهم عليها، و أنّ هذه الجنود و العساكر لن تغني عنكم من الله شيئا إن أراد بكم سوء، و لكنّ فرعون يقول لقومه رادّا على مقولة الرّجل الصّالح الذي كان أحقّ بالملك من فرعون - أنّه ما يقول لهم إلّا ما يراه صائبا و هو قتل موسى - عليه السّلام - و أنّه إنّما يدعوهم لطريق الحقّ و الرّشاد ثمّ يعود المؤمن الصّالح لنصائحه فهو يخاف أن يصيب قومه ما أصاب الأمم التي سبقته جرّاء تكذيبها ما بعث الله إليها من الرّسل كقوم نوح، و عاد و ثمود و الذين من بعدهم من الأمم المكذّبة الذين أهلكهم الله بذنوبهم و ما كان الله ليظلمهم

و لكن أنفسهم يظلمون، ثم يحذّرهم من اليوم العظيم و هو يوم القيامة يوم ينصرفون عن موقف الحساب إلى النار و من يضلّه الله فلن يهديه غيره، ثم يذكرهم بما كان من يوسف - عليه السّلام - لما جاءهم بالبينات و لكنّهم كانوا في شكّ ممّا جاءهم به، و يؤسّوا من أن يبعث الله رسولا من بعده كذلك يخذل الله كلّ مسرف في عصيانه، مرتاب في دينه، الذين يدفعون الحقّ بالباطل و يجادلون في آيات الله بغير دليل و لا حجة، و كبر هذا هذا مقتا عند الله و عند المؤمنين، و هكذا يطبع الله على قلوب المتكبرين الجبابرة.

و رغم كل ذلك إلّا أنّ فرعون المتجبر لم يبال بكلام ذلك الرّجل المؤمن، و أمر وزيره هامان أن يبني له قصرا عاليا لعلّه يبلغ طرق السّموات و أبوابها، ليطلّع إلى إله موسى مع أنّه على يقين من كذب موسى - عليه السّلام -، و لكنّه أراد بصنيعه هذا أن يوهّم الرّعيّة، أنّه إنّما يعمل ذلك ليتوصّل إلى تكذيب موسى، و ما كيده إلّا في خسران و ضياع، و يكرّر الذي آمن وصاياه و قد رأيت و أنا أتصفّح تفسير الكشّاف أنّ الرّبخشري قد أتقن تفسير ما وصّى به هذا العبد الصّالح قومه فهو قد تذوّق كتاب الله و ها هو يقول : " ... فأجمل لهم ثمّ فسّر فافتتح بذمّ جميع ما يؤدّي إلى سخط الله و يجلب الشّقاوة في العاقبة و ثنى بتعظيم الآخرة والإطّلاع على حقيقتها و أنّها هي الوطن و المستقرّ و ذكر الأعمال سيّئها و حسنّها و عاقبة كلّ منهما ليثبّط عمّا يتلف و ينشط لما يزلّف ثمّ وازن بين الدّعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النّجاة و دعوتهم إلى اتّخاذ الأنداد الذي عاقبته النّار و حذر و أنذر و اجتهد في ذلك و احتشد لا جرم أنّ الله استثناه من آل فرعون و جعله حجة عليهم و عبرة للمعتبرين¹¹² .

ثمّ تبين لنا الآيات الكريمة أنّ الذين كفروا يعرضون على جهنّم غدواً و عشيا، أمّا يوم قيام السّاعة فسيدخلون أشدّ العذاب ثمّ يتحاجّون في النّار فيقول الضّعفاء و الأتباع لساداتهم و كبارائهم أنّهم أطاعوهم فيما دعوهم إليه في الدّنيا من الكفر و الضّلال، فسألوهم هل يغنون عنهم اليوم نصيبا من النّار و لكنّهم أبوا ذلك لأنّه يكفيهم تحمّل ما هم فيه من العذاب الذي فنّمه الله بينهم و طلبوا من خزنة جهنّم أن يدعوا ربّهم ليخفّف عنهم و لو يوما واحدا من العذاب، و يقال لهم ألم تأتكم الرّسل بالحجج و البراهين؟، فيقولون : بلى فيقال لهم : ادعوا

¹¹² الرّبخشري "الكشّاف"، ج : 5، ص : 183

لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ونحن منكم براء، و مهما دعوتكم الله فلن يتقبل منكم، لأن دعاء الكافرين لا يتقبل ولا يستجاب.¹¹³

ثم يعقب على هذا كله بأن الله سينصر رسله في الدنيا وفي الآخرة يوم لا يغني عن الظالمين عذرهم ويمنعهم الله رحمته، ويبيدهم عنه، ولهم في الآخرة عذاب أليم، وأن الله قد أتى نبيه موسى - عليه السلام - التوراة وأيده بكثير من المعجزات كما أوردت قومه - بني إسرائيل - الكتاب وهو التوراة فيه إرشاد وتذكير لمن أراد أن يعتبر، ثم يعقب تبارك وتعالى على ذلك كله بطمأنينة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فكما أهلك الله فرعون وجنوده، ونصر سيدنا موسى - عليه السلام - فلا بد من أن ينصر نبيه محمد كذلك ويهلك الذين كذبوا بما جاءهم به من البينات وإليك الآيات كما وردت في الذكر الحكيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ بَيْنِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ خُذُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالِ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ طَافِ قَوْمِ نُوحٍ وَحَامِدٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَاصٍ وَمَنْ

¹¹³ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الخامس، من ص: 195 إلى ص: 204 و الزمخشري " الكشاف "، ج: 5، من ص: 179

يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ
مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ خُبْرٌ مُقْتَبًا
مِنْهُدَّ اللَّهُ وَمِنْهُدَّ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَا هَاهَانَا ابْنُ لِي صَرًّا لَعَلِّي أَبُلْغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ
مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا
كَانَ فِرْعَوْنُ إِلَّا فِي تَبَابٍ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
يُجْزِيهِ إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى
النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّعْزِيزِ
الْعَفَاةِ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ
مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفْهَؤُصُ
أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ مَا مَكُرُوا وَخَاقَ بَالِ فِرْعَوْنَ
سُوءَ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ
فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَكَانَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِيُزَنَّهُ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ
يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى
قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوءُ الدَّارِ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرًا

لأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١١٤﴾

١١٤ سورة غافر (المؤمن)، من الآية : 23 إلى الآية 54

ثم تأتي سورة الزخرف تحمل بين طياتها جانباً من قصة موسى - عليه السلام - هو نبأ فرعون، حيث تبدأ الصورة الكريمة حديثها عن إرسال سيدنا موسى - عليه السلام - إلى فرعون وملاه بالآيات البينات، ولكنهم يفاخرونه بضحكهم وسخريتهم منها ويسمونها سحراً، مع أن ما جاء به موسى - عليه السلام - كان كافياً لتصديقه والإيمان فليس من آية تأتيهم إلا وهي أكبر من أختها، ومع هذا فإنهم لم يرجعوا عن غيهم وضلالهم، وكلما جاءتهم آية من هذه ورأوا أن العذاب قد أحاط بهم أسرعوا إلى موسى يتلطفونه بقولهم ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾¹¹⁵، لأن السحر في زمانهم لم يكن مذموماً، ولم يكن ينقص من قيمة صاحبه وإنما كان منتشراً عندهم فالساحر هو العالم والماهر، ولكن الذي حدث هو أنهم في كل مرة كانوا يعدون موسى إن هو كشف عنهم العذاب ليؤمنن، كانوا ينكثون عهودهم.

و تنتقل الآيات بعد ذلك لتحديثنا عن تمرد فرعون و غروره، إذ جمع قومه و نادى فيهم مفتخراً بما له من أملاك مصر، و من الأنهار التي تجري من تحته، أفلا ترون ما هو فيه من العظمة و الملك. ثم نجده يعتد بنفسه و يسخر من موسى - عليه السلام - و يفترى عليه بأنه حقير و لا يكاد يفهم شيئاً و لو كان صادقاً فهلاً أُلقيت عليه أسورة من ذهب، أو جاءت معه الملائكة مصدقة له، فاستفز فرعون قومه و دعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له لفسقهم، و لما أغضبوا الله جلت قدرته انتقم منهم بإغراقهم، و جعلهم قدوة لمثل من عمل بعملهم من أهل الضلال كما تذكر الآيات : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَخْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْخُلْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا نَمْسُدُ بِكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ فَلَمَّا خَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُخْشَوْنَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِبِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ

¹¹⁵ سورة الزخرف، الآية : 49

كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا أَصَفْنَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا
وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿١١٦﴾

أما سورة الدخان فيخبرنا الله تعالى فيها على أنه أمهلهم، و أعطاهم من الأرزاق ما
يوجب عليهم شكره، و لكن جهلهم و طغياتهم دفعهم لارتكاب المعاصي و اقتراف الآثام،
فأرسل إليهم سيدنا موسى - عليه السلام - مبشرا و نذيرا داعيا إيَّاهم إلى الله، محذرا لهم من أن
يستكبروا على الله، و يستهينوا برسوله الذي هو عائد بربه و ربهم متكل عليه بأن يعصمه من
كيدهم، فإن لم يؤمنوا به فعليهم أن لا يتعرضوا له بأذيتة و لكنهم خالفوا أمرهم به، فدعا ربه أن
يجازيهم بما يستحقون نتيجة إجرامهم، و عند ذلك أمره الله عز و جل أن يخرج بني اسرائيل ليلا
و أخبره أنهم متبعون من فرعون، و أنه عليه أن يترك البحر على حاله ساكنا و يمضي، و أنه تبارك
و تعالى سيغرق فرعون و جنوده، و سيمضون إلى دار القرار مخلفين وراءهم كل ما ملكوه من قبل
من بساتين و أنهار و قصور أنيقة و ورثها بنوا اسرائيل بإذن ربهم، و لم يكن فرعون
و جنوده ممن يعظم فقده، فيقال فيه بكت عليه السماء و الأرض و عن الحسن فما بكت عليهم
الملائكة و المؤمنون بل سرّوا بهلاكهم، و أنجى الله بي اسرائيل من عذاب فرعون و إهاتته إنه
كان مستكبرا عنيدا و مسرفا جبّارا، فاصطفى الله بني اسرائيل و علّمهم على عالمي زمانهم،
و آتاهم من الحجج و البراهين ما فيه النعم الظاهرة، و الإختبار لمن أراد أن يهتدي بقول تبارك
و تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَكْفُوا إِلَيَّ عِبَادَ
اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ وَإِنِّي
لَخَذْتُ بَرْبِي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِي فَدَمًا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ
قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ فَأَسْرَبْعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ
مُغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَوَيْحُونَ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا
فَاجْهَبِينَ خَدَاكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
مُنْظَرِينَ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا

مِنَ الْمُسْرِفِينَ وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ لَمَسًا عَلَيَّ الْعَالَمِينَ وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ
بَلَاءٌ مُّبِينٌ¹¹⁷.

ثم تأتي سورة الكهف وقد اختصت بذكر خير موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح الذي أخبره الله بأنه أعلم منه، فأحب الرحيل إليه، و قال لفتاه أنه لن يتوقف عن السير حتى يبلغ مكان الخضر و لو أمضى لذلك حقبا من الزمان، و كان موسى - عليه السلام - قد سأل ربه كيف له بمكان هذا الذي هو أعلم منه " قال تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت و وقع في البحر فلمّا جاء وقت الغذاء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر فأتيا الصخرة فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال و أنا بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت و أنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا فلمّا ركب السفينة جاء عصفور فوق على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر ما ينقص علمي و علمك من علم الله إلا مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر¹¹⁸.

ثم تحدثنا الآيات عن سؤال موسى - عليه السلام - للخضر أن يسمح له بصحبته و أن يعلمه ممّا علمه الله فأخبره الخضر بأنه لن يستطيع أن يصير على ما سيرى منه، و كيف له ذلك و هو سيرى ما لم يعلمه، و لكنّ موسى - عليه السلام - يعده بالصبر معلقا وعده على مشيئة الله -و الذي يلفت الانتباه ههنا هو أنّ الفتى الذي كان يرافق سيّدا موسى - عليه السلام - قد انتهت مهمّته و عاد أدراجه، و لم يبق في صحبة موسى غير العبد الصالح -و يشترط العبد الصالح على سيّدا موسى أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يفتحه هو بالحديث و يشرحه له من تلقاء نفسه.

انطلق سيّدا موسى - عليه السلام - رفقة الخضر يمشيان على ساحل البحر فمرّت سفينة فطلبوا من أهلها أن يحملوها ففعلوا ذلك و من دون أجره و لما استقلت السفينة في البحر و في

¹¹⁷ سورة الدخان، من الآية : 17 إلى الآية : 33

¹¹⁸ الرّمحشري " الكشاف "، ج : 3، ص : 213.

غفلة من أهلها أخذ العبد الصالح فأسا و خرق السفينة بقلع لوحين من ألواحها ثم يلي الماء ثم
 رقعها، فأنكر موسى - عليه السلام - ذلك و خاطبه متسائلا كيف له أن يفعل ذلك بسفينتهم
 و قد أعانوهم في سفرهم، و يذكره العبد الصالح بما كان بينهما من اتفاق، و يعتذر له موسى
 معللا له ذلك بنسيانه، و تابعا طريقهما حتى أتوا على غلمان يلعبون فاقترب الخضر من أحدهم
 و ابتعد به عنهم و قتله، فقال له موسى منكرا عليه فعله إنكارا أشد من الأول و أقوى لأن السفينة
 صنع بشري بالإمكان إصلاحها و لكن المقتول خلق رباني لا يمكن إحياءه من جديد،
 و يذكر العبد الصالح موسى الذي اتفقا عليه قبل أن يبدأ رحلتها، و يكرر موسى - عليه
 السلام - اعتذاره مؤكدا للخضر أنه إن هو سأله بعد هذا فلا يصاحبه إياه، ثم واصل طريقهما
 إلى أن وصلا إلى قرية و كان الجوع قد أخذ منهما بنصيب - فطلب من أهلها أن يطعموهما
 و لكنهم أبوا تضييفهما فوجدوا فيها حائطا يشرف على الإنهيار فأصلحه الخضر و هنا لم يتمالك
 صاحب المزاج الحاد نفسه لما كان بهما من الحرمان و مساس الحاجة، فقال لصاحبه لو شئت
 لقبضت مالا على عملك ذاك، فكيف تعمل لهم ذلك مجانا و قد رفضوا إطعامنا، و هنا أيضا لم
 تبق لموسى - عليه السلام - أية فرصة أو حجة يتحجج بها ليتابع مسيرته مع العبد الصالح،
 و أدرك أن الفراق قد صار محتوما و يحبره بأن الوقت قد حان ليبين له الأسباب التي دفعته لفعل ما
 فعل، و التي استشكل أمرها على موسى - عليه السلام - و قد عرضنا لها بالتفصيل حين ذكرنا
 ملخص القصة من قبل، لذلك نرى أنه لا داعي لإعادة ذكرها هنا - يقول تبارك و تعالى في ذلك
 كله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا
 بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا
 خُذَاءَنَا فَتَمَثَّلَ لَنَا تَحَدُّبًا مِنْ سَحَابٍ مِمَّنْ شَقَّهَا فَرَأَيْنَاهُ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي
 نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ
 ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً
 مِنْ عِزِّدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ
 رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ

شَيْءٍ حَتَّى أَخْبَرْتَهُ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَاذْكُرُوا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ
أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
قَالَ لَا تَأْخُذْ بِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي فَخَسِرَا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا
فَقَتَلَهُ قَالَ اقْتُلْتَهُ نَفَسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ
لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ مَنْ شَيْءٌ بَعْدَهَا قَالَا تَصَاحَبُنِي فَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ
لَدُنِّي عُذْرًا فَاذْكُرُوا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا هُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُمْ لَأَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ
هَذَا هِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ سَاتِنُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
خَصَبًا وَأَمَا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا
أَنْ يُنْذِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ
فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»¹¹⁹.

أما سورة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فقد اقتضرت من القصة على جانب واحد تعلق
بخبر موسى - عليه السلام - مع بني اسرائيل، فلقد أرسل الله سيدنا موسى إلى بني اسرائيل
وأيده بالحجج والبراهين، أمرا إياه أن يدعوهم إلى ما فيه الخير في الدنيا و حسن ثواب الآخرة،
وأنذرهم بما حلّ بالأمم التي كذبت قبلهم من قوم نوح و عاد و ثمود الذين أخذهم الله بعذاب
عظيم لعل الذين يخلفونهم يعتبرون بما أصابهم من الخزي في الدنيا و ما أعدّه الله لهم في الآخرة
أشدّ و أقسى و في ذلك عبرة لمن صبر في الضراء، و شكر في السراء.

و راح موسى - عليه السلام - ممثلا لأمر ربّه يذكرّ قومه بما أنعم الله عليهم إذ أنقذهم
من فرعون و جنوده، و أنجاهم من العذاب الذي كانوا يعانونه من تذبيح أبناءهم و استحياء
نساءهم و هو بلاء عظيم منه جلّت قدرته، ثم يذكرّهم موسى - عليه السلام - بما آذن الله لهم

¹¹⁹ سورة الكهف، من الآية : 60 إلى الآية 82

و ما أعلمهم به من وعود، فإن هم شكروا ما أنعم عليهم من الإنحاء و غيره من النعم بالإيمان و العمل الصالح ليضاعفن لهم ما آتاهم، و إن هم جحدوا ما أنعم به عليهم، فإنه تعالى سيسلبها منهم و يلحقهم أشد العقاب¹²⁰ و إن يكفر بنو إسرائيل و الناس كلهم فإنهم يضرون أنفسهم و يحرمونها الخير و الصلاح، لأن الله عن شكر العالمين مستوجب للحمد لما من به على عباده و إن كان أكثرهم حمده متناسون و إليك الآيات كما وردت في السورة الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾¹²¹.

ثم تأتي سورة النازعات بإشارة موجزة لخبر موسى مع فرعون مفتحة إشارتها بتساؤل لطيف لسيّدنا محمد صلى الله عليه السّلام إن كان بلغه خبر موسى - عليه السلام - لما كلمه ربه بالواد المقدس آمرا إياه بالذهاب إلى فرعون لأنه تمرد و عتّى، عسى أن يتطهر من شركه، و يولّي وجهه شطر ربه يعبده و يخشاه، و يلين قلبه بعدما كان قاسيا، فأظهر له موسى بعدما دعاه إلى الحق معجزة العصا التي تنقلب إلى حية عظيمة بإذن الله و لكنه كذب بعدما علم صدق موسى - عليه السلام - فولّى مرعوبا ممّا رأى، ثم جمع قومه و أخبرهم بأنه ربهم الأعلى، فانتقم الله منه بأن جعله عبرة و نكالا لأمثاله من الذين استكبروا و طغوا في هاته الدنيا¹²² يقول تبارك و تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِيقِ الْمُقَدَّسِ طَوًى اخْضَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ أَنْ تَزْعُمَ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَمَعْصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾¹²³.

¹²⁰ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الثالث، من ص: 356 إلى ص: 358 و الزمخشري " الكشاف "، ج: 3، ص: 112، 113.

¹²¹ سورة إبراهيم، من الآية: 6 إلى الآية: 8.

¹²² ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد السادس، ص: 349.

و الزمخشري " الكشاف "، ج: 6، ص: 206، 207.

¹²³ سورة النازعات من الآية: 15 إلى الآية: 26.

أما سورة البقرة التي تعدّ من أطول السور المدنية على الإطلاق، فقد حفلت بالحديث عن بني إسرائيل فبعد أن ذكرهم تبارك و تعالى بنعمه عليهم راح يحذّرهم من نقمة يوم الحساب العظيم، يوم لا يغني أحد عن أحد شيئاً، و لا تقبل من الكافرين شفاعتهم و لا يقبل منهم فدية و لا ينصرهم ناصر، ثم عاد ليذكرهم بما كان من إنجائهم و رسوله موسى من فرعون و ملأه الذين طالما ذبحوا أبناءهم و استحيوا نساءهم، فأغرقهم الله في البحر، و أنجى موسى و من آمن معه و هم ينظرون حتى لا يرتابوا بعد ذلك في قدرة الله، و صحّة نبوّة موسى - عليه السلام - و لكنّهم بعد كلّ ما جاءهم به ضلّوا عن سبيله و اتّخذوا العجل إلها لهم يعد أن ذهب موسى لميقات ربّه، فتاب عليهم ربّهم، و أيّد نبيّهم بالتّوراة و فيه ما يفرّقون به بين الحقّ و الباطل و الهدى و الضلالة لعلّهم يرجعون عمّا كانوا عليه.

ثمّ تنتقل الآيات بعد ذلك لتحدّثنا عن حوار موسى - عليه السلام - مع قومه ناعياً عليهم ما فعلوه من عبادتهم العجل، و أنّهم بذلك قد ظلموا أنفسهم، فأمرهم ربّهم أن يقتلوا أنفسهم ليغفر لهم ففعلوا و تاب الله عليهم، و لكنّهم عادوا فجحدا نعمة الله عليهم، و طلبوا من موسى - عليه السلام - أن يروا الله رأي العين، فأماتهم الله، ثمّ أحياهم من بعد موتهم لعلّهم يشكرون نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعدما كفروا بها فرماهم الله بالصّاعقة و أذاقهم الموت ثمّ أحياهم و شرع يذكرهم بما أسبغ عليهم من النعم فقد سحرّ لهم السحاب يسير بسيرهم فقيقهم حرّ الشّمس و أنزل عليهم المنّ و السّلوى ليقتاتوا بهما و لكنّهم ظلموا أنفسهم مع ما شاهدوه من الآيات البينّات و المعجزات الخوارق، ثمّ أمرهم بدخول الأرض المقدّسة و أن يتمتّعوا منها بما يشاءون، و أن يدخلوا الباب ركّعا و أن يقولوا حطّة ليغفر لهم ذنوبهم و لكنّهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول و الفعل، فقد أمرهم الله تعالى أن يدخلوا ساجدين، و لكنّهم دخلوا زاحفين على أسنانهم؟، و أمرهم أن يقولوا حطّة أي احطط عنا ذنوبنا و لكنّهم قالوا حنطة بدل "حطّة" استهزاء منهم بما قيل لهم و عدولاً عن أمر الله - و في تكرير قوله تبارك و تعالى ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ زيادة في تقبيح أمرهم، و أنّ ظلمهم قد تجاوز حدود الظلم نفسه - فأصابهم الله بالعذاب نتيجة كفرهم و عنادهم، و لما عطشوا في التّيه طلبوا من موسى أن يسقيهم، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر فتفجّرت منه اثنتا عشرة عينا لكلّ سبط منهم عينا خاصّة بهم، و أمرهم

نبيهم موسى - عليه السلام - أن يأكلوا من المنّ والسلوى، و يشربوا من هذا الماء الذي أنبعه لهم بأمر ربّه و أن لا يتمادوا فيما كانوا فيه من الفساد، و لكنّ غرورهم و جهلهم دفعهم لأن يطلبوا من موسى - عليه السلام - أن يدعوا الله ليرزقهم غير هذا الذي رزقوا به، فقد أرادوا البقل و القثاء و الثوم و العدس و البصل بدلا من المنّ والسلوى اللذان هما خير ممّا طلبوا و لما سمع منهم ذلك أمرهم بأن ينزلوا مصرا حتّى يكون لهم ما طلبوا فجعلت الذلّة محيطة بهم، مشتملة عليهم، و استوجبوا سخط الله بسبب كفرهم و قتلهم الأنبياء بغيا و عدوانا و كذلك بسبب ارتكابهم العديد من المعاصي و اعتدائهم حدود الله و من يتعدّى حدود الله فقد ظلم نفسه.

بعد أن بيّن تبارك و تعالى حال من خالف أوامره، و تعدّى ما لا إذن له فيه نبّه على أنّ الذين أحسنوا من الأمم السّابقة لهم جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار، لا يسمعون فيها لغوا جزاء بما آمنوا و كانوا يهتدون، ثمّ عاد مذكّرا بني اسرائيل بما أخذ عليهم من العهود و المواثيق بالعمل بما في التّوراة و لكنّهم نكثوا ما عاهدوه عليه. فلولا أنّ توبة الله و رحمته وسعت كلّ شيء بأن أرسل إليهم النّبيّين و المرسلين مبشّرين و منذرين حتّى وفّقوا للتّوبة لخسروا في الدّنيا، و ما لهم في الآخرة من ناصرين.

كما ذكرهم الله تبارك و تعالى بأولئك الذين خالفوا عهده الذي أخذه عليهم بتعظيم السّبب و عدم اصطياذ الحيتان فيه، إلّا أنّهم خالفوا عهده فجعلهم جامعين بين القرديّة و الخسوء، و صاروا أذلة صاغرين، و قد جعل الله مسخهم عبرة تنكل من اعتبر بها و موعظة للذين نهوهم عن الإعتداء على حدود الله.

و تنتقل الآيات بعد ذلك لتحدّثنا عن أمر البقرة التي أمر تبارك و تعالى بنو اسرائيل بذبحها، ذلك أنّه - على حدّ قول المفسّرين - كان فيهم رجل موسر فقتل بنو أخيه ابنه ليرثون، و وضعوه على باب المدينة و أقبلوا مطالبين بدّيّته، فأمروا بذبح بقرة حتّى إذا ما ضربوه ببعضها دبّت فيه الحياة فيخبرهم عن قاتله، و لكنّهم لقلة استبصارهم قالوا له : أجمعنا مكان هزو، و أجابهم و هو يستعيد الله أن يكون من الجاهلين.

فطلبوا منه في بادئ الأمر أن يدعو ربّه ليبيّن لهم ما هي ؟، فقال : إنه يقول أنها بقرة لا
 هرمة ولا صغيرة ولكنها بين الهرمة والبكر، ثم طلبوا منه أن يدعو ربّه ليبيّن لهم لونها فأخبرهم
 بأنها صفراء فاقع لونها تعجب الناظرين، ثم سألوه أن يدعو ربّه ليبيّن لهم ما هي لأنّ البقر تشابه
 عليهم، فأخبرهم بأنّ الله يقول أنها بقرة لم يذلّها العمل فتثير الأرض، ولا تعمل في الحرث زيادة
 على أن لا عيوب فيها، فذبحوها وضربوه ببعضها فقام المقتول وأخبرهم عن القاتل، ثم عاد
 مقتولاً، وفي هذا لمن أراد أن يعتبر ما لا يخفى على كلّ عاقل ذا بصيرة، ولكن بنو اسرائيل -
 الذين عاشوا في مصر وألفوا الغرور والطغيان - تولّوا من بعد ذلك كلّهم وقست قلوبهم حتّى
 أنّ الحجارة ألين منها¹²⁴ يقول تبارك وتعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا بِعِمَّتِي الَّتِي
 أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ مِنْ نَفْسٍ
 شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
 بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
 تَنْظُرُونَ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
 ثُمَّ مَحْمُومُونَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ
 لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ
 فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ دُونِ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ
 هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ
 الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
 الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
 وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ

¹²⁴ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الأول، من ص: 132 إلى ص: 166

و الرّبعشري " الكشاف "، ج: 1، من ص: 67 إلى ص: 76

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْجَبَرِ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ
اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ
فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقَلٍهَا وَقَتَّانِهَا وَفُومِهَا وَغَدَسِهَا وَبَطَلَهَا
قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَآئِنُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا
قَلِمَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا
فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ
اخْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُمِدٌ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْبَاطِلِينَ قَالُوا
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ
ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ
تَشَابَهَ عَلَيْهَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُضْطَّعُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ
وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ
بِرَعْصَمٍ فَكَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ

وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْسِفُ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ¹²⁵

وَلَمَّا كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَدْ نَالَ حَصَّةَ الْأَسَدِ¹²⁶ ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا إشارات لهم في أواخر السُّورَةِ تَدَلُّ عَلَى أَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ حَتَّى بَعْدَ مُوسَى بِسِنِينَ طَوِيلَةٍ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَنْ حَا الذِّبْيَ يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ¹²⁷﴾

ثُمَّ تَأْتِي سُورَةُ النَّسَاءِ مُتَضَمِّنَةً خَبْرَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَحَدِيثُهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِيجَازِهِ إِلَّا أَنَّهُ يَبَيِّنُ جَانِبًا مَهْمًا تُمَثِّلُ فِي تَعَنُّتِهِمْ وَطَلَبِهِمْ مِنْ مُوسَى رُؤْيَا اللَّهِ عِلَانِيَةً ، بَعْدَمَا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ ، فَإِذَا كَانُوا قَدْ سَأَلُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا يُؤْمِنُونَ ، فَقَدْ دَفَعَهُمْ طُغْيَانُهُمْ وَغِيَّةُهُمْ قَبْلًا أَنْ يَسْأَلُوا مُوسَى رُؤْيَا اللَّهِ عِيَانًا فَأَخَذَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَذَابًا عَظِيمًا ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، مَعَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ فِيهِمْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْحُجَّجِ وَالْبَرَاهِينِ ، ثُمَّ عَفَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَآتَى مُوسَى تَسْلُطًا ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ ، حِينَ أَمَرَهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ كَمَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُ ثُمَّ يُخْبِرُنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا خَالَفُوا مُوسَى رَفَعَ الْجَبَلَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ فَسَجَدُوا مُتَظَاهِرِينَ بِالْإِيمَانِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَوْقِعَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ وَيَهْلِكُوا ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَجْدًا وَوَصَّاهُمْ بِالتَّزَامِ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَلَكِنَّهُمْ خَالَفُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَكَفَرُوا بِكُلِّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ ، فَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ ظُلْمًا وَبَغْيًا ، وَادَّعَوْا أَنَّ قُلُوبَهُمْ أَوْعِيَةٌ لِلْعِلْمِ ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

¹²⁵ سورة البقرة، من الآية : 47 إلى الآية : 74

¹²⁶ محمد علي الصابوني " قس من نور القرآن الكريم "، مكتبة رحاب، الجزائر، د.ط، د.ت، ص : 21 ، 22.

¹²⁷ سورة البقرة، من الآية : 244 إلى الآية : 246

طبع عليها بكفرهم، فاعتادت على الكفر والطغيان وقلّة الإيمان، و بعد جملة من الآيات تنتقل السّورة لتشير إلى أنّ الله اصطفى نبيّه موسى - عليه السّلام - بأن كلمه من دون سائر رسله.¹²⁸

هذا هو الجانب الذي عرضت له سورة النساء وإليك الآيات يقول تبارك و تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كُفْرَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾¹²⁹ و ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَيُحْسَى وَيُحْسَى وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾¹³⁰

أمّا سورة المائدة فقد أخبرنا فيها تبارك و تعالى عن كلمه موسى - عليه السّلام - و ما كان من أمره مع بني اسرائيل فقد راح يذكرهم بنعم الله عليهم فلقد بعث فيهم كثيرا من الأنبياء، و أورثهم ملك فرعون، و آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين قطّ من فلق البحر و إنجاءهم، و إغراق فرعون و ملئه، و تضليل الغمام عليهم، و إنزال المنّ و السّلوى و غير ذلك ممّا خصّهم به تبارك و تعالى من خوارق العادات. ثمّ قال تبارك و تعالى مخبرا عن تحريض موسى - عليه السّلام - لبني اسرائيل على الجهاد و الدّخول إلى بيت المقدس - و قد كان قرار الأنبياء و مسكن المؤمنين - و لكنّهم أبدوا تخوّفا من دخولها لأنّ فيها من هم أقوى و أشدّ جيروتا، فإذا خرجوا منها فإنّهم سيدخلون، فقال رجلا من المتّقين الذين لهم مهابة من بني اسرائيل، و اللذان آمنّا برّبهما، لو أنّ بني اسرائيل توكلّوا على الله، اتّبعوا أمره، و وافقوا رسوله، و دخلوا الأرض المقدّسة

¹²⁸ ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الثاني، من ص: 189 إلى ص: 207

و الزّخشي " الكشاف "، ج: 2، ص: 4 . 5

¹²⁹ سورة النساء، من الآية: 153 إلى الآية: 155

¹³⁰ سورة النساء، الآية: 163

لنصرهم الله لكنهم رفضوا الجهاد و خالفوا رسولهم، و قالوا لموسى مستهزئين ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُجَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾¹³¹، و هنا تظهر حقيقة جهلهم و قسوة قلوبهم إذ قابلوا ذهاب موسى و ربه بعودهم.

بعد هذا لم يبق لموسى - عليه السلام - شيئا يقوله أو يفعله، و إنما لجأ إلى ربه شاكيا إذ لا أحد يطيعه، و يمثل لأمر ربه إلا أخاه هارون؛ إنه يتلفظ بهذا و كله حسرة و رقة في ذات الوقت، حسرة على ما قابله به قومه من جحد النعم، و رقة لأنه يخاطب ربه طالبا منه أن يفصل بين أولئك الذين طبع الفسق على قلوبهم و يصرح موسى - عليه السلام - بأنه لا يملك إلا نفسه و أخاه، و لم يذكر حتى الرجلين اللذين نصحا بني اسرائيل باتباعه و طاعة ربه و كأنه لم يعد يثق بأي أحد¹³² و ما أروع ما أشار إليه الزمخشري في هذا الصدد حين قال : "فإن قلت: أما كان معه الرجلان المذكوران ؟ قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق و لم يطمئن إلى ثباتهما، لما ذاق على طول الزمان و اتصال الصحبة من أحوال قومه و تلونهم، و قسوة قلوبهم فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره"¹³³.

و استحباب تبارك و تعالى لطلب كليمه بأن حرّم على بني اسرائيل ولوج الأرض المقدسة مدة أربعين سنة ، و كان جزاءهم التيه في الأرض لا يهتدون لمقصد، فلا تحزن عليهم يا موسى لأنهم يستحقون ذلك نتيجة فسقهم بالعذاب يقول تبارك و تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا

¹³¹ سورة المائدة، الآية: 26

¹³² ينظر: ابن كثير " تفسير القرآن العظيم "، المجلد الثاني، من ص : 272 إلى ص : 278.

و الزمخشري " الكشاف "، ج : 2، من ص : 20 إلى ص : 23.

¹³³ الزمخشري " الكشاف "، ج : 2، ص : 22.

فَاذْكُم بِأَنْتُمْ وَرَبُّكُم فَقَاتِلُوا إِنَّا هَاهُنَا قَائِمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي
وَأَخِي فَافَرِّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُعَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتَيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ¹³⁴

4- دراسة التكرار في قصة موسى - عليه السلام - :

يتبين لنا من خلال العرض السابق لما ورد من إشارات موجزة و من جوانب مفصلة أنّ
قصة موسى و بني اسرائيل من أشدّ القصص تكرارا في القرآن¹³⁵ علاوة على أنّ كلّ حلقة عرضت
منها قد ناسبت موضوع السّورة التي تعرض فيها، و نحن إنّما عمدنا إلى التّرتيب النّزولي ليتسنى
لنا معرفة مواطن الزّيادة و النّقصان و ممّا يجب ذكره أنّنا لم نتخلّى عن التّرتيب حين تحدّثنا عن
السّور التي اكتفت بالإشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - و السّور التي فصلت الحديث عنها
و إنّما الذي حدث أنّنا فصلنا الموجز منها عن المطب ليس إلّا.

و لعلّ سيّد قطب في تصويره قد استشهد ببعض السّور جامعا بين مجملها و مفصلها مراعيّا
التّرتيب النّزولي و قد جازاه في هذا محمود السيّد حسن في رسالته¹³⁶ بدء بسورة الأعلى (و هي
السّورة الثامنة في النّزول) و التي وردت في فيها إشارة قصيرة هي قوله تبارك و تعالى :
﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾¹³⁷ و إشارة قريبة منها في النّجم
(السّورة الثالثة و العشرين في النّزول): ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾¹³⁸

و في سورة الفجر (و هي السّورة العاشرة في النّزول) وردت الإشارة إلى فرعون دون ذكر
موسى يقول تبارك و تعالى : ﴿وَفَرَحَمُونَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأُخْثِرُوا
فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾¹³⁹ ، و إشارة قريبة منها في سورة البروج

¹³⁴ سورة المائدة من الآية : 20 إلى الآية : 26

¹³⁵ ينظر: محمود السيد حسن مصطفى " الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية " ماجستير في الأدب في قسم اللغة اعرابية، ط: 1، جامعة الإسكندرية،

1981، ص : 89

¹³⁶ انظر: محمود السيد حسن " روائع الإعجاز في القصص القرآني " دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، ماجستير في الأداب، المكتب

الجامعي الحديث، الإسكندرية، د ت، من ص 147 إلى ص : 156.

¹³⁷ سورة الأعلى، الآيتان : 18، 19

¹³⁸ سورة الأعلى، الآية : 36

¹³⁹ سورة الفجر، من الآية : 10 إلى الآية : 13

(السورة السابعة والعشرين في النزول) قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾¹⁴⁰ ولعلّ أوّل تفصيل للقصة ورد في سورة الأعراف (السورة التاسعة والثلاثين في النزول) في معرض قصص مشترك مع نوح و هود و لوط و شعيب، وقد كذبوا جميعا من طرف أقوامهم، فأخذ الله المكذّبين بعذاب أليم.

و قد بدأت قصة موسى ههنا بالحديث عن الرسالة التي كلّف الله بها نبيّه موسى و أخاه هارون حيث قال ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنظَرُ لَهُمْ كَيْفَهُمْ كَانَ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾¹⁴¹، ثمّ أعقبها ذكر معجزة العصا التي تنقلب حيّة و اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، و جمع السحرة و ما جرى بينهم و بين موسى - عليه السلام - من مباراة، و نصره الله له عليهم و إيمانهم له بعدما رأوا من الآيات البينات على يديه ما رأوا، و كيف أنّ فرعون الطّاغية قد عذب بني اسرائيل بعد ذلك، و كيف أنّ الله سلّط الجراد و القمل و الضفادع و الدم على فرعون و قومه فاستغاثوا بسيّدنا موسى - عليه السلام - فأغاثهم بقدرة ربّه و لكنّهم عادوا لتعذيب بني اسرائيل فخرج هؤلاء من مصر ثمّ طلبوا من موسى أن يتّخذ لهم إلهًا كما للمصريّين آلهة و راح موسى يذكّرهم بما منّ عليهم من نعم، و جحودهم لها. ثمّ حدّثنا الآيات بعد ذلك عن ميعاد موسى مع ربّه بهد ثلاثين ليلة زيدت إلى أربعين، و طلبه رؤية ربّه و ما حدث من ذلك الجبل و انصعاق موسى وإفاقته، و عودته إلى قومه و قد خالفوه في غيابه و اتّخذوا العجل إلهًا لهم، فغضب من أخيه و قد استخلفه على قومه. ثمّ اختار سبعين رجلا منهم لميقات ربّه، فغشيوا بالجبل لما طلبوا رؤية الله جهرة ثمّ إفاقتهم و توسّلهم لله بأن يرحمهم، و لكنّ الرّدّ كان بأنّ الرّحمة من حقّ الذين يتبعون النّبيّ الأمّيّ. قوله تعالى في هذه السّورة ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾¹⁴².

¹⁴⁰ سورة البروج، الآيتان : 17، 18

¹⁴¹ سورة الأعراف، الآية : 103

¹⁴² سورة الأعراف، الآية : 155

لم ينصّ هنا على سبب الرّجفة : و لكن جاء في مثل هذا الموضع من القصّة في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾¹⁴³.

و الظاهر من السّياق أنّها هي و ليست حادثة أخرى في تاريخ بني اسرائيل مع موسى ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلُوكُ قَالَ أَلْقُوا﴾¹⁴⁴ و في قوله: ﴿أَلْقُوا﴾ دلالة على قلة المبالاة و ثقته الكاملة بنفسه، لكنّ السّياق يفاحنا بما فوجئ به موسى - عليه السلام - و هي مفاجأة لم ترد ههنا في سورة الأعراف. وإنّما جاءت في سورة طه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾¹⁴⁵.

و هناك إشارة في سورة الفرقان (السورة الثّانية و الأربعين في النزول) للرّسالة و تكذيب القوم المشركين احتواها قوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾¹⁴⁶، و قبل هنا ترد إشارة إلى سيّدنا موسى - عليه السلام - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْغْنَاهُمْ تَدْمِيمًا﴾¹⁴⁷.

ثمّ ترد إشارة أخرى في سورة مريم (السورة الرابعة والأربعين في النزول) إلى موسى - عليه السلام - و مناجاته لربّه : ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾¹⁴⁸.

و في سورة طه (السورة الخامسة و الأربعين في النزول) نجد تفصيلاً آخر يبدأ من حلقة أسبق من حلقة الرّسالة التي ذكرت في سورة الأعراف إنّها رؤية موسى للنّار من جانب الطّور

¹⁴³ سورة البقرة، الآيتان : 55، 56

¹⁴⁴ سورة الأعراف، الآيتان : 115، 116

¹⁴⁵ سورة طه، الآيتان : 67، 68

¹⁴⁶ سورة الفرقان، الآيتان : 43، 44

¹⁴⁷ سورة الفرقان، الآيتان : 35، 36

¹⁴⁸ سورة مريم، الآيات : 51، 52، 53

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْمَعْ لِمَا يُوحَى﴾¹⁴⁹ و بعد أن يكلف الذهاب إلى فرعون يطلب من ربه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون يشدّ به أزره، فيذكره الله بنعمته عليه في مولده، و رده إلى أمّه - في إشارة سريعة-، ثمّ تسير القصة كما سارت في الأعراف مع حذف آيات الجراد و القمل و الضفادع و الدّم - و قد ذكرت كاملة في الأعراف- و العهد الذي أبرمه مع بني اسرائيل و نكته له، و قد زيدت ههنا حلقة صنع السّامري للعجل مفصلة و كذلك ذكر الميعاد و إغفال الميقات¹⁵⁰.

الإستفهام في قوله تعالى في هاته السّورة : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ هو للتّقرير "و معناه : أليس قد أتاك حديث موسى، و قيل معناه قد أتاك حديث موسى و في سياق هذه القصة تسلية للنبيّ صلى الله عليه و سلّم لما يلاقيه من مشاقّ أحكام النّبوة، و تحمّل أثقالها و مقاساة خطوبها و أنّ ذلك شأن الأنبياء قبله، و المراد بالحديث القصة الواقعة لموسى و المراد بالأهل هنا امرأته، و الجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتّفخيم و معنى امكثوا أقيموا مكانكم، و عبّر بالملك دون الإقامة لأنّ الإقامة تقتضي الدّوام و المكث ليس كذلك"¹⁵¹ "و قرأ أبو عمرو ابن كثير (أنّي) بالفتح أي نودي بأنّي ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ و كسر الباقون. أي نودي فليل يا موسى أو لأنّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته تكرير الضمير في ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكُمْ﴾ لتوكيد الدّلالة و تحقيق المعرفة و إمطة الشّبهة"¹⁵².

و في سورة الشعراء (السورة السابعة و الأربعون في النزول)، تبدأ القصة من حلقة الرّسالة إلى أن تصل حلقة الخروج و يستجدّ ههنا أمران : الأوّل ما ذكره موسى من قتله رجلاً من آل فرعون و خوفه من أن يؤخذ به، و تذكير فرعون بأفضاله على موسى و أنّه ربّي في كنفه فكيف

¹⁴⁹ سورة طه، من الآية : 9 إلى الآية : 13

¹⁵⁰ سيّد قطب " في ظلال القرآن"، ص : 2588.

¹⁵¹ الشّوكاني " فتح القدير" ج : 3، ص : 448. محمد بن علي بن محمد الشّوكاني " فتح القدير" الجامع بين فني الرواية و الدّراية من علم

التفسير، دار المعرفة، بيروت . لبنان . ط : 3، 1417 هـ. 1997 م، ج : 2، ص : 448.

¹⁵² الزّعشيري " الكشاف"، ج : 4، ص : 27

به يفعل مل فعل، و الثاني ما ذكر من انفلاق البحر كالطود العظيم مع تنويع الحوار بين موسى و فرعون، و كذلك تنويعه مع السحرة مع عدم ذكر الفجوة التي عاش فيها موسى فترة بعد المباراة و قد ذكرت في سورة الأعراف قبل أن يوحى الله لموسى بالرحيل بقومه و طويت ههنا ليصل بنا السياق إلى النهاية مباشرة.

ثم تذكر في سورة النمل (السورة التاسعة و الأربعون في النزول) نجد تفصيلا آخر من أول حلقة فيها من مولد موسى - عليه السلام - في ظل ذلك الجو العكر حيث اضطرت والدته لوضعه في التابوت و إلقائه في اليم - امتثالا لأمر ربها - و التقاط آل فرعون له، و تحريم المواضع عليه و تتبع أخته له و قد حمله آل فرعون، و معرفتها بما كان من أمره، و إخبارها لهم بموضع له - تلك هي أمه - ثم بلوغه أشده، ثم قتله للقبطي و محاولته في اليوم الموالي قتل الآخر و تهديد المقاتل الذي طلب نصرته بفضح أمره عن الذي قتل بالأمس، و الرجل الذي جاءه من أقصى المدينة ساعيا ناصحا إياه بالهرب، و خروجه إلى أرض مدين و التقائه ببني شعيب و سقيه لهما و إعجاب إحداهما به و استخدامه عندهم، ثم زواجه من إحدى البنيتين، ثم انفصاله عنه و ذهابه بأهله. ثم رؤيته النار و هي حلقة بدأت منها القصة في سورة طه. ثم تسير القصة بأحداثها التي ذكرت هناك و لكنها تزيد ههنا تهكم فرعون في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ مِخْلَىٰ طِينٍ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾¹⁵³ و تنتهي قصة موسى - عليه السلام - في سورة القصص بحلقة غرق فرعون، و نجاه موسى و من آمن معه.

ثم تأتي سورة الإسراء (السورة الخمسون في النزول) بإشارة سريعة إلى إغراق فرعون، و تمتيع بني اسرائيل، و هي حلقة تناسب سياق السورة و ما ذكر في أولها كالمسجد الأقصى و بجانب من قصة بني اسرائيل و موسى.

و في سورة يونس (السورة الواحدة و الخمسين في النزول) عرض مختصر مع مجموعة من القصص الأخرى لبيان عاقبة المكذبين، و فيها ذكر موجز لحلقة السحرة، و تجاوز بني اسرائيل البحر و محاولة فرعون عبثا اللحاق بهم فأغرق هو و جنوده و قد زيد هنا - في حلقة الغرق قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَحْرَقَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ

¹⁵³ سورة النمل، الآية : 38

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلَا نَ وَقَدْ خَصِمْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً¹⁵⁴، وهاته الزيادة لم ترد في غير هذا الموضع، كما أنّ الآيات التسع لم تذكر ههنا لأنّ السّياق لا يقتضيها.

ثمّ في سورة هود (السّورة الثانية و الخمسون في النزول) إشارة إلى إرسال موسى بعد مجموعة من القصص: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ¹⁵⁵﴾، ثمّ يحمل السّياق خطوات القصّة كلّها ليصل إلى نهايتها، فإذا بالقوم المكذّبين تبع لفرعون¹⁵⁶ ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَهَمَّا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ¹⁵⁷﴾.

و في سورة غافر أو المؤمن (السورة الستون في النزول) تعرض حلقة الحوار بين فرعون و موسى و يضاف إلى هذا الحوار قول فرعون: ﴿خُذُونِي أَهْتِكُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ¹⁵⁸﴾، و الرجل الفرعوني الذي كان يكتّم إيمانه و الذي طلب منهم عدم إيذاء موسى لعلّه على هدى و بيّنة، و لم ترد هاته الزيادة في غير هذا الموضع.

و في سورة فصلت (السورة الواحدة و الستون في النزول) لحة موجزة في قوله عزّ و جلّ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ¹⁵⁹﴾، و كذلك في سورة الزّحرف (السورة الثالثة و الستون في النزول) إشارتان موجزتان غير أنّه ههنا يزيد ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَخَافُ يَبِيبُنَ¹⁶⁰﴾، و لم ترد هاته الزيادة في غير هذه السورة.

و في سورة الذّاريات (السورة السابعة و الستون في النزول) إشارة سريعة إلى إرسال موسى إلى فرعون بسلطان مبين، و تكذيبه و إهلاكه، حيث يتجاوز السّياق تفصيلات القصّة ماضيا إلى نهايتها التي تبين عاقبة كلّ كذاب أثيم.

¹⁵⁴ سورة يونس، الآيات : 90، 91، 92

¹⁵⁵ سورة هود، الآيتان : 96، 97

¹⁵⁶ ينظر: السيد قطب " في ظلال القرآن"، ج : 4، ص : 1924

¹⁵⁷ سورة هود، الآية : 97

¹⁵⁸ سورة غافر، الآية : 26

¹⁵⁹ سورة فصلت، الآية : 45

¹⁶⁰ سورة الزحرف، الآيتان : 51، 52

و في سورة الكهف (السورة التاسعة و الستون في النزول) عرضت للقاء موسى مع العبد الصالح و ما كان بينهما من اتفاق لم يستطع سيّدنا موسى الصبر عليه لما رأى من غريب تصرفات مرافقة، و لما رأى الرّجل العالم أنّ صبر موسى قد نفذ راح يشرح له السرّ من وراء ما فعل و هي حلقة تذكر مرّة واحدة في القرآن كلّهُ.¹⁶¹

و في سورتي إبراهيم و الأنبياء (الثانية و السبعين و الثالثة و السبعين في ترتيب النزول على التّوالي) إشارتان سريعتان، و في سورة الأنبياء وصف التّوراة بأنّها فرقان.

و في سورة البقرة و هي أطول سور القرآن على الإطلاق و أوّلها في ترتيب المصحف و هي السورة السابعة و الثمانون في ترتيب النزول في معرض تذكير بني اسرائيل بمامن الله عليهم من النّعم و الأفضال و جحودهم بها و هو معرض يتكرّر فيما سبق من الحلقات التي تحدّثت عن سيّدنا موسى - عليه السلام - و منها المنّ والسّلوى الذي أنزله الله عليهم، و لكنّه يزيد ههنا كفرهم بهاته النّعم، و طلب أطعمة أخرى. و تحوي هذه السورة على غرار غيرها قصّة البقرة التي أمر الله بني اسرائيل بذبحها، فجعلوا يسألون عن كلّ ما يتعلّق بها من صفات : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾¹⁶².

أمّا في سورة النساء (السورة الثانية و التسعين في النزول) فوردت لمحة موجزة هي طلبهم رؤية الله جهرة، و في هذا دلالة على كفرهم و عنادهم.

ثمّ تأتي سورة المائدة (السورة المائة و اثني عشرة في النزول) و هي آخر سورة تحدّثت عن قصّة موسى - عليه السلام - حيث وردت فيها حلقة وقوفهم على أبواب الأرض المقدّسة لا يدخلون: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُذِلُهَا عَنْكَ يُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا خَائِفُونَ ﴾¹⁶³ إلى قوله: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنُذِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاتَّخِذْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَائِمُونَ قَال رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا

¹⁶¹ ينظر: محمود السيد حسن مصطفى " الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، ص : 138.

¹⁶² سورة البقرة، الآية : 71

¹⁶³ سورة المائدة، الآية : 22

نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُرَمَّةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْمَأْرَئِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٤﴾

قال الزجاج : " الجَبَّار من الآدميين العاتي و هو الذي يجبر الناس على ما يريد، و أصله على هذا من الإِجبار و هو الإِكراه، فَإِنَّه يجبر غيره على ما يريد، يقال أجبره إذا أكرهه. و قيل هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجَبَّار على هذا : المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل في كلٍّ من جرَّ إلى نفسه نفعا بحقٍّ أو باطلاً، و قيل إِنَّ جبر العظم راجع إلى معنى الإِكراه. قال الفراء : لم أسمع فعلا من أفعل إلَّا في حرفين جَبَّار من أجبر ، و درَّاك من أدرك¹⁶⁵

و الظاهر أنهم كانوا ذووا أجسام عظيمة و قامات طويلة مما يدعو لرهبتهم، و لقد دفعهم
جنبهم و عنادهم لله و رسوله إلى ما عبّرت عنه الآية الكريمة من قوله تبارك و تعالى :
﴿ فَادْخُلْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِجُونَ ﴾¹⁶⁶

و قولهم هذا دليل على جهلهم بربّ هذا الكون و كفرهم بما يجب له من الطّاعة، و فيه من السّخرية و الإستهانة ما تأسف له القلوب المبصرة.

و قيل : " أرادوا بالذهاب الإرادة و القصد، و قيل أرادوا بالربّ هارون و كان أكبر من موسى، و كان موسى يطيعه فقد يعبر عن كلمة الربّ بالصّاحب أو الصّديق الحميم. و في ردّ موسى عليهم : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ يحتمل أن يعطف وأخي على نفسي و أن يعطف على الضّمير في (أنّي) أي أنّي لا أملك إلا نفسي و إنّ أخي لا يملك إلا نفسه. و الطّلب هنا كما أرى للدّعاء و الغرض منه الإسترحام و الإستعطاف، و قد ذكر موسى عليه السلام - ذلك القول تحسّراً و حزناً و استحلاباً للنّصر من الله عزّ و جلّ، و أتبع ذلك بالأسلوب الخيري في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هِيَ حَرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ و هذا قضاء كتبه الله عليهم على سبيل العقاب و الإنذار أي أنّها محرّمة على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم عن قتال الجبّارين. و اختلف أهل العلم هل كان معهم موسى و هارون

¹⁶⁴ سورة المائدة، الآيات : 24، 25، 26

¹⁶⁵ محمد بن علي بن محمد الشوكاني "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، ج: 2، بيروت. لبنان. ط: 3،

1417 هـ. 1997 م ص : 35

166 سورة المائدة، الآية : 24

أم لا؟ فقيل لم يكونا معهم، لأنّ التّية عقوبة، و قيل كان معهم لكن سهّل الله عليهما ذلك¹⁶⁷ مثلما جعل النار بردا و سلاما على إبراهيم.

ثمّ ها هو مشهد القوم المكذّبين و هم يتيهون في الصّحراء الفاحلة، و إلى هنا يسدل الستار على موسى، و لا يعرض من شأن بني اسرائيل إلّا تفرّقهم و عداؤهم للمسيح و المسلمين، و هكذا طويت الصّفحة الأخيرة من الصّفحات السّود، حقّ فيها الوعيد على من كذبوا به.

و يلاحظ الدّارس أنّ قصّة موسى - عليه السلام - كلّما تكرّرت حلقة منها جاءت بصياغة جديدة حيث لا تملّ ألفاظها و لا تستقل معانيها، ذلك أنّ السّياق يحدّد في كلّ مرّة القدر الذي يعرض منها، فهي لم تعرض باسترسال في موضع واحد إلّا ما وجدنا منها في سورة القصص، أمّا حلقاتها الأخرى فقد وردت في مجموعة من السّور وفق المناسبات، بأساليب متباينة و عبارات متنوّعة، تجعلنا لا نكاد نشعر عند قراءتها بتكرارها و إليك الدّليل :

جاء في سورة الأعراف حديثا عن بعث موسى - عليه السّلام - قوله تبارك و تعالى :
﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾¹⁶⁸

و جاء في سورة الفرقان قوله تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَذْمِيرًا﴾¹⁶⁹

و ورد في سورة يونس قوله عزّ و جلّ : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾¹⁷⁰

و جاء في سورة هود قوله عزّ و جلّ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُومُهُ يَوْمَ

¹⁶⁷ انظر: محمود السيد حسن "روائع الإعجاز في القصص القرآني" دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، ماجستير في الآداب، المكتب

الجامعي الحديث، ص: 156.

¹⁶⁸ سورة الأعراف، الآية: 103

¹⁶⁹ سورة الفرقان، الآيتان: 35، 36

¹⁷⁰ سورة يونس، الآية: 75

الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ¹⁷¹.

و ورد في سورة غافر (المؤمن) قوله تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ
مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي خِلَالٍ¹⁷²﴾.

و جاء في سورة الزخرف قوله تبارك و تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا
يَضْحَكُونَ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ¹⁷³﴾.

و ورد في سورة الذاريات قوله عز و جل ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي
الْيَمِّ وَهُوَ حُلِيمٌ¹⁷⁴﴾.

و جاء في سورة إبراهيم قوله عز و جل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَّرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ¹⁷⁵﴾.

أما سورة المؤمنون فورد فيها قوله تبارك و تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلٌّ مَّا
جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا
يُؤْمِنُونَ¹⁷⁶﴾.

¹⁷¹ سورة هود، من الآية : 96 إلى الآية : 99

¹⁷² سورة غافر، الآيات : 23، 24، 25

¹⁷³ سورة الزخرف، الآيات : 46، 47، 48

¹⁷⁴ سورة الذاريات، الآيات : 38، 39، 40

¹⁷⁵ سورة الذاريات، الآية : 5

¹⁷⁶ سورة المؤمنون، الآيتان : 45، 46

فعلى الرغم من أنّ كلّ هاته الآيات تتحدّث عن إرسال موسى - عليه السلام - إلّا أنّنا لا نحسّ بثقل أو ملل و نحن نقرأها الواحدة تلو الأخرى، بل على العكس من ذلك نحسّ في كلّ مرّة بروعة و كأنّنا في كلّ مرّة منها أمام حدث جديد لم يسبق لنا به عهد، فكلّ آية من تلك الآيات معجزة في ذاتها، و في ألفاظها و جملها، و عجز العرب عن مجاراتها و النّسج على منوالها أعظم دليل على كمال الإعجاز خاصّه و عامّه معا.

و من ذلك ما ورد من آيات اشتملت ذكر رؤية موسى النّار و ما كان من أمره أهله بالمشك و إخباره إيّاهم أنّه آنس نارا لعلّه يأتيهم منها بما يصطلون به أو خبر يهتدون به إلى الطّريق الذي أضلّوه.

ففي سورة النمل أخبر عن رؤية موسى النّار و أمره أهله بالمشك، و زاد عليها في سورة القصص قضاء موسى الأجل المتفق عليه و سيره بأهله إلى مصر، لأنّ الشّيء قد يجمل ثمّ يفصل و قد يفصل ثمّ يجمل.

ففي الآيات السّابقة تفصيل في سورة طه، و إجمال في سورة النمل، فتفصيل مبالغ فيه في سورة القصص¹⁷⁷ و إليك الآيات كما وردت في الذكر الحكيم على التّوالي :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَيَّ النَّارِ هُدًى¹⁷⁸ .

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ¹⁷⁹ .

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ¹⁸⁰ .

و قد يتساءل الدّارس عن سبب اختلاف المحكيّات في السّور الثلاث مع أنّ المحكي عنه واحد و هذا إنّما هو "من باب التّفنّن في الكلام، كما هي طريقة العرب في ذكر القصّة بأساليب

¹⁷⁷ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 261.

¹⁷⁸ سورة طه، الآيةان : 9، 10

¹⁷⁹ سورة النمل، الآية : 7

¹⁸⁰ سورة القصص، الآية : 29

متعددة في معنى واحد، تسلية للسامع لئلا يملّ من التكرار، وإظهارا لروعة البيان و الجمال¹⁸¹ فقد أُنحِرنا تبارك وتعالى في بعض السور ببعض ما جرى و في أخرى بالبعض الآخر، و ليس يعني هذا أنّ ما ذكر ثانيا ينفي ما ذكر أولا بل إنه ليزيد الأمر بيانا و تأكيدا، و يذهب بالنفوس المتذوّقة كلّ مذهب.

و قوله في طه : ﴿أَوْ أَجِدْ لَعَلِّي النَّارِ هُدًى﴾¹⁸² "أي قوما يهدوني الطريق أو ينفعوني بهداهم"¹⁸³، و إنّما أخر ذكر الخير ههنا، و قدّم ذكره في سورتي النمل و القصص مراعاة لفواصل الآي في السور ثلاثها.

كرّر لفظ لعلّي في سورة القصص و استعمله لفظا و معنى في سورة طه لأنّ (أو) في قوله عزّ و جلّ ﴿أَوْ أَجِدْ﴾ قام مقام لعلّي، و استغنى عن لفظ لعلّي إلى معناه في سورة النمل لأنّ قوله عزّ و جلّ ﴿سَأَتِيكُمْ﴾ تضمن معنى لعلّي.

جاء في سورة القصص قوله تبارك و تعالى : ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾، و جاء في سورة النمل قوله: ﴿بِشَّامِخٍ قَبَسٍ﴾، و ورد في سورة طه قوله : ﴿يَقْبَسُ﴾ لأنّ الجذوة من النار خشية في رأسها قبس له شهاب، و على هذا يكون المعنى واحدا في السور الثلاث.¹⁸⁴

و نواصل قراءة الآيات ذاتها فنجد في سورة طه قوله تبارك و تعالى : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُوحِيْ بِأَمْرِ رَبِّىْ أَنِّىْ أَنَا رَبُّكَ فَانْخَلْعْ نَعْلَيْكَ إِنْكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾¹⁸⁵ و في سورة النمل قوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُوحِى أَنْ يُورِكَ مِنَ الْبَارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَمْرِ رَبِّىْ أَنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾¹⁸⁶.

و في سورة القصص قوله : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُوحِى مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ بِأَمْرِ رَبِّىْ أَنِّىْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾¹⁸⁷.

¹⁸¹ أبو يحيى زكريا الأنصاري "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن" هامش ص: 359.

¹⁸² سورة طه، الآية : 10

¹⁸³ الزعشري "الكشاف"، ج : 4، ص: 27.

¹⁸⁴ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 262، و المنطليب الإسكافي "درة التبريل و غرة التّأويل"، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 4، 1401 هـ. 1981 م، ص : 293.

¹⁸⁵ سورة طه، الآيتان : 11، 12

¹⁸⁶ سورة النمل، الآيتان : 8، 9

فعلى الرغم من أن "أتى" و "جاء". بمعنى واحد إلا أنهما استعملتا مرةً بمرةً، ولأن من أساليب البلاغة التعبير عن الشيء بمتساويين.

وقد خصت سورة طه بلفظ الإتيان دون المجيء لكثرة دوره فيها نحو: ﴿فَاتِيَاهُ﴾¹⁸⁸، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾¹⁸⁹، ﴿ثُمَّ أَتَى﴾¹⁹⁰، ﴿ثُمَّ انْتَوَا صَفًّا﴾¹⁹¹، ﴿حَيْثُ أَتَى﴾¹⁹²، كما خصت سورة النمل بلفظ المجيء لكثرة ورودها فيها نحو ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾¹⁹³، ﴿وَجِئْتَهُ مِنْ سِوَا﴾¹⁹⁴، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ﴾¹⁹⁵، وخصت سورة القصص بلفظ الإتيان كما في سورة طه لقرب ما بينهما وهذا القرب لا يتعلق بترتيب النزول لأنه لو تعلّق بهذا الأخير لكانت سورة النمل أولى بهذا القرب كونها نزلت مباشرة بعد سورة الشعراء التي تلي طه بينما نزلت سورة القصص بعدها يعني أنه يفصلها عن سورة طه سورتان هما سورة الشعراء والنمل على التوالي، ولا هو متعلّق بترتيب التلاوة لأن سورة النمل سابقة في ترتيب التلاوة على سورة القصص (طه : 20، النمل : 27، القصص : 28) - وإنما هو منصرف ههنا إلى القرب اللفظي¹⁹⁶ ويتأكّد هذا التقارب بين سورتى طه و القصص من الآيتين نفسيهما في قوله تبارك و تعالى في الأولى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾¹⁹⁷، و في الثانية: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾¹⁹⁸ وإن اختلف محلّهما أمّا سورة النمل فجاء فيها: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾¹⁹⁹.

¹⁸⁷ سورة القصص، الآية : 30

¹⁸⁸ سورة طه ، الآية : 47

¹⁸⁹ السورة نفسها، الآية 58.

¹⁹⁰ السورة نفسها، الآية : 60.

¹⁹¹ السورة نفسها، الآية : 64.

¹⁹² السورة نفسها، الآية : 69.

¹⁹³ سورة النمل، الآية : 13.

¹⁹⁴ السورة نفسها، الآية : 22.

¹⁹⁵ السورة نفسها، الآية : 36.

¹⁹⁶ ينظر: الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن " . ص : 262، و هامش ص : 263.

¹⁹⁷ سورة طه، الآيتان : 11، 12.

¹⁹⁸ سورة القصص، الآية : 30

¹⁹⁹ سورة النمل، الآية : 9

و إليك هذا الجدول الذي يتضمّن مادّتي "أتى" و "جاء" في سورة طه و النمل و القصص في سورة قصّة موسى - عليه السلام - .

المادّة	السّورة		
	طه	النّمل	القصص
أتى	13	1	7
جاء	3	2	5

و هناك تعليل آخر لعدم إيراد لفظ الإتيان في سورة النمل و العنكبوت عنه إلى لفظ المجيء لأنّه تبارك و تعالى قال ههنا : ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ سَأَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾²⁰⁰، فلمّا كرّر ﴿آتِيكُمْ﴾ لم يمكنه أن يقرنها بقوله : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾، و أمّا سورتي القصص و طه فناسب ذكر الإتيان فيها لفظ لعلّي²⁰¹.

❖ سورة الأعراف ❖

إنّ المشهد الذي يتحدّث عن السّحرة هو ما يظهر فيه التكرار في قصّة موسى - عليه السلام - مع فرعون.

فقد جاء في سورة الأعراف قوله تبارك و تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾²⁰²، و في سورة الشعراء : ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾²⁰³ و تقدير الآية من سورة الأعراف : قال الملأ من قوم فرعون و فرعون بعضهم لبعض ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾ و إنّما اقتصر على ذكر الملأ لأنّهم أشرف القوم و فرعون واحد منهم كما قال

²⁰⁰ سورة النمل، الآية : 7

²⁰¹ ينظر: الكرمانلي "البرهان في متشابه القرآن". ص : 262، و هامش ص : 285.

²⁰² سورة الأعراف، الآية : 109

²⁰³ سورة الشعراء، الآية : 34

تعالى في سورة الأنفال : ﴿وَأَخْرَجْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾²⁰⁴ أي آل فرعون و فرعون، فحذف فرعون، لأنّ آل فرعون تضمّن اسمه، و قوله تبارك و تعالى من السورة ذاتها : ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾²⁰⁵ بلفظ التوحيد لدليل على آل فرعون هو وحده القائل و أنّ المقول لهم هم ملأه لا آخرين غيرهم لقوله تبارك و تعالى : ﴿يُخْرِجُكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾²⁰⁶.

و تقدير الآية من سورة الشعراء : قال فرعون للملأ حوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾²⁰⁷ و استغنى عن اسم فرعون وهنا لأنّ السياق دلّ عليه دلالة واضحة، قال في سورة الأعراف : ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾²⁰⁸، و قال في سورة الشعراء : ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾²⁰⁹ بإضافة سحره في هذه الأخيرة، و اختصر في سورة الأعراف لأنّ لفظ الساحر يدلّ على السحر و لأنّ هذه الآية من سورة الأعراف بنيت على الاختصار²¹⁰.

قوله تبارك و تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾²¹¹، و في سورة الشعراء : ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾²¹² و حتّى و إن كان الإرسال و البعث يصبّان في قالب واحد، فإنّ كلمة البعث تدلّ على أكثر ممّا تدلّ عليه كلمة الإرسال، ذلك أنّه إذا كان الإرسال في الأمور المهمّة فإنّ البعث يكون في الأمور الأهمّ، و إذا كان البعث لا يتضمّن الترتيب فإنّ الإرسال تنفيذ من فوق إلى أسفل²¹³.

و إنّما خصّت سورة الشعراء بالبعث دون الإرسال كونها تأخّرت في النزول عن سورة الأعراف، و لتؤكد ما جاءت به في سورة الأعراف من أنّ المخاطب هو فرعون لا أحد سواه،

²⁰⁴ سورة الأنفال، الآية : 54

²⁰⁵ سورة الأنفال، الآية : 111

²⁰⁶ سورة الأنفال، الآية : 110

²⁰⁷ سورة الشعراء، الآية : 34

²⁰⁸ سورة الأعراف، الآية : 110

²⁰⁹ سورة الشعراء، الآية : 35

²¹⁰ ينظر: المصدر نفسه، ص : 196، 197.

²¹¹ سورة الأعراف، الآية : 111

²¹² سورة الشعراء، الآية : 36

²¹³ ينظر: فضل حسن عباس "القصص القرآني إيجازة و نفحاته"، هامش ص : 229، و المكرماني "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 170.

و مهما يكن فإنّ البعث و الإرسال نظيران يمكن استعمال أحدهما مكان الآخر، و الدليل على هذا نستمدّه من كتاب الوجود الأبديّ حين أخبرنا الله تبارك تعالى عن إرسال محمّد صلى الله عليه و سلّم للناس كافّة مبشّرا و نذيرا و داعيا إلى الله بإذنه و سراجا منيرا ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾²¹⁴.

قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَاجِدٍ عَلِيمٍ﴾²¹⁵، و في الشعراء: ﴿يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَاجِدٍ عَلِيمٍ﴾²¹⁶ حيث أورد في الأعراف قوله ﴿سَاجِدٍ﴾ مراعاة لما ذكر قبلا و هو قوله : ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاجِدٌ عَلِيمٌ﴾²¹⁷، و أورد في الشعراء قوله : ﴿سَاجِدٍ﴾ طلبا للمبالغة و موافقة لما في هاتئ السورة²¹⁸.

قال تعالى في السورة ذاتها : ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾²¹⁹، و في سورة الشعراء : ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾²²⁰ أضمرت "فلما" في سورة الأعراف لأنها - كما ذكر من قبل - مبنية على الإختصار، وأمّا تقديم فرعون فيها و تأخيره في الشعراء : "فلان التّقدير فيهما، فلما جاء السّحرة فرعون قالوا لفرعون فأظهر الأوّل في هذه السّورة لأنها الأولى و أظهر الثاني في الشعراء لأنها الثانية"²²¹.

قال تعالى في هذه السّورة : ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾²²²، و في سورة الشعراء: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾²²³.
إذا نظرنا إلى قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ و تساءلنا عمّا عطف عليه وجدنا أنّه " معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب كأنّه قال إيجابا لقولهم

²¹⁴ سورة البقرة، الآية : 119

²¹⁵ سورة الأعراف، الآية : 112

²¹⁶ سورة الشعراء، الآية : 37

²¹⁷ سورة الأعراف، الآية : 109

²¹⁸ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 197

²¹⁹ سورة الأعراف، الآية : 113

²²⁰ سورة الشعراء، الآية : 41

²²¹ ينظر: المصدر نفسه، ص : 198.

²²² سورة الأعراف، الآية : 114

²²³ سورة الشعراء، الآية : 42

إِنَّ لَنَا لأَجْرًا نَعْمَ إِنَّ لَكُمْ لأَجْرًا وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقَرَّبِينَ أَرَادَ أَنِّي لَا أَقْتَصِرُ بِكُمْ عَلَى الثَّوَابِ وَحْدَهُ
و إِنَّ لَكُمْ مَعَ الثَّوَابِ مَا يَقِلُّ مَعَهُ الثَّوَابُ وَ هُوَ التَّقَرُّبُ وَ التَّعْظِيمُ²²⁴.

وَ إِذَا قَرَأْنَا قَوْلَهُ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : ﴿وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وَجَدْنَاهُ مَعْطُوفًا
عَلَى قَوْلِهِ : ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا﴾ "وَ مَدْخُلًا فِي حُكْمِهِ دَخَلَتْ إِذَا قَارَّةً فِي مَكَانِهَا الَّذِي تَقْتَضِيهِ مِنْ
الْجَوَابِ وَ الْجَزَاءِ وَ عَدَهُمْ أَنْ يَجْمَعَ لَهُمْ إِلَى الثَّوَابِ عَلَى سِحْرِهِمُ الَّذِي قَدَّرُوا أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ بِهِ
مُوسَى الْقَرِيبَةَ عِنْدَهُ وَ الزَّلْفَى²²⁵.

وَ الْآيَةُ الَّتِي مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ وَ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا قَوْلُهُ (إِذَا) قَدْ سَبَقَتْ بِمَا يَتَطَلَّبُ جَوَابًا أَوْ جَزَاءً
أَوْ تَأْكِيدًا لِذَلِكَ أَضِيفَتْ (إِذَا) بَعْدَ إِنَّكُمْ.

وَإِنَّمَا خَصَّتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ بِإِضْمَارِ "إِذَا" فِيهَا بِخِلَافِ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، لِأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ فِي
مُعْظَمِهَا عَلَى الْإِخْتِصَارِ كَمَا وَجَدْنَا ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ فِي بَعْضِ آيِهَا، وَ خَصَّتْ سُورَةَ الشُّعَرَاءِ (بِإِذَا)
لَأَنَّهُ ذَكَرَتْ قَبْلَهَا فِيهَا (الْهَمْزَةُ وَ لَمَّا) وَ ذَكَرَهُمَا يَقْتَضِي جَوَابًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَهُ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾²²⁶، وَ فِي
طه : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَهُ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾²²⁷.

حَيْثُ رُوِّعَتْ فِي الْبُحُورَيْنِ أَوَاخِرُ الْآيَاتِ مِثْلَمَا فِي قَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، ﴿وَأَلْقِيَا
السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ﴾²²⁸، وَ قَوْلُهُ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : ﴿فَأَلْقِيَا السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ﴾²²⁹، وَ قَوْلُهُ
مِنْ سُورَةِ طه : ﴿فَأَلْقِيَا السَّحَرَةَ سُبْحًا﴾²³⁰.

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى فِي سُورَتِي الشُّعَرَاءِ وَ طه ﴿فَأَلْقِيَا﴾ بِإِشَارَةٍ إِلَى الْفَوْرِيَّةِ وَ عَدَمِ
التَّرَدُّدِ، بَعْدَمَا رَأَوْا هَذَا الْمَظْهَرَ الْعَجِيبَ الرَّائِعَ، الدَّالُّ عَلَى أَنَّ وَرَاءَ تِلْكَ الْعِصَا قُدْرَةٌ خَارِقَةٌ لَا
تُضَاهِيهَا آيَةٌ قُدْرَةٍ.

²²⁴ الزمخشري "الكشاف"، ج : 2، ص : 125

²²⁵ المصدر نفسه، ج : 4، ص : 166.

²²⁶ سورة الأعراف، الآية : 115

²²⁷ سورة طه، الآية : 115

²²⁸ سورة الأعراف، الآية : 120

²²⁹ سورة الشعراء، الآية : 46

²³⁰ سورة طه، الآية : 70

و في تكرار الفعل المبني للمجهول في الآيات من السور الثلاث، دليل على أنّ البناء للمجهول لم يتّجه إلى الإيمان نفسه الذي هو بمعنى الهداية، ولا هو اتّجه إلى السجود، ولكنّه اتّجه إلى إلقاءهم على الأرض ساجدين، و كأنّ هناك من ألقاهم على الأرض، و نستطيع القول أنّ موقف السحرة هذا ذا جانبان أحدهما جانب الإيمان.. بما رأوا من الحقّ و قد كان من تلقاء أنفسهم، و ثانيهما جانب دفعهم الله إليه و هو الطريقة التي عبّروا بها عن إيمانهم، فقد كان يكفي أن يعلنوا إيمانهم قولاً و بأيّ تعبير يدلّ على الإيمان، و لكنّ إيمانهم و سجودهم بهاته الصّورة المفاجئة فيها إكراماً لموسى - عليه السلام - و إهانة لفرعون الطاغويّ أمام تلك الجماهير المحتشدة.*

ففي سورتي الأعراف و طه هم الذين خيروا موسى أيلقي هو أوّلاً أم يكونون هم أوّل من يلقي، أمّا في سورة الشعراء فقد طلب منهم موسى - عليه السلام - أن يلقوا ما يريدون إلقاء: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾²³¹ أيضاً لم تذكر الحبال و العصيّ في سورة الأعراف و ذكر بدلا منها سحر أعين الناس، و رهبتهم، و مجيئهم بسحر عظيم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾²³²، و في سورة الشعراء ذكرت الحبال و العصيّ و ذكر قولهم، و قسمهم بعزة فرعون بأنهم هم الغالبون : ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَحَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾²³³.

و في سورتي الأعراف و الشعراء على التّوالي : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾²³⁴، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾²³⁵، أمّا في سورة طه فحاء قوله تبارك تعالى : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾²³⁶.

* ينظر: عبد الحليم حنفي " أسلوب المحاورّة في القرآن الكريم"، ص: 180، 181.

²³¹ سورة الشعراء، الآية : 43

²³² سورة الشعراء، الآية : 116

²³³ سورة الشعراء، الآية : 44

²³⁴ سورة الأعراف، الآيتان : 121، 122

²³⁵ سورة الشعراء، الآيتان : 47، 48

²³⁶ سورة طه، الآية : 70

إذا تساءلنا لماذا كرّرت ﴿رَبِّهِ﴾ في سورتي الأعراف و الشعراء و لم تكرر في سورة طه، نجد الخطيب الإسكافي يجهنا بقوله : "إذا قيل ربّ العالمين، فقد دخل فيهم موسى و هارون، و هما دعوا إلى ربّ العالمين لما قالّا إنّنا رسولا ربّ العالمين، إلّا أنّه ذكر في السّورتين ربّ موسى و هارون ليدلّ بتخصيصهما بعد العموم على تصديقهما بما جاء به عليهما الصّلاة و السّلام عن الله تعالى، فكأنّه قيل آمنا بربّ العالمين و هو الذي يدعو إليه موسى و هارون، و أمّا في سورة طه فلم يذكر ربّ العالمين لأنّه ما كان الكلام يتمّ به آية كما تمّ في السّورتين، فيكون مقطع الآية فاصلة مخالفة للفواصل التي بنيت عليها فواصل سورة طه، فقال تعالى : ﴿آمَنَّا بِرَبِّهِ هَارُونَ وَ مُوسَى﴾ و ربّهما هو ربّ العالمين، و كان القصد حكاية المعنى لا أداء اللفظ على جهته بما دللنا عليه من قبل" ²³⁷.

و في سورة الأعراف قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ﴾ ²³⁸، و في سورة الشعراء : ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ﴾ ²³⁹، و في سورة طه : ﴿وَلَأَطْلُبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ²⁴⁰ و في سورتي الأعراف و الشعراء : ﴿ثُمَّ لَأَطْلُبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ²⁴¹، ﴿وَلَأَطْلُبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ²⁴² على التّوالي، أمّا في سورة طه فورد قوله تبارك و تعالى : ﴿وَلَأَطْلُبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ²⁴³.

و لعلّ الحكمة من وراء هذا في كلّ من سورة الأعراف و طه و الشعراء هو مراعاة فواصل الآي ²⁴⁴، و الأكثر من ذلك أنّنا نرى تكرار نون التّوكيد الثّقيلة في كلّ هذه المواضع و في هذا دلالة على غضب فرعون من السّحرة من جهة و كفره و طغيانه و تعنّته و عدم طاعة الله من جهة أخرى.

²³⁷ الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة التّأويل"، ص : 175.

²³⁸ سورة الأعراف، الآيتان : 123، 124.

²³⁹ سورة الأعراف، الآية : 49.

²⁴⁰ سورة طه، الآية : 71.

²⁴¹ سورة الأعراف، الآية : 124.

²⁴² سورة الشعراء، الآية : 49.

²⁴³ سورة طه، الآية : 71.

²⁴⁴ ينظر: الكرمانلي "البرهان في منشا به القرآن"، ص : 199.

قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾²⁴⁵ ،
و في سورتي طه و الشعراء : ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾²⁴⁶ .
قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ و قوله في سورتي طه و الشعراء ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ واحد، و يعلق الخطيب الإسكافي في درّة التنزيل على هاتين الآيتين بقوله : الهاء في ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ غير الهاء في ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ و كلّ واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى. فالتي في ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ لربّ العالمين : لأنّه تعالى حكى عنهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾²⁴⁷ و هو الذي دعا إليه موسى - عليه السلام - و أمّا الهاء في ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ فلموسى - عليه السلام - و الدليل على ذلك أنّها جاءت في السورتين و بعدها في كلّ واحدة منها ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾²⁴⁸ ، فالهاء التي في أنّه هي التي آمتم له. و لا خلاف في أنّ هذه لموسى - عليه السلام - و الذي جاء بعد قوله ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ قوله ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ : أي إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان بربّ العالمين: وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه لتستولوا على العباد و البلاد و يجوز أن يكون الهاء في ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ ضمير موسى - عليه السلام - لأنه يجوز أن يقال " آمن بالرسول " أي أظهرتم تصديقه، و أقدمتمهم على خلافي قبل أن آذن لكم فيه و هذا المكر مكرومته و سرّ أسررتموه لتقلبوا الناس عليّ: فاقضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به. فأما (الإيمان له) في الموضعين الآخرين فاللام تفيد : معنى الإيمان من أجله و من أجل ما أتى به من الآيات فكأنّه قال: ﴿آمَنْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأجل ما ظهر لكم على يد موسى - عليه السلام - من آياته و في الموضع الذي ذكر فيه من أجله و عبّر عنه باللام هو الموضع الذي قصد فيه إلى الإخبار بأنّه كبيركم الذي علّمكم السحر، فلذلك حصّ باللام و الأوّل حصّ بالباء، و قد تدلّ اللام على الإتياع فيكون

²⁴⁵ سورة الأعراف، الآية : 123

²⁴⁶ سورة طه، الآية : 71 ، و الآية : 49 من سورة الشعراء على التوالي

²⁴⁷ سورة الأعراف، الآية : 121

²⁴⁸ سورة طه، الآية : 71 ، سورة الشعراء، الآية : 49

المعنى اتبعتموه لأنه كبيركم في عمل السحر، و قد يؤمن بالخير من لا يعمل عليه و لا يتبع الداعي إليه" ²⁴⁹.

و نحن نشاطر الإسكافي رأيه و نذهب معه مذهبه الذي ينصّ على أنّ قوله تبارك و تعالى في سورة الأعراف : ﴿أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ أي بربّ العالمين، و أمّا قوله عزّ و جلّ في سورتي طه و الشعراء: ﴿أَمَنْتُمْ لَهُ﴾ فمراده الإيمان لموسى بما جاء به و لم يكن موسى - عليه السّلام - هو المقصود ههنا لما ذكر تبارك و تعالى بعد هاتيه الآية في كلا السّورتين قوله : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ²⁵⁰.

قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ ²⁵¹، و في سورتي طه و الشعراء ﴿قَالَ﴾ ²⁵².

و إنّما صرّح باسم فرعون في سورة الأعراف و كتّى عنه في سورتي طه و الشعراء، لأنّ سورة الأعراف سابقة من حيث النزول على تينك السّورتين، فذكر فيها فرعون و استغنى عنه في طه و الشعراء لدلالة السياق عليه، كما أنّ الإضمار - و هو من المعارف - لا يتمّ إلاّ بعد سبق الذّكر للمضمر.

و للخطيب الإسكافي تعليق مفصّل حول هذا حيث يقول : "أنّ الذّكر العائد إلى فرعون بعد في سورة الأعراف لأنّه جاء في الآية العاشرة من الآية التي أضمر فيها ذكره و هي قوله : ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْتَريينَ﴾" ²⁵³، و جاء في الآية العاشرة من هذه السّورة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ ²⁵⁴ و لم يبعد هذا الذّكر في الآيتين اللّتين في سورة طه و الشعراء لأنّ فرعون مذكور في سورة طه في جملة قومه الذين أخبر عنهم بقوله : ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ ²⁵⁵، و بعده : ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ²⁵⁶ ﴿قَالَ لَهُمُ

²⁴⁹ الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة لبّ تأويل"، ص : 176 . 177.

²⁵⁰ سورة طه ، الآية : 71 و سورة الشعراء، الآية : 49.

²⁵¹ سورة الأعراف، الآية : 123

²⁵² سورة طه من الآية : 71 و سورة الشعراء من الآية : 49.

²⁵³ سورة الأعراف، الآية : 114

²⁵⁴ سورة الأعراف، الآية : 123

²⁵⁵ سورة طه، الآية : 57

²⁵⁶ سورة طه، الآية : 60

مُوسَى وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابِهِ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى²⁵⁷ و هذا خطابه : لفرعون وقومه و ضميرهم منطو على ضميره إلى قوله : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا﴾²⁵⁸ ، و الذكر في قوله : ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ﴾ إنما هو في السَّابِع من الآي التي جرى ذكره فيها، و كذلك في سورة الشعراء لم يبعد الذكر بعده في سورة الأعراف : ألا ترى أن آخر ما ذكر فيما اتصل بهذه الآية قوله تعالى : ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾²⁵⁹ و ذكره بعد ذلك في الآية الثامنة من الآية التي جرى ذكره فيها، فلما بعد الذكر في سورة الأعراف خلاف بعده في السورتين : إذ كان في إحداهما في السابعة و في الأخرى في الثامنة و هو في الأعراف في العاشرة أعيد ذكره الظاهر لذلك²⁶⁰ و هذا التعليق شاف لكل علة يمكن أن يشك فيها الدارس و هو تعليل لطيف لما جاء في سورة الأعراف و ما ورد في سورتَي طه و الشعراء.

قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾²⁶¹ ، و في سورتَي طه و الشعراء قوله تبارك و تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾²⁶² ، و إنما ذكرت في سورة الأعراف (ثم) و في السورتين الأخرتين (الواو) لأن "ثم تدلّ على أن الصلب يقع بعد التقطيع و إذا دلّ الكلام في الأولى علم في غيرها"²⁶³ ، هذا علاوة على أن الواو يمكن لها أن تؤدّي في الجملة نفس الوظيفة التي تؤدّيها ثم فإن قلت : إن (ثم) حرف تراخي، و الواو غالباً ما تكون عاطفة جملة على أخرى قلت : اقرأ قوله تعالى في سورة الأعراف، و قوله في سورتَي طه و الشعراء فإنك لواحد أن (ثم) و (الواو) قائمتا بالدور ذاته فيما وظفتا فيه من آيات، و المعروف أن ثم - و هي حرف عطف - تفيد وظيفة الترتيب، لذلك استعملت في الآية الأولى على الأصل في هذه المعاني ، أمّا في الآية الثانية فاستعملت الواو و هي الأصل في العطف بعد سبق الذكر لهذه المعاني من جهة، و كذلك لأنّ هذا الحرف قد يفيد وظيفة (ثم) إذا وجد ما يدلّ عليها.

²⁵⁷ سورة طه، الآية : 61

²⁵⁸ سورة طه، الآية : 64

²⁵⁹ سورة الشعراء، الآية : 42

²⁶⁰ الخطيب الإسكافي " درة التنزيل و غرة التأويل"، ص : 175، 176.

²⁶¹ سورة الأعراف، الآية : 124

²⁶² سورة طه، من الآية : 71، سورة الشعراء، من الآية : 49

²⁶³ الكرماني " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 200.

قوله تبارك و تعالى في سورة الأعراف : ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾²⁶⁴ ، أما في الشعراء فقال : ﴿لَا خَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾²⁶⁵ بزيادة لا خير أي لا ضرر علينا يصيبنا²⁶⁶ لأنه بالمقارنة مع ما ورد في سورة الأعراف المتقدمة النزول نجد أنّ سورة الشعراء هي الأخرى فصلت الحديث عن قصّة موسى - عليه السلام - حيث ذكرت خبر موسى مع فرعون و ما جرى بينهما فبدأ بقوله : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾²⁶⁷ و ختم بقوله : ﴿ثُمَّ أَخْرَجْنَا الْأَخْرِينَ﴾²⁶⁸ فلهذا وردت فيها إضافات لم نجدها في سورتي الأعراف و طه السابقتين من حيث النزول و اللتين تطرّقتا هما أيضا لخبر موسى - عليه السلام - مع الطاغية فرعون ، و الغاية من تلك الإضافة هي تأكيد الخبر.

قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾²⁶⁹ ، و قال عن الموقف ذاته في سورة إبراهيم : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾²⁷⁰ .
و قال عنه في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾²⁷¹ .
قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿يُهْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بدون (واو) و في سورة إبراهيم ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بالواو، و في البقرة بدونها .

²⁶⁴ سورة الأعراف، الآية : 125

²⁶⁵ سورة الشعراء، الآية: 50

²⁶⁶ ينظر: محمد حسين الحمصي "تفسير و بيان القرآن الكريم أسباب النزول للسيوطي"، ماجستير في الشريعة من الأزهر، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين ماهلة، الجزائر، ص : 369

²⁶⁷ سورة الشعراء، الآية : 18

²⁶⁸ سورة الشعراء، الآية : 66

²⁶⁹ سورة الأعراف، الآية : 141

²⁷⁰ سورة إبراهيم، الآية : 6

²⁷¹ سورة البقرة، الآية : 49

لأنّ قوله في الآيتين من سورتي الأعراف و البقرة هو من كلام الله سبحانه و تعالى فوق تفسيراً لما قبله، أمّا قوله في سورة ابراهيم فهو من كلام موسى لأنّه كان مأموراً بتعداد الحن عليهم دلالة ذلك قوله تبارك و تعالى من السورة نفسها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾²⁷² و لعلّ السرّ من وراء الإستغناء عن العاطف في كلّ من سورة الأعراف و البقرة، أنّ اللفظ جاء تفسيراً لما سبق من قوله ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فكان ما ذكر بعد قوله هذا توضيحاً له و بياناً. أمّا في سورة إبراهيم فلا هو تفسير و لا هو بيان، لأنّ المعنى أنّهم كانوا يتلقّون أنواعاً متعدّدة من العذاب و الذبح نوع آخر من العذاب.²⁷³

و قد علّق الإمام السيوطي على هاته الآيات في مؤلّفه الإتقان و معترك الأقران، حيث قال في الإتقان: "قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُطَبِّعُونَ﴾ و في إبراهيم: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بالواو: لأنّ الأولى من كلامه تعالى لهم فلم يعدّ عليهم الحن تكرّماً في الخطاب و الثانية من كلام موسى فعُدّها. و في الأعراف: ﴿يُهَتِّلُونَ﴾ و هو من تنويع الألفاظ المسمّى بالتفنّن".²⁷⁴

و ما ذكره في معترك الأقران عباراته متّفقة مع عبارة الإتقان مع تعديل بسيط في الألفاظ إذ قال (تكرّماً) بدلا من (تكرّماً) و (يديع) بدلا من (تنويع) و هي اختلافات راجعة إلى تقويم النصّ²⁷⁵.

لقد برع قوم موسى - عليه السلام - في السّحر و حذقوا أفانينه فأيد الله - تبارك و تعالى - نبيّه موسى بمعجزة العصا التي تنقلب حيّة²⁷⁶ فأخذت حتّى من النفوس المنيعة و سجدوا مؤمنين

²⁷² سورة إبراهيم، الآية: 5

²⁷³ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص: 122، فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن هامش ص: 25، و الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة التأويل"، ص: 13. 14.

²⁷⁴ جلال الدين السيوطي "الإتقان في علوم القرآن" و بهامشه كتاب إعجاز القرآن للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني، دار الفكر للطباعة و النّشر و التوزيع، د.ت، ج: 2، ص: 115.

²⁷⁵ ينظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي "معترك الأقران في إعجاز القرآن"، تحقيق: على عمّد البجالوي، دار الفكر العربي، د.ت، المجلد الأوّل، ص: 87. 88.

²⁷⁶ ينظر: محمّد الزفزاف "التعريف بالقرآن و الحديث"، دار الكتب العلميّة، بيروت. لبنان، ط: 02، 1400 هـ. 1980م، ص: 7.

و الدكتور: صلاح بسيوني رسلان "القرآن الحكيم"، مكتبة نهضة الشّرق، جامعة القاهرة، 1985م، ص: 219.

ربّ العالمين ربّ موسى و هارون، و قد عبّر القرآن عن معجزة العصا في غير ما موضع منه قال تبارك و تعالى في سورة الأعراف و هي أوّل سورة فصلّت الحديث عن قصّة موسى - عليه السلام- : ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾²⁷⁷، و قال في سورة طه : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾²⁷⁸ و قال في سورة الشعراء : ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾²⁷⁹، أمّا في سورة النمل فقال : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا﴾²⁸⁰، و أمّا في سورة القصص فقال : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا﴾²⁸¹.

و قد يتصوّر الدّارس بعد قراءة هاته الآيات أنّ تحوّل العصا كان في ثلاث صور، و ليس الأمر كذلك ؛ ذلك أنّنا إذا قرأنا الآيات التي وردت في كلّ من سورة الأعراف و طه و الشعراء، و قرأنا الآيتين اللتين وردتا في سورتي النمل و القصص فإنّنا واجدون أنّ :

ما ذكر في سورة الأعراف و طه و الشعراء هو "وصف الماهية" حيث قال تبارك و تعالى في كلّ واحدة منها : ﴿فَإِذَا هِيَ﴾، أمّا ما ورد في سورتي النمل و القصص فهو وصف المشابهة، حيث عبّر تبارك و تعالى فيهما بقوله ﴿كَأَنَّهَا﴾، و تفسير هذا أنّ العصا صارت فعلاً حيّة في مرّة و ثعباناً في أخرى، و لكنّها لم تصر جانّاً إلّا من باب المشابهة، و لعلّ هذا هو الذي ذكره الدّكتور محمد عباس في تعليقه على رسالة²⁸²، و هكذا يزول التناقض الذي قد يظنّه الدّارس، و في قوله تبارك و تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ إخبار عن سرعة تحوّل العصا إلى صفتي الحيّة و الثّعبان و هذا يجري مجرى قوله تبارك و تعالى في سورة يس : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾²⁸³. فقد عبّر بقوله ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ مع تباعد ما بين كونه نطفة و كونه خصيماً مبيناً، و مثله قولهم : خرج فلان من منزله فإذا هو في ضيعته،

²⁷⁷ سورة الأعراف، الآية : 5

²⁷⁸ سورة طه، الآية : 20

²⁷⁹ سورة الشعراء، الآية : 32

²⁸⁰ سورة النمل، الآية : 10

²⁸¹ سورة القصص، الآية : 31

²⁸² ينظر : شارف مزاری "مستويات السرد الإعجازي في القصّة القرآنيّة" مقارنة سيميائية لتحديد فاعليّة السرد القرآني، بحث لنيل درجة

المأجستير في الأدب العربي، إشراف د : سليمان عشواتي، موسم : 95 - 96 م، ص : 56.

²⁸³ سورة يس، الآية : 77

و المعلوم أنّ بين خروجه من منزله و وصوله ضيعته زمانا، و إنّما فائدة ذلك الإخبار عن قرب الزّمن²⁸⁴.

و قد عبّر تبارك و تعالى عن انقلاب العصا مرّة بالحيّة و الثّعبان لعظم حجمها فقد روي أنّها انقلبت حيّة ارتفعت في السّماء قدر ميل²⁸⁵ و شبّهها بالجان مرّة أخرى كونها لم تصر عظيمة²⁸⁶ و ندعم حديثنا عن انقلاب العصا بتعليل فضل حسن عباس المطوّل لهذه المسألة حين يقول :

".....لذا فإنّ الذي غيّل إليه أنّ قوله سبحانه ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ غير قوله ﴿كَأَنَّمَا جَانٌ﴾ و نرجّح تفسير الجانّ هنا لا بصغار الحيّات - كما يقول المفسّرون أو جلّهم - وإنّما نفسّه بالجانّ الذي هو مقابل للإنسان، و هو من الجنّ. و قد قال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾²⁸⁷ و نستأنس لهذا التّفسير بما يلي :

1- إنّ كلمة ﴿الْجَانَّ﴾ ذكرت في القرآن أكثر من مرّة، و لا تعني إلّا هذا النّوع الذي خلق من النار، و لم يرد تفسير الجان بصغار الحيّات إلّا في هذا الموضع الذي هو وصف للعصا على ما ذهب إليه أصحاب هذا الرّأي، فلم يرد تفسير الجانّ بصغار الحيّات في موضع آخر- و لا يظنّ ظانّ هنا أنّنا ننكر أو نستبعد أن تأتي الكلمات القرآنيّة في أكثر من موضع و أن يكون لها في كلّ موضع، تفسير غير الذي تفسّره به في الموضع الآخر، كما لا يظنّ ظانّ أنّنا ننكر بأن يفسّر الجانّ لغة بصغار الحيّات -؛ و لكنّ الذي يتبادر لنا أنّ الجانّ إنّما هو المخلوق المعروف، و ربّما يقول قائل : إنّ المشبّه به يجب أن يكون أمرا حسيا معلوما للمخاطبين، و نقول إنّ هذا هو الكثير الغالب أن يكون أمرا محسوسا، و لكنّه قد يكون غير ذلك كذلك، نعم لا بدّ أن يكون معلوما للمخاطبين، و ما نظنّ أحدا يجهل خفّة الجانّ و قدرته على الحركة.

²⁸⁴ ينظر: الشريف المرتضي "أمالى المرتضي غرر الفوائد و درر القلائد"، ط : 2، 1387 هـ، 1967 م، القسم الأوّل، ص : 25

²⁸⁵ الزمخشري "الكشاف"، ج : 4، ص : 165.

²⁸⁶ ينظر: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة "تفسير غريب القرآن"، تحقيق: السيد: أحمد صقر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان،

1398 هـ. 1978 م، ص : 322.

²⁸⁷ سورة الرحمن، الآيتان 14، 15.

2- ذكر بعض هذا الوصف قول الله تعالى عن موسى - عليه السلام - ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ و لكن هاتين الجملتين - أعني ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ - لم تذكر في سورة طه بعد قوله حيّة تسعى كلّ الذي ذكر ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ و قد ذكر ما هو قريب من هذا في السّورتين الآخرين²⁸⁸

و هذا الانقلاب و هذا التّحوّل الذي حدث للعصا ما هو إلّا دليل قاطع ، و برهان ساطع على صحّة نبوة موسى - عليه السلام -.

✧ سورة طه ✧

نعود إلى سورة طه و نقرأ قوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ تخير سوء آية أخرى²⁸⁹ ، و نقرأ في سورة القصص قوله تبارك و تعالى : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ تخير سوء وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾²⁹⁰ فقد جعل الجناح و هو اليد - لأنّ جناح الطائر يقابل اليد عند الإنسان - مضموماً في أحد الموضعين و مضموماً إليه في آخر، و "المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى و بالمضموم إليه اليد اليسرى و كلّ واحدة من يمنى اليدين و يسراها جناح"²⁹¹ و إنّما كرّر المعنى الواحد ههنا لأنّ الغرضين مختلفين، ففي سورة طه الغرض هو خروج اليد بيضاء، أمّا في سورة القصص فالغرض هو إخفاء الرّهب. قوله تعالى : ﴿اذهبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾²⁹²، و في سورة الشعراء : ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾²⁹³، و في القصص : ﴿فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِهِ﴾²⁹⁴.

²⁸⁸ فضل حسن عباس "القصص القرآني إيجاز و نفحات"، ص : 304، 305.

²⁸⁹ سورة طه، الآية: 22

²⁹⁰ سورة القصص، الآية : 32.

²⁹¹ الرّبخشري "الكشاف"، ج : 4، ص : 223.

²⁹² سورة طه، الآية: 24

²⁹³ سورة الشعراء، الآيتان : 10، 11

²⁹⁴ سورة القصص، الآيتان : 10، 11

اقتصر في طه على ذكر الطاغية فرعون دون قومه كونه الأصل بالنسبة إليهم و طه هي السابقة، و ذكره مضافا في الشعراء - و مثله ﴿وَأَخْرَجْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾²⁹⁵ أي آل فرعون و فرعون -، و جمع بينهم و بين قومه ذكرا في القصص لأنه تبارك و تعالى لما قال : ﴿فَذَانِكَ بَرَهَانَانِ﴾ فكأنما وافق بين البرهانيين و فرعون و ملاه من حيث العدد²⁹⁶.

قوله تعالى : ﴿وَإِخْلُصْ لَهُ مِنْ لِسَانِي﴾²⁹⁷، و في الشعراء : ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾²⁹⁸، و في القصص : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَعُ مِنِّي لِسَانًا﴾²⁹⁹ نجد أنه صرح بالعقدة في سورة طه لسبقها، و كنى عنها ما يقرب من الصريح في سورة الشعراء، و كنى في العقدة كناية مبهمة في سورة القصص لدلالة تلك الكتابة عليها³⁰⁰ و لعل الجامع بين كل هاته الكنايات هو فصاحة هارون - عليه السلام - عن موسى - عليه السلام -.

قوله تعالى في سورة طه : ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾³⁰¹، و في سورة الشعراء : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾³⁰²، و في سورة القصص : ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾³⁰³ حيث لم يرد خوفه من القتل في سورة طه، و ورد في سورتي الشعراء و القصص، لأن الله تبارك و تعالى إذا يسّر شيئا لعبده لم يخش هذا شيئا بعد ذلك.

قوله تعالى في سورة طه : ﴿فَرَجَعْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾³⁰⁴، و في سورة القصص من القصة ذاتها : ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾³⁰⁵.

²⁹⁵ سورة البقرة، الآية 50، و الأنفال، الآية : 54

²⁹⁶ ينظر: أبو زكريا الأنصاري "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن"، ص : 363.

²⁹⁷ سورة طه، الآية : 27

²⁹⁸ سورة الشعراء، الآية : 13

²⁹⁹ سورة القصص، الآية : 34

³⁰⁰ ينظر: أبو زكريا الأنصاري "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن"، ص : 364، و الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 264.

³⁰¹ سورة طه، الآية : 26

³⁰² سورة الشعراء، الآية : 14

³⁰³ سورة القصص، الآية : 33

³⁰⁴ سورة طه، الآية : 40

³⁰⁵ سورة القصص، الآية : 13

و إنما استعمل لفظ الرجوع في سورة طه ليقاوم ثقله خفة فتح الكاف و لكونه ألطف،
و مال عنه إلى الردّ في سورة القصص لتقاوم خفة هذا الأخير ثقل ضمة الهاء و كذلك تصديقا
لقوله تبارك و تعالى من السّورة نفسها: ﴿إِنَّا رَاٰكُوهُ إِلَيْنَا﴾³⁰⁷³⁰⁶.

قوله تبارك و تعالى في سورة طه: ﴿وَأَجْعَلْ لِّيْ وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى هَارُوْنَ أَخِي﴾³⁰⁸،
و في سورة الشعراء: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُوْنَ﴾³⁰⁹ و في سورة القصص: ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ
لِسَانِي﴾³¹⁰ نجد تصرّحا بالوزير في سورة طه كونها الأ سبق في ترتيب النزول و التلاوة معا، أمّا
ما تلاها من سورتي الشعراء و القصص فقد كنى فيهما عن الوزير.

قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَتِيَاهُ فَقُوْلًا إِنَّا رَسُوْلًا رَبِّكَ﴾³¹¹، و في سورة الشعراء
﴿فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُوْلًا إِنَّا رَسُوْلُ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾³¹² "لأنّ الرسول مصدر سميّ به، فحيث
وحدّ حمل على المصدر، و حيث ثنى حمل على الاسم و يجوز أن يقال حيث وحدّ أراد به الرسالة
لأنهما أرسلّا شيء واحد و حيث ثنى حمل على الشخصين"³¹³ فثنى الاسم الأوّل حملا على
الأصل، و أفرد في الآية الثانية و هو وجه جائز في العربية أي مخاطبة الاثنين بالواحد رغبة في
التخفيف، و بخاصّة أنّ الاسم "الرّسول" قد سبق بما يدلّ على أنّ المراد منه التثنية.

قوله تعالى في هاتيه السّورة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾³¹⁴، و في سورة غافر
(المؤمن): ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيْهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾³¹⁵، ففي
سورة طه قال: ﴿آتِيَةٌ﴾ و في غافر قال: ﴿لَآتِيَةٌ﴾ باللام و متى وقعت اللام في خبر إنّ
أو اسمها و حلّت محلّ الخبر فإنّها تؤكّد الكلام، و العرب تحرص على التوكيد إذا كان الموضع

³⁰⁶ سورة القصص، الآية: 13

³⁰⁷ ينظر: المصدر نفسه ص: 364، الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص: 263.

³⁰⁸ سورة طه، الآيتان: 29، 30

³⁰⁹ سورة الشعراء، الآية: 13

³¹⁰ سورة القصص، الآية: 34

³¹¹ سورة طه، الآية: 47

³¹² سورة الشعراء، الآية: 16

³¹³ الكرمانى "البرهان في علوم القرآن في متشابه القرآن"، ص: 265.

³¹⁴ سورة الشعراء، الآية: 15

³¹⁵ سورة غافر، الآية: 59

يَتَطَلَّبُهُ، وَتَتَحَلَّى عَنْهُ لَوْلَمْ يَكُن لَذِكْرِهِ دَاعٍ فَقَدْ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجَرِ : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾³¹⁶، وَقَالَ قَبْلَ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾³¹⁷.

"وَالْمَعْنَى أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ، وَ مِنْ قَدْرِ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ أَوْلَا قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِمْ ثَانِيًا، وَ هَذَانِ مِنْ مَوَاضِعِ التَّوَكُّيدِ وَ تَحْقِيقِ الْخَبَرِ أَنَّ السَّاعَةَ حَقٌّ وَ أَنَّهَا آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَ الْخَطَابُ لِقَوْمٍ كَفَّارٍ يَنْكُرُونَهَا، وَ الَّتِي فِي سُورَةِ طه خُطَابُ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَ هِيَ فِي ضَمَنِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاصْفَحْ نَعْلَيْكَ﴾³¹⁸ وَ قَالَ : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكْبَادُ أُخْفِيهَا﴾³¹⁹ وَ لَمْ يَكُنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَنْكُرُ ذَلِكَ فَيُؤَكِّدُ الْكَلَامَ عَلَيْهِ تَوْكِيدَهُ عَلَى مَنكِرِهِ وَ الْجَاهِلِينَ لَهُ، عَلَى أَنَّهُ تَحْمِيلٌ لَهُ لِيَعْلَمَ قَوْمُهُ وَ هُوَ ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَذَكَّرْ﴾³²⁰.

321

وَ تَمَّا تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا حَدَّثَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ حِينَ فَرَّ سَيِّدُنَا مُوسَى وَ قَوْمُهُ مِنَ الطَّاغِيَةِ فِرْعَوْنَ لَكِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ لِحَقِّ بِهِمْ هُوَ وَ جُنُودُهُ إِلَى أَنْ أَتَوْا سَاحِلَ الْبَحْرِ وَ قَدْ ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ طه قَالَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى فَاتَّبِعْهُمْ فَرِحْنَهُمْ فِرْحَانًا وَجُودًا فَنُفِثَهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا نَحْشِيهِمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾³²²، وَ قَالَ سُورَةُ الشُّعَرَاءِ : ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي فَأَوْحَيْنَا

³¹⁶ سورة الحجر، الآيات : 85، 86

³¹⁷ سورة المؤمن، الآية : 57

³¹⁸ سورة طه، الآية : 12

³¹⁹ سورة طه، الآيات : 14، 15

³²⁰ سورة طه، الآية : 16

³²¹ الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة التأويل"، ص : 411، 412.

³²² سورة طه، الآيات : 77، 78، 79

إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ
وَأَرْزَلْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ³²³، أَمَا فِي سُورَةِ الدَّخَانِ فَقَالَ : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ
هُوَ لَأَقْوَمُ مُجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرَكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ
مُغْرَقُونَ³²⁴ .

و يذهل الذي حدث فرعون و هو الجبار فوق الأرض لا أحد يجرو على إزاله
أو منافسته، و ها هو موسى يربح المنافسة و يذله بقدرة قادر و يدفعه إلى أن يؤمن بالله الواحد
الأحد الذي آمنت به بنو اسرائيل : ﴿أَهْنُتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ³²⁵ .

☆ سورة الشعراء ☆

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ³²⁶ ، فهاتان الآيتان ذكرتا في ثمانية مواضع صرح بها في سبعة
و كُتِبَ عنها في واحدة، أما الصريح منها فورد في كل من قصّة موسى - عليه السلام - (في الآيتين
: 67، 68)، ثم قصّة إبراهيم - عليه السلام - (في الآيتين : 139، 140)، ثم قصّة صالح : (في
الآيتين : 158، 159)، ثم قصّة لوط (في الآيتين : 174، 175)، ثم قصّة شعيب (في الآيتين : 190،
191)، و أمّا غير الصريح فجاء في ذكر النبي محمد صلى الله عليه و سلم قبل الآيتين : 8، 9.
قال تعالى في هاتئ السورة ﴿فَأْتِيَا فَزَعَمُورًا فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسَلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ³²⁷ ، و قال في طه : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ³²⁸ .

³²³ سورة الشعراء، من الآية : 60 إلى الآية : 67

³²⁴ سورة الدخان، الآيات : 21، 22، 23

³²⁵ سورة يونس، الآية : 90

³²⁶ سورة الشعراء، الآيتان : 8، 9

³²⁷ سورة الشعراء، الآيتان : 16، 17

إن تساءلنا لماذا أفرد "رسول" في سورة الشعراء مع أنه خير متعدّد و لم يقل رسولا كما في سورة طه، وجدنا أنّ الرسول بمعنى الرسالة و بما أنّها مصدر نستطيع أن نطلقها على المفرد و المثني و الجمع، و لعلّه أراد أن موسى - عليه السلام - رسول ربّ العالمين و كذلك أخاه هارون، و لعلّه أفرده في سورة الشعراء و ثناه في طه لأنّ طه سابقة من حيث النزول فلما كرر القول في الشعراء علم أنّ رسول قصد بها موسى لأنّه الأصل في النبوّة و هارون وزيره و تابعه فكأنّهما رسول واحد³²⁹ كما أنّ خطاب الإثنين بالإنفراد جائز في العربيّة، طبعاً بعد ترك ما يدلّ على التثنية.

هذا و قد سبقت الإشارة إلى بعض الآي التي تكرر ذكرها في كلّ من سورة الأعراف و طه و الشعراء حين الحديث عمّا ورد في سورتي الأعراف و طه من حديث عن قصّة موسى - عليه السلام -.

❖ سورة النمل ❖

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿وَأَلْقِ مَحَاكِبَكَ﴾³³⁰ ، و أمّا في سورة القصص فقال تبارك و تعالى : ﴿وَأَن أَلْقِ مَحَاكِبَكَ﴾³³¹ ، لأنّ في هذه السورة تقدّمه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُوحِيَ أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ مَحَاكِبَكَ﴾³³² ففي هاته الآيّة ذكر الفعل بورك بعد أن فحسّن عطف الفعل عليه و استغني عن إعادة أن، و ما في سورة القصص لم يذكر فعل بعد أن قال تعالى : ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَن أَلْقِ مَحَاكِبَكَ﴾³³³ ، وإنّما حسن

³²⁸ سورة طه، الآية : 47

³²⁹ ينظر: الزمخشري "الكشاف"، ج : 4، ص : 35، و ص : 162، و فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص : 407، 408.

³³⁰ سورة النمل، الآية : 10

³³¹ سورة القصص، الآية : 31

³³² سورة النمل، الآيات : 8، 9، 10

³³³ سورة القصص، الآيتان : 30، 31

إدخال (أن) وهنا لتكون جملة ﴿أَنْ أَلْقَى مَخَالِكَ﴾ معطوفة على جملة : ﴿أَنْ يَأْمُوسَى إِنْ يَ﴾
 أَنَا اللَّهُ³³⁴.

ولما كانت سورة النمل سابقة من حيث النزول على سورة القصص فقد وجدنا فيها جملة فاصلة، في حين أننا لم نلف هاته الجملة في سورة القصص، ولعل هذا الوجود و عدمه بين السورتين هو الذي دعى إلى الإستغناء عن (أن) في الأولى و استعمالها في الثانية.

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿يَأْمُوسَى لَا تَخَفْ﴾³³⁵ وقوله في سورة القصص : ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾³³⁶، و إنما خصت سورة النمل بقوله ﴿لَا تَخَفْ﴾ دون الأمر بالإقبال لأن ما ذكر بعده من كلام هو مناسب للخوف لا للإقبال فقد قال عز وجل : ﴿إِنْ يَ لَا يَخَافُ لَخِيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾³³⁷، في حين أن الخوف في سورة القصص لم يبن عليه كلام فزيد قبله ﴿أَقْبِلْ﴾ ليكون في مقابلة ﴿مُذِبِرًا﴾ أي أقبل آمنا غير مدبر ولا تخف³³⁸ ولما كانت الواو تفيد الجمع في الأصل، فقد طلب منه الإقبال مع عدم الخوف في الوقت نفسه.

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ﴾³³⁹، وقال في سورة القصص : ﴿اسْأَلْكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ﴾³⁴⁰، و إنما ذكره في النمل بلفظ ﴿أَدْخِلْ﴾، و في القصص بلفظ ﴿اسْأَلْكَ﴾ لأن معنى الإدخال أبلغ من معنى السلوك وكون هذا الأخير يأتي على نوعين لازم و متعدد، و الأول - الذي هو الإدخال - لا يأتي إلا متعديا ناسب الإدخال كثرة الآيات في قوله : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلًا إلى فرعون مع تسع آيات، كما وافق قوله : ﴿اسْأَلْكَ﴾ قوله ﴿وَاضْمُمْ﴾ و هما سلوك اليد، و ضم الجناح

³³⁴ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 286، و أبو زيد الأنصاري "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 418، 419.

³³⁵ سورة النمل، الآية : 10

³³⁶ سورة القصص، الآية : 31

³³⁷ سورة النمل، الآية : 10

³³⁸ ينظر: الكرمانى "البرهان في متشابه القرآن"، ص : 286، و أبو زيد الأنصاري "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 419.

³³⁹ سورة النمل، الآية : 12.

³⁴⁰ سورة القصص، الآية : 32.

المعبر عنهما في قوله تبارك و تعالى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾^{341 342}.

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾³⁴³ ، و في القصص : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾³⁴⁴ لأنَّ الملائة أشرف القوم و كانوا في هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَعَدُوا بِهَا ﴾³⁴⁵ فلم يسمهم ملاء بل سماهم قوما و خصت السورة به، و في القصص لم يكونوا موصوفين بتلك الصفات فسماهم ملاء و خصت السورة بذلك و لما قال عقبه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾^{346 347}.

✧ سورة القصص ✧

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِحًا إِنْ كَذَبَتْ لَتُنْدِي بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَّمَىٰ قَلْبَهَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾³⁴⁸ ، يرى ابن العربي أن في هاته الآية مسألتين:

الأولى هي قوله : ﴿ فَارِحًا ﴾ و يحمل في طياته ثلاث معان :

الأول : فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى - عليه السلام - .

الثاني : فارغا من وحي الله بسبب فقدده.

الثالث : فارغا من العقل.

³⁴¹ سورة القصص، الآية : 32

³⁴² ينظر: الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 287، و أبو زيد الأنصارى "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 420.

³⁴³ سورة النمل، الآية : 12

³⁴⁴ سورة القصص، الآية : 32

³⁴⁵ سورة النمل، الآيتان : 13، 14

³⁴⁶ سورة القصص، الآية : 38

³⁴⁷ الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 287.

³⁴⁸ سورة القصص، الآية : 10

و الثانية : أن هذه الآية هي من معجزات الإعجاز و من أعظم آي القرآن فصاحة لاشتمالها على أمرين و نهين و خبرين و بشارتين.³⁴⁹

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾³⁵⁰ ، و اكتفى في سورة يوسف بقوله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾³⁵¹ لأن سيدنا يوسف عليه السلام أوحى إليه في صباه لقوله تبارك و تعالى : ﴿فَلَمَّا كَامِلًا فِيهِ جَاءَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾³⁵² ، وأمّا سيدنا موسى - عليه السلام - فأوحى إليه بعد أربعين سنة لقوله تبارك و تعالى في سورة الأحقاف : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾³⁵³ .

قوله تعالى في هذه السورة من القصّة ذاتها : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾³⁵⁴ ، و قدّم و آخر في الآية ذاتها حيث قال في سورة يس : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾³⁵⁵ " هو مؤمن آل فرعون و اسمه سمعان و قيل شمعون و قيل جبر و قيل حبيب و قيل حزقيل " .³⁵⁶ أمّا مؤمن سورة يس " فهو حبيب النجار " .³⁵⁷

و إنّما قدّم ههنا (رجل) على (من أقصى المدينة) و عكس في يس ، لأن سورة القصص خصّت بالتقديم لقوله تبارك و تعالى قبله : ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾³⁵⁸ ، ثمّ قال : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾³⁵⁹ ، أمّا سورة يس فاهتم فيها بتقديم ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ لما جاء

³⁴⁹ ينظر: أبو بكر بن العربي " أحكام القرآن "، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط : 1، 1408 هـ. 1988 م، القسم الثالث ، ص : 491.

³⁵⁰ سورة القصص، الآية : 14

³⁵¹ سورة يوسف، الآية : 22

³⁵² سورة القصص، الآية : 15

³⁵³ سورة الأحقاف، الآية : 15

³⁵⁴ سورة القصص، الآية : 20

³⁵⁵ سورة يس، الآية : 20

³⁵⁶ جلال الدين السيوطي الشافعي " الإتيان في علوم القرآن "، ج : 2، ص : 147

جلال الدين السيوطي " معترك الأقران في إعجاز القرآن "، ج : 1، ص : 496.

³⁵⁷ المصدرين نفسهما، ج : 2، ص : 148، ج : 1، ص : 497 على التوالي.

³⁵⁸ سورة القصص، الآية : 15

³⁵⁹ سورة القصص، الآية : 20

في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلاً³⁶⁰ وهذا لعمر الله سبب وجيه لتأخير ﴿رَجُلٌ﴾ وتقديم ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ وفي رأينا أن التركيز في الآية الأولى كان على الرجل في حد ذاته ، أما في الآية الثانية فكان المراد هو بيان المكان الذي كان بعيداً جداً و هو (من أقصى المدينة).

قوله تعالى في قصة موسى من هاته السورة : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾³⁶¹ ، وفي قصة سيدنا إسماعيل - عليه السلام - من سورة الصافات : ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾³⁶² ، ذلك أن ما قيل في سورة القصص هو من كلام شعيب و هو المناسب للمعنى ههنا و الذي مفاده أن موسى - عليه السلام - صالحاً في العشرة و الوفاء بالعهد، أما ما ذكر في سورة الصافات فهو من كلام سيدنا إسماعيل - عليه السلام - إذ المعنى ههنا ستجدني من الصابرين على ما تؤمر به من الله³⁶³ سواء كان الذبح أو غيره من الأمور التي لا يستلطفها بشر إذ لما قال له أبوه : ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ أجابه سيدنا إسماعيل قائلاً : ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾³⁶⁴.

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿لَعَلِّي أُنَبِّئُ الْأَسْبَاجَ الْأَسْبَاجَ السَّمَاوَاتِ فَأُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾³⁶⁵ ، وفي سورة المؤمن : ﴿لَعَلِّي أُنَبِّئُ الْأَسْبَاجَ الْأَسْبَاجَ السَّمَاوَاتِ فَأُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾³⁶⁶ فقوله تعالى في سورة القصص : ﴿أُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ خبر لعل و في المؤمن عطف على خبر لعل، و جعل قوله : ﴿أُنَبِّئُ الْأَسْبَاجَ﴾ خبر لعل، ثم أبدل عنه ﴿أَسْبَاجَ السَّمَاوَاتِ﴾.

³⁶⁰ ينظر: الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 290، و أبو زيد الأنصارى "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 430.

³⁶¹ سورة القصص، الآية : 27

³⁶² سورة الصافات، الآية : 102

³⁶³ ينظر: الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 290، و أبو زيد الأنصارى "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 430.

³⁶⁴ سورة الصافات، الآية : 102

³⁶⁵ سورة القصص، الآية : 38

³⁶⁶ سورة المؤمن، الآيتان : 36، 37

وإنما ذكره في سورة القصص بحذف : ﴿أَبْلُغِ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ و في سورة غافر بذكره لأن ما في القصص تقدمه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ خَيْرِي﴾³⁶⁷ من دون ذكر الأرض و غيرها ف مناسبة الحذف، أما في غافر فتقدمه قوله تبارك و تعالى : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾³⁶⁸، ف مناسب ذكر الأرض مقابلته بذكر السموات في قوله عز و جل : ﴿لَعَلِّي أَبْلُغِ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾^{369 370}

يعلق الزمخشري على هاته الآية بقوله : "إن قلت ما فائدة هذا التكرير و لو قيل لعلي أبلغ أسباب السموات لأجزأ قلت إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه، فلما أراد تفخيما ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها و لأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوقة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوق إليه نفس هامان ثم أوضحه و قرئ فاطلع على جواب الترجي تشبيها للترجي بالتمني و مثل ذلك التزيين و ذلك الصّد : ﴿زَيْنَ لِيَفْرَحُونَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ﴾³⁷¹ و المزين إما الشيطان بوسوسته كقوله تعالى : ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾³⁷²، أو الله تعالى على وجه التسبب لأنه مكن الشيطان و أمهله و مثله ﴿زَيْنًا لَهُمُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾^{373 374} قوله تعالى في سورة القصص : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾³⁷⁵، و في سورة المؤمن : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾³⁷⁶ لأن التقدير في سورة القصص : و إنني لأظنه كاذبا من

³⁶⁷ سورة القصص، الآية : 38

³⁶⁸ سورة غافر، الآية : 26

³⁶⁹ سورة غافر، الآيتان : 36، 37

³⁷⁰ ينظر : الكرمانلي " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 291، و أبو زيد الأنصاري "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 431.

³⁷¹ سورة غافر، الآية : 37

³⁷² سورة النمل، الآية : 24

³⁷³ سورة النمل، الآية : 4

³⁷⁴ الزمخشري "الكشاف"، ج : 5، ص : 183.

³⁷⁵ سورة القصص، الآية : 38

³⁷⁶ سورة المؤمن، الآية : 37

الكاذبين فزيد : ﴿ هِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ لرؤوس الآيات ثم أضمر كاذبا لدلالة الكاذبين عليه و خصت به السورة و في المؤمن جاء على الأصل و لم يكن فيه موجب تغيير³⁷⁷ .
 فالإضمار كان بإبقاء ما يدل عليه على الأصل، لذلك لما زال الداعي لذلك استغنى عنه،
 كما يظهر أنه لما أراد في الآية الأولى أن ينسبه إلى الكاذبين، أتى بهذا التركيب، و لما أراد تخصيص
 الكذب له أتى بما يدل على ذلك.

❖ سورة الكهف ❖

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴾³⁷⁸ ، و في الآية : 63 من
 السورة ذاتها ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴾³⁷⁹ قاله في الآية الأولى بالفاء و في الثانية (بالواو) " لأنّ الفاء
 للتعقيب و العطف، و كان اتّخاذ الحوت السبيل عقيب النسيان فذكر بالفاء و في الآية الأخرى لما
 حيل بينهما بقوله : ﴿ وَهَآ أَنَسَانِيَهٗ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ ﴾³⁸⁰ زال معنى التعقيب و بقي
 العطف المجرد و حرفه الواو " فلما كان التركيب محتاجا إلى العطف و التعقيب استعملت الفاء في
 الآية الأولى، و لما زال التعقيب استعملت (الواو) و هي الأصل في العطف في الآية الثانية.

قوله تعالى في هاته السورة في الحكاية عن موسى - عليه السلام - لما خرق الحضر - عليه
 السلام - السفينة : ﴿ لَقَدْ جِئْتَهُ شَيْئًا إِهْرَآءَ ﴾³⁸¹ و بعده من السورة ذاتها : ﴿ لَقَدْ جِئْتَهُ شَيْئًا
 نُفُرًا ﴾³⁸² و قد يتساءل متسائل عن توظيف الإمر و النكر في هاتين الآيتين و ما إذا كان
 بالإمكان استعمال أحدهما في مكان الآخر، و للإسكافي ما يقوله ههنا مجيبا : " قيل الإمر الداهية،
 و قيل إنّه العجب، و النكر ما تنكره العقول و لا تعرفه و لا تحوزّه، و روي عن قتادة أنّه قال :
 " النكر أعظم من الإمر إن حمل على الداهية فهي التي تدهي الإنسان ممّا لم يخشه فيحترز من

³⁷⁷ الكرمانى "الرهان في متشابه القرآن"، ص : 291 .

³⁷⁸ سورة الكهف، الآية : 61

³⁷⁹ سورة الكهف، الآية : 63

³⁸⁰ السورة نفسها، الآية نفسها.

³⁸¹ سورة الكهف، الآية : 71

³⁸² سورة الكهف، الآية : 74

وقوعه و العجب قد يكون غير منكر، و النكر لا يستعمل إلا في المذموم الذي يخرج عن المعروف في العقل أو الدين، فاختص الأول بالإمر لأنّ حرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك، و قيل الإمر أعظم من النكر لأنّ تغريق عدد من السفينة أنكر من قتل نفس واحدة، و ليس ذلك لأنّ الغرق لم يقع و القتل قد حصل" ³⁸³ و إنّما اختصّ كلّ واحد منهما - أي من الإمر و النكر - بمكانه لأنّ حرق السفينة و إن كان يبدو عملاً شنيعاً فإنّه لم يترتب عنه غرق و كانت النجاة، في حين أنّ قتل الغلام ممّا يستنكره العقل و تنكره الطّبيعة البشريّة الرّغبة في العيش و التّنعّم بالحياة.

قوله تعالى في هذه السورة حكاية من الخضر - عليه السلام - بعد قوله : ﴿لَقَدْ جِئْتَنَا شَيْئًا مِنْكَ إِذْ أَنْتَ تُسْتَفِيعُ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ³⁸⁴ ، و أمّا ما ورد بعد قوله : ﴿لَقَدْ جِئْتَنَا شَيْئًا نُنكَرًا﴾ ³⁸⁶ فهو قوله : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ³⁸⁷ ، و إنّما زاد ذلك في الثانية و أحلى الأولى منها لأنّه في هاتِهِ الأخيرة " لما قرّر موسى - عليه السلام - و ذكره ما كان قد قدّم القول فيه من أنّ الصّبر على ما يشاهده منه يثقل عليه فقال : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ³⁸⁸ ، و هذا معناه في غالب ظني أنّك تعجز عن احتمال ما ترى حتّى تبادر إلى الإنكار، فلمّا رأى قتل الغلام و عاد إلى الإنكار أكّد التقرير الثاني بقوله لك كما يقول القائل لك أقول، و إياك أعني، فيقدّم لك و إياك و لو قال أقول لك و أعنيك بكلامي لاستويا في المعنى إلّا في تأكيد الخطاب بالتّقديم، فكأنّه قال ألم يكن خطابي لك دون من سواك، و هذا وجب في الثّاني لا في الأوّل الذي لم تتأكّد حجّة الخضر فيه عليه السلام كتأكّدها في الثّانية " ³⁸⁹.

³⁸³ الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة التأويل"، ص : 284.

³⁸⁴ سورة الكهف، الآية : 71

³⁸⁵ سورة الكهف، الآية : 72

³⁸⁶ سورة الكهف، الآية : 74

³⁸⁷ سورة الكهف، الآية : 75

³⁸⁸ السورة نفسها، الآية نفسها

³⁸⁹ الخطيب الإسكافي "درة التنزيل و غرة التأويل"، ص : 284.

و لعله لما كان قتل النفس أعظم بكثير من خرق السفينة ذكره في خرقها بدون إثبات (للك)، و في قتل الغلام بإثباتها ليؤكد التقرير الثاني و ليكون أبلغ من الأول، فالإضافة إنما كانت من أجل تقرير الحكم و تأكيده.

قوله تعالى في هذه السورة حكاية من الخضر في خرق السفينة : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاجِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْهُ أَنْ أَمِيبَهَا﴾³⁹⁰، و قال في قتل الغلام : ﴿فَأَرْدْنَا أَنْ يَبْدُلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾³⁹¹.

أما في إقامة جدار اليمين فقال : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾³⁹².

و إنما اختلف التعبير عن الإرادة ههنا لاختلاف الفاعل بين هذه التراكيب كما أن الإرادة الأولى في الظاهر إفساد محض فنسبها الخضر لنفسه، أما الثانية فمزيج بين الإفساد من حيث القتل و الإنعام من حيث إرزاقها بخير من ذاك الغلام مما دفعه إلى أن ينسبها إلى نفسه و إلى ربه جميعا لأن القتل كان منه، و إزهاق الروح و التبديل كان أمرا من عند الله، و أما الثالثة فكانت إنعاما محضا من الله تبارك و تعالى مما دعى الخضر - عليه السلام - أن يسندها إلى الله عز و جل.³⁹³

قوله تعالى في السورة نفسها : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾³⁹⁴ في الأول، و قوله في الثانية : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾³⁹⁵، و إنما جاء قوله في الأول بالتاء (تستطع) و في الثاني بدونها (تسطع) لأن الأول جاء على الأصل، أما الثاني فهو الفرع لذلك جاء مخففا³⁹⁶ و هذا التركيب تكرر من قبل أكثر من مرة، لذلك فالحذف وقع فيه لعل التكرار من جهة، و لأمن اللبس من جهة أخرى.

³⁹⁰ سورة الكهف، الآية : 79

³⁹¹ سورة الكهف، الآية : 81

³⁹² سورة الكهف، الآية : 82

³⁹³ ينظر: الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 258، و أبو زيد الأنصاري "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 347.

³⁹⁴ سورة الكهف، الآية : 78

³⁹⁵ سورة الكهف، الآية : 82

³⁹⁶ ينظر: الكرمانى " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 256، و أبو زيد الأنصاري "فتح الرحمن يكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 246.

قوله تعالى في ذات السّورة : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾³⁹⁷ خصّت الإستطاعة في الأوّل بحذف التّاء و في الثّاني بإثباتها لأنّ " الثانية تعدّت إلى اسم و هو قوله نقبا فحفّف متعلّقها فاحتملت أن يتمّ لفظها، فأما الأولى فإنّها تعلّق مكان مفعولها بأن و الفعل بعدها، و هي أربعة أشياء أن و الفعل و الفاعل و المفعول الذي هو الهاء، فتقلّ لفظ استطاعوا و كان يجوز تخفيفه حيث لا يقارنه ما يزيده ثقلا، فلمّا اجتمع الثّقيلان و احتملت الأولى التّخفيف ألزم الأوّل دون الثّاني الذي خفّ متعلّقه و احتمل".³⁹⁸

و إنّما حذف التّاء في الأوّل لأنّ مفعوله اشتمل على حرف و فعل و فاعل و مفعول، و أثبت التّاء في الثّاني لأنّ مفعوله واحدا و هو قوله (نقبا).

❖ سورة المؤمن ❖

قوله تبارك و تعالى في هذه السورة : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّبَاةِ وَتَدْمُونَنِي إِلَى التَّارِ﴾³⁹⁹ إنّ في تكرار النداء ههنا زيادة في تنبيه النفوس الغافلة و إيقاظها و يعلق الزمخشري على هاته الآيات بقوله : "فإن قلت لم كرّر نداء قومه و لم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثّاني قلت : أمّا تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم و إيقاظ عن سنة الغفلة و فيه أنّهم قومه و عشيرته و هم فيما يوبقهم و هو يعلم وجه خلاصهم و نصيحتهم عليه واجبة فهو يتحرّز لهم و يتلطف بهم و يستدعي بذلك أن لا يتهموه فإنّ سرورهم سروره و غمّهم غمّه و ينزلوا على تنصيحه لهم كما كرّر إبراهيم - عليه السلام - في نصيحة أبيه يا أبت و أمّا المحيي بالواو

³⁹⁷ سورة الكهف، الآية : 97

³⁹⁸ الخطيب الإسكاني " درة التّنزيل و غرّة التّأويل "، ص : 285.

³⁹⁹ سورة المؤمن من الآية : 38 إلى الآية : 41

العاطفة فلأنّ الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل و تفسير له فأعطى الدّاخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو و أمّا الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة " ⁴⁰⁰.

❖ سورة البقرة ❖

قوله تعالى في هذه السورة : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ⁴⁰¹﴾ ، و في سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ⁴⁰²﴾ في آيتي سورة البقرة ست مسائل تقابلها ست في سورة الأعراف :

1- قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا ⁴⁰³﴾ ، و قال في الأعراف : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا ⁴⁰⁴﴾ ، حيث عطف كلوا في سورة البقرة على ما قبله بالفاء، أمّا في سورة الأعراف فحدث العطف بالواو لأنّه لما كان الدّخول سريع الإنقضاء أعقبه الأكل.

2- قال تعالى في سورة البقرة : ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ ، و قال في الأعراف : ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ حيث جمع خطيئة في الأولى على "خطايا"، و في الثانية على خطيئات لأنّ خطايا جمع كثرة قال الكرمانى : " و مغفرتها. أليق بالآية لإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه " ⁴⁰⁵ و إن كان المراد بالخطيئات هي الأخرى الكثرة كما المراد بالخطايا إلّا أنّه غير اللفظ بين السورتين حتّى يفرّق بين

⁴⁰⁰الرمعشري "الكشاف" ، ج : 5 ، ص : 183 ، 184 .

⁴⁰¹سورة البقرة، الآيتان : 58، 59

⁴⁰²سورة الأعراف، الآيتان : 161، 162

⁴⁰³سورة البقرة، الآية : 58

⁴⁰⁴سورة الأعراف، الآية : 161

⁴⁰⁵الكرمانى " البرهان في مثابه القرآن " ، ص : 124 .

ما جاء على الأصل و ما جاء على الفرع، كما أنه لما أريد معنى الكثرة استعمل ما يدل على هذه الوظيفة، و لما لم تكن مرادة وطف الجمع على الأصل.

3- قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، و قال في الأعراف: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ حيث زاد في سورة البقرة قوله (رغدا) و حذفها في الأعراف لأنه تبارك و تعالى أسنده إلى نفسه إذ قال قبلا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أمّا في الأعراف فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾.

4- آخر حطة في سورة البقرة و قدّمها في الأعراف لأنّ لسابق في سورة البقرة قوله: ﴿ادْخُلُوا﴾ فبين كيفية الدخول في قوله عزّ و جلّ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾⁴⁰⁶.

5- في سورة البقرة قال: ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ بزيادة الواو، و في الأعراف بدونها، لأنّ اتصال سنزيد بالواو في هاته السورة - البقرة - "أشدّ لاتفاق اللفظين و اختلفا في الأعراف فكان اللائق به ﴿سَنَزِيدُ﴾ فحذف الواو ليكون استئنافا للكلام".⁴⁰⁷

إذن فحذف الواو و ذكرها في الآيتين كان نتيجة اختلاف المعنى في الآيتين.

6- في سورة البقرة قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ دون ذكر ﴿مِنْهُمْ﴾ و في الأعراف بذكرها: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا﴾. ففي سورة البقرة و إن استغني عن ذكر ﴿مِنْهُمْ﴾ علم أنّهم الظالمون المغيرون لما أمرهم به الله تبارك و تعالى، أمّا في سورة الأعراف فزيد قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، ذلك أنّ أوّل القصّة ههنا مبني على التخصيص و اتميز بدليل لفظه لقوله تبارك و تعالى في هاته السورة - الأعراف - : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾⁴⁰⁸، و لقوله بعده: ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾⁴⁰⁹ " 410 فالحذف كان مرتبط بذكر المحذوف من قبل فاستغني عنه بعد ذلك.

⁴⁰⁶ سورة البقرة، الآية : 58

⁴⁰⁷ المصدر نفسه، ص : 124.

⁴⁰⁸ سورة الأعراف، الآية : 159

⁴⁰⁹ سورة الأعراف، الآية : 168

⁴¹⁰ ينظر: الكرماني " البرهان في متشابه القرآن"، ص : 124، أبو زيد الأنصاري "فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن"، ص : 27، و الخطيب الإسكافي " درة التنزيل و غرة التأويل"، ص : 18. 19.

قوله تعالى في هذه السّورة : ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁴¹¹ ، وقوله في الأعراف : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾⁴¹² .

وإنما عبّر في البقرة بقوله : ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ لأنّ الانفجار انصباب الماء بكثرة فناسبه الجمع بين الأكل والشرب، و عبّر في الأعراف بقوله : ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ لأنّ الإنبحاس هو ظهور الماء فناسبه الإقتصار على الأكل ﴿كُلُوا﴾ دون ذكر الشرب .

❖ سورة المائدة ❖

قوله تعالى في هذه السّورة : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِكُمْ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ﴾⁴¹³ ، وقال في سورة إبراهيم : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾⁴¹⁴ .

و للدارس أن يتساءل عن هذا فكيف اختلف خطاب سيّدنا موسى - عليه السّلام - لقومه بين الآيتين من سورتي المائدة و إبراهيم فقد قال في الأولى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا﴾ و ورد في الثانية قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا﴾ مستغنيا عن قوله هناك (يا قوم) ؟

و للخطيب الإسكافي جوابا مطوّلا عن هذا التساؤل ارتأينا نقله كاملا يقول : "إنّ تسمية المخاطب بندائه مع الإقبال عليه يفيد مبالغة في التنبية له فإذا قال القائل إفعل كذا يا فلان، فكأنّه

⁴¹¹ سورة البقرة، الآية : 60

⁴¹² سورة الأعراف، الآية : 160

⁴¹³ سورة المائدة، الآية : 20

⁴¹⁴ سورة إبراهيم، الآية : 6

قال أعنيك بخطابي لا غيرك، مَن يصحَّ أن ينصرف الخطاب إليه، ألا ترى أنه إذا عري من النداء صلح لكل مخاطب ؟

فإذا قارن النداء الأمر كان مقصوراً على صاحب الإسم الذي دخله حرف النداء، والمبالغة في التنبيه حقها أن تكون في الأهم الأعم نفعاً. وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ احْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يصح من يجاب عليه بجوابين :

أحدهما : أن يقال لما نبههم على ما خصهم به من الإكرام ليشكروه على هذه النعم العظام بأن جعل فيهم أنبياء مقيمين بين ظهرائهم يدعونهم إلى طاعة ربهم و يثنون أعتهم عن المحظور من شهواتهم، و أن جعلهم ملوكاً حيث أغناهم بما أنزله عليهم من المنّ و السّلوى عن الحاجة إلى الناس في إلتماس الرزق من أمثالهم، و تكليف خدمتهم و أعمالهم و ما ملكهم من المال و العبيد و الإماء الذين كانوا يخدمونهم و يكفونهم ما يحتاجون إلى مباشرته بأنفسهم، و المنّة عليهم في هذا المكان، أشرف ما يخوّله الإنسان من النبوة التي لها أشرف منازل الثواب، و الملك الذي هو غاية ما تسمو إليه الهمم في دار التكليف فنبهوا بأبلغ الألفاظ ليقوموا بشكر ما عليهم من الإنعام، و الآية التي في سورة إبراهيم - عليه السلام - تنبيه على ما صرف عنهم من البلاء، و ليس هو كالتنبيه على تخويل أشرف العطاء من صرف البلاء.

و جواب ثان : و هو أنّ المنّ و السّلوى ممّا لم ينعم به على أحد قبلهم و لا بعدهم، فلذلك قال و آتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين، فلمّا نبّهوا على شكر نعمة خصّوا بها دون الناس كلّهم، كانت المبالغة في ذلك أولى.

و جواب ثالث و هو أن يقال : لما جعل الخطاب بعد قوله : يا أهل الكتاب في آيتين، و صدر المخاطبات نبه فيها المخاطبين بمناداتهم فيما حكى من أقوالهم كقوله تعالى بعابه : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ احْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾⁴¹⁵، و قوله : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ﴾⁴¹⁶، و بعده قالوا : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا

⁴¹⁵ سورة المائدة، الآية : 21

⁴¹⁶ سورة المائدة، الآية : 22

حَامُوا فِيهَا»⁴¹⁷ ، و بعد قوله : ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾⁴¹⁸ ، كان الاختيار أن يجري مجرى نظائره المتقدمة والمتأخرة، و لم يكن شيء من ذلك في الآية التي في سورة ابراهيم - عليه السلام - فلم يذكر هناك يا قوم لهذا⁴¹⁹.

و ما ذكره الإسكافي ههنا أشار إليه الكرمانلي في برهانه و أبو يحيى زكريا الأنصاري في فتح الرحمن، و لكنهما لم يفصّلا القول في ذلك كما فصّله الإكافي، فلقد وجدنا أن كلّ آية خصّها بالدراسة أوفاهما حديثا، و أعطاهما تعليلات متباينة، و الغرض من تكرار هذا النداء ليست فائدته طلب الإقبال ، و إنما الفائدة من وراءه هي التخصيص.

و ممّا تكرّر من قصّة موسى - عليه السلام - قوله تبارك و تعالى في سورة الزّحرف : ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَخَافُ يَوْمَ يُبَيَّنُّ⁴²⁰﴾ ، و هذا لا نجده إلا في هذه السورة و شمل إيجازها على معان كثيرة إذ حدّثنا القرآن عن بعضها في مواضع أخرى، و نجد نفس المناسبة تتكرّر في سورة الدّخان " و هي ضرب المثل بموسى - عليه السلام - لتسليّة قلب النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم لكنّ هذه السورة حملت معان جديدة لم تذكر في سورة الزّحرف، قال تبارك و تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَوُجُوهِمْ يَزْهَوْنَ مِنْهَا حَمِيمٌ وَقَدْ جِئُوا فِيهَا بِالْخَمِيرِ⁴²¹﴾ ، و نلاحظ أنّ ما جاء هنا كان منسجما تماما على أهل مكّة بجمّل في ثناياها التهديد و الوعيد كما يطمئنّ الرّسول صلّى الله عليه و سلّم و المؤمنين⁴²² . و سائر ما ذكره تبارك و تعالى في سورة و لم يذكر في أخرى ليس من الاختلاف الذي يعاب، و إنّما هو اختلاف ينبئ عن قدرة جليّة تنقطع أمامها أنفاس الموهوبين و تتجمّد بسماعها الحياة في عروق الطّلبة المتمكّنين من البلاغة و البيان.

⁴¹⁷ سورة المائدة، الآية : 24

⁴¹⁸ سورة المائدة، الآية : 25

⁴¹⁹ الخطيب الإسكافي " درّة التّنزيل و غرة التّأويل"، ص : 97، 98

⁴²⁰ سورة الزّحرف، الآيتان : 51، 52

⁴²¹ سورة المائدة، من الآية : 25 إلى 28

⁴²² ينظر: منار الإسلام - العدد السّابع، السنة الخامسة ، رجب 1400 هـ. مايو جوان 1980، المطبعة العصريّة، الإمارات العربيّة المتّحدة،

و هكذا يتّضح أنّ القصص القرآني حين يكرّر الحادثة لا يذكرها كاملة في كلّ موضع،
و إنّما يذكر جزء منها في موطن، و يذكر آخر في موطن ثان بمعنى أنّ " أن الغرض الديني هو
الذي يملّي إعادة القصّة و لكنّها في هذه الإعادة تلبس أسلوبا جديدا و تخرج إخراجا جديدا
يناسب السياق الذي قيلت فيه و تهدف إلى هدف خاصّ لم يذكر في مكان آخر حتّى كأننا أمام
قصّة جديدة لم نسمع بها من قبل".⁴²³

و لعلّ الباقلاني في مؤلّفه " إعجاز القرآن " قد بيّن كيف أعيدت حلقات من قصّة موسى
- عليه السلام - على طرق عديدة و وجوه مختلفة، و فواصل متنوّعة مع اتّفاق في المعنى لينبّه
العرب على عجزهم، و يظهر الحجّة عليهم⁴²⁴ و لهذا قال تبارك و تعالى : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
مِثْلِهِ﴾⁴²⁵، و هذا تحدّ واضح لأولئك الذين قالوا بأنّ القرآن من عند محمّد و ليس من عند الله
و يشير الرّماني هو الآخر إلى تكرار قصّة موسى و يذكر السبب الذي من أجله كرّرت حيث
يقول : "أمّا تصريف المعنى في الدلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصّة، منها قصّة
موسى - عليه السلام - ذكرت في سورة الأعراف و في طه، و الشعراء، و غيرها لوجوه من
الحكمة : منها التصرّف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، و منها تمكين العبرة و الموعظة
و منها حلّ شبهة في المعجزة..."⁴²⁶

و لما كانت فطرة القلب البشري تحتاج إلى تكرار التنبية، لأنّه ينسى إذا بعد الزّمن و طال
الأمد، كان التّكرار ليثبت العقائد و الحقائق في النفوس، كما أنّ الإنسان قد يستقبح الشّيء بادئ
الأمر حتّى إذا ما تكرّر وقوعه أو ذكره زال ذلك القبح و قلّت نسبة الثّورة عليه.

و من الأسرار الأخرى لتكرار قصّة موسى - عليه السلام - ما ذكره محمود السيّد حسن
في رسالته حين قال : " و يسوغ لنا في هذا الصّدّد أن نشير إلى الحكمة من تكرير أقاصيص بني
إسرائيل في القرآن حيث يتبيّن لنا وجوه من المقاصد :

⁴²³ بكري شيخ أمين " التعبير الفني في القرآن "، ص : 220.

⁴²⁴ الباقلاني أبي بكر عمّد بن الطيب " إعجاز القرآن "، تحقيق السيّد : أحمد سقر، دار المعارف، مصر، ط : 3، د.ت، ص : 270.

⁴²⁵ سورة الطّور، الآية : 34

⁴²⁶ الباقلاني أبي بكر عمّد بن الطيب " إعجاز القرآن "، ص : 272.

أحدها : الدلالة على صحّة نبوّة محمد صلى الله عليه و سلّم، لأنّه أخير عنها من غير تعلّم
و ذلك لا يمكن إلّا بالوحي.

الثاني : تعديد النعم على بني إسرائيل، و ما منّ الله على أسلافهم من الكرامة و الفضل
كالنّجاة من آل فرعون، و فرق البحر لهم و ما أنزل عليهم في التّيه من المنّ و السّلوى و تفجّر
الحجر و تظليل الغمام.

الثالث : إخبار الله نبيّه بتقديم كفرهم و خلافهم و شقاوتهم و تعنتهم على الأنبياء: فإنّه
تعالى يقول : إذا كانت هذه معاملتهم مع نبيّهم الذي أمرهم الله به، و أنقذهم من العذاب بسببه
فغير بدع ما يعامله به أخلافهم محمد صلى الله عليه و سلّم.

الرّابع : تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمن النّبيّ صلى الله عليه و سلّم من نزول
العذاب بهم كما نزل بأسلافهم⁴²⁷.

و الذي يقرأ قصّة موسى - عليه السلام - و يتتبعها فيما وردت فيه من سور يدرك الطّابع
الفريد الذي يتميّز به القرآن الكريم، و يرى التّحدّي و الإعجاز بارزين لا غبار عليهما، فكيف
تكرّر الحادثة الواحدة مرّات عديدة و في كلّ مرّة نجد أنفسنا متشوّقين لها و كأنّنا نقرأها لأوّل مرّة
حيث لا سؤم و لا ملل ينتابنا.

⁴²⁷ محمود اليد حسن " روائع الإعجاز في القصص القرآني دراسة في خصائص الأسلوب القصصيّ المعجز، ص : 146 . 147.

خاتمة

بعد هذه المسيرة المضنية، مع هذا البحث الذي أخذ مني كلّ جهدي في متابعة حقائق علمية حواها أسلوب التكرار في القصّة القرآنية، يجوز لي أن أسجّل هذه النتائج التي أجمّلها فيما يأتي :

أولاً: إنّ مقاصد الخطاب في أسرار اللغة العربية، زينها الأسلوب القرآني في أروع القصص، وأن التكرار في القصّة ضرب من ضروب البلاغة البيانية التي تتعدّد و تنوّع دون أن يصيبها اعتوار و اضطراب تعبيريّ، و إنّما تزداد جمالا في سرد الحدث، و في روعة القصّ.

ثانياً : من أسرار الخطاب القرآني أنّه إذا ما توجّه إلى العرب و الأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة و الحذف، وإذا توجّه بالخطاب إلى بني إسرائيل أو قصّ عنهم، علما بأنهم قوم لا سليقة لهم و لا بيان، اعتمد التكرار و البسط و الشرح و التفصيل كما أنّ التكرار في القرآن الكريم أكثر ورودا في مخاطبة المكّيين، و قد كان هؤلاء عندا غلاظا، و هم في الوقت نفسه أقوى العرب فهما و ذكاء، و لذا فإنّ مقامهم يتطلّب قولاً مناسباً فيه التذكير و التكرير.

ثالثاً : إنّ من فائدة التكرار في القصص القرآني أنّ القرآن الكريم نفسه كتاب هداية و دعوة و تبليغ، و أنّ ما جاء في سوره و آياته من إشارات كونية، و مبادئ العلوم المختلفة، إنّما هي فوق النظريات، لأنّها حقائق مؤكّدة و موجزة، فإنّ أسلوبه مبين لكلّ ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطاباتهم، فكان التكرار لتوكيد الزجر و الوعيد، و بسط الموعظة، أو لتحقيق النعمة إقتضاء شكره، و إن كان العرب لا يذهبون إليه إلّا في مواطن التهويل و التخويف و التفجع، و ما يناسبها من الأمور العظيمة.

و قد غفل عن هذا المعنى كثير من المتكلّمين و لم يتفطّنوا إلى أنّ التكرار لا يمسّ القصّة القرآنية برمتها، و إنّما بعض حلقاتها بأسلوب نادر، و تعبير دقيق يحملنا إلى الإنسجام معها، و كأننا نسمعها لأوّل مرّة، و أنّه لا يراد به الإعجاز البياني بقدر ما يراد به التأثير النفسي، و أنّه يرمي إلى تثبيت السنن في النفس و القلب من أجل تقوية العقيدة الصحيحة، كما أنّه ير ممي إلى بيان وحدة الأديان، و وحدة الدّعوة و إلى تشابه أقوام الرّسل و مواقفهم.

رابعاً : إنّ القصد من التكرار، لفظاً و معنى في القصة القرآنية عامة و قصة موسى خاصة، هو تحسيسهم أنّ ما كلّفوا بتبليغه إنّما هو صادر عن إله واحد على اعتبار أنّ التوحيد يشترك فيه الأنبياء جميعهم. و من هنا يتّضح لنا أنّ التكرار في القصة القرآنية قد ارتفع عن المنهج الإنساني في فنية القصة و دوران أحداثها، فكان أروع و أبلغ من الفصحاء من أهل اللغة الذين رأوا فيه جنساً من الكلام لم تعهده ألسنتهم، و لم تألفه طباعهم. فالمقام في التكرار في قصة موسى مقام تعجيز و تحدّ للناس، كفّاراً كانوا أو مسلمين، هذا على أنّ فيه من المعاني الكثيرة و الأغراض المتعددة ما يتحقّق به الإعجاز، و لو كان من وضع الإنسان لما خالف أساليب العرب القدامى و المحدثين، و لما سلم من الركاكة و الابتذال.

خامساً : إنّ في تكرار قصة موسى - عليه السّلام - وجوه من الحكمة منها التصرف في البلاغة، و منها تمكين العبرة و الموعظة في النفوس، و حلّ الشّبه التي كان المشركون يواجهون أنبياءهم بها.

سادساً : من الأسرار الجليّة لتكرار قصة سيّدنا موسى - عليه السّلام - أنّه أرسل إلى فئتين ركبت كلّ منهما فرس العناد و الطّغيان، فإقتضى الأسلوب القرآني أن يرسم الخطاب على تكرار الحوار مع مخاطبة الجمع و هم فئة قومه بنو إسرائيل الذين خالفوه في غيابه بعدما حقّق لهم بمشيئة ربّه كلّ ما كانوا يطمحون إليه، و عقد تكرار الحوار بمخاطبة المفرد و هو فئة فرعون الطّاغية الذي علا في الأرض، و جعل أهلها شيعاً، و راح يستضعفهم و هو الجبار العاتي، فأخذه الله و قومه أخذ عزيز مقتدر، بعذاب عظيم جزاء كفرهم و عنادهم.

سابعاً : من الإعجاز القرآني في هذا المجال أنّ المرء يزداد تشوّقاً لهذه القصة على الرّغم من كثرة تكرارها في القرآن، و هذا ما يعجز عنه كلّ كاتب بشري، مهما أوتي من أسباب النّبوغ و دلائل الإبداع في الفنّ القصصيّ، أن يعيد على مسمعك قصة واحدة أربع أو خمس مرّات دون أن ينحرف أسلوبها في الإيحاء و الإيقاع و جمال الأسر، و دون أن يلحق بمضمونها أدنى مسرّ أو تغيير في مقامات تكرارها ضمن هذه المرّات جميعها.

ثامناً : لعلّ هذه الدّراسة في أسلوب التكرار في القصة القرآنية و غيرها، و ما هذه المحاولات الرّامية إلى دراسة لغة القرآن و الكشف عن خباياها و أسرارها؛ إلّا عمليّة من عمليّات البحث عن دلائل الإعجاز في الأسلوب القرآني.

وإنني قد اجتهدت في هذا الموضوع بمقدار ما وجدت، وفهمت، وكيف أدعي لنفسي
الإصابة و البلوغ في بلاغة القرآن التي صنعها امتناع الوجود في غير الأسلوب الرباني الذي شمله
التحدي المطلق : ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .
فهل سينتهي تكرار البحث العلمي على مرّ الزمن كما لا تنتهي دلائل الإعجاز في أسلوب
التكرار في القرآن الكريم ؟

قائمة المصادر والمراجع

- أ- القرآن الكريم : المصحف الشريف برواية حفص
ب- صحيح البخاري: ضبطه و رقمه و ذكر تكرار مواضعه و شرح ألفاظه و جملة و خرج
أحاديثه في صحيح مسلم، و وضع فهرسه مسلم، و وضع فهرسه
الدكتور : مصطفى دين البغا، دار الهدى للطباعة و النشر التوزيع، عين
مليلة، الجزائر، د.ط، 1992، ج: 5.
ج- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، 1943م، ج: 2 .

أولا : الكتب :

- 1- ابن الأثير، ضياء الدين "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" تحقيق الدكتور : أحمد الحوفي
و الدكتور : بدوي طبانة، دارالرفاعي للنشر و الطباعة و التوزيع، ط : 2، 1984،
ج : 3.
2- ابن بدوي، عبد العظيم "الوجيز في فقه السنة و الكتاب العزيز" ، قدم له الشيخ محمد صفوت
نور الدين، و الشيخ محمد صفوت السوداني، نشر الإمام مالك، مصر، ط : 2،
1417 هـ. 1996م.
3- ابن ثابت، حسان "الديوان"، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ط، 1331 هـ.
4- ابن جني، أبو الفتح عثمان "الخصائص"، حققه : محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة
و النشر، بيروت . لبنان، د.ط، د.ت، ج : 1، 2، 3.
5- ابن عاشور، الطاهر "تفسير التحرير و التنوير"، المقدمة السابعة، الدار التونسية للنشر ،
د.ت، ج: 1.
6- ابن العربي، أبو بكر "أحكام القرآن"، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط : 1، 1408 هـ.
1988 م، القسم الثالث.

7- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله "شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، د.ط، 1394 هـ. 1974 م، ج : 3، مج : 3.

8- ابن علي التنوخي، القاضي أبي علي المحسن (م : 384 هـ) "الفرج بعد الشدة"، تحقيق : عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، د.ط، 1398 هـ. 1978 م.

9- ابن فارس، أبو الحسين أحمد "الصّاحي في فقه اللغة العربيّة و مسائلها و سنن العرب في كلامها"، بحقه و ضبط نصوصه و قدم له الدكتور : عمر فاروق الطّباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط: 01، 1414 هـ. 1993 م.

10- ابن فارس "معجم مقاييس اللغة"، مادة (أكّد، وكّد)، تحقيق : عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979 م.

11- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم "تأويل مشكل القرآن"، شرحه و نشره السيد : أحمد صقر، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت.

12- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم "تفسير غريب القرآن"، تحقيق السيد : أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، د.ط، 1398 هـ. 1978 م.

13- ابن كثير، الحافظ عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل "البداية و النهاية"، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، د.ط، 1410 هـ. 1990 م.

14- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل "تفسير القرآن العظيم"، دار و مكتبة الهلال، بيروت. لبنان، ط: 01، 1410 هـ. 1990 م.

15- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل "قصص الأنبياء"، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، د.ط، 1401 هـ. 1981 م.

16- ابن مالك الأندلسي، محمد بن عبد الله "ألفية ابن مالك في النحو و الصرف مع إعراب مفرداته"، إعداد و إخراج : دار ابن خزيمة للنشر و التوزيع، الرياض، ط : 1، 1414 هـ.

17- ابن مالك "تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد"، حققه و قدمه له : محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، د.ط 1388 هـ. 1968 م.

- 18- ابن النازم، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن الإمام العلامة جمال الدين محمد بن مالك صاحب الألفية "شرح ألفية ابن مالك"، منشورات ناصر خسرو، بيروت. لبنان، د. ط، د. ت.
- 19- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم "لسان العرب"، دار صادر، بيروت، ط : 3، 1414 هـ. 1994 م، المجلد الثالث.
- 20- ابن النازم "شرح ألفية ابن مالك"، تحقيق و ضبط و شرح الدكتور عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت. لبنان، د. ط، د. ت.
- 21- ابن هانئ "الديوان"، دار صادر، بيروت، 1362 هـ. 1975 م.
- 22- ابن يعيش "شرح المفصل"، عالم الكتب، مكتبة المتنبى، القاهرة، د. ط، د. ت.
- 23- أبو تمام "الديوان"، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق : محمد عبده عزام، دار المعارف، د. ط، 1964 م، مج : 1.
- 24- أبو تمام "الديوان"، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق : محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط : 05، د. ت.
- 25- أبو تمام "ديوان الحماسة"، شرح العلامة التبريزي، مكتبة النوري، دمشق، د. ط، د. ت، ج: 2.
- 26- أبو الجندي، خالد أحمد "الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها وأسس بنائها"، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة، الجزائر، د. ط، د. ت.
- 27- أبو حجاج، محمد ناصر "أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث" (1925م - 1976م)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري، إشراف الدكتور : محمد ناصر، 1406 هـ. 1407 هـ الموافق لـ 1986 م - 1987 م.
- 28- أبو حمدان، سمير "الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت. لبنان، ط : 1، 1991 م.
- 29- أبو ديب، كمال "في البنية الإيقاعية للشعر العربي"، دار العلم للملايين، بيروت، ط : 2، 1981 م.
- 30- أبو زهرة، الإمام محمد "المعجزة الكبرى" القرآن، كتابته، جمعه، إعجازه، جدله، علومه، تفسيره حكم الغناء به، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت.

- 31- أبو عبيد، محمد فهميم "قطوف من النحو"، د.د، بيروت، د.ط، 1979 م.
- 32- أبو موسى، محمد محمد "البلاغة القرآنية" في تفسير الزمخشري و أثرها في الدراسات البلاغية"، دار التضامن، ط: 2، 1408 هـ . 1988 م.
- 33- أبو نواس "الديوان"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.
- 34- أحمد، الصاوي "حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين"، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، مج : 3
- 35- الأستربادي، رضي الدين "شرح الكافية في النحو" دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، 1982م، ج : 1.
- 36- الإسكافي ، الخطيب "درة التنزيل و غرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز" برواية : ابن أبي الفرج الأردستاني، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط : 4، 1401 هـ . 1981 م.
- 37- الإشيلي، ابن عصفور "شرح جمل الزجاج"، الشرح الكبير، تحقيق الدكتور : صاحب أبو جناح، د.ط، د.ت، ج : 1.
- 38- الأصبهاني، أبو الفرج "الأغاني"، تحقيق و إشراف: لجنة من الأدباء، دار الثقافة، بيروت. لبنان، ط : 6، 1404 هـ. 1983 م، ج : 9.
- 39- الأصبهاني، الراغب "المفردات في غريب القرآن"، تحقيق : محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 40- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد "الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، البصريين و الكوفيين"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط : 4، 1380 هـ. 1961 م.
- 41- الأندلسي، ابن عبد ربه "العقد الفريد"، شرحه و ضبطه و صححه : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، القاهرة، ط : 2، 1372 هـ. 1952 م، ج : 3.
- 42- الأنصاري، ابن هشام "شرح قطر الندى و بل الصدى" سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر الندى تأليف : محمد محي الدين عبد الحميد، دار رحاب للطباعة و النشر، د.ط، د.ت.

- 43- الأنصاري، أبو يحيى زكريا "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن"، حققه و علق عليه الشيخ محمد علي الصابوني، د.د، الجزائر، د : 2، 1408 هـ. 1988 م.
- 44- الأعشى "الديوان"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.
- 45- امرؤ القيس "الديوان"، دار بيروت، للطباعة و النشر، بيروت د.ط، 1392 هـ. 1972 م
- 46- امرؤ القيس، ابن حجر الكندي "الديوان"، لأبي الجحاج بن يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنترى، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، د.ط، 1394 هـ . 1974 م.
- 47- أمين بكري شيخ "التعبير الفني في القرآن"، دار الشروق، ط : 4، 1400 هـ . 1980 م.
- 48- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب "إعجاز القرآن"، تحقيق السيد : أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط : 3، د.ت..
- 49- البحري "الديوان"، عني بتحقيقه و شرحه و التعليق عليه : حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، د.ط، 1963 م، انجلد الثاني.
- 50- البحري "الديوان"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، المجلد الأول.
- 51- البستاني، محمود "دراسات فنية في قصص القرآن"، دارالبلاغة للطباعة و النشر و التوزيع، ط: 1، 1409 هـ. 1989 م.
- 52- بشير، عبد العالي "توظيف القصص الشعبي في القصيدة العربية الحديثة في المشرق"، رسالة ماجستير، 1992 م. 1993 م.
- 53- البغدادي، ابن السراج "الأصول في النحو"، تحقيق الدكتور: حسين الفضلي، د. د، ط : 1، 1405 هـ. 1985 م، ج : 3.
- 54- البغدادي، عبد القادر ابن عمر "خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب"، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، 1388 هـ. 1968 م، ج:3
- 55- بلعيد، صالح "التركيب النحوية و سياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994 م.
- 56- بناني، محمد الصغير "النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين"، الجزائر، د.ط، 1983 م.

- 57- البوطي، محمد سعيد رمضان "من روائع القرآن" تأملات علمية و أدبية في كتاب الله عزّ و وجلّ، مكتبة الفارابي، دمشق، د.ط، د.ت.
- 58- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب "شرح ديوان الحماسة"، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، د.ط، د.ت، ج : 1
- 59- التومي، محمد "المجتمع الإنساني في القرآن الكريم"، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط: 2، 1990.
- 60- التونجي، محمد "المعجم المفصل في الأدب"، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط: 1، 1413هـ. 1993 م، ج : 1.
- 61- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر "البيان و التبيين"، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ج: 1
- 62- الجاحظ، أبو عثمان "البيان و التبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط : 1، 1408هـ. 1988م، المجلد الثالث.
- 63- الجاحظ، أبو عثمان "الحيوان"، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت . لبنان، 1388 هـأ. 1969 م، ج : 1
- 64- جاد المولى، محمد أحمدو آخران "أيام العرب في الجاهلية"، منشورات المكتبة العصرية، صيدا. بيروت، د.ط، 1942 م.
- 65- الجرجاني، عبد القاهر "دلائل الإعجاز"، قرأه و علق عليه : أبو فهر محمد شاكر، مطبعة المدينة بالقاهرة، دار المدني بجدة، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ط : 3، 1413 هـ. 1992م.
- 66- الجوزية، ابن القيم "الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان"، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت.
- 67- جیده، عبد الحميد "الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر"، مؤسسة نوفل، بيروت، ط: 1، 1980م
- 68- حافظ، عماد زهير "القصص القرآني بين الآباء و الأبناء" دار القلم، دمشق، د.ط، 1410 هـ. 1990 م.
- 69- الحاوي، إيليا "شرح ديوان أبي تمام"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط : 1، 1981 م.

- 70- حجازي، محمد محمود "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط : 3، د.ت
- 71- حسان، تمام "اللغة العربية معناها و مبناها"، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت
- 72- حسن، محمود السيد "روائع الإعجاز في القصص القرآني"، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، ماجستير في الآداب، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د.ط، د.ت
- 73- الخطيئة "الديوان"، رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي و أبي عمرو الشيباني، شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، د.ط، 1387 هـ . 1967م
- 74- الحلبي، صفى الدين "الديوان"، تحقيق الدكتور ، نسيب نشاوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1989م
- 75- الحلبي، صفى الدين "شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع"، تحقيق الدكتور: نسيب نشاوي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1989م
- 76- الحمصي، محمد حسين "تفسير و بيان القرآن الكريم أسباب النزول للسيوطي"، ماجستير في الشريعة من الأزهر ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، د.ط، د.ت
- 77- حنفي، عبد الحليم "أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط : 2، 1985 م.
- 78- حوى، سعيد "الأساس في التفسير"، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع ، ط: 4، 1414هـ. 1993 م، المجلد الأول.
- 79- الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط : 2، 1968 م
- 80- الخطيب، عبد الكريم "إعجاز القرآن"، دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية و معاييرها"، ملتزم الطبع و النشر، دار الفكر العربي، ط : 2، 1974 م
- 81- الخطيب، عبد الكريم "القصص الثراني في منطوقه و مفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم و يوسف"، دار الفكر العربي مطبعة المدني، القاهرة، د.ط، د.ت.

82- خلف الله، محمد أحمد "الفن القصصي في القرآن الكريم"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط : 3، 1965 م.

83- الخنساء "الديوان"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت

84- خنفرى، عبد الباقي "لامية العرب"، أونشيد الصحراء لشاعر الأزد الشنفرى، دار النخلة، ط: 1، د.ت

85- الراجحي، عبده "التطبيق النحوي"، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، د.ط، 1979م

86- الرازي، فخر الدين "التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 3، د.ت، ج: 2.

87- الرازي، فخر الدين "عصمة الأنبياء"، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط : 1، 1401هـ. 1981م

88- الرازي، فخر الدين "من أسرار التنزيل"، تحقيق : عبد القادر أحمد عط، الناشر : دار المسلم، د.ط، د.ت

89- الرافعي، مصطفى صادق "إعجاز القرآن و البلاغة النبوية"، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت.

90- رسلان، صلاح بسيوني "القرآن الحكيم"، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، د.ط، 1985م.

91- رشتي، أحمد جيهان "الأسس العلمية لنظريات الإعلام"، د.د، القاهرة، د.ط، 1975م

92- رضا، أحمد "معجم متن اللغة" مؤسعة لغوية حديثة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. لبنان، 1380 هـ. 1960م.

93- الزبيدي، محمد مرتضى "تاج العروس من جواهر القاموس"، دار مطبعة الحياة ، بيروت. لبنان، د.ت، ج : 4

94- الزجاج، أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم "الأمل في المشكلات القرآنية و الحكم و الأحاديث النبوية"، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت

95- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله "البرهان في علوم القرآن"، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط: 1، 1988م : ج: 3

96- الزفزاف، محمد "التعريف بالقرآن و الحديث"، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط : 2، 1400 هـ. 1980 م

97- الزمخشري ، جاز الله أبس القاسم محمود بن عمر "أساس البلاغة"، تحقيق الأستاذ : عبد الرحيم محمود، عرف به الأستاذ الكبير : أمين الخولي، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت. لبنان، د.ت.

98- الزمخشري "الكشاف"، تحقيق و تعليق : محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط : 2، 1397 هـ. 1977 م.

99- الزمخشري "المفصل في علم العربية"، دار الجليل، بيروت. لبنان، ط : 2، د.ت.

100- الزوزني "شرح المعلقات السبع"، مكتبة المعارف، د.د، بيروت. لبنان، د.ط، 1408 هـ. 1988 م.

101- سالم، أحمد موسى "قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية و المسرح"، دار الجليل، بيروت، د.ط، د.ت.

102- سبيتي، مصطفى "شرح ديوان أبي الطيب المتنبي"، دار الكتب العلمية، لبنان، ط : 1، 1406 هـ- 1986 م، ج : 2

103- سديد، محمد "منهج القرآن في التربية"، مؤسسة الرسالة، حقوق الطبع محفوظة، بيروت. لبنان، بيروت. لبنان، د.ط، 1402 هـ. 1982 م.

104- السكاكي، محمد بن علي "مفتاح العلوم"، تحقيق الدكتور : أحمد مطلوب، دار اكتب العلمية، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت

105- سلام، محمد زغلول "أثر القرآن في تطور النقد العربي"، دار المعارف، مصر، د.ط، 1961 م.

106- سلام، محمد زغلول "أثر القرآن في تطور النقد العربي"، قدم له الأستاذ : محمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط : 2، 1962.

107- سليمان، عشتري "أدبية الخطاب القرآني"، رسالة دكتوراه، د.ط، 1991 م.

108- سبيويه "الكتاب"، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، ط : 1، 1411 هـ. 1991، ج : 1

109- السيوطي، جلال الدين "الإتقان في علوم القرآن" و بهامشه كتاب إعجاز القرآن للإمام القاسمي أبي بكر الباقلاني، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، د.ط،

د.ت، ج : 2

- 110- السيوطي، جلال الدين "الأشباه و النظائر في النحو"، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت، المجلد الأول.
- 111- السيوطي، جلال الدين و المحلي جلال الدين "تفسير الإمامين الجليلين"، حققه و نسقه الشيخ : محمد الصادف القمحاوي، مكتبة رحاب الجزائر، د.ط، د.ت.
- 112- السيوطي، جلال الدين "معترك الأقران في إعجاز القرآن"، تحقيق: علي محمد الصاوي، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت، المجلد الأول.
- 113- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين "همع الهوامع"، عني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة للطبع و النشر، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت
- 114- الشَّاروني، يوسف "دراسات في القصة القصيرة"، د.د، ط : 1، 1989م.
- 115- شرَّاب، محمد محمد حسن "معجم الشوارد و النحوية و الفوائد اللغوية"، دار المأمون للتراث، ط : 1، 1411 هـ. 1990م.
- 116- الشَّرباطي، أحمد "يسألونك في الدين و الحياة"، دار الجيل ، بيروت، ط: 4، 1980م.
- 117- الشَّوكاني، محمد. بن علي بن محمد "فتح القدير، الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير"، دار المعرفة ، بيروت. لبنان ، ط: 3، 1417 هـ. 1997م، ج: 2.
- 118- شولز ، روبرت مؤلف مؤلف البنيوية في الأدب "عناصر القصة"، ترجمة عن الإنجليزية : محمود منقذ الهاشمي ، دار طلاس للدرؤاسات و الترجمة و النشر، ط : 1، 1988.
- 119- شيخون، محمد السيد "الإعجاز في نظم القرآن"، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط : 1، 1398 هـ. 1978 م.
- 120- الصَّابوني، محمد علي "إعجاز البيان في سور القرآن"، مكتبة رحاب، الجزائر، د.ط، 1963.
- 121- الصَّاوي، الجويني مصطفى "البلاغة العربية تأصيل و تحديد"، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1985 م.
- 122- الصَّبَّاح، محمد علي بن لطف "لمحات في علوم القرآن"، المكتب الإسلامي، بيروت، ط : 2، 1986م.
- 123- صَبَّاح، محمد علي "البلاغة الشعريّة في كتاب البيان و التبيين للجاحظ"، إشراف و مراجعة د: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، د.ت.

- 124- طالب عبد الرحمن "التربية من خلال القرآن الكريم"، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، إشراف الدكتور ، محمد طالي، 1987م.
- 125- الطاهر، قطبي "الإستفهام بين النحو و البلاغة"، جامعة حلب، رسالة ماجستير، مخطوط من قسم اللغة العربية، كلية الآداب، 1987م.
- 126- طّبارة، عفيف عبد الفتاح "مع الأنبياء في القرآن الكريم"، قصص و دروس و غير من حياتهم، دار العلم للملايين، ط : 5، د.ت.
- 127- الطّبري، أبو علي الفضل بن الحسن "مجمع البيان في تفسير القرآن"، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت، مج : 11، ج : 25.
- 128- عبّاس، فضل حسن "القصص القرآني إبحاؤه و نفحاته"، شركة الشّهاب للنشر و التوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت.
- 129- عبد الباقي، محمد فؤاد "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، دالر الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، دار المعرفة، بيروت. لبنان، ط : 4، 1414هـ . 1994 م.
- 130- عبد ربّه، السيّد عبد الحافظ "بحوث في قصص القرآن"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط : 1، 1988 م.
- 131- عبد العزيز، أمير "دراسات في علوم القرآن"، دار الشّهاب للطباعة و النشر، القاهرة. الفجالة، د.ط، 197.
- 132- عبد القادر، حسن "أثر النّحاة في البحث البلاغي"، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة، الفجالة، د.ط، 1970 م.
- 133- عبد المطلب محمد "أدبيات البلاغة و الأسلوبية"، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط: 1، 1994 م.
- 134- عتيق، عبد العزيز "في البلاغة العربية علم المعاني، البيان، البديع"، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، د.ط، د.ت.
- 135- العسكري، أبو هلال "الصّناعتين" الكتابة و الشعر، تحقيق : علي محمد الجاوي، محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، ط : 2، د.ت.
- 136- العلوي، يحيى بن حمزة "الطراز"، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1322 هـ . 1914 م.

137- العمري، أحمد جمال "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، نشأتها و تطورها حتى القرن السابع الهجري، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، د.ط، 1410 هـ. 1990.

138- عنزة "الديوان"، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، د.ط، 1398 هـ. 1978 م.

139- عنزة "الديوان"، قام بتحقيقه شرحا و تقييما و تحديثا الأستاذ : خليل شرف الدين، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط : 1، 1988 م.

140- العيسى، سليمان "موجز ديوان المتنبي"، شرح اليازجي، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، د.ط، د.ت.

141- الغزالي، محمد "نظرات في القرآن"، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة، الجزائر، د.ط، د.ت.

142- الفاكهي، جمال الدين عبد الله بن أحمد بن علي بن محمد "شرح الحدود النحوية"، تحقيق الدكتور : محمد الطيب ابراهيم، دار النفائس، بيروت. لبنان، ط : 1، 1417 هـ. 1996 م.

143- الفاندي، سالم "من مظاهر الإعجاز القرآني"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عزيان، الجماهيرية العظمى، 1992 م، العدد التاسع.

144- الفراء، أبو زكرياء يحيى بن زياد "معاني القرآن"، عالم الكتب بيروت، ط : 2، 1980 م.

145- فضل الله، محمد حسين "الحوار في القرآن"، قواعده، أساليبه، معطياته، دار المنصوري للنشر، الجزائر، د.ط، 1396 هـ، ج : 121.

146- الفضلي، عبد الهادي "مختصر النحو"، دار الشروق للنشر و التوزيع و الطباعة، جدة، ط : 13، 1408 هـ، 1988 م.

147- فهمي، مصطفى "الدوافع النفسية"، دار مصر للطباعة و النشر، مصر، د.ط، د.ت.

148- فيود، بسيوني عبد الفتاح "من بلاغة النظم القرآني"، د.د، ط : 1، 1413 هـ. 1992 م.

149- القرشي، ابن عبد الربيع عبد الله "البسيط في شرح جمل الزجاجي"، تحقيق و دراسة الدكتور : عباد بن عبد السيقي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان، ط : 1، 1407 هـ. 1986 م.

- 150- القرشي، أبو زيد بن محمد بن أبي الخطاب "جمهرة أشعار العرب"، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1400 هـ. 1980 م.
- 151- القرطاجني، أبو الحسن حازم "منهاج البلغاء و سراج الأدباء"، تقديم و تحقيق : محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط : 2، 1981 م.
- 152- القزويني، الخطيب "الإيضاح في علوم البلاغة"، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
- 153- القزويني، الخطيب "التلخيص في علوم البلاغة"، ضبطه و شرحه الأستاذ : عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت.
- 154- القطّان، مناع "مباحث في علوم القرآن"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط : 15، 1985 م.
- 155- قطب، سيّد "التصوير الفني في القرآن"، دار الشروق، ط : 4، 1400 هـ. 1982 م.
- 156- قطب، سيّد "في ظلال القرآن"، دار الشروق، ط : 10، 1402 هـ، 1982 م.
- 157- القيرواني، ابن رشيّق "العمدة في محاسن الشعر و آدابه"، تحقيق : محمد قزقزان، دار المعرفة، بيروت. لبنان، د.ط، د.ت.
- 158- الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر "أسرار التكرار في القرآن"، تحقيق : عبد القدر أحمد عطا، دار الإعتصام، ط : 1، 1394 هـ، 1974 م.
- 159- الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر "البرهان في متشابه القرآن"، قدم لهو راجعه على أصوله و قوم نصوصه و بينه و عقب عليه و وضع فهرسه : أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، دار الوفاء للطباعة و النشر و الاتوزيع، المنصورة، ط : 1، 1411 هـ، 1991 م.
- 160- لاشين، عبد الفتّاح "في ضوء أساليب القرآن"، دار المعارف، مصر، ط : 1، 1976 م.
- 161- لوبون، جوستاق "روح الاجتماع"، ترجمة : أحمد فتحي زغلول باشا، تقديم : محمد السويدي، موفم للنشر، د.ط، 1988 م.
- 162- الماكودي، أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح "على متن الأجرومية"، مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 163- المبارك، مازن "الموجز في تاريخ البلاغة"، دار الفكر، دمشق، د.ط، 1400 هـ. 1979 م.
- 164- المتنبّي "الديوان"، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، د.ط، 1395 هـ. 1975 م.
- 165- المتنبّي "الديوان"، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت.

- 166- مجموعة من الكتاب "مدخل إلى مناهج النقد الأدبي"، إشراف : أحمد مشاري العدوانى، د.د، د.ط، 1923 هـ. 1990 م.
- 167- محمد، طول "البنية السردية في القصص القرآني"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991 م.
- 168- المخزومي، مهدي "في النحو العربي نقد و توجيه"، المكتبة العربية، بيروت، ط : 1، 1964 م.
- 169- مخلوف، عبد الرؤوف "الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن"، دراسة تحليلية نقدية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، 1978 م.
- 170- المدخلي، ربيع بن هادي "منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة و العقل"، قصر الكتاب، دار المعارف العلمية، الجزائر، د.ط، د.ت.
- 171- المرتضى، الشريف "عن أمالي المرتضى غرر الفوائد و درر القلائد"، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ط : 2، 1987 هـ. 1967 م.
- 172- مزازي، شارف "مستويات السرد الإعجازي في القصّة القرآنية"، مقارنة سيميائية لتحديد فاعلية السرد القرآني، بحث لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، إشراف الدكتور : سليمان عشارتي، موسم : 1995 م. 1996 م، معهد اللغة و الأدب العربي، جامعة وهران.
- 173- مصطفى، محمود السيّد حسن "الإعجاز اللّغوي في القصّة القرآنية"، ماجستير في الأدب في قسم اللغة العربية، ط : 1، جامعة الإسكندرية، 1981 م.
- 174- المطعني، عبد العظيم ابراهيم محمد "خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغية"، الناشر: مكتبة الوهبة، ط : 1، 1413 هـ. 1992 م.
- 175- المنجد في اللغة و الإعلام، منشورات دار المشرق، بيروت، 1991 م.
- 176- نجاتي، محمد عثمان "القرآن وعلم النفس"، دار الشروق، ط : 5، د.ت.
- 177- النّجار، عبد الوهّاب "قصص الأنبياء"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط : 3، د.ت.
- 178- نقرة، التّهامي، سيكلوجية القصّة في القرآن"، د.د، الجزائر، د.ط، 1971 م، الحلقة الثالثة.
- 179- النّورسي، بديع الزّمان سعيد "مجموعة عصا موسى"، دار ابن زيدون، بيروت، ط : 1، 1407 هـ. 1987 م.

180- الهاشمي، عبد الحميد محمد "محات نفسية في القرآن الكريم"، نشر و توزيع مكتبة رحاب، الجزائر، د.ط، د.ت.

181- اليازجي، ناصيف "العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

182- يعقوب، إميل بديع "المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط: 1، 1413 هـ. 1992.

ثانيا : المجلات

- 1- كلية الدعوة الإسلامية : مجلة عزيان، الجماهيرية العظمى، العدد التاسع، 1992 م.
- 2- منار الإسلام، مجلة، المطبعة العصرية. الإمارات العربية المتحدة، العدد 7، س : 5، رجب 1400 هـ. جوان 1980 م.

3- نزوى "NIZWA" : مجلة فصلية ثقافية، رئيس مجلس الإدارة سلطان بن حمد بن سعيد البوسعيدى، رئيس التحرير : سيف الرّجى، منسق التحرير ، طالب المعمرى، تصدر عن مؤسسة عمّان للصحافة و الأنباء و النشر و الإعلان، العدد : 22، أبريل 1421 هـ. 2000م.

ثالثا : المراجع باللغة الأجنبية :

1- André. Martinet « Elément de linguistique générale » .Ed. A. Colin, 1970, (El 1980), Paris, 221P, la redondance, p.179-181.

2- Mohamed Ahmed Jad Almoula- Ali Mohamed Al bajaoui. Mohamed abou Fadel Ibrahim Al Saïd chahata. Les récits du coran

traduit par Samar Hamdar- Dar el kotob al Ilmyah - Beirut-- Libanon- 1416 - 1996, 1ère édition

فهرس الموضوعات

إهداء

شكرو تقدير

مقدمة

أ

1

الفصل الأول : التكرار في الدرس اللغوي

5

I- التوكيد عند النحاة

6

أ- التوكيد اللفظي

16

ب- التوكيد المعنوي

26

الفصل الثاني : التكرار بين بلاغة العرب و الأسلوب القرآني

29

I- ما يتكرر لفظه و معناه و هو قسمان

31

القسم الأول : المفيد و هو نوعان

أ- النوع الأول : إذا كان التكرار في اللفظ و المعنى يدلّ

31

على معنى واحد ، و المقصود به غرضان مختلفان

ب- النوع الثاني : إذا كان التكرار في اللفظ و المعنى يدلّ على

34

معنى واحد و المراد به غرض واحد

45

القسم الثاني : غير المفيد

46

II- ما يتكرر معناه دون لفظه و هو قسمان

47

أ- النوع الأول : إذا كان التكرير في المعنى يدلّ على معنيين مختلفين

51

ب- النوع الثاني : إذا كان التكرير في المعنى يدلّ على معنى واحد لا غير .

54

القسم الثاني : غير المفيد

60

الفصل الثالث : شمولية التكرار في القرآن الكريم

61

I- التكرار في القرآن الكريم

61

1- صفات التوكيد

64

2- بلاغة التكرار في القرآن

71	3- أغراض التكرار في القرآن الكريم
85	4- تكرار لفظة نفس ودلالاتها في القرآن الكريم
88	5- تكرار العدد سبعة في القرآن الكريم
93	II- التكرار في القصة القرآنية
93	1- تحديد المصطلح
95	2- القصة الفنية
109	3- القصة في القرآن الكريم
114	4- نماذج من القصص المكرر
114	أ- قصة آدم - عليه السلام-
123	- المعاني المشتركة في جميع السور
129	- المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى
138	ب- قصة نوح - عليه السلام-
159	ج- قصة هود - عليه السلام -
168	د- قصة صالح - عليه السلام-
177	هـ- قصة إبراهيم - عليه السلام -
191	5- أسرار التكرار في القصص القرآني

197	<u>الفصل الرابع : التكرار في قصة موسى - عليه السلام -</u>
198	1- ملخص عن القصة
223	2- الإشارات الموجزت التي وردت في إثر قصة سيدنا موسى - عليه السلام -
230	3- الجوانب المفصلة في قصة موسى - عليه السلام -
283	4- دراسة التكرار في قصة موسى - عليه السلام -

الخاتمة

331	
334	قائمة المصادر و المراجع
334	أولاً : الكتب
348	ثانياً : المجلات
348	ثالثاً : المراجع باللغة الاجنبية